دير القديس أنبا مقار

المعمودية

الأصول الأولى للمسيحية

كتاب القرن العشرين

الأب متى المسكين

دير القديس أنبا مقار

المعمودية

الأصول الأولى للمسيحية

كتاب القرن العشرين

الأب متى المسكين

كتاب: **المعمودية**

الأُصول الأُولى للمسيحية

المؤلف: **الأب متى المسكين**

الطبعة الأُولى: عام ٢٠٠٠

مطبعة دير القديس أنبا مقار - وادي النطرون.

صندوق بريد ٢٧٨٠ القاهرة.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠٠\٩٠١٤

رقم الإيداع الدولي: 977-240-087-I

فهرس

BIBLIOGRAPHY

I- Liturgical and Patristic Texts

Ambrose, St., *The Mysteries,* translated by R. J. Deferrari in "The Fathers of the Church", Vol. 44, Washington, 1963, reprint 1987.
Cyril of Jerusalem, St., *Lectures on the Christian Sacraments*, ed. by F. L. Cross, S.P.C.K., London, 1966.
Dix, Gregory, (ed.) *The Treatise on the Apostolic Tradition of St Hippolytus of Rome*, reissued by H. Chadwick, London, 1968.
Egeria, *Diary of a Pilgrimage*, translated and annotated by G. E. Gingras, ACW 38, Newman Press, 1968.
Finn, Thomas M., (ed.), *Early Christian Baptism and the Catechumenate : Italy, North Africa, and Egypt*, (Message of the Fathers of the Church, 6), Collegeville, Minnesota, 1992.
Hamman, A., (ed.), *Baptism, Ancient Liturgies and Patristic Texts,* New York, 1967.
John Chrysostom, St., *Baptismal Instructions*, translated and annotated by P. W. Harkins, ACW 31, Newman Press, 1963.
Palmer, P., (ed.), *Sacraments and Worship, Liturgy and Doctrinal Development of Baptism, Confirmatiom and the Eucharist,* London, 1957.
Whitaker, E. C., *Documents of the Baptismal Liturgy*, S.P.C.K., London, 1960.

II- Studies

Beasley-Murray, G. R., *Baptism in the New Testament,* London, 1962.
Bernard, J. H., *A Critical and Exegetical Commentary on the Gospel According to St. John,* ICC, Edinburgh, 1928.
Bingham, Joseph, *The Works of the Rev. Joseph Bingham, M. A.*, edited by his lineal descendant R. Bingham, jun., Oxford, 1855, Vol. IV, Book XI, "Of the Rites and Customs Observed in the Administration of Baptism in the Primitive Church".
Crehan, J. H., *Early Christian Baptism and the Creed* London, 1950.
Cullmann, Oscar, *Baptism in the New Testament,* SCM Press, London, 1956.
Dix, G., *The Theology of Confirmation in Relation to Baptism,* Westminster, 1946.
Flemington, W. F., *The New Testament Doctrine of Baptism,* S.P.C.K., 1948.

Gilmore, A., (ed.), *Christian Baptism,* with an Introductory Chapter by E. A. Payne, London, 1960.
Howard, M. A., *Christianity According to St. John,* London, 1943.
Jeremias, Joachim, *The Origins of Infant Baptism,* SCM Press, London, 1963.
Lampe, G. W. H., *The Seal of the Spirit,* 2nd ed. S.P.C.K., 1967.
Rahner, Karl, *The Church and the Sacraments,* 1963, eng. tr., 1974.
Schmemann, A., *Of Water and Spirit,* St. Vladimir Seminary Press, 1974.
Schmemann, A., *Sacraments and Orthodoxy,* Montreal, 1965.
Schnackenburg, R., *Baptism in the Thought of St. Paul,* Herder, New York, 1964.
Schneider, J., *Baptism and Church in the New Testament,* eng. tr., London, 1957.
White, R. E. O., *The Biblical Doctrine of Initiation,* Eerdmans, Grand Rapids, 1960.

III - General Works

Quasten, J., *Patrology,* 3 vol., 1953, reprint by Spectrum, Utrecht,1964-6.
Schaff, Ph., *History of the Christian Church,* 3rd ed.1890, reprint Grand Rapids, 1966.

بسم الآب والابن والروح القدس

الإله الواحد آمين

تقديم الكتاب

بداية كل شيء أقول إنني غير متخصِّص في الطقوس وخاصة طقس المعمودية، و لم أعمِّد أحداً في حياتي. ولكن الذين اطَّلعوا على كتاب الإفخارستيا طالبوني في الحال بكتاب عن المعمودية على مستوى كتاب الإفخارستيا. فجزعت و لم أستجب للفكرة عدة سنوات لاقتناعي أني لست على مستوى طقس المعمودية، واصطلاحاته الأصلية غريبة عليَّ، سواء كانت يونانية أو لاتينية أو حتى العربية، فأنا لست في سن يسمح لي بالدراسة والحفظ.

ولكن لغيرتي الشديدة على تراث الكنيسة الذي اكتَسَبَتْه من المسيح والرسل، واستودعته كنزها، والذي ابتدأ يضمحل بصورة قاسية، لم أتمالك نفسي وصرخت وبكيت أمام الله أن يهبني في شيخوختي هذه المِنَّة التي هي عمل يُحيي تراثها. وباطلاعي صدفة على بعض الدراسات عن المعمودية أدركت في الحال أن هذا هو المفتاح لاسترداد هذا التراث. لأنه فعلاً من المعمودية انبثق كل تراث الكنيسة اللاهوتي والعملي في الحياة. وإن كان يبدو في هذا تهويل، لكنها هي الحقيقة كما سيراها القارئ بنفسه.

فأقدمت على القراءة والاطلاع على عدد كبير من الدراسات الجادة عن المعمودية في الشرق والغرب. لأن الذي يلزم أن يعرفه القارئ أن سر المعمودية كان حتى القرن الرابع واحداً في جميع الكنائس شرقاً وغرباً، كما سيرى القارئ من شهادات الآباء القديسين من الشرق والغرب، الذين تعتمد عليهم كنيستنا، وذاع صيتهم وصاروا آباء الكنيسة الواحدة الوحيدة المقدسة الجامعة الرسولية في كل العالم حتى القرن الرابع. وقد درستُ وجمعتُ تعاليمهم جميعاً من نصوصها الأصلية بأقلامهم، كما استعنت بكتب كثيرة عن المعمودية عبارة عن دراسات كلها متشابهة بقدر كبير لأنها قائمة على تعاليم الآباء القديسين الأوائل المعترف بهم في كل العالم. واستطعت أن أدرس وأقوم بالتأليف بآن واحد، لأن الموضوع ـ كما سبق وقلت ـ غريب عني ولا أملك مقوِّماته، فكان اعتمادي على كتب الآخرين هو دعامة هذا البحث الذي أقدِّمه للقارئ.

لكن لا أخفي عليك، يا قارئي العزيز، أني كنت أدرس تراث الآباء الرسل والآباء الرسوليين والأقدمين وقلبي يتهلّل في داخلي. فكأني على شاطئ الفردوس أرى وأستمتع بما غرسه الأوّلون الملهمون الأماجد من بدائع الأصول الأُولى لمفهوم المسيحية، وكيف شبَّت وتربَّت الكنيسة على المعاني الروحية التي تسلب الروح والقلب والوجدان. بل والأعجب، كيف كانت تسقيها للهواة الداخلين فيها وهم وَلْهَانُون يودُّون أن يعبروا على الحواجز التي وُضِعَتْ أمامهم بحكمة حتى يتمِّموا البرّ ويتمعَّنوا الكلمة ويتذوَّقوا كم أن الرب صالح ووديع!

وأصارحك القول، أني كنت أسير بين هذه الجنّات والفراديس وكأنها غروسي الخاصة الموروثة، وأني أعرفها وأعرفهم كأقاربي وبني عمومتي. فالقبطي، يا قارئي اللبيب، يقرأ التراث والميراث حتى وإلى أرفع اللاهوتيات، كصاحب لها جميعاً، أو على أقل تقدير ابن صاحب أو قريب. فالعبادة عند القبط هي حياة، واللاهوت فيها تسليم حياة. أمَّا الأسرار فيها فهي كلمات اصطنعتها لتُعبِّر بها عن خصائص موروثاتها لكي لا تضيع بين أحاديث الصبية.

فإليك أنا اليوم أقدِّم أشهى مائدة لذوي المذاق الحسن على أصول تراثنا، صفحةً من أمجد صفحات التاريخ الليتورجي السرائري، حيًّا في ذاته وينبض بالحياة. ولكن كباقي تراثنا وميراثنا، فهو أثر حي لأمجاد ذوت وانمحت. فهل من يد ترفع معي هذا التراث لتسقيه لبنيه أو بني صانعيه حتى يفيقوا من رقاد ويقوموا ويستقيموا ليعيشوا في النور؟

لذلك أصبح لزاماً لمن يدرس هذا السر الإلهي العظيم أن يعتبر نفسه نقطة انطلاق لإعادة مجد التراث واللاهوت الكنسي بعلمه وسلوكه.

والحاجة التي توجب هذه المعرفة وهذا السلوك تضعنا في مأزق، فإمَّا حياة أو موت. وواضح أننا نتخبَّط هذه الأيام في الحياة بلا فلسفة ولا نظرة ثابتة، ودوافعنا هوجاء، وقراراتنا غير حكيمة، سواء كنّا أفراداً أو عائلة أو مجتمعاً، مع أن آباءنا كانوا سديدي الفكر ثابتي الإيمان، لا تؤثِّر فيهم التهديدات حتى وإلى الموت، لأن رجاءهم كان في السماء، والحياة الأبدية حيَّة في عقولهم وضمائرهم وعلى لسانهم مهما تزعزعت الأمور من حولهم. والسرّ في ذلك هو ارتباطهم بالكنيسة والتراث والمثل العليا التي تلقَّنوها في الكنيسة، فنشأوا يدركون معنى وقيمة الحياة والشهادة، ابناً عن أب عن جدّ.

إذن نحن الآن في أشد الحاجة إلى دراسة جادة لأصول الإيمان التي تُبرزها تعاليم المعمودية وعلى

أعلى مفهوماتها اللاهوتية العملية الـتي يقدِّمها لنـا بولس الرسـول. فنحـن الأقبـاط لازلنـا بالنسـبة لمستوى الروح في الكنائس الأخرى نُحسب أننا أتقياء غالبون العالم، لأن ميراثنـا لا يـزال ينبـض في أعماقنا ويحتاج أن يخرج إلى الوجود. وماضينـا الروحـي واللاهوتـي هـو القـوة الـتي تزكّـي نهضتنـا الروحية التي ندعو إليها. هذا الماضي بحد ذاته هو القاعدة الجـاهزة الـتي تمدّنـا بالمعرفـة الأرثوذكسـية وفلسفتها في الحياة.

ودراسة المعمودية هي دراسة خبرة الأوائل جاهزة بفلسـفة المـوت والقيامـة مـع المسـيح وتسـليم الشركة في المسيح والحياة لله، حياة جديدة بالروح. اسمع قمة خـبرة القديس يوحنـا الرسـول يبشّـر شعبه: «الحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهِرتْ لنـا. الـذي رأينـاه وسمعنـاه نخبركم بـه، لكـي يكون لكم أيضاً شركةٌ معنا. وأمَّا شركتنا نحن فهـي مـع الآب ومـع ابنـه يسـوع المسـيح. ونكتـب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً» (١يو ١: ٢-٤). انظر أيها القارئ السعيد كيف أن الشركة مع المسيح هي خبرة ورؤية وفرح.

هذا هو السر في تقديم دراستنا هذه عن المعمودية، حتى تتجدَّد خبرة الكنيسة وتتحقَّق دعوة هذا الرسول الصالح القديس.

الأب متى المسكين

أهمية المعمودية وعظم قيمتها

إن الحاجة الملحّة والعظمى للمعمودية هي كونها أساساً للخلاص مع الإيمان:

+ «مَنْ آمن واعتمد خلص، ومَنْ لم يؤمن يُدن.» (مر ١٦:١٦)

فبالتالي تكون أهمية المعمودية أن مَنْ لا يعتمد يُدان، بمعنى يبقى تحت غضب الله.

فالمعمودية حاجة عظمى للخلاص، فأينما وُجِدَ إنجيل البشارة وُجِدَت المعمودية! والمعنى الأساسي للمعمودية والقصد الأساسي منها هو تمجيد الله، إذ بالمعمودية تُبنى الكنيسة، كنيسة المسيح وجسده. والدفاع عن المعمودية هو أنها بسلطان الله.

أمّا قوة المعمودية واقتدارها وفعلها الخاص فيقولها ق. بولس هكذا: «ولكن حين ظهر لطف مخلّصنا الله وإحسانه لا بأعمال في برٍّ عملناها نحن، بل **بمقتضى رحمته خلّصنا بغُسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس**»[1] (١تي ٣:٤و٥). وهي أيضاً لمغفرة الخطايا.

فالمعمودية المقدَّمة من الكنيسة هي علّة وسبب التجديد، إذ ينال منها الإنسان غفران الخطايا والتجديد واستقبال الروح القدس، بل والإيمان الذي به تنسكب النعمة عليه. وهكذا يخلُص ويتقدَّس، وهذا هو جوهر الميلاد الثاني لدخول العهد الجديد، عهد نعمة الله الذي به يلتحم الإنسان بالكنيسة بل وبجسد المسيح.

فالمعمودية هي الشرارة السمائية الحية التي تمحق الجسد العتيق وتنير إنسان المسيحية الجديد، وهي بذرة الفداء التي تبلغ بالإنسان الجديد إلى ملء المسيح.

فالمعمودية تمثّل **ختم الإيمان، وعلامة الصليب** كقوة الفداء.

والمعمودية هي فعل "الكلمة" وعمل المسيح لتكميل المعرفة والتعليم الذي يحدث بدم المسيح والروح القدس، اللذان يطهِّراننا من الخطية وكل إثم. فجرن المعمودية هو جرن الكلمة والروح القدس لهذا فهو يغفر الخطايا ويقدِّس. فإن كانت المعمودية قائمة على الفداء والخلاص، فهذا بسبب

---

(١) هذه مكتسبات المعمودية رسمياً.

عمل المسيح، وكلمته فيها أصل الفداء وقوته ـ هذا هو طول المعمودية وعرضها كفعل من السماء يتقبَّله الإنسان على الأرض، هذا هو اتساعها المهيب يجمع ما في السماء مع ما في الأرض. فالمعمودية خبرة سماوية موهوبة للإنسان. وإن كان أساس المعمودية هو كلمة المسيح وفعله فهي هبة الخلاص بلا شك حيث يُستعلن بها عهد النعمة وعملها الذي نحن فيه مقيمون، والتي تحمل الإنسان وتحيط به. هكذا تُفهم المعمودية وعلى أساس ذلك تُمارس.

وكما يقول ق. بطرس إن المعمودية ليست لإزالة وسخ الجسد بل "**سؤال**"(٢) ضمير صالح عن الله (١بط ٣: ٢١). ويقول المسيح للمعمَّد إنه معه ومن أحله مات وقام، والمعنى بديع أيضاً أن بالمعمودية يختم الرب يسوع على رسالته التي قوامها الموت والقيامة، وهذا هو نفس ختم المعمودية!! فالمعمودية بذلك هي ختم فدائنا وخلاصنا ـ فإذا وعينا ذلك تكون المعمودية غفران خطايا يؤدِّي إلى الخلاص والفداء، فالمعمودية بكلمة المسيح وفعله تخلُّص وتقدُّس وتطهُّر بالروح القدس الذي يخلق الإنسان الجديد.

والمعروف أن المعمودية تعطي استنارة كما يقول الشهيد يوستين، أي تشع نوراً للمعرفة. والإنجيل يقول إن المصباح لا ينير لنفسه بل ينير كل مَنْ في البيت (مت ٥: ١٥)، وعليه يقول المسيح: «فليُضئ نوركم هكذا قدَّام الناس» بمعنى أن الذين استناروا ليس لأنفسهم بل لبشارة الإنجيل لكل العالم، والقصد من استنارتهم أن «يُمجِّدوا أباكم الذي في السموات» (مت ٥: ١٦). إذن، فمصباح الله هو في هؤلاء المعمَّدين الذين استناروا.

هكذا المعمودية إن كانت تخدم الاستنارة، فالاستنارة هي مجد الله "الذُكصا العظمى"، وبالتالي فالمعمَّد مصباح يخدم مجد الله. وبهذا فالكنيسة وهي جماعة معمَّدين تُبنى لمجد الله والمسيح، على أساس أن لا الكنيسة ولا الكاهن هو الذي يعمِّد، بل هو النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتٍ إلى العالم.

والمسيح جاء لينير العالم وهو بذلك يخدم الذكصا العظمى التي له. وبهذا نفهم يقيناً أن المعمودية ضرورة مطلقة للخلاص كقصد المسيح وعمله. فإذا قلنا إن الله هو إله الحياة، فكونه موجود وعامل في مياه المعمودية، هذا يحتِّم حقيقة أن ماء المعمودية هو ماء الحياة الذي يطرد الموت ليعطي عدم الموت، أي الحياة الدائمة. فقوة المعمودية تعتمد على المسيح العامل الأساسي فيها، هذا يوجِّه نظرنا إلى أن مياه المعمودية بحد ذاتها ليس لها قوة في ذاتها، أمَّا الكنيسة فعملها أن تنطق بالكلمة على مياه

(٢) انظر معنى كلمة "سؤال" صفحة ٩٧ من الكتاب.

المعمودية وبها يكمل التعميد. وترتليان يشترك مع ق. أمبروسيوس في القول بأن فوق مياه المعمودية يرف الروح القدس ـ روح الله ـ كما فعل في بدء الخليقة. هذا الروح، روح الله، هو العامل في اتحاد المعمَّد بالمسيح كعضو في الجسد، وهكذا يصبح تابعاً للمسيح قابلاً أن يعمل عمل المسيح، كما أن الروح هو العامل في الموت والقيامة المعطى للمعمَّد شبه المسيح خالقه. وهكذا يكون العماد هو بالروح القدس الذي يعطي المعمودية سر التجديد والميلاد الثاني بفعل قوة الله كما يقول ق. غريغوريوس النيسي (*Or. cat.* 33). وهكذا تبدو المعمودية بعمل المسيح والروح القدس أساس النقلة إلى الدهر الآتي أي من الموت إلى الحياة الأبدية.

وعليه فالمعمودية تضع المعمَّد مرَّة وإلى الأبد داخل نطاق الرجاء، واضعاً الموت خلف ظهره والحياة الأبدية أمامه. وعليه فالاستنارة التي وهبتها له المعمودية سوف تجعله يضيء لمجد الله حتى في الدهر الآتي.

ففي المعمودية إذ ينتقل المعمَّد من الموت إلى الحياة ومن الظلمة إلى النور، ويتأكَّد أنه قد مات بموت المسيح وقام بقيامته، فإنه وهكذا يقتنع بذلك بالحقيقة الإلهية، وهكذا ما كان قبل العماد بمجرَّد وعد، يصير أمامه وفيه حقيقة حاضرة كقول القديس غريغوريوس النيسي (*Or. Cat.* 33). أمَّا الذي يقوله ق. أمبروسيوس فهو جميل حقًّا كحقائق قد صارت:

“Tota innocentia, tota pietas, tota gratia, tota sanctificatio”

بمعنى أن الإنسان قد حصل في المعمودية على:

[البراءة الكلية، التقوى الكلية، الشكر الكلي، القداسة الكلية.](٣)

ليس هذا عجباً، بل العجب في الذي دُعي اسمه عجيباً.

(3) De Sacram. I, ch. 3, (10); The Fathers of the Church, vol. 44, p. 272; Sources chrétiennes 25 bis, 66; PL 16, 420 B.

الفصل الاول

الجزء النظرى

١ – مقدمة تفسيرية

٢ – شرح المعمودية قيمتها ومعناها

٣ – سر المعمودية وسلطان المسيح

٤ – التسليم في تاريخ الكنيسة

٥ – العلاقة بين تقليد الأسفار المقدّسة وتقليد الكنيسة

٦ – لاهوت المعمودية

٧ – معنى "شبه موته"

٨ – قيام المعمودية على أساس موت المسيح وقيامته

٩ – المعمودية والاتحاد بجسد المسيح

١٠ – المعمودية والإيمان

١١ – معمودية الماء ومعمودية الروح

١٢ – المعمودية أيام الرسل

الموعوظون

الفصل الأول

الجزء النظري

١ – مقدّمة تفسيرية

شرح المعمودية، قيمتها ومعناها:

كانت المعمودية في عصور الكنيسة الأُولى ذات هيبة فائقة ووقار، وكانت لها صلوات تشرح بحد ذاتها قيمة هذا السر في الكنيسة، وتنبِّه أذهان الناس – سواء الذين سيتعمَّدون أو الذين يحتفلون بعمادهم – بأهمية العماد والمعمَّدين في الكنيسة، إذ كانوا يحتفلون بهم احتفالاً كبيراً يلتحق بالاحتفال بأسبوع البصخة المقدَّس وعيد القيامة المجيد. وقد التقطنا صلوات الكنيسة التي كانت تجريها على ماء المعمودية ومسحتها والمعمَّدين، وجعلناها موضوع شرح مطوَّل عن المعمودية. وقد وُضِعت هذه الصلوات حوالي سنة ٣٥٠م في قرية صغيرة خاملة الذكر في شمال الدلتا تُدعى تمويس (وهي حالياً تميّ الأمديد بمركز السنبلاوين بمحافظة الدقهلية)، ولكن كان قد أسعدها النصيب الفاخر بتنصيب أحد الأساقفة الأجلاء الذين أضاءوا تاريخ مصر الليتورجي وهو القديس سيرابيون المدعو بالمدرسي لغزارة علمه، وهو مؤلِّف قداس سيرابيون المشهور، وهو الذي وضع صلوات المعمودية والإفخارستيا للكنيسة آنئذ، وهو صديق القديس أثناسيوس الحميم جداً ومن سن عمره تقريباً. وكان وهو راهب صديق القديس أنطونيوس الناسك المعروف وزميله في الرهبنة، وقد وهبه ق. أنطونيوس عباءته (جلد خروف) الخاصة، والثانية أهداها للقديس أثناسيوس. وقد اختاره ق. أثناسيوس لإرسالية هامة للإمبراطور قسطنطيوس. وسيرابيون قديس كنسي تُعيِّد له الكنيسة في يوم ٢١ مارس من كل سنة.

وطبعاً ونحن نروي ما كانت عليه المعمودية بمستواها الفاخر جداً في سنة ٣٥٠م، يأخذنا الحزن والأسى على ما صارت إليه في أيامنا – ولكن قصدنا من ذلك أن نوقظ في إحساس القارئ الشعور بضرورة عودة الكنيسة إلى تراثها المجيد ومستوى إدراكها العالي لطقوسها وأسرارها وعلمها ولاهوتها – كدراسة بحد ذاتها خلواً من تعميد الذي سبق ونلناه في طفولتنا.

ويظهر من هذا الطقس علاقة المعمودية بالاحتفال بالبصخة المقدَّسة، وهي الأسبوع الأخير بعد الصوم وقبل الاحتفال بعيد القيامة، الأمر الذي كان يهلِّل له الشعب جميعه بفرح وتحية وزفّة كبرى

لا تزال بقاياها موجودة دون أن يُعرف سببها. حتى أن الشعب كان حينما تبدأ الكنيسة احتفالها بطقس المعمودية السنوي، كان يتبادر إلى إحساسه قرب البصخة المقدَّسة وعيد القيامة لارتباطهما الشديد معاً كما سيرى القارئ.

بل وسيرى القارئ بلا مبالغة أن الكنيسة ذاتها باحتفالها السنوي بطقس سر العماد، تتعرَّف على نفسها وقيمتها كأُم تلد بنينَ جدداً كل سنة، تستقبلهم بالألحان الخاصة والطقوس الخاصة مع شرحها للمعمدين بواسطة الأسقف نفسه. فكان طقس المعمودية هو إحياء لليتورجية القيامة وطقس الكنيسة كأُم، حتى أن غياب طقس المعمودية الآن من الكنيسة باقتصارها على عماد الأطفال أعطاها إحساس العقم وسلبها فرحتها الكبرى السنوية.

تقديس ماء المعمودية:

وأول خطوات طقس المعمودية هو تقديس الماء: فكان الأسقف يقف أمام جرن المعمودية لابساً ثياب التعميد البيضاء الخاصة ويقول:

الصلاة: صلاة الأسقف سيرابيون لمدينة تمويس (تمي الأمديد):(١)

+ [يا ملك ورب كل شيء صانع المسكونة، الذي أعطى الخلاص مجاناً لكل الطبيعة المخلوقة بواسطة نزول ابنك الوحيد يسوع المسيح، أنت الذي فديت الخليقة التي خلقتَ بمجيء الكلمة ــ الآن ومن السماء انظر إلى هذه المياه واملأها بالروح القدس، ليت كلمتك الفائق يأتي فيها ويحوّل طاقتها ويجعلها ولودة بملئها بنعمتك، لكي لا يكون السر الذي نقيمه باطلاً في هؤلاء الذين سيولدون منه ثانية، بل ليتك تملأ كل هؤلاء الذين ينزلون ويعتمدون بالنعمة الإلهية. أيها المحسن المحبوب، أبقِ على صنعة يديك، وخلّص المخلوق الذي صنعته يمينك. وكل هؤلاء الذين يولدون ثانية غيِّر شكلهم إلى شكلك الإلهي غير المنطوق به، حتى أنهم بعد أن يتشكّلوا بك ويولدوا ثانية يقبلوا الخلاص ويُحسبوا أهلاً لملكوتك. وكما أن ابنك الوحيد الكلمة لما نزل في مياه الأُردن جعلها مياهاً مقدَّسة، هكذا أيضاً الآن، ليته ينزل على هؤلاء ويقدِّسهم ويجعلهم روحانيين إلى النهاية. حتى أن الذين يعتمدون لا يكونون بعد لحماً ودماً ولكن روحانيين قادرين أن يعبدوك أنت أيها الآب غير المخلوق بابنك يسوع وفي الروح القدس، الذي به لك المجد والقوة الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين].

وكون المعمودية تبدأ بتقديس الماء فهذا له عمق روحي ولاهوتي سنعرضه حالاً. ولكن وللحزن

(1) E.C. Whitaker, *Documents of the Baptismal Liturgy*, p. 74.

نجد أن بعض الكنائس لعدم فهمها لقيمة وأهمية تقديس الماء ومعناه اللاهوتي، استثقلوا الطقس فوجدوا أنه من العبث تضييع الوقت بالنسبة لهم وللشعب، فلجأوا إلى الاختصار المُخلّ الذي ضيَّع معنى الطقس بل وقوَّته وقيمته ولاهوته بآن واحد - فاكتفوا بقليل من الماء السابق تقديسه ووضعوه على الماء الجديد بلا صلاة إرضاء لأنفسهم وللشعب الذي يرغب في الاختصار، بل ووصل الأمر في بعض الكنائس أنهم حذفوا جرن المعمودية بكامله لاستثقالهم إجراء هذا الطقس، فبقيت الكنيسة بلا جرن معمودية كإمرأة استؤصل رحمها! هذا نتيجة الجهل بقداسة هذا السر وأهميته وقيمته، وبسبب انقطاع التسليم من الكنيسة الأُولى الصاحية، فاختزلوا العماد حتى صار في عشر دقائق يُصنع الإنسان مسيحياً وعضواً في جسد المسيح ووعاءً مقدَّساً لحمْل الاسم الرهيب وللروح القدس وللبس المسيح! فكل المطلوب هو استخراج شهادة عماد. فلا عجب إذن إن كان قد انحط الطقس واستهزئ به في أعين الناس. ولكن ليس الطقس فقط الذي استُهزئ به بل والكنيسة التي فقدت قيمتها ولزومها وأسرارها غير المفهومة. وضاع من الإنسان المسيحي معنى كلمة "الإنسان الجديد" و"الخلقة الجديدة" و"الحياة الجديدة" أو"جِدَّة الحياة". وصارت كلمات الوعظ غير مفهومة وثقيلة.

والذي ضاع على الكاهن أن يقوله للشعب أن تقديس ماء المعمودية هو بعينه كتقديس الخبز والخمر ليتحوَّلا إلى طعام الحق الروحي الذي يغذِّي الروح لا الجسد. هكذا ماء المعمودية، فبالصلاة وهي نفس صلاة الإفخارستيا أي الشكر للتقديس، يتحوَّل الماء عن طبيعته الميتة إلى طبيعة حيَّة والدة تهب الحياة الروحية الجديدة غير المنظورة. وهذه هي أول عملية تقديس تقوم بها الكنيسة بسلطان المسيح الذي اعتمد في ماء الأُردن ليحوِّله إلى ماء لحياة جديدة «هكذا يليق بنا أن نكمِّل كل بر» (مت ٣: ١٥). هذا تبدأ به الكنيسة ليصبح فيها أُول عمل سرِّي لاهوتي غير منظور، وبالتالي يكون بداية بديعة لليتورجية العماد في الكنيسة.

والماء: هو من أقدم الرموز الدينية المسئولة عن الخلق الأول، حينما كان قبل كل خلقة يرف الروح على وجه المياه في سفر التكوين في الأصحاح الأول. وهكذا فُهم أن الماء والروح مصدرٌ للحياة.

ولكن عاد نفس الماء ليرمز إلى الموت في قصة نوح والفلك، حيث اللجج التي أودت بحياة كل البشر وخلَّص ثمانية أنفس في الفلك، وهم عائلة نوح الذي يقول عنه ق. بطرس: «الذي مِثالُهُ يُخلِّصُنَا نحن الآن، أي المعموديةُ، لا إزالةُ وسخِ الجسدِ، بل سؤالُ ضميرٍ صالحٍ عن الله، بقيامة يسوع المسيح.» (١ بط ٣: ٢١)

وكذلك كانت لجج الماء وأعماقه تشير إلى سكنى الأرواح الشريرة وتهديد الموت الذي ملأ سفر المزامير. وكان الماء هو الكيان غير المفهوم أو غير المنضبط في أركان عالم الظلمة. وكما كان الماء مبدأ الحياة فإنه مهبط الموت والهلاك، هذه كانت صورة الماء في العهد القديم ـ كما كان أيضاً عنصر تطهير. لذلك اختاره المسيح ليكون أصلاً ومبدأً لغسل الخطايا والميلاد الجديد، وذلك في حوار المسيح مع نيقوديموس، ولكن ليس من طبيعة الماء ولكن بعد تقديسه وحلول الروح فيه «يولد من الماء والروح» (يو ٣:٥). فبالروح القدس والماء المتحوِّل عن طبيعته تُوهب الحياة الجديدة، وهذا هو كشف أو إظهار طبيعة الماء الجديدة بالصلاة والروح القدس.

فكما حُسب الماء والروح الذي كان يرف عليه مبدأ الخليقة الأُولى المادية، كذلك حُسب أيضاً الماء نفسه والروح القدس ـ وقد نزله بالصلاة والتقديس ـ ليكون مبدأ الخليقة الثانية الروحية في العالم الجديد الذي أحبَّه الله وبذل ابنه من أجل خلاصه. فأصبح ماء المعمودية بعد تقديسه يعكس صورة الله بالخلق الجديد الروحي المنبثق منه.

فانظر الآن يا قارئي العزيز موقف الكاهن وهو واقف أمام جرن المعمودية يُقدِّس الماء، ليجعل منه رحماً إلهياً سماوياً لخلقة جديدة روحية بشبه خالقها في المجد والقداسة، ولا تستكثر ذلك، بل اذكر نزول المسيح في الأُردن ليحوِّل ماءه إلى مبدأ المعمودية الجديدة بالروح والماء! الماء هنا صار أكثر من ماء! لقد أُظهرت طبيعة جديدة لماء المعمودية، فقد صيَّره المسيح قاعدة للخلق الجديد: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأُمم وعمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس.» (مت ٢٨:١٩)

فالآن تأمَّل معي ما صار إليه الماء وما صار منه وفيه: مبدأ الخلق الأول المادي ومبدأ الغضب الإلهي والموت الجماعي، أي مبدأ الحياة والموت. على هذه الصورة استخدمته الكنيسة في سر المعمودية إذ جعلته بواسطة دفن المعمَّد تحت سطح الماء ثلاث مرَّات مثالاً لموت المسيح والدفن في القبر ثلاثة أيام ـ بمعنى توثيق الإيمان الذي آمن به المعمَّد ـ ولكن هنا أصبح تمثيل الإيمان عملياً يشير إلى مشاركة المسيح عملياً في موته. ثمَّ بقيامته من تحت الماء يقوم المُعمَّد وقد شكَّله الروح القدس على صورة قيامة المسيح من القبر لحياة جديدة، وأيضاً ليُمثِّل حالة شركة أيضاً في قيامته ـ وهكذا أصبح الماء وسيط موت وقيامة مع المسيح. والذي يحوِّل هذا الفعل إلى حقيقة روحية مطابقة للحقيقة الإيمانية هو الروح القدس، الذي إحدى وظائفه كقول المسيح أن «يأخذ مما لي **ويستعلنه** لكم» (يو ١٦:١٤) (ترجمة "ويخبركم" لا توفي المعنى). أي أن أعمال المسيح غير المدركة يجعلها لنا وفينا مدركة.

وهكذا نرى أن صلاة تقديس الماء قد أعطته المحتوى والهدف، أمَّا المحتوى فهو إعطاء الحياة الجديدة بالروح المحيي، أمَّا الهدف فالمعمودية من أول أهدافها المعلنة هي نعمة الدخول إلى ملكوت الله كهدف الحياة الجديدة المباشر. لذلك نجد أن مَنْ ينال الانغمار تحت الماء لثلاث مرَّات مع الاعتراف بالثالوث يبدأ في الحال يشتاق إلى هذا الهدف الذي تشكَّل في أعماقه ويسعى إليه، وتبتدئ الكنيسة تُعلِّمه كيف يبلغه بالنعمة وبالسلوك الأخلاقي والمحبة وبساطة القلب. فالنعمة المنحدرة من الملكوت على المعمَّد هي التي تُلهب قلبه بحب الملكوت والسعي إليه. كما يسمعها أيضاً من شرح الأسقف في الإنجيل وكهدف لهذا السر المقدَّس. علماً بأن النعمة التي سترافق المعمَّد في طريقه الطويل للعبور الصعب اللذيذ (وقد أتقنت الكنيسة ترتيب طقس المعمودية حتى تكتمل خطواته بالاشتراك ـ أول اشتراك ـ في الإفخارستيا المقدَّسة ليلة عيد القيامة بمفهومها أنها زاد الطريق إلى الملكوت) والانتقال السرِّي غير المنظور من هذا العالم الزائل إلى عالم الروح ومسرَّات الدهر الآتي، وتمدُّه المعمودية بالاستنارة ليدرك حقيقة الزائل وحقيقة الباقي.

بهذا نكون قد أدركنا قيمة تقديس الماء في المعمودية، الذي يهيئ الماء لأن يكون مع الروح القدس واسطة للميلاد الجديد حسب وصف المسيح لنيقوديموس. وبمعنى روحي عميق يحرِّر مادة الماء من طبيعتها الأُولى الميتة والمميتة الموافقة لسكنى الأرواح النجسة، إلى طبيعة جديدة حيَّة محيية بالروح الذي فيها، صالحة لسُكنى الروح القدس لميلاد الإنسان الجديد. وبذلك يتهيَّأ الماء للحضور الإلهي، وكأن الماء المتقدِّس في المعمودية يصير المبتدأ لتجلِّي المادة في العالم، وكأن العالم يبدأ أن يُخلق جديداً بخلقة الإنسان الجديد.

وإن كنَّا سنرث من الولادة الجديدة من الماء والروح ميراث الحياة الجديدة فهو حتماً ميراث النور: «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس» (يو ١: ٤)، فمن الاستنارة في المعمودية إلى حياة النور في الإفخارستيا.

انظر أيها القارئ العزيز أهمية معرفة هذا عن المعمودية، فإن أهملناه ألا نكون غير أمناء فيما أخذنا وفيما ورثناه، وفيما نحياه؟!

صلاة من أجل المعمَّدين:

ـ يقول الأسقف سيرابيون(٢):

+ [نحن نتوسَّل إليك يا إله الحق من أجل عبدك هذا ـ الذي يتعمَّد ـ ونصلِّي حتى تحسبه مستحقاً للسر الإلهي، من أجل الولادة الثانية الفائقة الوصف، لأن لك يا محب البشر نقدِّم هذا ونكرِّسه لك. امنحه أن يكون شريكاً لهذا الميلاد الجديد السماوي إلى النهاية، حتى لا يُساق في ما بعد بأي أمر شرير أو رديء. ولكن ليخدمك باستمرار ويحفظ وصاياك. وأيضاً ليت ابنك الوحيد، الكلمة، يقوده، لأن به لك المجد والقوة في الروح القدس الآن وكل أوان وإلى كل الدهور آمين].

+ [يا محب البشر مخلِّص كل الذين لجأوا إليك للإغاثة، كن منعماً على عبدك هذا، قُده إلى الميلاد الثاني بيمينك، وليت ابنك الوحيد الكلمة، يقوده إلى الاغتسال، واجعل ميلاده الثاني مكرَّماً بموافقتك، ولا تجعله فارغاً من نعمتك، وليت كلمتك المقدَّسة ترافقه وروحك القدوس يكون معه طارداً بعيداً عنه كل تجربة، لأنه بابنك الوحيد يسوع المسيح لك المجد والقوة الآن وكل الدهور آمين].

+ [يا الله إله الحق صانع كل شيء رب كل خليقة، بارك عبدك هذا ببركتك، واجعله طاهراً في الميلاد الجديد، واجعل له أُلفة مع قوَّاتك الملائكية، حتى لا يُدعى في ما بعد جسدانياً بل روحانياً باشتراكه في عطيتك الإلهية النافعة. ليته يُحفظ إلى النهاية لك، لك أنت يا صانع المسكونة بابنك الوحيد يسوع المسيح، الذي به لك المجد والقوة الآن وكل الدهور آمين].

انظر وتأمَّل هذه الصلوات، وتعجَّب من قول بعض الناس الجهلاء الذين يقولون إن المعمودية نوع من السحر يقترفه الكهنة لذلك أسموه سرًّا. والكنيسة مسئولة عن هذا لأنها لا تُعلِّم الشعب عن ماذا يُجرى في معموديتها من البدء. فهذه صلوات منذ ما قبل سنة ٣٥٠م. إنه الطقس السائد في كل كنيسة وكل أسقف يُسجِّل ما وهبه الله. فضياع هذا التراث والميراث خسارة عظيمة على الكنيسة وعلى الشعب جميعاً. وصلوات تقديس الماء والمعمَّد هذه، وتكريسهما، لحساب العالم الجديد والرعية السماوية للراعي الصالح، يقف فيها الأسقف نائباً عن العالم والخليقة العتيقة، يُصلِّي ويتوسَّل من أجل فداء المادة والإنسان معاً اللذان أسقطهما آدم بخطيته وورَّث طبيعته الساقطة لكل إنسان ولكل العالم. يقف الأسقف يجاهد مع الله باسم ابنه الوحيد المحبوب من أجل خلقة جديدة، هو الذي أخرجها إلى الوجود بمعموديته في الأُردن أول ما استُعلنت، وعلى الصليب والقبر والقيامة

(2) Ibid., pp. 74,75.

آخر ما استُعلنت، كعناصر جديدة دخلت العالم لتجدِّده وتخلقه جديداً في اسمه واسم أبيه الصالح والروح القدس. والأسقف حينما يقف يقدِّم الصلوات والتشكرات لله خالق الجميع بيسوع المسيح ابنه، يقف بنفسه كخليقة حرَّة، حرَّره المسيح الحق بالحق، فصار حرًّا يتشفَّع عن ما ومن لا يزال عبداً مسخَّراً للعالم والشيطان. لتصير المادة ويصير الإنسان حرًّا بالمسيح وفي المسيح، ويصير الماء والإنسان معاً على طبيعة فائقة ذات صلة مباشرة بـا لله في المسيح والروح القدس. وكأنما يُدخلنا الأسقف بصلاته وهو يُقدِّس الماء والإنسان إلى الفردوس، حيث تستعلن الطبائع على أصلها الأزلي يوم خلقها الله في جوهرها الطاهر المقدَّس الخارج من يد الله.

والأسقف يذكر في صلاته كل أعمال الله الخلاصية، مِن تجسُّد وفداء وقيامة وحياة جديدة أبدية مخلوقة بنفخته من الماء والروح، وتوسُّله هذا ذو فاعلية محبوبة في عين الله والمسيح، لأنه اعتراف بالفضل والشكر وذكر مراحم ونعم استعاد بها الله طبيعة الإنسان التي فسدت وانحطَّت وقاومت الله وأهانت الاسم وجدَّفت عليه. وها هو الأسقف يذكر كيف أعلن الله رحمته واستعاد ملكوته بعد أن رفض الإنسان الحياة الأُولى والمكرَّمة جدًّا مع الله، وانحدر بها إلى الخطية فأوقع نفسه والخليقة معه عن اضطرار تحت عبودية الشيطان للتخريب والهلاك، وكيف استعاد الله الطبائع الأُولى إن في الإنسان أو في الخليقة، الأمر الذي صار يوم أن تجسَّد الابن الوحيد مرسَلاً من الله الآب، وفدى الإنسان بصليبه وذبيحة نفسه وأقامه معه لحياة جديدة أبدية، يحياها بحضرة الآب والابن وبنعمة الروح القدس. والماء بعد أن كان للموت والهلاك وعبودية الشيطان استُعلن بطبيعته الجديدة أول ما استُعلن في الأُردن بمسحة الروح القدس، ثمَّ من الجنب المثقوب على الصليب والجسد قد مات ليُعلن انبثاق الحياة في الماء بعد موت. ثمَّ نزول الروح القدس على الماء في جرن المعمودية بصلاة استدعاء الأسقف ليمسحه الله بالقوة ليأخذ الإنسان شركته الجديدة مع الخالق. ويرشم الأسقف الماء بالزيت بعلامة الصليب ليكون مرعباً للأرواح الشريرة، ومن هنا جاء اسم الاكسورسزم في الطقس، أي صلاة إخراج الأرواح النجسة من المادة والإنسان، بعد أن كانت المادة وخاصة الماء مأوى للأرواح الشريرة، وكان الإنسان نهباً هو الآخر للأرواح الشريرة. والآن بفداء الإنسان فُديت المادة بعربون الروح القدس إعداداً لفداءٍ كامل في يوم الفداء.

وبعد أن تقدَّس الماء برسم الصليب ومسحة الزيت صار رمزاً لمجد الله وحضوره وبدء الشركة معه كما حقَّقها المسيح بتجسُّده وصليبه وقيامته، وكما حقَّقها المسيح في حضوره في خبز الإفخارستيا وكأس الخمر، وصار فيها وبها شركة حقيقية في المسيح والله: «مَنْ يأكل جسدي

ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه» (يو ٦:٥٦). وكما كان نزول الروح القدس على المسيح إيذاناً بافتتاح زمن الخلاص في شخص المسيح، كان نزول الروح القدس على التلاميذ والماء في معمودية يوم الخمسين إيذاناً بافتتاح زمن الخلاص في أشخاص الرسل باسم المسيح، كما هو الآن في استدعاء الأسقف للروح القدس على الماء في جرن المعمودية باسم المسيح لبدء زمن الخلاص لشخص المعمَّد. والشعب كله شهود لهذا، يؤازرون بالصلاة. فكان طقس مسحة الزيت في الماء وفي المعمَّد أقوى ما عبَّرت عنه الكنيسة لعمل الفداء والخلاص الذي أكمله المسيح على الصليب وبالقيامة، الذي كان قد حفظه المعمَّد بتلقين الأسقف عن ظهر قلب وآمن وعلى إيمانه اعتمد فعُمِّد. فكما يأكل الإنسان الخبز والخمر المتحوِّل فيأكل جسداً ويشرب دماً للمسيح، هكذا وبالبدء اعتمد فعُمِّد بماء المعمودية والروح القدس فقبل الشركة والعضوية في جسد المسيح. ولكن هذا وذاك بالسر وليس بالاستعلان، أي على مستوى عمل الروح القدس الخفي غير المنظور. ولهذا كانت المعمودية هي السر الأول في الكنيسة، أمَّا الاستعلان فهو مؤجَّل إلى يوم الفداء هناك في نهاية زمن العالم وكل ما فيه، عندما تفنى الطبيعة المادية وتستعلن حقيقتها في الله!

زيت الاكسورسزم:

بعد تقديس الماء يدهن الماء ويدهن المعمَّد أيضاً بزيت الزيتون الساذج ـ مسحة زيت الاكسورسزم ـ ثمَّ يقول هذه الصلاة:

ـ صلاة سيرابيون أسقف تمي من أجل مسحة الزيت للذين يرغبون أن يعتمدوا(٣):

(دهن الزيت للجسد بأعضائه قبل المعمودية).

+ [يا سيِّدي محب البشر ومحب النفوس (حكمة ١١:٢٦) العطوف وكثير الشفقة الإله الحق. نحن ندعوك تبعاً وطاعة لوصاياك التي لابنك الوحيد القائل: مَنْ غفرتم خطاياه تُغفر له (يو ٢٠:٢٣). ونحن نمسح بمسحة الزيت هذه أولئك المتقدِّمين لهذا الميلاد الجديد الإلهي، متوسِّلين إليك أن يعمل فيهم ربنا يسوع المسيح للشفاء ولقوة تمنحهم العافية، ولكي يستعلن لهم نفسه بمسحة هذا الزيت، ليعافي نفوسهم وأجسادهم وأرواحهم من كل أثر للخطية والأخطاء والانحرافات التي من الشيطان، وبنعمته يوفِّر لهم الغفران حتى يموتوا عن الخطية فيحيوا للبر (١بط ٢:٢٤)، ويُخلقوا من جديد بهذه المسحة ويتطهَّروا بهذا الاغتسال ويتجدَّدوا بالروح القدس (أف ٤:٢٣)، ليكونوا من الآن نائلين النصرة ضد كل قوى المضاد والغش الذي في هذا العالم الذي يطغي عليهم، حتى يرتبطوا ويتحدوا مع الرعية التي لربنا ومخلِّصنا

(3) Ibid., p. 76.

يسوع المسيح، لأن به لك المجد والقوة في الروح القدس إلى جميع دهر الدهور آمين].

الروح القدس والحُلّة البيضاء:

. بعد دهن البدن كله بكل أعضائه بزيت الزيتون، فإن المعمَّد يغطس في الماء ثلاث مرَّات ويقوم ليكتسي الروح القدس لَّما يكتسي الحُلّة البيضاء التي تُدعى عند الآباء بثياب البر والحُلّة المضيئة وحُلّة العُرس الملكي كما يقول ذهبي الفم(٤).

ويقول علماء الليتورجية(٥) إن هذا الطقس من أكثر الطقوس قدماً، وهو يحتل مكانة هامة في شرح طقس المعمودية عند الآباء القدامى – فهو الذي يعطي المعمودية تأثيرها وقوتها وفاعليتها. فالحُلّة البيضاء رمز النقاوة الروحية، فهي «رداء البر» (إش ٦١ :١٠). فالاكتساء بالروح ليس هو رمزاً ولكنه جوهر ليتورجية التعميد، والحُلّة تستعلن البر الأبدي. فحالة الانحلال المسيحي الآن والانقسامات والمحنة الأخلاقية ذلك كله هو بسبب غياب الروح القدس. فالكنيسة الأُولى كانت تعيش في ظل عمل الروح القدس لجمع الأعضاء الواحدة في الكنيسة، والحُلّة البيضاء بمثابة الأفود البيضاء الكتّانية التي كان يلبسها داود للتكلُّم مع الرب واستشارته (٢صم ٦:١٤؛ ١صم ٣٠:٧). فهي تُدعى الحُلّة الملوكية والكهنوتية والنبوية، وهو تحقيق لقول ق. بطرس: «وأمَّا أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكي أُمَّة مقدَّسة شعب اقتناء، لكي تخبروا بفضائل الذي دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب» (١بط ٢:٩). فهنا إشارة واضحة لسرِّ المعمودية. كذلك قال سفر الرؤيا: «وجعلنا ملوكاً وكهنة لله أبيه» (رؤ ١:٦)، كما يُدعى أيضاً ثوب النبوَّة: «وعلى العبيد أيضاً وعلى الإماء أسكب روحي في تلك الأيام» (يؤ ٢:٢٩)، «وعلى عبيدي أيضاً وإمائي أسكب من روحي فيتنبَّأ بنوكم» (أع ٢:١٨). ليس نبوَّة رؤية المستقبل بل استعلان الإنجيل في الحاضر الزمني.

ختم الروح القدس:(٦) σφραγίς

صلاة من أجل المسحة (الميرون) التي يُمسح بها الذين اعتمدوا: (دهن الميرون المقدَّس):

+ [يا إله القوات معين كل نفس تلتجئ إليك تحت يد ابنك الوحيد القوية، ندعوك أن تعمل في هذه المسحة

(4) John Chrysostom, *Baptismal Instructions*, pp. 67,71,102,103, etc ...

(5) *Bible Liturgy*, ch. 2.

(٦) دُعي منذ أيام الرسل بالمسحة (١يو ٢:٢٠) χρῖσμα وختم العهد الحامل لرائحة المسيح الذكية (٢كو ٢:١٥). وهناك صلاة للمعمودية في كتاب "المراسيم الرسولية" تربط مسحة الميرون برائحة المسيح الذكية *Apostolic Constitutions*, VII, 44. والذي دعاه "سر التثبيت" هم اللاتين (وهذا للعلم).

بطاقة إلهية سمائية، بالقوة الإلهية غير المنظورة التي لربنا ومخلّصنا يسوع المسيح، حتى أن الذين اعتمدوا يمسحون بها بعلامة الختم التي للصليب المقدّس الذي لابنك الوحيد، ذلك الصليب الذي يهرب وينهزم أمامه الشيطان و كل قوة مضادة، حتى أن هؤلاء الذين وُلدوا ثانيةً وتجدّدوا بغسل الميلاد الثاني (تي ٣:٥) يصيروا شركاء عطية الروح القدس، مصونين بهذا الختم، راسخين غير متزعزعين (١كو ١٥:٥٨)، غير مصابين ولا مطغي عليهم، خالين من كل عنف أو مكيدة في صدق الإيمان وملء معرفة الحق، منتظرين الرجاء السماوي الموعود به للحياة الأبدية التي لربنا ومخلّصنا يسوع المسيح، الذي به لك المجد والقوة الآن وإلى كل الدهور آمين.](٧)

ويقول بولس الرسول: «ولكن الذي يثبّتنا معكم في المسيح وقد مسحنا هو الله» (٢كو ١:٢١). هذه الآية هي في الحقيقة تعقيب على طقس التثبيت الذي أخذوه في سر المعمودية لّما اعتمدوا بعد أن آمنوا. فبعد دهن الزيت العادي والتغطيس في الماء والخروج من الماء ولبس الحلّة البيضاء، فالمولود جديداً يُمسح بالميرون، وهو جزء هام من سر المعمودية وله قيمة هامة في الإيمان كما رآه بولس الرسول عاليه (٢كو ١: ٢١و٢٢، أف ١:١٣) وعند الآباء الأوائل، وهو يُدعى χρῖσμα أي مسحة (١يو ٢: ٢٠و٢٧). ومنها جاء اسمنا كمسيحيين أي ممسوحين بالروح القدس. فهي نعمة ملازمة للحياة وهي تحقيق لفعل المعمودية. ولكن ليس هناك أي فصل بين المعمودية والحلّة البيضاء ودهن الميرون المقدّس للختم. فإذا كانت المعمودية هي عطية وهبة غفران الخطايا والتجديد الخلقي أي الميلاد الثاني بواسطة فعل الروح القدس، ففي التثبيت تستلم النفس من الداخل **الموهبة الشخصية للروح القدس** للسكنى الدائمة في حياة المؤمن.

لذلك فسرّ التثبيت هو الذي يعطي للمعمودية فاعليتها في الحياة الداخلية للانفتاح على الإيمان المسيحي. والروح القدس هنا له أثر اسخاتولوجي أي له فعله المستقبلي في حياة الإنسان. والتثبيت هو نفسه كان بوضع اليد الرسولية، وهو واضح جدًّا في معمودية أهل السامرة الذين لم يُمنحوا الروح القدس، إلى أن وصل القديسان بطرس ويوحنا ووضعا عليهم الأيادي (الرسولية). والميرون الذي هو مسحة الزيت والعطور الموروثة في الكنيسة من أيام الرسل بل والمسيح (أطياب التكفين) صار هو عوض اليد الرسولية بل يد المسيح! فالتثبيت ملازم للمعمودية، ويُقال إن المعمودية تهب الروح القدس وهذا خطأ، ولكن في الحقيقة هو وضع اليد أي التثبيت. وفلسفة المعمودية تقول إن

(7) Whitaker, *op. cit.*, p. 76.

الموعوظ يُعمَّد بالماء ليُمسح بختم الميرون. كما يُدعى سر التثبيت ـ الذي يهب الروح القدس شخصياً وليس عطية منه ـ بأنه تجديد يوم الخمسين. فالذي نزل على المسيح في الأُردن نزل على التلاميذ يوم الخمسين وهو الآن ينزل على المعمَّدين. فكما أن الروح القدس كائن في المسيح، هكذا يكون كائناً في المسيحي، لأن المسيح يوصي وينبِّه أن الروح القدس «يأخذ مما لي ويستعلنه لكم (يخبركم)» والقول: "يخبركم" ترجمة قاصرة لا توفي المعنى (يو ١٦: ١٤و١٥).

وحينما ينال المعمَّد ختم ميراث الملكوت يشتهي في الحال الملكوت ويتطلَّع إليه بكل قواه، لأن الختم يوصِّله سرًّا بالملكوت، لأن الروح القدس الذي نناله في الختم هو عربون يوم الفداء (أف ٤: ٣٠)، وعربون الميراث المقتنى لمجد الله (أف ١: ١٤). لذلك فهو من الناحية الداخلية يُحسب القوة السريَّة التي تدفعنا للتوبة والعودة السريعة إلى الله والمسيح، وهو ينبوع التقديس فينا، والنعمة التي نحن فيها مقيمون كقول بولس الرسول (رو ٥: ٢)، وهو استعلان الثالوث الذي نحيا في شركته كقول ق. يوحنا في رسالته الأُولى (١يو ١: ٣)، وهذا هو الروح الساكن في هياكلنا (١كو ٦: ١٩) المحسوبة أنها هيكل الله (٢كو ٦: ١٦) غير المصنوع بيد. لذلك يرتاح المسيح فينا ويحيا ويهبنا سلطان ملوكيته وكرامة كهنوته ونعمة بنوَّته، وقد ختمنا المسيح بالروح لنكون ذبائح لحسابه، ذبائح هيكلية معدَّة للذبح على مذبحه الناطق السمائي.

دخول الملكوت والباب المغلق:

وبعد ختم المعمَّدين وهم متسربلين بالحلل البيضاء، والشموع مضاءة في أيديهم، يقودهم الأسقف ومعه الكهنة الذين خدموا المعمودية ـ حيث يقف الشعب كله خارج باب الكنيسة المدعو بالباب الملكي أي الرئيسي وهو مقفل بانتظار وصول زفَّة المعمَّدين اللابسين الحلل البيضاء، ذلك قبل إقامة الإفخارستيا التي للقيامة ـ وكانت مسيرة المعمَّدين هامة لأنها قمة سر المعمودية، وكانت الزفَّة تبدأ من جرن المعمودية في شكل دائرة تدور حول بركة المعمودية وهم يرتِّلون ما قاله ق. بولس في (غل ٣: ٢٧): «لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح». ثمَّ تتجه المسيرة بقيادة الأسقف تجاه باب الكنيسة الملكي المقفل والشعب متجمهر بانتظار زفة المعمَّدين، وبوصولهم يتركونهم هم الذين يفتحون الباب بهتاف الشعب الأنتيفونا التي تنتهي بصرخة "المسيح قام". والشعب الآن في هذه الأيام يسير في الزفة دون أن يعرف معناها، بل ولا تزال بعض الكنائس تقيم صورة باهتة لذلك عند باب الهيكل. وبدخول المعمَّدين يشترك الشعب في زفتهم وهم يدورون داخل الكنيسة في دائرة. ولكن كانت زفَّة المعمَّدين هي الأهم التي تدخل كجزء حي في ليتورجية

عيد القيامة وبالتالي ملكوت الله! باعتبار الكنيسة هي ملكوت الله على الأرض. وروح الزفة أصلاً هو بلوغ لحظة "المسيح قام" الذي يعني شركتهم في قيامة المسيح بعد كل طقوس المعمودية والبصخة المقدَّسة. أمَّا تناول المعمَّدين لأول مرَّة فكان هو التزوُّد بطعام الحق الذي لملكوت الله.

وقد توقَّف الطقس وضاعت معالمه وضاع معهما مفهوم ليتورجية القيامة وزفَّة الشعب والباب المغلق الذي كان يُمثِّل انغلاق باب الملكوت في وجه آدم وبنيه لحظة خروجه من فردوس الله. وكان دخول المعمَّدين لابسين الحلل البيضاء وممسكين بالشموع المضاءة إشارة إلى دخولهم العرس الملكي المعد بالحلل الرسمية للمدعوين، ذلك في ضياء نور العريس. وعند انفتاح باب الكنيسة كانت تبدأ ليتورجية القيامة بقداس العيد. وكما يقول ق. غريغوريوس النيسي عن هذه الليلة المبهجة إنها أكثر بهاءً من النهار بشمسه(٨). وعند تناول الإفخارستيا لأول مرَّة يُحسب هذا نهاية طقس سر المعمودية!

رأينا في هذا الطقس المهيب الدور الأساسي الذي كانت تقوم به المعمودية في ليتورجية عيد القيامة، وقد كان تحديد هذا الموعد التاريخي لإقامة المعمودية هاماً للغاية لأنه واقع في مفهوم "الزمن الجديد" بالنسبة للكنيسة وكل الشعب، الذي من أجله يُقام العيد باحتفاله العالمي في كل أنحاء العالم فيستوعب الشعب معنى العيد كاستعلان لسر الخلقة الجديد. وكان السر يُمارس ليلاً أي من وسط الزمن الميت المظلم ليكون معنى المعمودية واضحاً ومؤثِّراً في الانتقال من الزمن الميت إلى أنوار القيامة، حيث كانت تُضاء الكنيسة من أجل ذلك بأضواء فوق العادة. فكان يُدعى عيد القيامة بعيد الأنوار وفي حقيقته عيد الاستنارة وإعادة انفتاح الطريق الذي كرَّسه المسيح لنا حديثاً حيًّا بالحجاب أي جسده (عب ١٠: ٢٠) وبدم الأقداس للدخول إلى الملكوت وحياة الدهر الآتي! حيث كان يواجه المتعمِّد بإعلان "المسيح قام" الذي هو التفسير المتجدِّد للمعمودية.

والآن ابتعد فكر الشعب نهائياً عمَّا كان يجري في الطقس، والطقس كان جزءًا هاماً مشروحاً لمضمون القيامة وقوتها وما تحمله من المعاني كما رأينا في هذه المقدِّمة التفسيرية.

وهكذا قاست المعمودية وفلسفتها الروحية ومعها الكنيسة أيضاً والشعب من غياب هذا الطقس الذي يحوي مفردات الإيمان وتفسيره عملياً.

ولكن شكراً لله أنه لا تزال الكنيسة تحتفظ في كنوزها بكل ما كان يُجرى في هذا الطقس، ولا

(8) Cited by A. Schmemann, *of Water and the Spirit,* p. 113.

شيء يمنعها بأن تقوم بتدريسه حتى يعيش المعمَّدون ـ الذين اعتمدوا في صغرهم ـ هذه الحقائق والمفهومات. لأن هذا يُحسب أمانة في عنق الكنيسة وأمانة في عنق كل مَنْ تعمَّد!

نستخلص من الإنجيل والآباء توصيفاً للمعمودية كالآتي:

١ ـ هي مثال الفلك ـ تخلّصنا ـ بسؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع المسيح (١بط ٣: ٢١).

٢ ـ هي ختم أو تذكرة شخصية أو شهادة ممنوحة لمواعيد رسمية.

٣ ـ المعمودية لها وجهان: وجه هو النعمة المحسوسة ظاهرياً، ومنافع روحية داخلية.

٤ ـ المعمودية وعد بمغفرة الخطايا (أع ٢٢: ١٦) كما تمَّ لبولس شخصياً. والمعمودية وعد بالميلاد الثاني (يو ٣: ٥) وتجديد الروح القدس (تي ٣: ٥) بالموت عن خطايا سالفة لحياة عتيقة خاطئة وابتداء لحياة جديدة ليس فيها خطية (رو ٦: ١١).

٥ ـ هي تطعيم في المسيح بشركة الاتحاد فيه (غل ٣: ٢٧).

٦ ـ هي اتحاد في المسيح: في موته ودفنه وقيامته (رو ٦: ٣-٦). مع الدخول في علاقة جديدة مع الله: عهد بنوَّة (غل ٣: ٢٦و٢٧). مع عطية الروح القدس (١كو ١٢: ١٣) وعلاقة انتماء للكنيسة (أع ٢: ٤١) مع هبة الخلاص (مر ١٦: ١٦، يو ٣: ٥).

ومن هذه الشواهد الإنجيلية والمثيل لها استطاع اللاهوتيون أن يستخلصوا الآتي:

١ ـ المعمودية هي علامة وختم تطعيمنا في جسد المسيح واتحادنا فيه لمغفرة الخطايا وتجديد الخلقة بالميلاد الثاني ونوال التبني للحياة الأبدية. حتى أن الماء في المعمودية هو صورة تمثّل دم المسيح الذي رفع عنا كل خطايانا وقدَّسنا بالروح القدس في مقابل أعدائنا الشياطين والخطية وفساد طبيعتنا البشرية.

٢ ـ فالمعمودية تمثّل غسل الخطايا بموت وقيامة المسيح.

٣ ـ المعمودية تشير إلى غسل دم المسيح مع استحقاقات موت المسيح عند الآب من أجلنا، من جهة موت الخطية والإنسان العتيق وقيامة حياة جديدة. فكما يغسل الماء الجسد هكذا المسيح بدمه يغسل النفس من الخطايا بالروح القدس، حتى أننا نجد في رفعه للخطايا ليس فقط مسامحة ولكن إخلاءً حقيقياً من الفساد وسطوة الخطية وبداية حياة جديدة علينا أن نحياها.

٤ ـ ولكن بدون إيمان عملي في الأقوال والسلوك تصير المعمودية بدون قوتها، فبدون إيمان لا

يحدث تجديد ولا يخلص أحد.

٥ – المعمودية ختم عهد بين المسيح الذي قدّمه للخطاة في موته وقيامته وبين الخطاة إذ قدّموا حياتهم الماضية وعزمهم على حياة جديدة. فإذا تخلّى الخطاة عن عهدهم داسوا ليس معموديتهم فقط بل وقيمة موت المسيح وقيامته وكأنها ليست لهم. إنها خيانة للمعمودية باسم المسيح وخيانة للإيمان بالمسيح في موته وقيامته.

٦ – المعمودية علامة تبعيتنا للمسيح وشهادة عامة منطوقة بطاعتنا بشروط المعمودية وكل وعود التغيير فيها، وهي فعل انتماء للمسيح يتحقّق بواسطة الشخص في حياته الخاصة والعلنية.

٧ – الفرق بين الواقع والرمز في المعمودية يظهر في علاقتنا بالكنيسة المنظورة وغير المنظورة، أي الكنيسة كمجتمع قديسين في السماء.

٨ – المعمودية عملية خضوع بإحناء الرأس، والمسيح قد أعطى المثال واعتبره تكميلاً لكل برّ. فالمعمودية هي طاعة علنية وشهادة.

٩ ـ التجديد الذي يحدث في المعمودية يشهد له المعمَّد نفسه بتجديد الإيمان والسلوك. فالمعمودية تبدأ حيث يكمُل الإيمان، فإذا كمل الإيمان صحَّ الخلاص وعبَّرت المعمودية عنه.

٢ – سر المعمودية وسلطان المسيح

- من واقع تاريخ الكنيسة والمسيحية نجد أن المعمودية صارت ممارستها الأُولى من اليوم الأول الذي حلَّ فيه الروح القدس "يوم الخمسين" شاهداً لقيامة المسيح. وهكذا سارت المعمودية بدفع الروح القدس وعمله، وتجديده للخلقة الجديدة للبشرية على أساس موت المسيح وقيامته. وهكذا قبلت المسيحية المعمودية دون أي سؤال أو استفسار أو شك، على مدى تاريخ المسيحية كله حتى هذا اليوم.

- وقد قبلها جميع العلماء بلا نقد وبلا تقديم البديل كحقيقة عامة لا تحتاج إلى شرح.

- والحيرة والسؤال الذي يمكن أن يخطر على بال أي إنسان أو عالم، هذا تبنّاه نيقوديموس وقدَّمه للمسيح فأجاب إجابته التي صارت رسماً إلهياً لواقع ومعنى وحتمية المعمودية، كميلاد من فوق وهو نفسه الميلاد من الماء والروح. ولا يمكن أن تبحث في ماهيتها كما لا يمكن أن تبحث في ماهية هبوب الريح من أين وإلى أين.

- أمَّا ما هي أول شروط المعمودية ولوازمها ففسَّرها ق. بطرس في قصة كرنيليوس، حيث لخَّصها في خطابه أمام الكنيسة التي اجتمعت لمساءلته عن معموديته لرجل أُممي فأجاب:

+ «فإن كان الله قد أعطاهم الموهبة كما لنا أيضاً بالسوية مؤمنين بالرب يسوع، فمن أنا، أقادر أن أمنع الله؟ فلمَّا سمعوا ذلك سكتوا. وكانوا يمجِّدون الله قائلين إذاً أعطى الله الأُمم أيضاً التوبة للحياة!» (أع ١١: ١٧و١٨)! هكذا فُهمت المعمودية عند الرسل أول ما فُهمت أنها "للتوبة للحياة".

- وفي قصة كرنيليوس حدث أمر خطير هو حلول الروح القدس قبل العماد، هذا ليس استثناءً كما يقول العلماء، ولكن هو حقيقة إلهية، فقد حدث ذلك ليرغم ق. بطرس على العماد بالماء غير مرتاب، وفي الوقت نفسه يرفع عنه الترفُّع والكبرياء ويرفع عن كل التلاميذ في أُورشليم أنهم كأنهم هم الذين لهم السلطان على العماد فقط، فقد نحَّى الله الإنسان، كل إنسان، عن أن يكون له سلطان التعميد واحتفظ به لنفسه ليطمئن كل معتمد أن الأمر بعماده صادر من

فوق وبيد المسيح، لتكون ولادته من فوق صدقاً وحقًّا ومن الله، ويكون للإيمان النصيب الأوفر في الاستحقاق للعماد!

- **الإيمان** بالمسيح بموته وقيامته **في المعمودية** هو السر الذي يقوم عليه العماد.
- وأيضاً حلول الروح القدس على كرنيليوس وأهل بيته قبل العماد يكشف عن أن الله ليس مربوطاً بطقس من الطقوس أو بشخص مهما كان، فهو له السلطان الكامل فوق الطقس.
- ووراء كل مُعمَّد يقع عماد المسيح بالماء، وعماد المسيح بالدم على الصليب(٩). لهذا فدخول المسيح إلى ملكوته بعد قيامته صار هو نفس الباب الذي يدخل منه كل مَنْ يعتمد باسمه.
- ليس طقس العماد هو الذي يُعطي الخلاص لمن يعتمد، ولكن هو فعل الله والمسيح الذي وراء الطقس بعد أن مارسه بنفسه في الأُردن بالماء وعلى الصليب بالدم!
- لذلك فالمعمودية هي تحقيق للكريجما، أي تحقيق لتعليم الرسل عملياً كفعل استجابة، فهي فعل إيمان.
- فالمعمودية هي التعبير العملي للإيمان بكل بنوده، كفعل استجابة بعد فعل سماع وطاعة.
- المعمودية هي الختم الواحد الوحيد الذي يناله كل مسيحي لتكوين **وحدة مسيحية** واحدة من أعضاء المسيح في الجسم الواحد للكنيسة وللمسيح. فالمعمودية عملية تطعيم فرع الزيتونة المرَّة في الجسد الإلهي الزيتونة الطيبة، ليكون للجميع نفس فكر المسيح وحياته ويستمدوا منه مقوِّمات الحياة الأبدية.
- حينما نقول إن المعمودية هي تأسيس إلهي بسلطان المسيح لا نعتمد على أقوال قيلت، بل بالأكثر على حياة المسيح ومثاله إن في موته أو قيامته أو مواعيده. فالمعمودية هي عبور مأساوي أكمله المسيح بالصليب سابقاً للدخول إلى راحته.
- على أن المعمودية هي الدعوة الإلهية الرسمية للوليمة العظمى ولبس ثياب العرس للدخول إلى فصح المسيح ليغتذي الإنسان لأول مرَّة من طعام الحق: «جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق.» (يو ٦:٥٥)

---

(٩) «لي صبغة (βάπτισμα أي معمودية) اصطبغها وكيف أنحصر حتى تُكمل.» (لو ١٢:٥٠)

٣ ـ عماد المسيح وسر المعمودية المقدَّسة

معمودية المسيح كانت هي الحد الفاصل بين العهد القديم الذي وقف على قمته يوحنا المعمدان، والعهد الجديد الذي افتتحه المسيح يوم أن اعتمد، وبالتالي فمعمودية المسيح هي بداية الإنجيل. وبمسحة الروح القدس في معمودية المسيح ابتدأ الخدمة، وبمعمودية الموت والصليب افتتح المسيح للإنسان طريق الملكوت والحياة الأبدية. فالمعمودية في حياة المسيح وموته كانت بدء الانطلاق الإلهي مع الإنسان في الأرض وفي السماء لعودة الإنسان إلى أحضان الله.

ومن التعبيرات المفسِّرة لمفهوم المعمودية عامة قول المسيح للمعمدان لَمَّا تمنَّع في عماده: «اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمِّل كل برٍّ» (مت ٣: ١٥). فجاء هنا البر ليعبِّر عن المعمودية نفسها وعن رسالة المسيح في استعادة وتكميل بر الإنسان لدى الله، الذي يشمل بالضرورة غفران الخطايا ومصالحة الإنسان مع الله.

أمَّا افتتاح السماء ونزول الروح القدس على المسيح فكان إيذاناً ببدء عصر "الماء والروح" أو ميلاد الإنسان من فوق، بمعنى خلقة الإنسان الجديد وعودة صورة الله للإنسان بعد غيابها. فالمسيح لم يكن يرى نفسه إلاَّ في الخطاة.

أمَّا صوت الله الآب من السماء مخاطباً المسيح ـ وهو في الأُردن في حالة تمثيل البشرية كمقدِّم التوبة لله ـ وقول الآب أنت ابني الحبيب الذي به سررت، فهي موجَّهة للبشرية في شخص المسيح.

وبناءً على معمودية المسيح في الأُردن وعلى الصليب، بدأت الكنيسة فوراً في تطبيق هذه المكتسبات. فمعمودية المسيح أعطت الكنيسة المنهج والفكر لتقديم هذه المعمودية للراجعين إليها بالإيمان، فأعطت التبني، وأعطت مسحة الروح القدس، وأعطت قوة وموهبة المصارعة مع الشيطان لإخلاء الطريق أمام الإنسان، وأعطته الانفتاح والدخول إلى حياة المسيح وفكره، وبالتالي إلى الاتحاد به وحق الدخول به إلى الملكوت.

كما أخذت الكنيسة بثقة معنى نزول الروح القدس على المسيح وهو في ماء الأُردن، أنه لتقديس الماء وتحوُّله عنصرياً إلى ماء حي ومحيي له قوة ولودة تطبيقاً عملياً لما قاله المسيح: «مولودين من الماء

والروح» كحق لدخول ملكوت الله (يو ٣:٥) - على غرار التحوُّل والإحياء العنصري للخبز والخمر بصلاة الاستدعاء أيضاً من أجل التحوُّل والإحياء العنصري للإنسان نفسه ليصير خليقة روحية جديدة روحانية، وبالتالي لبدء فهم التحوُّل المزمع أن يكون للمادة وللعالم كله ليقبل خلقته الروحية الجديدة في المسيح والإنسان الجديد. وبهذا يمكننا أن نفهم أن عماد المسيح في مياه الأُردن كان المدخل الإلهي الرسمي، العلني والسرِّي والمستيكي لدخول العالم والإنسان فيه إلى بدء مرحلة التغيير الروحي الكلِّي الجديد. هذا هو الذي فهمته الكنيسة لاهوتياً من قول الرب بعد القيامة وهو يرسم منهج التلمذة والعماد للعالم: «فتقدَّم يسوع وكلَّمهم قائلاً: دُفع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض» (مت ٢٨:١٨). ويعني أن كافة القوى والعناصر في السماء وعلى الأرض قد دخلت تحت خضوع سلطانه وتهيَّأت للتحوُّل المزمع أن يكون.

كان هذا بعد أن أكمل المسيح معموديته بالموت وصبغة الدم على الصليب، فأكمل معنى وعمق وامتداد معمودية الأُردن، وسلَّم الكنيسة معنى المعمودية كاملاً بشكلها الولودي وشكلها الذبائحي بالموت معاً، فأصبحت معمودية الكنيسة للحياة والموت أو بحسب ترتيب الموت والقيامة للموت والحياة، الموت للخطية والحياة لله. ولكن الموت مع المسيح والحياة مع المسيح.

وفي الحال دخلت هذه المعاني الخاصة في طقس المعمودية إلى مستواها اللاهوتي التعليمي في الكنيسة، لأن ما حدث في المعمودية كان هو أساس التعليم اللاهوتي بكل مناهجه في الكنيسة عند الرسل القديسين وعند ق. بولس وكافة الآباء. نعم، فليفهم القارئ هذا، وهو الذي دفعنا إلى كتابة هذا البحث عن المعمودية، لأن الكنيسة والشعب نسي أن ما جرى في المعمودية هو أساس اللاهوت والمعرفة اللاهوتية والروحية في الكنيسة.

فمثلاً يقول بطرس الرسول، وهو في الحقيقة يصف ما يحدث لنا في المعمودية: «فإن المسيح أيضاً تألَّم مرَّة واحدةً من أجلِ الخطايا، البارُّ مِنْ أجل الأثمةِ، لكي يقرِّبنا إلى الله، مُماتاً في الجسدِ ولكن محييً في الروحِ.» (١بط ٣:١٨)

كما أننا نجد أن نزول الروح القدس على المسيح وهو في ماء المعمودية أثار فكر الكنيسة للرجوع إلى فلك نوح وجعله مثالاً للمعمودية كما رآه ق. بطرس: «في أيام نوحٍ، إذ كان الفُلْكُ يُبنَى، الذي فيه خَلَصَ قليلونَ، أي ثماني أنفسٍ بالماءِ. الذي مِثَالُهُ يُخلِّصُنَا نحن الآنَ، أي المعموديةُ» (١بط ٣:٢٠و٢١). ومنها وضع ق. بطرس وضعاً لاهوتياً للمعمودية أنها للخلاص!

كما يرى ق. بولس الرسول ما يحدث في المعمودية أنه حدث لاهوتي بالدرجة الأُولى: «الذي أنقذنا من سلطان الظلمة ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته» (كو ١:١٣). وهي تمثيلية يُوجَّه فيها المُعمَّد إلى الاتجاه نحو الغرب رمز الظلمة وجحد الشيطان مع كل أعماله، ثمَّ الاتجاه نحو الشرق رمز النور والاعتراف بالمسيح والتعهُّد باتِّباعه.

والقديس يوحنا يعطينا في إنجيله مشاهدة عملية لخروج ماء ودم من جنب المسيح بعد أن مات على الصليب من جراء طعنة حربة بيد ضابط رئيس مائة. ويقدِّم لنا هذا الحدث باعتباره ينبوع سرّيْ المعمودية والإفخارستيا، اللذان هما السرَّان الأساسيان في الكنيسة، وبالتالي تكون الكنيسة قد خرجت ووُلِدَت من جنب المسيح كحواء التي خُلقت من جنب آدم ـ وهكذا سلَّمنا المسيح ماء المعمودية بموته. هذا يراه الآباء الأُول بمعنى أن معمودية المسيح بالموت وانصباغه بالدم سلَّمتنا سر معموديتنا مؤسَّسة على موت المسيح أو كشركة في موته، الذي أخذه ق. بولس وشرحه كثيراً. ومعروف أن كل العطايا والمواهب الروحية قد نالها الإنسان بموت المسيح، وأهمها غفران الخطايا، وأعظمها حق الدخول إلى ملكوت الله. كما استقرأها بولس الرسول: «إننا كل مَنْ اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته، فدُفِنَّا معه بالمعمودية للموت. حتى كما أُقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضاً في جدة الحياة. لأنه إن كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته نصير أيضاً بقيامته» (رو ٦: ٣ـ٥). ومنذ معمودية المسيح إن في الأُردن أو على الصليب، والماء في المعمودية أصبح يحمل معنى الموت وقوته وغلبته بآن واحد.

وبهذا نرى أن الكنيسة قد رسمت معموديتها على معمودية المسيح وعلى هذه المعطيات كلها، إنْ في معناها أو محتواها أو سلطانها وغرضها التعليمي كنبع للاهوت والليتورجيا ـ كما نرى اقتباس الكنيسة طقس جحد الشيطان في المعمودية من مصادمة المسيح للشيطان رسمياً وجهاراً بعد المعمودية مباشرة بتدبير الروح.

٤ ـ التسليم في تاريخ الكنيسة

أولاً: التسليم في الأسفار: παράδοσις

١ ـ **«إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقّنة عندنا ـ كما سلّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخُدّاماً للكلمة.»** (لو ١: ١و٢)

يبدأ القديس لوقا إنجيله بذكر مصادره التي وفّرت له هذا الكم الضخم من المعرفة والأسرار في إنجيله.

٢ ـ **«فينبغي أن الرجال الذين اجتمعوا معنا كل الزمان الذي فيه دخل إلينا الرب يسوع وخرج، منذ معمودية يوحنا إلى اليوم الذي ارتفع فيه عنّا، يصير واحدٌ منهم شاهداً معنا بقيامته (قيامة الرب).»** (أع ١: ٢١و٢٢)

هنا يصرّ التقليد أن يظل التلاميذ اثني عشر شهوداً لقيامة الرب قلب الإيمان المسيحي.

٣ ـ **«كما أرسلني الآب أرسلكم أنا.»** (يو ٢٠:٢١)

وهكذا يكون إرسال الرسل تكليفاً إلهياً على مستوى إرسالية المسيح للعالم، والذي سيعلّم به الرسل ويبشّرون هو ما **استلموه** من الرب، وبدورهم **يسلّمونه** لكافة الأمم. **فالتسليم** هنا بالمعنى الإلهي هو المناداة بالإنجيل ومحوره الكرازة κήρυγμα بما فعله الرب لأجلنا.

٤ ـ **«وأعرّفكم أيها الإخوة بالإنجيل الذي بشّرتكم به، وقبلتموه، وتقومون فيه، وبه أيضاً تخلصون، إن كنتم تذكرون أي كلام بشّرتكم به، إلاّ إذا كنتم قد آمنتم عبثاً ـ فإنني سلّمت παρέδωκα إليكم في الأول ما قبلته أنا أيضاً: أن المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب، وأنه دُفن، وأنه قام في اليوم الثالث حسب الكتب.»** (١كو ١٥: ١ـ٤)

هنا تكرار بولس الرسول لكلمة **حسب الكتب** ذات معنى هام، فالرسل لا ينادون بحقائق فقط أو بمجرّد حوادث تاريخية، ولكن حوادث شُرحت في ضوء الأسفار المقدّسة بطريقة تؤكّد أن حقيقتها من مصدر مؤكّد. ثمَّ أليس هذا التسليم هو الإنجيل؟ فإنه يبدأ بقوله: «أُعرّفكم بالإنجيل εὐαγγέλιον الذي بشّرتكم به εὐηγγελισάμην». ثمَّ يشرح ذلك قائلاً: «فإني سلّمت إليكم παρέδωκα».

٥ ـ فعندما قال ق. لوقا: «**الأشياء المتيقنة عندنا**» (لو ١:١) فهو هنا يشير إلى قلب التقليد = tradition = παράδοσις، وقوله: الأشياء وليس الإنجيل يعني ارتباطه بالأعمال الجارية في الكنيسة قبل ارتباطه بتعليم الإنجيل kerygma. فهنا ضمَّ ق. لوقا كل **كلام وأعمال** الرب المنقولة إليه، **وهذا هو التقليد**. وكان التقليد في العقود الأُولى من القرن الأول يتبع المناداة بالقيامة شفهياً، وهذا هو **التقليد الشفاهي**. هذا التقليد الشفاهي دخل في تدوين الإنجيل، وهذا عينه الذي صار ذخيرة في الكنيسة أي التقليد الشفاهي.

٦ ـ «**عن جميع ما ابتدأ يسوع يفعله ويُعلِّم به، إلى اليوم الذي ارتفع فيه.**» (أع ١: ١و٢)
إذن فالتسليم παράδοσις يتكوَّن من توصيل أقوال وأعمال يسوع المسيح:
+ «فإننا نقول لكم هذا **بكلمة الرب** ...» (١تس ٤:١٥)
+ «وأمَّا المتزوجون **فأوصيهم لا أنا بل الرب.**»[١] (١كو ٧:١٠)

٧ ـ «**لأنني تسلَّمت من الرب ما سلَّمتكم أيضاً: إن الرب يسوع في الليلةِ التي أُسلم فيها، أخذ خبزاً ... وقال ... اصنعوا هذا لذكري. كذلك الكأس أيضاً... قائلاً...اصنعوا هذا كلَّما شربتم لذكري.**» (١كو ١١: ٢٣-٢٥)

لاحظ هنا أن ق. بولس يقول لأنني **تسلَّمت من الرب ما سلَّمتكم** قولاً وعملاً. وفي الأناجيل دوِّن هذا التقليد مكتوباً كآخر التقليد الشفاهي المسلَّم من الرب، وهكذا وبلا نزاع فإن التسليم هو الإنجيل.

ومن هذا نستطيع أن نقول إن نقل كلمات الرب وأعماله هي التي يقولها التقليد لإقامة نموذج حياة وسلوك = أي الذي يُسمَّى **الطريق**[٢] (طريق الحياة أو الموت) كنموذج حياة مسيحية، وهذا هو الذي يُفهم من الآية التالية:

٨ ـ «**فاثبتوا إذاً أيها الإخوة وتمسَّكوا بالتعاليم** (التقاليد τὰς παραδόσεις) **التي تعلَّمتموها سواء كان بالكلام أم برسالتنا.**» (٢تس ٢:١٥)
هذه عيِّنة لحياة مسيحية نموذجية تبعاً لتعاليم وتقاليد منقولة سواء عقائدية أو عملية، التي نقلها إليهم.

٩ ـ «**ثم نوصيكم أيها الإخوة باسم ربنا يسوع المسيح، أن تتجنَّبوا كل أخ يسلك بلا**

(١) بولس الرسول يستخدم الفعل المضارع (أوصيهم مضافاً للرب) تحقيقاً لوجود الرب في عملية التسليم. فالرب يتكلَّم من خلال التقليد المُسلَّم.

(٢) راجع أع ٩:٢، ١٨:٢٥و٢٦، ١٩:٩و٢٣، ٢٢:٤ حيث تُدعى الديانة المسيحية "الطريق".

ترتيب وليس حسب التقليد (παράδοσιν = tradition) (وليس حسب التعليم كما في الترجمة العربية) **الذي أخذه منّا.»** (٢تس ٣:٦)

هنا التقليد يختص بالسلوك، لأن التلميذ يلزم أن يتبع عيِّنة الحياة التي استلمها بالكلام والأعمال كما استُعلنت أيضاً بالقول والعمل عند الرسل.

١٠ - «**وما تعلّمتموه وتسلّمتموه وسمعتموه ورأيتموه فيَّ، فهذا افعلوا، وإله السلام يكون معكم.**» (في ٤:٩)

هذه العيِّنة للحياة المسلَّمة من الرسل تكون فردية أو مشتركة. لذلك فهناك تقليد للعبادة والسلوك الذي يُتَّبع: «**كما في جميع كنائس القديسين**» (١كو ١٤:٣٣)، «**أم منكم خرجت كلمة الله. أم إليكم وحدكم انتهت.**» (١كو ١٤:٣٦)

إذن فكنيسة كورنثوس وهي صغيرة ليست في حرية أن تخرج عن كلمة الله التي سُلِّمت إليهم.

وهكذا نستخلص أن **التسليم** παράδοσις **هو الطريق** المؤدِّي إلى الحياة. فالمسيح الرب الحي رأس الكنيسة نفسه يُشرف عليها ويقود عملية النقل والتسليم من جيل إلى جيل.

فالرب الحي موجود في الكنيسة، ويعمل في كل عمل رسولي باعتباره تسليمه، والرسل قد ماتوا ولكنه هو حيٌّ!!

+ «**وأمَّا المتزوجون فأوصيهم لا أنا بل الرب.**» (١كو ٧:١٠)

لاحِظ كما سبق وقلنا عن هذه الآية إن بولس الرسول يتكلَّم بالفعل المضارع "أوصيهم"، لأن الرب حاضر يتكلَّم من خلال التسليم والتقليد من فم لفم.

لهذا نقول إن التسليم في الكنيسة حيّ لأن المشرف عليه والذي يقوده حيّ!

لهذا أيضاً فالكنيسة حيَّة بحياة المسيح رأسها.

ونختم هذه الأقوال بقول بولس الرسول لتيموثاوس: «وما سمعته مني بشهود كثيرين أودِعهُ أُناساً أمناء يكونون أكفاء أن يعلِّموا آخرين أيضاً» (٢تي ٢:٢). وهكذا سار التقليد من جيل إلى جيل حتى سمعناه نحن أنفسنا ووعيناه.

ثانياً: تسليم التراث والتعليم في تاريخ الكنيسة:

بخصوص الآباء الأوائل كان التسليم المكتوب وقفاً على الإنجيل، ولكن بعد ذلك في الأجيال اللاحقة امتد التسليم وزاد وأصبح الإنجيل والكتابات الرسولية.

كما أن التقليد الرسولي أصبح يُسلَّم في الأجيال اللاحقة بالفم كما بالكتابة، وبابياس الأسقف يؤمِّن أنه انتفع من الكلمة المسموعة أي التقليد الشفاهي أكثر مما انتفع من المكتوب:

+ [فأنا لا أتصوَّر أن أحصِّل مثل هذا الانتفاع من المكتوب في الكتب كما هو من صوت إنسان حيٍّ باقٍ.][٣]

هذا التقليد الشفاهي لا يُفضَّل على الكتابات الرسولية، ولكن يُفضَّل على الذين يسجِّلون مدركات غريبة[٤]. ولكن بمرور السنين ودخول أنواع هرطقات لا حدَّ لها أصبح الالتزام بكتابات الرسل. وهذا حدث بالفعل عند قيام صدامات مع الهرطقات، فكان الآباء ملتزمين في ردودهم بكتابات الرسل الأصيلة كحجة لا تحتمل النقاش. وهكذا ظلَّت الأسفار المقدَّسة هي القانون والقاعدة وبواسطتها يُقاس كل تقليد آخر ويُثبَّت غشّه.

والآباء كانوا على حذر، فقد كانوا لا يستلمون التقاليد التي لا تطابق الأسفار المقدَّسة تماماً بتحقيق، والتي ترتكز على نص كلمات المسيح وشهادات الرسل المؤسَّسة على صخرة الحق. ولكن التقليد ليس مصمتاً ولا هو قواعد ونصوص بل "تقليد حي"، لذلك فإنه ينمو على ممر السنين إنما أيضاً على أساس الرسل والمسيح نفسه حجر الزاوية، الذي يمسك البناء كله مهما تضخّم.

وشيئاً فشيئاً امتد التقليد ليضم أيضاً كتابات آباء الكنيسة أنفسهم. وهكذا انضم تقليد الآباء إلى تقليد الرسل، ليس لأن تقليد الآباء تقليد جديد، ولكنه شرح صادق ملتزم بتقليد الرسل فجاء مطابقاً في اتجاهاته.

وبعدها دخلت الكنيسة عصر المجامع، فصارت قوانينها تقليداً لميراثها القانوني المتفق عليه، وقُبلت كجزء هام أساسي للتقليد العام. وهذا لم يُعتبر أنه تقليد جديد ولا إضافة، ولكن في الحقيقة هو ملخَّص لعقيدة الإنجيل والأسفار المقدَّسة. ولكن ظلَّ بعض الآباء الكبار مصمِّمين على الاعتماد الكلِّي على الأسفار المقدَّسة، فالقديس أثناسيوس الرسولي يقول:

(3) Eusebius, *E.H.*, 3, 39, 4, NPNF, 2nd ser. vol. I, p. 171.

(4) *Ibid*, p. 171, n. 11.

+ [**إن الأسفار المقدَّسة الملهمة هي كافية بذاتها لإعلان الحق.**](٥)

وبعد ذلك أخذت الشروحات التي للآباء العظام مكانة التقليد، وقليلاً قليلاً أُضيفت للتقليد الرسولي للأسفار المقدَّسة.

من هذا نفهم كيف امتدَّ واتسع التقليد وتضخَّم أثناء القرون الأُولى، وعليه اعتبرت الأسفار المقدَّسة والتقليد السلطة المزدوجة لإيمان الكنيسة والممارسة فيها.

(5) Athanasius, *Contra Gentes*, I, 3, NPNF, 2nd ser., vol. IV, p. 4.

ويُلاحَظ أن القديس أثناسيوس يضع نفس هذه العبارة في فم القديس أنطونيوس في بدء عظته الكبرى (حياة أنطونيوس ١٦)، وهذه حجة تجعلنا نخفِّف الغلواء في عبادة أقوال الآباء.

٥ ـ العلاقة بين تقليد الأسفار المقدَّسة وتقليد الكنيسة

إن كان تقليد الكنيسة له قيمته الهامة، ولكنه لا يُعتبر كصاحب أو منبع سلطة للعقيدة إلاّ إذا كانت هذه العقائد موجودة أو يمكن تحقيقها من الأسفار المقدَّسة.

على أنه سيظل الإنجيل هو تقليد الكنيسة بالأساس.

وسوف تبقى أعمال القوات الكبرى التي للفداء وللتجسُّد، وحياة المسيح وخدمته وآلامه وموته وقيامته وصعوده، وانسكاب الروح القدس وقيام الكنيسة، هي مرَّة كانت وستظل حوادث فريدة ليس لها نظير.

إن تاريخ الكنيسة هو تاريخ الخلاص نعم، ولكن يستحيل أن يماثل زمن التجسُّد للمسيح أو بالنسبة للذين شاهدوه أو زمن الرسل وشهود العيان الذين عاشوا معهم ورأوهم.

وهناك تقليد الرؤيا والسماع والتعليم الذي حازه الرسل المختارون من المسيح رأساً ورأوا القيامة. هذا جعل شهادتهم وعملهم صورة فريدة لا نظير لها وغير قابلة للنقل بالصورة، الأمر الذي عدَّده ق. يوحنا بشيء من أحلام الماضي السعيد والخبرة الرسولية النادرة:

+ «الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا، من جهة كلمة الحياة. فإن الحياة أُظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا. الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به، لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا. وأمَّا شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح.» (١يو ١: ١-٣)

هنا الإخبار بما شاهده ق. يوحنا وشهد به هو تسليم التقليد، ولكنه تسليم من رؤيا وسمع ولمس إلى مجرَّد شهادة كلام. ويُلاحَظ أيضاً أن ق. يوحنا اعتبر نفسه شريكاً للآب والمسيح وبالتالي نقل شهادته ورؤيته وشركته إلى الآخرين. هذا هو طريق التقليد الرسولي، تقليد رؤيا ومشاهدة! فهو ثمين ثمين جدًّا للذي يفهم.

فأي فخر وأي مجد وأي سعادة حازها الرسل؟(٦)

والقديس بطرس رأى الرب وعاين قيامته مع خبرات قديمة نادرة كانت كالحلم فكتب:

+ «لأنه أخذ من الله الآب كرامةً ومجداً، إذ أقبلَ عليه صوتٌ كهذا من المجدِ الأسنى: هذا هو ابني الحبيب الذي أنا سررت به. ونحن سَمِعنا هذا الصوت مُقبلاً من السماءِ، إذ كنّا معه في الجبل المقدَّس.» (٢بط ١: ١٧و١٨)

هذه شهادة رسول، وحيدة فريدة عظيمة لا تدانيها خبرة.

والقديس بولس رأى الرب وعاينه في المجد من السماء، فكانت خبرة فوق جميع خبرات الرسل، ولذلك كانت كتاباته ليس لها نظير، وكل ما كتبه الآباء يتوارى أمام ضياء ما كتب ق. بولس الذي حلّق وارتفع حتى السماء الثالثة.

لهذا صار الرسل حجر أساس وقاعدة لعمود الحق أي لكنيسة الله: «مبنيِّين على أساسِ الرسل والأنبياءِ، ويسوعُ المسيح نفسه حجرُ الزاويةِ.» (أف ٢: ٢٠)

ونلخّص ما قلناه في أن:

- الأسفار المقدَّسة هي الوديعة Deposit التي خرج منها تقليد الكنيسة.
- والتقليد في الكنيسة فوق أنه طريق الحياة فهو النهر الذي تفيض منه حياة الكنيسة بدءاً من نهر الأُردن. وهو تقليد حر ممتد متسع متحرِّك يطوي الزمن والعصور، وعليه بُنيت العقيدة.
- والأسفار المقدَّسة هي التقليد الأول للكنيسة، وتقليد الكنيسة هو بالنسبة لها سرّها الإلهي الخاص وتاريخها بدءاً من الميلاد ـ وكتابات الأسفار المقدَّسة تحوي في بطنها تقليد الكنيسة الذي اندفق منها.

ولن ننسى أن الليتورجيا في الكنيسة هي سابقة على الإنجيل. فالعلية التي أُقيم فيها العشاء الأخير وبدأت فيها الصلوات والتسابيح كانت مهد الليتورجيا للكنيسة، حيث بدأت فيها حتماً أيضاً خدمة التعميد. فكانت الإفخارستيا والمعمودية هما اللتان فتحتا باب التقليد.

---

(٦) من أبدع المعجزات التي سمعتها في حياتي وأحيت نفسي وأحيت فيَّ تمجيد الرسل: هي قصة الأخت "جولشام" التي صلّت للمسيح فزارها كما تقول ومعه الاثني عشر رسولاً وكأنهم نجوم حول شمس لا تتحرّك إلاّ بهم؟!!

٦ - لاهوت المعمودية

كانت الإشارة التي ذكرها ق. لوقا في سفر الأعمال عند اختيار متياس ليكون الثاني عشر للرسل عوض الخائن يهوذا، التي تقول بالنسبة للشروط التي يختارون بها رسولاً جديداً، أن يكون قد عاصر المسيح «منذ معمودية يوحنا إلى اليوم الذي ارتفع فيه عنّا» (أع ١:٢٢)، هذه الإشارة تُعد شهادة فائقة الأهمية، لأنها تكشف لحظة حرجة في تاريخ الخلاص. لأنها تشير بدورها إلى أن معمودية يوحنا للمسيح تدخل كأساس في تاريخ الفداء والخلاص. ثمَّ إذ يذكر بعدها وملتحماً فيها الصعود، يكون قد شكَّل هيكل الكرازة والمناداة بالمسيح المخلِّص. فالمعمودية والصعود هما طرفا حياة الرب، لا يمكن فصلهما. وبهذا تصبح المعمودية في نظر الرسل مؤدية إلى الصعود بالنهاية وداخلة كأساس لتاريخ الخلاص، وبآن واحد تكشف عن عمل الله الآب المقتدر في المسيح يسوع من المعمودية إلى الصعود. من هنا يبدأ لاهوت المعمودية.

وهكذا دخلت المعمودية في تعليم الرسل كأساس الكرازة Kerygma العملية، وتجذَّر طقسها في الكنيسة كبداية حياة المسيح العملية، وعليه صار فيها التشبُّه بالمسيح، وصارت المعمودية تمسك بطرف الماضي كأول الماضي وكأنه بدء سر الخلقة المسيحية الجديدة، وبطرف المستقبل في المسيح وكأنه النهاية، نهاية الخلاص والفداء وكل أعمال الله والمسيح!

وهنا يقع لاهوت المعمودية بين هذين الطرفين أو القطبين! معمودية المسيح في الأُردن وقد تكمَّلت في الموت واستُعلنت بالقيامة والصعود.

حيث تقف المعمودية كعمل إلهي فوق الطبيعة «اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمِّل كل بر» (مت ٣:١٥)، تنظر من على بُعد إلى الأخرويات التي تتوقَّف على عملها. ولكن الرب أكَّد أن هذا العمل بمواصفاته في معمودية يوحنا لن يكون هو كما هو مرَّة أخرى، ذلك بواسطة اشتراكه فيه واضعاً الحد الفاصل بين معمودية الماضي اليهودية ومعمودية المستقبل بالروح: «لأن يوحنا عمَّد بالماء وأمَّا أنتم فستتعمَّدون بالروح القدس» (أع ١:٥). وهذا يعطي صورة شديدة الوضوح أن معمودية يوحنا قد بطلت وأُهملت واستُنقصت، ثمَّ صُنعت هي نفسها من جديد وبكمال فائق. فإن كانت معمودية يوحنا من السماء فالمعمودية المسيحية هي السماء: مولودين من فوق (يو ٣:٣).

هذا هو الكمال الذي قال عنه الرب: «يليق بنا أن **نكمِّل** كل برٍّ»، فالمسيحية انبثقت من المعمودية بالماء، ولكن عليها الروح القدس الذي قبله المسيح لبناء المعمودية الجديدة القادمة.

ولكن ولو أن المعمودية التي جازها المسيح **أخروية** بمعنى الكلمة بشهادة الروح والآب وبآن واحد هي افتتاحية افتتحت سر الآتي! إلاَّ أن قول الرب: «يليق بنا أن نكمِّل كل برٍّ» كمَّله الرب على الصليب لمَّا حمل خطايا العالم، حيث أخذت المعمودية ختمها الأخير بالدم «لي صبغة (معمودية βάπτισμα) أصطبغها ...» (لو ١٢:٥٠)، فهي ابتدأت بالماء ووضع يد النبوَّة، وانتهت بالدم ووضع يد الآب، حيث كمُل واستُعلن البرّ الذي ركَّز عليه المسيح بالنسبة للمعمودية بالماء في معمودية الموت: «ليكون باراً ويبرِّر مَنْ هو من الإيمان بيسوع» (رو ٣:٢٦). فبعد المعمودية كبداية البر كان الصليب والقيامة تكميلاً لكل برٍّ حقًّا وفعلاً – ومن وراء الصليب والقيامة وُلِدَ الإنسان الجديد كخليقة جديدة قد عبرت الماء مع المسيح وانصبغت بالدم معه على الصليب، فتجدَّدت ولبست صورتها الأُولى الأخروية في الله. فالمعمودية بالماء للغسيل والمعمودية بالدم للتقديس، لأن الذي قُدِّم على الصليب صار ذبيحة حيَّة ناطقة للتكفير عن خطايا الشعب. فمعمودية الماء أخذت كمال صورتها السماوية وحقيقتها الإلهية بذبيحة المسيح على الصليب لتكميل قوة المعمودية وفعلها. أمَّا الانفتاح الحقيقي للإنسان المسيحي فقد تمَّ بالقيامة والصعود، ولذلك فإن المعمودية المسيحية أخذت طبيعتها الفعَّالة وإمكانياتها من صعود الرب وظهور الإنسان الجديد، لأن المعمودية هي الميلاد المسيحي الجديد للإنسان الجديد القائمة على عمل المسيح في الغفران، ولاهوتها ينبع من تاريخ المسيح وعمله ويقوم على عمل الغفران الذي أكمله المسيح ووهبه لكل مَنْ يؤمن.

فالمعمودية بناءً على ذلك تحوي فعل مغفرة الخطايا وبالتالي الدخول إلى الملكوت ونوال موهبة الروح القدس. ويجمعها كلها بولس الرسول بقوله: «إننا كل مَنْ اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته، فدفنَّا معه بالمعمودية للموت، حتى كما أُقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضاً في جدَّة الحياة.» (رو ٦: ٣و٤)

كذلك فإن غفران الخطايا في المعمودية المسيحية لا ينبع شكلاً من معمودية المسيح في الأُردن، ولكن من فعلها وجوهرها، وهما من فعل ذبيحة موته وقيامته والشركة في هذا الموت وهذه القيامة لميراث حياة جديدة.

وقد أخذ سفر الأعمال في بدايته قيمة مغفرة الخطايا في المعمودية المسيحية من مفهومها في

معمودية يوحنا التي جازها المسيح، ولكن قليلاً قليلاً استُعلن نور قيامة المسيح كبداية لحياة أبدية، فانعكس على المعمودية ليعطيها لاهوت مغفرة الخطايا بشركة الموت والقيامة مع المسيح، التي تغنَّى بها بولس الرسول في رسائله (رو ٦: ٣و٤).

على أن معمودية يوحنا للتوبة ومغفرة الخطايا كانت في حقيقتها ومفهومها الاسخاتولوجي مدخلاً للدخول في عصر المسيَّا، وكان هذا قصد الله القدير منها. أمَّا قبول المسيح لهذه المعمودية فقد جعلها بالفعل مدخلاً إليه، وبعدها أخذت معمودية المسيح معناها من واقع استعلان بولس الرسول للدخول في العهد الجديد للمسيح والشركة والاتحاد فيه هو شخصياً بالقيامة.

أمَّا الروح القدس الذي أخذه على المعمودية فكان وكأنه نبوَّة أو إرهاصة(٧) لحلول الروح القدس على المعمودية المسيحية. فالذي أخذه المسيح على المعمودية أرسله على المعمودية! لأن كل ما أخذه المسيح أعطاه. وهكذا صار شعب الله الجديد حينما يستجيبون للإنجيل يقبلون بالتالي قوة حضور الروح القدس عندما يستجيبون لدعوة المعمودية! ولكن "كعربون" كما يقول بولس الرسول (أف ١: ١٤)، لأن المسيح الذي أتى سيأتي ثانية.

وهكذا صار مفهوم المعمودية المسيحية وسرّها هو بعينه مفهوم سر لاهوت المسيح وشرحه من العماد حتى القيامة. وبناءً عليه أعطت الكنيسة للمعمودية سر الدخول إلى حياة الثالوث: «فإن الحياة أُظهرت، وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا ... وأمَّا شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح» (١يو ١: ٢و٣). وإذ نلنا حياة وشركة مع الآب والابن صرنا بالتالي وحتمياً شركاء موت المسيح وقيامته. وهذا يعني أننا متحدون بالمسيح المصلوب والمقام في وحدة يحييها الروح القدس.

هذه الوحدة أو الاتحاد في المسيح الذي يناله المعمَّدون هي التي أعطتهم لقب "قديسين" بالاستحقاق، الذي يخاطبهم به بولس الرسول في معظم رسائله: «بولس رسول يسوع المسيح بمشيئة الله وتيموثاوس الأخ - إلى "القديسين" في كولوسي والإخوة المؤمنين في المسيح ...» (كو ١: ١و٢)

أمَّا الاتحاد بالمسيح في المعمودية بالإيمان وتصديق الموت والقيامة والخضوع لمفاعيلها، فهذا الاتحاد نابع أصلاً، وكنتيجة له، من اتحاد ابن الله بالجسد - جسد الإنسان - اتحاداً كاملاً وكليًّا بغير

(٧) إرهاصة كلمة عربية لغوية تفيد رسم المبنى على الأرض قبل تكميله.

افتراق ولا امتزاج ولا تغيير. معنى هذا أنه اتحد بنا اتحاداً كليًّا، لكي بالنهاية وبعد أن نحصل على غفران خطايانا، نولد جديداً خلقة جديدة روحانية هيَّأتنا لنفس الاتحاد الذي اتحده هو بنا لكي نتحد نحن به إذ اشتركنا معه في موته وقيامته، لأن جسده هو جسدنا. علماً بأن هذا الاشتراك ليس فقط بالمعمودية، ولكنه أولاً وبالدرجة الأُولى هو اشتراك ناتج عن أنه لمَّا اتّحد بنا صرنا فيه منذ ميلاده الذي صار ميلادنا، وبعد ذلك موته الذي كان هو موتنا، ثمَّ قيامته التي كانت من أجل قيامتنا من موت الخطية لقبول حياة جديدة بحياته. فالمسيح هو الذي صنع اتحادنا فيه بنفسه وبغير إرادتنا أو استحقاقنا لأننا كنَّا أمواتاً وبلا إرادة.

وبالنهاية نقول إننا نتجاوز العقل والمعقول معاً حينما نقول إننا نتحد بجسد الرب مع أنه حاصل، ولكن هو نفسه تجاوز العقل والمعقول تماماً لما حدث أن الله الإله الرب القادر على كل شيء نزل من السماء واتحد بجسدنا. هل هذا معقول؟ وأليس هذا هو عثرة كل المعقول!! فاتحادنا بالمسيح، المسيح هو الذي صنعه أولاً لمَّا اتحد بنا! واتحادنا به الآن كغصن في كرم ولكن هناك هو كل الكرم!

وإذ نعود إلى المعمودية وهي السبب في هذه العلاقة السرِّية الفائقة، نرى أن عمل المعمودية الإلهي السرِّي هو الذي جمعنا في جسد المسيح كأعضاء كما يقول بولس الرسول «لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد» (١كو ١٢:١٣)، ولكن وبالتالي يجمع المخلَّصين والمفديين جميعاً معاً فيه. وهذا هو معنى الكنيسة، المعنى السرائري الذي نمارسه في المعمودية والإفخارستيا! ويعبِّر بولس الرسول عن هذه الحقيقة بقوله: «إلى أن ننتهي جميعنا إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله. إلى إنسان كامل. إلى قياس قامة ملء المسيح!» (أف ٤:١٣)

ولكن المعمودية وحدها لا تعطي هذا البلوغ الكامل في المسيح، ولكن هي تضع البذرة ونحن بمساعدة الروح القدس ننمِّيها لتصير شجرة هائلة، ولكن في أصلها تظل المعمودية هي البذرة الصغيرة. هذا هو لاهوت المعمودية الممتع البديع.

أمَّا وفي مستوى المعمودية لاهوتياً يبرز السؤال بخصوص عماد الأطفال: نقول إن الرجل المُعمَّد والمرأة زوجته المُعمَّدة أنجبا طفلاً فهو ملتصق بهما، فإن كانا قد صارا أعضاءً في جسد المسيح فالطفل صار نصيبه من نصيبهما. علماً بأن جسد المسيح سيتسع للطفل بالدرجة الأُولى وبالأكثر لأنه قد وُهِبَ له أن يدخل ملكوت الله، فالمعمودية تعدُّه لهذا الملكوت وتبنيه على الإيمان ليكون عكَّازه الذي يسنده في رجولته وسط هموم هذا العالم.

فإن كان جسد المسيح يسعه ألاَ تسعه المعمودية؟ وإن كان المسيح سيقبله في ملكوته فهل لا تقبله الكنيسة؟

علماً بأن الطفل اليهودي يتحتّم أن يُختتن في اليوم الثامن ليدخل في الشعب وفي عهد إبراهيم، ويكون إسرائيلياً ويرث الأرض، دون أن يعرف ما هو الختان ولا له أية إرادة فيه. فهل والمعمودية هي مثال الختانة تمنع الأطفال من الدخول في المسيح والمسيحية لميراث السموات، حتى أن أولاد الأُمم كانوا يُختتّنون ليدخلوا مع شعب إسرائيل. علماً بأننا بالإيمان بالمسيح صرنا أبناء إبراهيم ولو لم يعرفنا، وعلاقتنا بإبراهيم هي بلا نزاع من خلال مياه الأُردن التي اعتمد فيها المسيح كأنه لإبراهيم، ولا ندَّعي أن علاقتنا بإبراهيم تعطينا الفرصة أن نمارس ممارسة أبناء إسرائيل، ولكن علاقتنا بالمسيح هي التي توجب أن الأسرة كلها يلزم أن تعتمد بما فيها الأطفال ليدخلوا المسيحية وبالتالي الكنيسة، كما نقرأ ذلك بكثرة في أمثلة سفر الأعمال (أع ١١:١٤، ١٦:١٥و٣٣، ١٨:٨).

فنحن نُهدي الأطفال أن تُكتب أسماؤهم في الكنيسة ليرثوا مع آبائهم حق التبني كأعضاء فيها ليكونوا أعضاءً في جسد المسيح مجّاناً، عرفوا هذا أو لم يعرفوه. فهم حتماً سيعرفونه هنا أو هناك.

ثمّ إن كان كما يقول النبي إرميا إن الله في العهد الجديد سيكتب فرائضه ووصاياه على قلوبنا بدل أن كانت مكتوبة على لوحي حجر، وذلك مجّاناً؛ أفلا نكتب نحن أيضاً على قلوب أطفالنا اسم المسيح ونطبع صورته وختمه على جباههم؟ مجّاناً!!

وإن قال المسيح: «دعوا الأولاد يأتون إليَّ ولا تمنعوهم» (مت ١٩:١٤) فهل ترفضهم الكنيسة؟ وإن كان قد وضع يديه عليهم وباركهم، ألا تضع الكنيسة يدها عليهم وتباركهم؟

إن المعمودية في كل صورها صورة دقيقة للمسيح وكل ما عمله، والدخول في المسيحية بكل تراثها إلى الكمال هو كائن ومعمول في المعمودية كبذرة تنمو، ونموها يقرِّره سلوك المُعمَّد وإرادته وأمانته للدعوة والروح القدس المتهيِّئ دائماً أن يعمل إذا طُلب. فالكنيسة بمعموديتها تعطي المعمَّد الأساس الكامل في الإيمان والعقيدة عموماً الذي يبني عليه إن كان قشًّا أو ذهباً!

٧ ـ معنى "شبه موته"

الشبه في المعنى اللاهوتي للمعمودية

+ «إن كنّا قد صرنا متحدين معه بشبه موته، نصير أيضاً بقيامته.» (رو ٦: ٥)
+ «فإن كنّا قد متنا مع المسيح نؤمن أننا سنحيا أيضاً معه.» (رو ٦: ٨)

لكي نفهم كيف يكون هذا، نسير خطوة خطوة مبتدئين:

١ ـ ما هو الموت الذي ماته المسيح، وما هو الموت الذي نموته؟

يلزم أن نعرف قبل كل شيء أن موت المسيح كان عملاً إرادياً، أي أنه أراد واشتهى أن يموت كما يظهر من الآية التالية:

+ «لهذا يحبني الآب لأني أضع نفسي لآخذها أيضاً، ليس أحد يأخذها مني، بل أضعها أنا من ذاتي. لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضاً. هذه الوصية قبلتها من أبي.» (يو ١٠: ١٧و١٨)

٢ ـ وتقول الكنيسة إن المسيح بطبيعته القدوسة كان غير مستهدف للموت: بمعنى أنه كان خالياً من الموت ومسبّباته ونتائجه أي الفناء، لأنه كان "هو الحياة"، فلمَّا مات المسيح كان هذا لأنه أراد أن يموت، أي أن موته كان إرادياً. بمعنى أنه موت الذي لا يموت أو الذي هو غير قابل للموت، وهذا هو الذي جعل موته من أجل الآخرين، فكان موتاً خلاصياً.

٣ ـ ما معنى أن المسيح كان يريد أن يموت؟

هذا يتمحور حول المعنى الروحي للموت وفحواه، على أن الموت في مفهومه وحقيقته الأصلية هو حقيقة روحية وليست عضوية، مع أن المعنى السائد عند الجميع هو أن الموت هو الموت العضوي الطبيعي كنهاية إجبارية للحياة على الأرض ـ ولكن الإيمان يتخطّى هذه النهاية ويؤكّد وجود حياة أخرى لا نهائية وهي حياة النفس غير المائتة. بهذا المعنى يكون الموت هو العبور من حياة ميتة إلى حياة لا تموت.

علماً بأن الموت يخص الجسد وعدم الموت يخص النفس.

والنظرة المسيحية الضعيفة للموت هي أنه موت للجسد، مع أن الإنسان المسيحي يمارس الموت وهو حيّ، بل ويمكن للإنسان وهو ميت في القبر أن يكون خالياً من الموت. إذن الموت الحقيقي هو الموت الروحي وليس العضوي الجسدي.

٤ ـ كان الموت بالنسبة لآدم هو انفصاله عن الله مصدر الحياة وهو وحده معطي الحياة وهو الحياة.

٥ ـ هذه الحياة أي حياة الله أو الله الحياة هي كما يقول القديس يوحنا إنها «نور الناس» (يو ١:٤). هذه إذا رفضها الإنسان بأن أساء إليها ولم يخضع ويطيع، يموت ويكون موته أبدياً لأن الحياة التي رفضها أبدية. وهكذا كانت الخطية الأصلية موتاً روحياً أبدياً مظهره على الأرض موت جسدي بالضرورة.

٦ ـ فالموت ليس حالة عضوية ولكن حقيقة روحية، والمتسبِّب لها هي الخطية، ودُعيت عند ق. بولس بالشوكة تمثيلاً لشوكة العقرب المميتة (١كو ١٥:٥٦).

٧ ـ وبرفض الإنسان الأول للحياة الحقيقية، والحقيقية وحدها، التي أعطاها له الله كهبة، دخلت الخطية إلى العالم، وكان الموت بالخطية (رو ٥:١٢). علماً بأنه ليس حياة أخرى غير حياة الله، فالذي يرفضها حتماً يموت حتى ولو عاش، لأن الحياة بدون الله هي الموت. وهذا هو الموت الروحي الذي لو عاش الإنسان بعد رفض الحياة الحقيقية من يد الله فإن عيشته أو حياته الأرضية يملأها الموت، لأنه يعيش حالة انفصال مستمر عن الله، وبهذا يعزل نفسه ويداهمه الخوف وتملأه العداوة، ويرضخ لعبودية الخطية وبالتالي للمادة بكل صورها. وتصبح حياته بلا معنى، تحيط به الشهوة والفراغ وأخيراً الموت المحتَّم.

هذا هو الموت الروحي الأبدي الذي تسبَّب للإنسان في موته العضوي الزمني.

٨ ـ وطالما لم نستطع أن نبلغ هذه الرؤية المسيحية والإحساس الحقيقي بالموت ومفهومه كقانون رعب وخطية تملأ الحياة بالموت الذي يسود على العالم (رو ٥:١٤) فلن نكون قادرين أن ندرك القيمة الثمينة لموت المسيح من أجلنا ومن أجل كل العالم.

٩ ـ لأن الموت الطبيعي الجسدي هو في حقيقته ثمرة زمنية مرَّة للموت الروحي الذي جاء المسيح ليخلِّصنا منه.

١٠ ـ وهنا المعنى الحرج لقول المسيح إنه يموت بإرادته وبمنتهى مشيئته الحرَّة. فموت المسيح

أراد المسيح أن ينفِّذه بنفسه في نفسه، وذلك لأنه أحبَّ الله أكثر من نفسه. بينما الإنسان في المقابل مات لأنه أراد الحياة لنفسه في نفسه لأنه أحب نفسه أكثر من الله!

١١ ـ فبقدر ما كان حب الإنسان لنفسه وحياته هو السبب الرئيسي لخطيته التي هي الجذر المرّ لموته والشوكة المميتة، بقدر ما كان المسيح باذلاً حياته ونفسه، فكان السبب الرئيسي للخلاص من الخطية وتحرير الإنسان من الموت الروحي.

١٢ ـ فاعتبرت إرادة المسيح للموت بحريته هي أول وأقوى عمل لمحبته الكاملة لله وللإنسان في طاعة كاملة لإرادة الله. بمعنى أن موته لم يكن له أي دافع في نفسه غير المحبة، فكان موته هو قمة استعلان المحبة للحياة في الله، ولكي ينزع شوكة الموت التي هي الخطية ويحرِّر الإنسان من سطوة العدو والموت.

١٣ ـ فالمسيح لم يُبطل أو يبيد الموت الجسدي، لأنه إن كان قد صنع هذا فمعناه أنه يبيد العالم أو يبطله لأن الموت فيه ويسوده. الموت ليس جزءاً من العالم بل هو أساس حياة العالم ونموِّه، لأن كل مَنْ يحيا فيه يحيا للموت والذي ينمو فيه ينمو للموت ـ ولكن الذي عمله المسيح أعظم من ذلك جدًّا، إذ أنه أبطل شوكة الموت أي الخطية فأبطل الموت كحقيقة روحية ولاشاها روحياً، لأنه لبس الموت وتواجد فيه وملأه بنفسه وبمحبته وحياته، فجعل الموت بعد أن كان هو الانفصال عن الله والمتسبِّب في فساد حياة الإنسان والعالم، جعله طريقاً للعبور مُفرحاً ومضيئاً بملء المحبة والحياة الأبدية: «لأن لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح» (في ١:‏٢١). وبولس الرسول لا يتكلَّم هنا عن موت الجسد ولكن عن الموت بمعناه الجديد: الموت مع المسيح رمز القوة والنصرة، لأن الذين يؤمنون بالمسيح ويحيون فيه لا يعود لهم موت، لأن الموت يُبتلع بإيمانهم إلى نصرة (١كو ١٥:‏٥٤)، فصار كل قبر لكل قديس مملوءاً حياة بدل الموت.

١٤ ـ والآن ما معنى القول إن كنّا متحدين معه بشبه موته نصير أيضاً بقيامته؟
ما معنى الشبه؟ إذ يتحتَّم أن نفهمه قبل أن نكمِّل الطقس.

معناه أننا نترسَّم خطوات المسيح ونشترك فيها بإيماننا وحبنا له، فتكون إرادتنا هي إرادته وأن يكون إيماننا به لا بمجرَّد اعتراف أو بمجرد نوال ما له، بل وفوق كل هذا أن نعطيه حياتنا وأنفسنا. هذا هو معنى وصيته أن «اتبعني أنت» (يو ٢١:‏٢٢)، وليس أمامنا أي طريق للإيمان به سوى أن نقبل إيمانه ليكون إيماناً لنا أو إيماننا، ونقبل محبته لتكون هي محبتنا ومشيئته لتكون مشيئتنا. لأن الإيمان

بالمسيح يعني كل المسيح وخارجاً عنه لا يوجد إيمان. وكل المسيح يعني طاعته ومحبته ومشيئته التي بها نتعرَّف عليه ويستعلن هو نفسه لنا.

فإذا آمنا بالذي لا يؤمن به هو، أو أحببنا الذي لا يحبه هو، أو نشاء ما لا يشاؤه هو، ونطيع ما لا يطيعه هو، فهذا يعني أننا لا نؤمن به إذ فصلناه عن حياته، عمَّا له! وندَّعي بعد ذلك أننا نحيا على رجاء المعجزات، ونصرخ من أجل المعونة دون أن نعمل ما يعمله هو، بل نطيع إرادة غير إرادته، وبعد ذلك ندعوه "يا رب" ونعبده دون أن نكمِّل مشيئته التي هي مشيئة أبيه. هذا ليس إيماناً به. فنحن خلَّصنا ليس لأننا نؤمن بالمعجزات والقوى الفائقة، هذا إيمان لا يريده لأنه إيمان وهمي كاذب.

ولكن إن جعلنا مشيئتنا هي نفس مشيئته التي تملأ حياته والتي ساقته إلى الموت لينزل إليه ليبيده، فهذه المشيئة تُدعى حقًّا الإيمان به وتكون هي الموت والقيامة كثمرة عمل الإيمان، وهذا هو **الشبه** للمسيح وأعماله. فإذا تشبَّهنا بموته حتماً سنتشبَّه بقيامته لأن موته ينشئ قيامة، وبالتالي تشبُّهنا بحياته في الله «لأنكم قد مُتُّم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله.» (كو ٣:٣)

وعليه يستحيل أن نؤمن بالمسيح دون أن نشاء الكأس الذي شربه، وأن نعتمد بالمعمودية التي اعتمد بها، أي ندخل حرباً سافرة ضد الخطية، ونضع أنفسنا كما وضع هو. **هذا هو الشبه** لموت المسيح، هذا هو الإيمان الحقيقي "إيمان ابن الله الذي أحبني وأسلم نفسه من أجلي" (غل ٢: ٢٠)، وأحب الكنيسة وأسلم نفسه من أجلها.

أمَّا الإيمان الذي نحياه بعيداً عن التشبُّه به والالتزام بحياته فهو ليس إيماناً وإنما نظرية تلقيناها وحفظناها لنردِّدها بعيداً عن قلبنا ووعينا وإيماننا.

من هنا تصبح المعمودية التي نتكلَّم عنها هي معمودية موته وقيامته، نشتهيها شهوة ونقدِّسها تقديساً، لأنه هو اشتهى الموت وقدَّسه تقديساً فحوَّله إلى حياة جديدة أبدية.

٨ ـ قيام المعمودية على أساس موت المسيح وقيامته

إن انقطاع الصلة الأساسية بين معمودية يوحنا والمعمودية المسيحية يُصرِّح بها يوحنا المعمدان نفسه:

+ «أنا أُعمِّدكم بماء للتوبة، ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني، الذي لست أهلاً أن أحمل حذاءه. هو سيعمِّدكم بالروح القدس ونار.» (مت ٣:١١)

وأيضاً:

+ «أنا أعمِّدكم بماء، ولكن يأتي مَنْ هو أقوى مني، الذي لست أهلاً أن أحل سيور حذائه، هو سيعمِّدكم بالروح القدس ونار.» (لو ٣:١٦)

حيث النار من ملابسات الكلام هي إشارة إلى الدينونة العتيدة أن تكون جزاءً لمن لا يجوز هذه المعمودية.

وأيضاً:

+ «أنا عمَّدتكم بالماء، وأمَّا هو فسيعمِّدكم بالروح القدس.» (مر ١:٨)

إذن فمعمودية المسيح ليست كمعمودية يوحنا، أي ليست تمهيدية أو إعداداً لآخر. فهي معمودية كمال ونهاية، وتقود مباشرة إلى ملكوت السموات الذي جاء المعمدان ليعدَّ لمن سيفتتحه.

واضح هنا إن إعطاء الروح القدس الذي قال به المسيح (أع ١: ٥و٨)، وحقَّقه يوم الخمسين، وأكَّد قوته وعمله، هو عمل أخروي يختص بكشف ملكوت الله وإعطاء القوة لبلوغه. فهو عطية أخروية ولكن كمجرَّد عربون، الأمر الذي جعل ق. مرقس يكتفي بذكر الروح القدس ولم يذكر "النار"، لأن "النار" لا تتبع الزمن الحاضر.

هذا العمل الأخروي الذي اختصَّت به معمودية المسيح أو المعمودية المسيحية هو عنصر جديد جدًّا وغير موجود في مفهوم المعمودية بواقعها عند المعمدان والعهد القديم، فعطية الروح القدس غير مستمدَّة من ماضٍ أو من آخر، ولكن من شخص المسيح مباشرة ومن عمله.

وانسكاب الروح القدس العلني على كل جسد (أع ٢:١٧) هو عمل مختص "باسم المسيح" «سيرسلة الآب باسمي» (يو ١٤:٢٦)، وبالقيامة وذهاب المسيح إلى الآب وذلك من كلام المسيح

نفسه: «لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزِّي. ولكن إن ذهبت أرسله إليكم.» (يو ١٦:٧)

لذلك لم تبدأ الكنيسة بالمعمودية إلاَّ بعد أن صارت بيت الروح القدس وقادرة أن تعطيه، علماً بأنه مرسل من عند الآب باسم المسيح «وأمَّا المعزي الروح القدس الذي **سيرسله الآب باسمي** فهو يعلِّمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم.» (يو ١٤:٢٦)

ولكن ما دخل الروح القدس في مغفرة الخطايا؟

معروف أن معمودية يوحنا كانت لمغفرة الخطايا للتوبة، استعداداً أو تمهيداً لدخول عهد المسيَّا أو لقرب مجيء ملكوت الله. ولكن بمجيء المسيح أخذ موضوع مغفرة الخطايا معنى آخر. فها هو ملكوت الله قد جاء، فقد أصبح المطلوب هو مغفرة الخطايا لدخول ملكوت الله، أي مطلوب مغفرة خطايا بصورة أبدية مطلقة لتساوي الحياة الأبدية التي انفتحت علينا بعد أن كانت مخفية عند الآب، كقول ق. يوحنا في رسالته الأُولى. والخطايا بمفهومها الإنجيلي دين، فالآن مطلوب من يدفع ثمن هذا الدين. وهذا كان عمل المسيح منذ أن بُشِّر بميلاده «وتدعو اسمه يسوع لأنه يخلِّص شعبه من خطاياهم» (مت ١:٢١)، وهكذا أخذ اسم ومعنى "مغفرة الخطايا" بكلمة "الخلاص". وهكذا وُلِدَ المسيح ليكون "المخلِّص".

والخلاص تمَّ على الصليب بذبح المخلِّص كذبيحة خلاص أو كفَّارة، ولم يُستعلن الصليب أنه كان واسطة الخلاص إلاَّ بعد قيامة المسيح من الأموات. هكذا بموت المسيح وقيامته استُعلن الخلاص الذي تمَّ لجميع العالم، حتى لا يهلك كل مَنْ يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية. وهكذا ارتبط غفران الخطايا "**بالإيمان بالمسيح بموته وقيامته**".

ولكن ما علاقة الإيمان بالمسيح وموته وقيامته بالمعمودية؟

نعود إلى معمودية يوحنا لنجد أن غفران الخطايا الذي نادى به المعمدان كان شرحه أن يؤمن اليهودي أن هذه المعمودية **من السماء**، وكانت قوة غفران الخطايا فيها لا تتعدَّى أثرها الجسدي الزمني، لأنها كانت مجرَّد إعداد لعهد آتٍ وليست للأبدية. لذلك كان ماء المعمودية عند يوحنا المعمدان مرتبطاً بالإيمان بالسماء، أي عودة الإيمان اليهودي إلى وضعه الأول عند إبراهيم وإسحق ويعقوب.

أمَّا معمودية المسيح فالماء فيها مرتبط بالإيمان بالمسيح وما عمله المسيح من أجل الخلاص، أي غفران الخطايا، أي بالموت على الصليب والدفن والقيامة. وهنا الغفران ليس زمنياً ولا جسدياً، بل هو غفران أبدي يخص النفس بالدرجة الأُولى. هكذا أصبحت معمودية المسيح أو المعمودية المسيحية

قائمة على قاعدة الإيمان بالمسيح شخصياً وبرسالة الخلاص التي تمّت بالموت والدفن والقيامة. وقد انكشفت عن عيني يوحنا المعمدان بصفته النبي الخاص السابق للمسيح، فرأى المسيح بعد المعمودية وهو سائر بجوار الأُردن فقال: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو ١:٢٩). فالمسيح نزل المعمودية على أساس هذه المهمة العظمى التي أسماها المسيح بعين نبوّته «نكمِّل كل بر»، لا من أجل نفسه بل من أجل الجميع. والبر من أجل الجميع هو برفع خطاياهم حتماً، لأنه لا يُحسب أحد "باراً" إلاّ إذا كان بلا خطية، الأمر الذي ستنتهي إليه معمودية الناس باسم المسيح.

نعود ونقول إن الجديد في المعمودية هو انسكاب الروح القدس الذي هو عطية الآب باسم المسيح، الذي انسكب بمجرَّد صعود المسيح: «وأمَّا المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلِّمكم كل شيء ...» (يو ١٤:٢٦)، «لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزِّي. ولكن إن ذهبت أُرسله إليكم» (يو ١٦:٧). وأيضاً: «لأن الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد، لأن يسوع لم يكن قد مُجِّد بعد» (يو ٧:٣٩). وقد وفّى المسيح بوعده، فبعد الصعود بعشرة أيام، أي في عيد الخمسين، سكب الروح القدس فكان أقوى مفاعيل المعمودية. ولكن موقعه من معمودية الماء هو بعد اكتمالها، أي أن بالمعمودية يتم غفران الخطايا القائم على مشاركة المسيح في موته وقيامته بالإيمان والغطس تحت الماء كأنه للموت والدفن مع المسيح، **ثمَّ بالقيامة** معه. وهنا يكون عمل الروح القدس في الإحياء أو الإقامة من الموت للقيامة مع المسيح، حيث يشكِّل الروح القدس صورة الميلاد الثاني من الماء ليكون الإنسان الجديد على صورة خالقه في مجد القيامة والحصول على الحياة الأبدية.

لذلك أصبح عمل الروح القدس في المعمودية عملاً أساسياً للتكميل، وبدونه لا تكمل المعمودية، وكأنه أصبح عمل المعمودية بالأساس أن تهب الروح القدس بعد تكميل الغفران، ثمَّ يعود الروح القدس يكمِّل عمل المعمودية في قيامة المولود جديداً على صورة المسيح لملء الحياة الأبدية: فالمعمودية **بالماء** = موت وغفران، **وبالروح** = قيامة وحياة. وبالنهاية تكون "المعمودية بالماء والروح" = الدخول لملكوت الله في المسيح.

وينطبق على ذلك ويشرحه قول ق. بولس الرسول: «أم تجهلون أننا كل مَنْ اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته، فدُفِنّا معه بالمعمودية للموت، حتى كما أُقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضاً في جدة الحياة» (رو ٦: ٣و٤)، «لأنه إن كنّا قد صرنا متحدين معه بشبه موته نصير أيضاً بقيامته.» (رو ٦:٥)

حيث كلمة "بشبه موته" تشير إلى الفرق بين موته وموتنا: فموته كان موتاً للخطية أمَّا موتنا فهو موت جسد الخطية. وكما مات المسيح للخطية مرَّة واحدة وقام ولن يسود عليه الموت بعد (رو ٦: ٩و١٠)؛ هكذا أيضاً بحسب سفر العبرانيين معموديتنا هي معمودية واحدة، لأن شركتنا في موت الصليب هي مرَّة واحدة، فإذا سقط أحد بعيداً عن الإيمان والمسيح بعد المعمودية لا يمكن تجديده مرَّة أخرى، وإلاَّ يكون كمن يصلب لنفسه المسيح مرَّة أخرى (عب ٦:٦).

أمَّا معنى المعمودية الرسمي المسيحي من منطوق المسيح فهي «يليق بنا أن نكمِّل كل برٍّ» على أساس الطاعة لصوت الله.

القيامة والميلاد الجديد:

+ «لأنه لمن من الملائكة قال قط **أنت ابني أنا اليوم ولدتك**» (عب ١:٥) التي قيلت للمسيح من جهة قيامته.

+ «كذلك المسيح أيضاً لم يمجِّد نفسه ليصير رئيس كهنة، بل الذي قال له **أنت ابني أنا اليوم ولدتك.**» (عب ٥:٥)

فإذا أضفنا إليها شهادة إنجيل ق. لوقا في بعض المخطوطات الغربية التي تقول: إنه لمَّا انفتحت السماء جاء الصوت يقول: «**أنت ابني الحبيب أنا اليوم ولدتك**» (لو ٣:٢٢) فإنها تكشف صحة ما جاء في رسالة العبرانيين.

وهذا يُعتبر من أهم ما يمكن بالنسبة للمفهوم المسيَّاني ليسوع المسيح من جهة قيامته من الأموات. فإذا أضفنا إليه ما قاله مزمور (٢:٧): «إني أخبر من جهة قضاء الرب. قال لي **أنت ابني أنا اليوم ولدتك**»، وقد شرحه بولس الرسول بأن «اليوم ولدتك» هو يوم قيامته (رو ١:٤، عب ٥:٥)، وقد أعادها أيضاً سفر الأعمال: «ونحن نبشِّركم بالموعد الذي صار لآبائنا، إن الله قد أكمل هذا لنا نحن أولادهم، إذ أقام يسوع، كما هو مكتوب أيضاً في المزمور الثاني: **أنت ابني أنا اليوم ولدتك = إنه أقامه من الأموات.**» (أع ١٣: ٣٢-٣٤)

هنا اصطلاح لاهوتي خطير يهمنا جدًّا في مفهوم المعمودية: أن القيامة هي ولادة جديدة سماوية (أع ١٣:٣٣)، والآية واضحة «إن الله قد أكمل هذا لنا نحن أولادهم إذ أقام يسوع، كما هو مكتوب أيضاً في المزمور الثاني: أنت ابني أنا اليوم ولدتك، إنه أقامه من الأموات غير عتيد أن يعود أيضاً إلى فساد». هكذا فهمنا المعمودية أنها لميلاد ثانٍ أي جديد، ذلك على أساس واضح أنها قائمة

على موت المسيح وقيامته. وقيامة المسيح تشكّل في الحقيقة اللاهوتية «ميلاداً جديداً من السماء»، أي من فوق، على أساس نداء الآب من السماء في المعمودية في الأُردن، ومن واقع لاهوتي بحد ذاته باعتبار القيامة من بين الأموات التي قامها المسيح هي ميلاد جديد للبشرية كلها فيه من بعد الموت معه: «مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي حسب رحمته الكثيرة **ولدنا ثانية** لرجاء حي **بقيامة يسوع المسيح من الأموات**.» (١بط ١:٣)

٩ – المعمودية والاتحاد بجسد المسيح

في اللاهوت الخلاصي معروف أن المسيح مات وهو حامل خطايانا في جسده على الخشبة بحسب ق. بطرس، ولمَّا مات مُتنا معه، لأن جسده الذي تجسَّد به هو جسدنا، والموت الذي ماته ماته لأنه حمل خطايانا وحُوكم بمقتضاه راضياً وقَبِلَ حكم الموت صلباً، فهو مات من أجلنا ونحن متنا معه بالتالي، وبعد الصلب دُفن في باطن الأرض ثلاثة أيام وكنَّا معه أمواتاً بجسد الخطية، فلمَّا قام، قام بجسدنا بقوة لاهوته وبإرادته وبقوة الآب والروح القدس، فقُمنا معه. قام بقداسته الأزلية التي له بلا أي خطية، فنلنا نحن من قداسته، ونلنا من طهارته وحياته الأبدية بحكم الاتحاد الذي تمَّ في التجسُّد والموت والقيامة.

وكان المسيح قد ألمح أن موته على الصليب وصبغته بالدم هي في الحقيقة معموديته التي سيجوزها حتماً من أجلنا، فما معنى هذا؟ معناه أننا قبلنا مع معمودية أو صبغة المسيح معموديتنا بالضرورة، بمعنى أننا اعتمدنا مع المسيح في موته وقيامته، ذلك بلا عمل من جهتنا ولا إيمان ولا صلاحية من أي نوع، لأنه أتمَّ ذلك ونحن كنَّا لا نعرفه:

+ «ونحن أموات بالخطايا أحيانا مع المسيح.» (أف ٢:٥)
+ «هكذا أحبَّ الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية.» (يو ٣:١٦)
+ «الله بيَّن محبته لنا، لأنه **ونحن بعد خطاة** مات المسيح لأجلنا.» (رو ٥:٨)

إنه عمل مجَّاني من طرف واحد. والآن ما قيمة عمل المعمودية في الكنيسة؟ (سنرد على هذا السؤال بعد قليل). على أن معمودية المسيح التي اعتمدها بصبغة دم الصليب هي المفهوم الأصيل واللاهوتي والوحيد لاسم ومعنى وعمل المعمودية باسم المسيح.

ومروراً في طريق فهمنا وبحثنا عن المعمودية يُسأل هنا: هل اعتمد المسيح وانصبغ بالدم ومات وقام من أجل الأطفال أيضاً أم لا؟

نعود إلى تعبير ق. بولس في رسالته لأهل رومية: «أم تجهلون أننا كل مَنْ اعتمد ليسوع المسيح

اعتمدنا لموته، فدُفنا معه بالمعمودية للموت، حتى كما أُقيم المسيح من الأموات، بمجد الآب، هكذا نسلك نحن أيضاً في جدة الحياة. لأنه إن كنّا قد صرنا متحدين معه بشبه موته نصير أيضاً بقيامته» (رو ٦: ٣-٥). فإذا أضفنا إليه ما كتبه ق. بولس أيضاً في رسالته لأهل كورنثوس: «لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد، يهوداً كنّا أم يونانيين، عبيداً أم أحراراً، وجميعنا سُقينا روحاً واحداً.» (١كو ١٢: ١٣)

فذلك يشرح أن شركتنا في موت المسيح وقيامته في المعمودية تكون: «بروح واحد»، «إلى جسد واحد»، واضح أنه جسد المسيح بمعنى كنسي، أي جماعة المؤمنين أي الكنيسة.

فلكي نحدِّد جوهر ومعنى المعمودية من هاتين الآيتين: نجد أن الآية الأُولى تعطي إجابة واضحة لسؤال: ماذا يكون معنى فعل المعمودية في الكنيسة الأُولى إن كنّا قد اعتمدنا جميعاً بعماد المسيح على الصليب؟

والمعنى الذي نستخلصه من الآيتين معاً هو الرباط السرِّي الذي يربط بينهما، بمعنى أن جسد المسيح هو هو الجسد المذبوح على الصليب، الأمر الذي توضِّحه الآيات الآتية:

+ «الذي الآن أفرح في آلامي لأجلكم، وأكمِّل نقائص شدائد (جسد) المسيح في جسمي، لأجل جسده، الذي هو الكنيسة.» (كو ١: ٢٤)
+ «لأنه كما تكثر آلام المسيح فينا، كذلك بالمسيح تكثر تعزيتنا أيضاً.» (٢كو ١: ٥)
+ «بل كما اشتركتم في آلام المسيح، افرحوا، لكي تفرحوا في استعلان مجده أيضاً مبتهجين.» (١بط ٤: ١٣)

وحتى في جسده المقام:

+ «ولكن الآن قد قام المسيح من الأموات وصار باكورة الراقدين. فإنه إذ الموت بإنسان، بإنسان أيضاً قيامة الأموات. لأنه كما في آدم يموت الجميع، هكذا في المسيح سيُحيا الجميع.» (١كو ١٥: ٢٠-٢٢)

وهكذا على قاعدة العلاقة بالمسيح في الموت والقيامة معه من ناحية، ومن ناحية أخرى على قاعدة بناء جماعة المؤمنين في المسيح، يكتب ق. بولس لأهل غلاطية هذا النص (الثمين جداً للمعمودية):

+ «لأن كُلَّكُم الذين اعتمدتُم بالمسيح قد لبستُم المسيح. ليس يهوديٌّ ولا يونانيٌّ، ليس عبدٌ ولا

حرٌّ، ليس ذكرٌ وأُنثى، لأنكم جميعاً واحدٌ في المسيح يسوع. فإن كنتم للمسيح، فأنتم إذاً نسلُ إبراهيمَ، وحسب الموعدِ ورثةٌ.» (غل ٣: ٢٧-٢٩)

في هذه الآيات جميعها نحن لا نقرأ عن **كيف يفهم المعمَّد علاقته** بموت المسيح وقيامته، وعلاقته بالجسد الميت والمُقام، **بل يتقبَّل ويستلم ويأخذ بعقله وقلبه وفكره وروحه وإيمانه وكل كيانه علاقة حيَّة واتصالاً والتصاقاً واتحاداً في موت المسيح وقيامته، وبالتالي في جسده، ليصير جزءاً حيًّا من هذا الجسد، بالموت، فتُرفع عنه خطاياه في الحال، وبالقيامة يستلم إنسانه الجديد، خليقة جديدة حيَّة لها صورة المسيح المقام.**

وباختصار لغوي يكون الإنسان المعمَّد في حالة انفتاح لتقبُّل فعل إلهي، ويكون المسيح في حالة قبول أعضاء جُدد لجسده الذي يملأ الكون كله؛ والذي يضم الأعضاء الجدد إلى جسد المسيح بسرّ المعمودية هو الله!

+ «وكان الرب كل يوم **يضم** إلى الكنيسة الذين يخلصون.» (أع ٢:٤٧)
+ «فقبلوا كلامه بفرح واعتمدوا **والضمَّ** في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف نفس.» (أع ٢:٤١)

انظر أيها القارئ كيف يبني الله كنيسته؟

وطبعاً على الكنيسة أن تُعلن وتُهلِّل وتُبشِّر بذلك في تعاليمها. ولكن هل تعليم الكنيسة يُعلن عن كيفية بنائها؟ أم أن الذي يبنيها هو الله سرًّا بفعل الإيمان وسر العماد؟ وهل على الكنيسة أن تُعلن هذا؟ وهل في إعلانها فرح ومسرَّة؟

اسمع الكنيسة وهي تفتخر:

+ «ولكن الله بيَّن محبته لنا، لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا، فبالأولى كثيراً ونحن متبرِّرون الآن بدمه نخلص به من الغضب ـ لأنه إن كنَّا ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه، فبالأَولى كثيراً ونحن مُصالحون نخلص بحياته.» (رو ٥: ٨-١٠)
+ «في هذا هي المحبةُ: ليس أننا نحن أحببنا الله، بل أنه هو أحبنا، وأرسل ابنه كفَّارة لخطايانا ... نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً.» (ايو ٤: ١٠و١٩)
+ «ليس أنتم اخترتموني بل أنا اخترتكم، وأقمتكم لتذهبوا وتأتوا بثمر، ويدوم ثمركم. لكي يعطيكم الآب كل ما طلبتم باسمي.» (يو ١٥:١٦)

كل هذا بسبب ما عملته المعمودية فينا ولنا، إذ جمعتنا ووحَّدتنا في جسد المسيح. فنعمة المعمودية

ليست صورة نتأمّل فيها ونتكلّم عنها، بل حقيقة حيَّة نابضة تأخذ نبضاتها من الجلجثة التي تمّت مرّة وإلى الأبد. وهي تمتد بالمعمودية في عمق الزمن حتى الأبدية. وسيبقى حدث الجلجثة وحدث المعمودية واحداً كما هو واحد في الإفخارستيا. هذا ليس معناه أن المعمودية ولا الإفخارستيا هما تكرار للجلجثة، لأن الجلجثة ستبقى حدثاً جديداً ما بقي الزمن وإلى الأبد، والذين يعتمدون يجدّدونها في فكرنا وفكر الكنيسة.

١٠ – المعمودية والإيمان

أهمية المعمودية تقوم على أمرين: **الأول** ماذا يحدث في المعمودية، **والثاني** ما هي نتائج المعمودية، الأمر الذي يستمر مدى الحياة للمُعمَّد.

والآن نضع الأساس ونسأل: ما هو دور الإيمان قبل وأثناء المعمودية؟ وما هو دور الإيمان بعد المعمودية؟

هنا نستوضح ما جاء في (١كو ١٠:١ إلخ):

+ «فإني لست أريد أيها الإخوة أن تجهلوا أن آباءنا جميعهم كانوا تحت السحابة، وجميعهم اجتازوا في البحر، وجميعهم اعتمدوا لموسى في السحابة وفي البحر. وجميعهم أكلوا طعاماً واحداً روحياً، وجميعهم شربوا شراباً واحداً روحياً، لأنهم كانوا يشربون من صخرة روحية تابعتهم، والصخرة كانت المسيح. لكن بأكثرهم لم يُسرّ الله، لأنهم طُرحوا في القفر. وهذه الأمور حدثت مثالاً لنا، حتى لا نكون نحن مشتهين شروراً كما اشتهى أولئك: فلا تكونوا عبدة أوثان ... جلس الشعب للأكل والشرب ثمَّ قاموا للعب، ولا نزنِ ... ولا نجرِّب المسيح ... ولا تتذمَّروا ... فهذه الأمور جميعها أصابتهم مثالاً، وكُتبت لإنذارنا نحن الذين انتهت إلينا أواخر الدهور.» (١كو ١٠: ١–١١)

فلنتمعَّن ما أصاب شعب إسرائيل في طريقهم عبر البحر الأحمر، الذي هو نموذج أصلي للمعمودية، وقد تكرَّر ذكر هذه الحادثة بالنسبة للجزء الأعظم من الشعب والنتائج المرعبة لها (انظر: عب ٣:٧–١٣)

كذلك حينما يتكلَّم العهد الجديد عن السقوط بعيداً عن نعمة المعمودية يقول:

+ «لأن الذين استنيروا مرَّة (أي تعمَّدوا)، وذاقوا الموهبة السماوية، وصاروا شركاء الروح القدس، وذاقوا كلمة الله الصالحة وقوَّات الدهر الآتي (كلها عطايا وهبات المعمودية)، وسقطوا، لا يمكن تجديدهم أيضاً للتوبة، إذ هم يصلبون لأنفسهم ابن الله ثانية ويشهِّرونه (لأن التجديد يحتاج إلى صلب المسيح مرَّة أخرى وإشهاره).» (عب ٦: ٤–٦)

وأيضاً:

+ «فإنه إن أخطأنا باختيارنا بعدما أخذنا معرفة الحق، لا تبقى بعد ذبيحة عن الخطايا، بل قبول دينونة مخيف، وغيرة نار عتيدة أن تأكل المضادين. مَنْ خالف ناموس موسى فعلى شاهدين أو ثلاثة شهود يموت بدون رأفةٍ. فكم عقاباً أشرّ تظنُّون أنه يُحسب مستحقًّا مَنْ داس ابن الله، وحسب دم العهد الذي قُدِّس به دنساً، وازدرى بروح النعمة. فإننا نعرف الذي قال: لي الانتقام، أنا أجازي، يقول الرب. وأيضاً: الرب يدين شعبه. مخيف هو الوقوع في يدي الله الحيّ.» (عب ١٠: ٢٦-٣١)

واضح من هذا أن الذي يفقد نعمة المعمودية فهي لا تُعوَّض، وتكون حياته بعد ذلك حرجة جدًّا قياساً على ما أخذه في معموديته. وفي نفس الوقت نجد أن الذي يُعطَى في المعمودية عظيم ومهول وفائق على العقل والتصوُّر، ولا يحتاج إلى موافقة أو فهم. إنها عضوية في جسد المسيح وبالتالي مواطنة سمائية، وهذه وتلك لها خصائصها وقوتها الدافعة، وأي رجعة أو تعطيل في مسار نعمة المعمودية هذه يُحسب خيانة تماماً تماماً كما تُحسب خيانة المواطنة، وخيانة للمسيح الذي لبسه في المعمودية، وخيانة للروح القدس الذي وهبه القيامة وقوتها للحياة الجديدة.

فالمعمودية كفعل خلاص هي فقط بدء للانطلاق لحياة تعمل فيها، لذلك سُمِّيت بالميلاد الثاني. ولكن الميلاد هو بدء حياة تُحسب له وعليه، هي في ذلك كميلاد الجسد الذي له عمر سنين كحدث قائم بذاته ولكنه ممتد ومتصل بعمر المولود. فإذا انقطعت صلة حياة المولود بميلاده يموت في الحال، لأن قوة حياة ميلاده هي التي تجعله يعيش. تماماً في حالة الميلاد الثاني من الماء والروح، فبعد الميلاد يستمر المولود ثانية في حياة بالروح، ولكن إذا انقطع الإيمان انقطعت صلة المولود بقوة دفع حياة ميلاده الثاني، فيموت.

لذلك فإن المعمودية للميلاد الثاني يتحتَّم أن تُحسب أنها بداية جديدة لحياة جديدة. إنها حقيقة خلاص، وإنها حقيقة موت للخطية: «كذلك أنتم أيضاً احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية، ولكن أحياءً لله بالمسيح يسوع ربنا.» (رو ٦: ١١)

ففي المعمودية نحن وعاء فارغ يمتلئ بهبة وعطية الله، وبعد المعمودية يتحتَّم أن نؤمن بما أخذنا ونبشِّر ونعترف ونشكر ونتمسَّك بما أخذنا. هذا توضِّحه حادثة عماد شعب إسرائيل في البحر الأحمر: العمل هو عمل الله المجاني، وعلى الشعب أن يخضع ويطيع ويستجيب لعمل الله. وباختصار

ا لله يعمل والشعب يستجيب - ولكن الذي حدث أن معظم الشعب لم يستجب لمعجزة الله، وهكذا لم تكفهم المعجزة بكل قوتها ورعبها حتى تجعلهم يؤمنون ويخلصون، لأنهم لم يخضعوا لها بالإيمان وعادوا إلى خطيتهم. هكذا المعمودية معجزة بحد ذاتها مجّانية، ولكن بعد حدوثها مطلوب الإيمان بها والعمل بمكتسباتها.

وما هي المعمودية؟ هي معجزات المسيح في موته وقيامته وغفران خطايانا وإعطائنا استنارة روحية وعضوية في جسده وفي عهده ونعمة الحياة الجديدة. هذه المعجزات الفائقة الغير حسّيَّة والباطنية الداخلية والفائقة العقل، أراد الله أن ينقلها للأفراد فرداً فرداً، ليذوقها في المعمودية كل إنسان على حدة بصورة خاصة وسريَّة. كان من الصعب أن يؤمن بها الإنسان قبل أن يأخذها، ولا يُحاسب على هذا، ولكن إن أخذها بصورتها الباطنية وذاقها وأحسَّها وعاش فيها، إن هو أنكرها بعد أن يكون قد أخذها، وتنكّر لها بعد أن يكون قد عاشها وذاقها، تُسحب منه نعمة المعمودية وكل عطيتها ونورها وصلتها بالمسيح، ويصبح الإنسان خائناً لنعمة المعمودية، خائناً للمسيح، خائناً للدم الذي قُدِّس به مزدرياً بروح النعمة، ويكون أقل من غير المؤمن ولا يمكن تجديده مرَّة أخرى.

فالإيمان يُطلب من كل مَنْ اعتمد، وإلاَّ تُسحب منه الحياة الجديدة ويكون في حكم المائت روحياً، أي أبدياً، ولا يكون له تجديد مرَّة أخرى.

١١ ـ معمودية الماء ومعمودية الروح

١ ـ الميلاد من فوق: هو فعل إلهي من فوق.
الميلاد الثاني: هو الميلاد الثاني من الماء والروح.

والاثنان بمعنى واحد يفيد أن المعمودية هي عامل الولادة الثانية:

+ «الحق الحق أقول لك: إن كان أحد **لا يولد من الماء والروح** لا يقدر أن يدخل ملكوت الله.» (يو ٣:٥)
+ «لا تتعجَّب أني قلت لك: ينبغي أن **تولدوا من فوق**.» (يو ٣:٧)
+ «بمقتضى رحمته خلَّصنا بغسل **الميلاد الثاني** وتجديد الروح القدس.» (تي ٣:٥)

ولكن المذكور في (يو ٣:٧) هو ميلاد روحاني الذي يوحي إليه اصطلاح مولودين من فوق، أو مولودين ثانية، لأن الميلاد الثاني لا يمكن أن يكون من اللحم:

+ «الذين وُلِدُوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل، بل من الله.» (يو ١:١٣)
+ «المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح.» (يو ٣:٦)

بمعنى أن الميلاد الثاني يكون دائماً من أصل إلهي: "من فوق" من الثالوث الأقدس، من الآب (يع ١:١٨، ١بط ١:٣)، ومن الابن (يو ١:١٢)، ومن الروح القدس (تي ٣:٥)، ولكنه يُدعى عادة من الروح. فالمعمودية هي الأداة التي يؤدّي فيها الروح القدس عمله في الولادة الثانية.

٢ ـ الماء والروح (يو ٣:٥):
هو وصف تعبيري أو تفسيري للمعمودية بمفهوم أن المعمَّد يُعمَّد:
(أ) في الماء:

+ «كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها، لكي يقدِّسها مطهِّراً إيَّاها **بغسل الماء** بالكلمة.» (أف ٥: ٢٥و٢٦)
+ «والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة: الروح والماء والدم، والثلاثة هم في الواحد.» (١يو ٥:٨)

حيث غسل الماء يشير لمغفرة الخطايا:

+ «توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح **لغفران الخطايا**، فتقبلوا عطية الروح القدس.» (أع٢ :٣٨)
+ «والآن لماذا تتوانى، قم واعتمد **واغسل خطاياك** داعياً باسم الرب.» (أع ٢٢:١٦)
+ «وهكذا كان أُناس منكم، لكن **اغتسلتم**، بل تقدَّستم، بل تبرَّرتم، باسم الرب يسوع وبروح إلهنا.» (١كو ٦:١١)

(ب) في الروح:

على قدر ما يُعطَى الروح القدس للشخص المعمَّد من أجل تجديده الروحي وتقديسه.

والاثنان يعملان معاً (أ، ب)، **الماء والروح**، حيث يكون **الماء** كالوسط العامل فيه الروح، **والروح** هو السبب والمؤثِّر، ويكوِّنان معاً عنصري المعمودية المنظور والسببي. ويمثِّل هذا الشرح قول ق. بولس لتيطس:

+ «لا بأعمال في برٍّ عملناها نحن، بل بمقتضى رحمته خلَّصنا **بغسل** الميلاد الثاني وتجديد **الروح** القدس.» (تي ٣:٥)

هنا الماء كعنصر هام في المعمودية يعمل **بالإيمان والكلمة** لغسل الخطايا مضافاً إليه الروح كعنصر هام في المعمودية منوط به تجديد الروح للخليقة!! ويؤيِّد هذا قول بولس الرسول لأهل أفسس: «لكي يقدِّسها مطهِّراً إياها بغسل الماء بالكلمة» (أف ٥:٢٦). هنا **الماء** للغسل والتقديس **بالكلمة أي الماء بالكلمة**.

ويضمّها معاً ق. بولس قائلاً: «لكن اغتسلتم بل تقدَّستم بل تبرَّرتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا». هنا عمل المعمودية وعمل الروح معاً دون أي تفريق لهذه كلها: الغسل والتقديس والتبرير.

٣ - على أن كلمة الله الحيَّة التي هي العاملة في الميلاد الثاني حسب قول بطرس الرسول (١بط ١: ٢٣)، هي في حقيقتها **يد الله** على المعمَّد للخلق الثاني بالروح القدس، تستقبلها **يد الإنسان** في المعمودية بالإيمان. واليدان معاً للعطاء والأخذ معاً هما سر المعمودية. يد الله تقدِّم الحق والإيمان والروح والفرح بالعطاء للخلق، ويد الإنسان هي التصديق والإيمان والفرح بالأخذ للحياة الجديدة.

٤ - «هو سيعمِّدكم بالروح القدس ونار» (مت ٣:١١):

النار هنا جاءت بدون (ألـ) التعريف، فهي صفة لعمل الروح، أي الدينونة والتوبيخ الشديد الذي

يحرق كنار كل ما هو خاطئ ومنحرف عن البر. فـ"الروح ونار" هنا هما واحد لعمل واحد: أي الهدم للخطأ بفاعلية محرقة، والبناء للحق بفاعلية نارية. فإن كانت المياه على يد المعمدان تغسل بالراحة، فالمعمودية بالروح ونار تغسل بالإحراق، وكلاهما للتطهير؛ ولكن الروح ونار توضِّح العمل الأعلى الإلهي لحرق الشوائب الخارجية للجسد وإنارة المواهب الداخلية في النفس، وهي خاصة بتلاميذ الرب للإعداد والتأهيل.

٥ ـ المعمودية بالروح القدس:

أولاً: لقد جاءت في الأربعة أناجيل كالآتي:

إنجيل متى:

+ «أنا أُعمِّدكم بماء للتوبة، ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني، الذي لست أهلاً أن أحمل حذاءه. **هو سيعمِّدكم بالروح القدس ونار.**» (مت ٣:١١)

إنجيل مرقس:

+ «أنا عمَّدتكم بالماء، **وأمَّا هو فسيعمِّدكم بالروح القدس.**» (مر ١:٨)

إنجيل لوقا:

+ «أنا أُعمِّدكم بماء، ولكن يأتي مَنْ هو أقوى مني، الذي لست أهلاً أن أحل سيور حذائه، هو **سيعمِّدكم بالروح القدس ونار.**» (لو ٣:١٦)

إنجيل يوحنا:

+ «وأنا لم أكن أعرفه، ولكن الذي أرسلني لأُعمِّد بالماء ذاك قال لي: الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه، فهذا هو الذي **يُعمِّد بالروح القدس**. وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله.» (يو ١: ٣٣و٣٤)
+ «إن عطش أحد فليُقبل إليَّ ويشرب. مَنْ آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حيٍّ. قال هذا عن **الروح الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه، لأن الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد، لأن يسوع لم يكن قد مُجِّد بعد.**» (يو ٧: ٣٧-٣٩)
+ «ولمَّا قال هذا نفخ وقال لهم: **اقبلوا الروح القدس، مَنْ غفرتم خطاياه تُغفر له** ومَنْ أمسكتم خطاياه أُمسكت.» (يو ٢٠:٢٢و٢٣)

هذه هي الشواهد التي جاءت في الأناجيل الأربعة عن المعمودية بالروح.

ثانياً: وقد جاءت في سفر الأعمال كالآتي:

+ «لأن يوحنا عمَّد بالماء، أمَّا أنتم **فستتعمَّدون بالروح القدس**، ليس بعد هذه الأيام بكثير.» (أع ١:٥)

+ «لكنكم ستنالون **قوة متى حل الروح القدس عليكم**، وتكونون لي شهوداً في أُورشليم وفي كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض.» (أع ١:٨)

وكان حلول الروح القدس يوم الخمسين تحقيقاً عملياً دقيقاً لما تنبَّأ به المسيح عن معمودية الروح القدس، وكانت معه:

(أ) **مظاهر الروح**: ـ «صوت كما من هبوب ريح عاصفة وملأ كل البيت حيث كانوا جالسين.» (أع ٢:٢)

ـ «ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم وامتلأ الجميع من الروح القدس.» (أع ٢: ٣و٤)

(ب) وفعل الروح: «وابتدأوا يتكلَّمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا.» (أع ٢:٤)

+ «يقول الله: ويكون في الأيام الأخيرة **أني أسكب من روحي على كل بشر**، فيتنبَّأ بنوكم وبناتكم، ويرى شبَّانكم رؤى، ويحلم شيوخكم أحلاماً. **وعلى عبيدي أيضاً وإمائي أسكب من روحي** في تلك الأيام فيتنبَّأُون.» (أع ٢: ١٧و١٨)

+ «توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا، فتقبلوا عطية الروح القدس.» (أع ٢:٣٨)

+ «فبينما بطرس يتكلَّم بهذه الأمور **حلَّ الروح القدس على جميع الذين كانوا يسمعون الكلمة**. فاندهش المؤمنون (اليهود) الذين من أهل الختان، كل مَنْ جاء مع بطرس، لأن **موهبة الروح القدس قد انسكبت على الأُمم أيضاً**.» (أع ١٠: ٤٤و٤٥)

+ «فتذكَّرتُ كلام الرب كيف قال إن يوحنا عمَّد بالماء وأمَّا أنتم **فستُعمَّدون بالروح القدس**.» (أع ١١:١٦)

٦ ـ ملاحظات هامة:

(أ) في كل هذه الإشارات عن معمودية الروح القدس لم يُعطَ لأحد قط أن يعمِّد بالروح القدس إلاَّ المسيح وحده، بل التصريح هو فقط أنهم يُعمَّدون بالروح القدس، حيث الروح القدس هنا هو المسئول مع المسيح مباشرة عن عملية التعميد وكل ظروفها وإمكانياتها ونتائجها في معمودية الروح القدس.

(ب) الملاحظ هنا بوضوح من ترديد بطرس الرسول لنبوَّة يوئيل النبي أن الروح القدس قد جاء هنا في يوم الخمسين:

- **بمظاهر مختلفة** تماماً عن كل ما عرفناه عن حلول الروح القدس في العهد القديم.
- **وبقوة مختلفة** جديدة.

وواضح من حلول الروح القدس بحسب النبوَّة والواقع في يوم الخمسين أن حلوله منتشر ومتسع بلا قيود ولا حدود. وكان في العهد القديم يحل على أفراد معيَّنين من الله. ولكن هنا العطية على التلاميذ مجتمعين أي الكنيسة بل "على كل جسد". وبينما كان حلول الروح القدس قديماً وقتياً وجزئياً ولغرض خاص، نراه هنا دائماً وملازماً ويجيء في ملء.

(ج) في إنجيل القديس لوقا (**٢٤: ٤٩**):

+ «وها أنا أرسل إليكم موعد أبي. فأقيموا في مدينة أُورشليم **إلى أن تُلبسوا قوة من الأعالي**».

وأيضاً في إنجيل القديس يوحنا (**١٥: ٢٦**):

+ «ومتى جاء المعزِّي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب، روح الحق الذي من عند الآب ينبثق، فهو يشهد لي».

وأيضاً في إنجيل القديس يوحنا (**١٦: ١٣و١٤**):

+ «وأمَّا متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلَّم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلَّم به ويخبركم بأمور آتية. ذاك يمجِّدني لأنه **يأخذ مما لي** (كلمة يخبركم خطأ) **ويستعلنه لكم**».

واضح هنا أنه جاء ليُكمِّل عمل المسيَّا ويستعلنه، واستعلان كل الحق وإرشادنا «إلى جميع الحق» يعني أن تكون موهبة الروح القدس بكل الملء. وواضح أيضاً أن المسيح هو الذي أعطى الروح القدس من عند الآب. والروح هنا بهذا الوصف يكون قد أخذ وظيفة

المسيح الذي صعد ويستعلن بقية أموره.

بهذا نفهم معمودية الروح القدس التي حدثت يوم الخمسين أنها البدء التاريخي على أساس ميلاد المسيح وحياته وموته وقيامته وصعوده، وهي تحدِّد وتبرز بداية الزمن الجديد في ملكوت الله، وقد حوت كل الحركات التاريخية ورفعتها إلى المستوى الروحي، ووظيفة الروح مع التلاميذ بدأت ببشارة الإنجيل لكل العالم.

٧ ـ الكنيسة ويوم الخمسين:

كان يوم الخمسين هو يوم ميلاد الكنيسة في الوجود المنظور، وقد حُمِّل التلاميذ بمسئولية الرسالة والرسولية في كل الأنحاء القريبة لهم في البداية. وقد اكتسبوا من حلول الروح القدس عليهم بالتساوي روح الألفة والاتحاد القوي بالروح. وبحسب وعد الرب قد تمَّ بالفعل أن تأيَّد الرسل بقوة من الأعالي ظهرت بوضوح شديد في بداية حياة الكنيسة وصراعها مع رؤساء اليهود وهيئاتهم، وشهادتهم أمام الملوك والرؤساء. كما وضحت القوات المعمولة من الكنيسة بمعجزات وأعاجيب أخرست مقاوميهم (أع ٣: ٢ إلخ، ٥: ١٢ إلخ).

كما ظهر مؤخّراً في رسائل بولس الرسول كيف كان الروح القدس يقدِّس قلوب الكنائس بالجملة لحساب الإيمان والشهادة والسلوك المسياني المشهود له، وقد خدمته موهبة الألسن التي بها سمعت جميع الأُمم الإنجيل بلسانها. وهكذا خدم بعماد الروح القدس وفتح باب انتشار الملكوت في العالم بقوات مذهلة على أيدي التلاميذ الأُميين.

٨ ـ **ولكن كلمة المسيح لا تسقط**، فالمعمودية بدأ مفهومها عند التلاميذ، بل وعند الناس عامة ممثلين في نيقوديموس الذي جاء إلى المسيح باعتباره "المعلِّم" مستفسراً عن المدخل لملكوت الله، فكان رد المسيح واضحاً ومؤسِّساً لمفهوم العماد: «**إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله.**» (يو ٣: ٣)

ولمَّا عَسُر على نيقوديموس فهم الولادة من فوق، كشف المسيح له أصلها ومبدأها من تحت: «**إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله.**» (يو ٣: ٥)

وقد شرحهما معاً ق. بولس في رسالته إلى تيطس بقوله: «لا بأعمال في برٍّ عملناها نحن، بل بمقتضى رحمته **خلَّصنا: بغسل الميلاد الثاني** regeneration، **وتجديد الروح القدس** renewal» (تي ٣: ٥). حيث الغسل هو **غسل خطايا** للإعداد للعمل الثاني وهو **تجديد الروح القدس**. ولكن

في الحقيقة هما عمل واحد للروح القدس في الماء.

فإذا انتبهنا إلى بدء ذكر كلمة معمودية الماء في يوم الخمسين، نجدها في قول بطرس الرسول للذين حلَّ عليهم الروح القدس ونخسوا في قلوبهم عند سماع كلام شرح ق. بطرس لعمل المسيح، فأرشدهم ق. بطرس لتكميل عمل الروح القدس في تغيير حياتهم وإيمانهم من اليهودية إلى المسيحية قائلاً: «**توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا، فتقبلوا عطية الروح القدس**» (أع ٢:٣٨). فهنا عمل الروح القدس في نخس قلوبهم أي لإيمانهم بالمسيح كان عمل الروح الشخصي، وق. بطرس يطلب لهم **عطية** الروح القدس أو **هبة** الروح القدس بالعماد بالماء.

وبقية الكلام هام جدًّا: «**واعتمدوا وانضم في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف نفس**» (أع ٢:٤١). هنا عماد بالروح القدس تكمَّل بالعماد بالماء باسم يسوع المسيح للتوبة ومغفرة الخطايا.

واضح هنا كل ما حدث يوم الخمسين: فبالوعظ وسماع عمل المسيح الفدائي والخلاصي، يبدأ القلب يقبل الكلام ويؤمن، وفي الحال يحل الروح القدس، فيُقاد المؤمن إلى المعمودية ليعتمد باسم المسيح، فيولد للمسيح ويتجدَّد بالروح القدس للخلقة الجديدة.

وظلَّت معمودية الماء قائمة بنفسها تنتظر معمودية الروح، كما رأينا عدة أمثلة عند الرسل، لمَّا اعتمد أهل السامرة ولم يحل الروح القدس عليهم، حتى أُرسل إليهم القديسان بطرس ويوحنا ووضعا عليهم الأيادي فحلَّ الروح القدس (أع ٨:١٥). وأيضاً عند ق. بولس كما جاء في (أع ١٩: ٥و٦): «فلمَّا سمعوا اعتمدوا باسم الرب يسوع، ولمَّا وضع بولس يديه عليهم حلَّ الروح القدس عليهم، فطفقوا يتكلَّمون بلغات ويتنبَّأون».

والعكس صحيح كما قلنا سابقاً وكما حدث مع ق. بطرس وكرنيليوس، إذ بعد أن حلَّ الروح القدس عند سماع كلمات الوعظ، بعدها عمَّده بالماء هو وأهل بيته.

وهكذا نجد أن معمودية الروح القدس هي مكمِّلة لمعمودية الماء، ومعمودية الماء لازمة لزوماً تأسيسياً لمعمودية الروح، وهما معاً معمودية "الماء والروح" حسب ترتيب الرب، غير منفصلين عن بعضهما قط. فالماء يعمل بالروح والروح يعمل بالماء. وأساس معمودية الماء لاهوتي عقائدي كما يحقِّق ذلك بولس الرسول: «أم تجهلون أننا كل مَنْ اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته» (رو ٦:٣)، باعتبار أن الدفن في الماء هو شركة موت مع الرب ليكون القيام من الماء هو شركة قيامة مع الرب. وهذان فيهما الغفران والحياة الأبدية، والذي يقوم بفعلهما وتكميلهما في الإنسان على مثال ما عمل

المسيح هو الروح القدس.

فالماء في المعمودية عنصر فعَّال للموت والقيامة، والروح القدس يكمِّل عملهما روحياً فينا لأنه يأخذ من المسيح ويستعلن لنا.

وكان الروح القدس في البداية يعمل، وله في عمله مظاهر مؤثِّرة كنوع من الشهادة لازمة في وقتها. ولكن شيئاً فشيئاً بعد أن صار الإيمان والثقة يغطيان كل عمل المعمودية، لم يصبح له أي مظاهر في المعمودية، فعمله صار سريًّا ولكن دون أن يقل تأثيره.

١٢ ــ المعمودية أيام الرسل

لقد افتتح المسيح الحديث عن المعمودية وطقسها أيام الرسل بقوله قبل صعوده: «لأن يوحنا عمَّد بالماء، وأمَّا أنتم فستتعمَّدون بالروح القدس، ليس بعد هذه الأيام بكثير ... لكنكم ستنالون قوة متى حلَّ الروح القدس عليكم، وتكونون لي شهوداً في أُورشليم وفي كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض.» (أع ١: ٥ـ٨)

هذا معناه أن معمودية يوحنا ستتغيَّر إلى معمودية الروح القدس التي تقبَّلها المسيح على الأُردن. وهنا نلمح علاقة سريَّة بين معمودية المسيح ويوم الخمسين، وأوضح ما فيها نزول الروح القدس بعلامة والتي كانت مع المسيح على هيئة جسمية مثل حمامة، وعلى الرسل كألسنة نار منقسمة استقرت على رؤوسهم. وهكذا بانتهاء عمل المسيح استلم الرسل العمل وبنفس الروح القدس. ومعمودية الروح القدس التي كانت حلماً مستقبلياً عند يوحنا المعمدان صارت حقيقة بمجرَّد قيامة المسيح وصعوده. وهكذا صارت معمودية الروح القدس اسخاتولوجية محقَّقة في ملء الزمن بانسكاب الروح القدس من عند الآب حسب "الموعد" (لو ٢٤: ٤٩، أع ١: ٤) وباسم ا لمسيح.

والروح القدس الذي انسكب على الرسل أسَّس في الحال حسب أمر المسيح الإرساليات والتبشير بالمسيح الرب: «جعل يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم ربًّا ومسيحاً» (أع ٢: ٣٦). وجميع المعجزات والقوات التي عملها الروح القدس آلت إلى تقدُّم الإنجيل، وتمَّ وعد يوئيل النبي بالرجاء المنتظر في الاسخاتولوجيا وانسكاب الروح على كل بشر.

وأول من أعلن تحقيق الصلة بين الروح القدس والمعمودية كان هو المسيح للتلاميذ بخصوص يوم الخمسين، وقد ابتدأت هذه المعجزة بالفعل مع الرسل، والرسل مارسوها من خلال معمودية الماء لكل الداخلين في الإيمان، حيث التحمت معمودية الرسل بالروح القدس مع معمودية الماء للتوبة وغفران الخطايا بالنسبة للشعب. وتمَّ الرجاء المنتظر منذ القديم أن يمتلك الشعب الروح القدس كبركة مستقبل الدهور لعهد الله الجديد مع الإنسان، واجتمع الرسل معاً والروح القدس:

+ «رأينا وقد صرنا بنفس واحدة، أن نختار رجلين ونرسلهما إليكم مع حبيبينا برنابا وبولس ... لأنه قد رأى **الروح القدس ونحن** أن لا نضع عليكم ثقلاً أكثر غير هذه الأشياء الواجبة.»

(أع ١٥: ٢٥و٢٨)

+ «أمَّا الكنائس في جميع اليهودية والجليل والسامرة فكان لها سلام، وكانت تُبنى وتسير في خوف الرب، وبتعزية الروح القدس كانت تتكاثر.» (أع ٩:٣١)
+ «احترزوا إذن لأنفسكم ولجميع الرعية التي أقامكم الروح القدس فيها أساقفة، لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه.» (أع ٢٠:٢٨)

وارتفع مفهوم سكنى الروح القدس في المؤمنين حتى صار فكراً لاهوتياً كنسياً:

+ «وأمَّا أنتم فلستم في الجسد بل في الروح، لأن (since) روح الله ساكنٌ فيكم. ولكن إن كان أحد ليس له روح المسيح، فهو ليس من خاصته does not belong to him.» (رو ٨:٩)

وإلهام الروح القدس صار هو قوة الإيمان للإنسان الذي اعتمد:

+ «وليس أحد يقدر أن يقول يسوع رب إلاَّ بالروح القدس.» (١كو ١٢:٣)
+ «... لننال التبني. ثمَّ بما أنكم أبناء أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً يا أبا الآبُ.» (غل ٤:٥و٦)

فإذا وضعنا في الاعتبار أن الروح القدس لا يتغيَّر، فهو هو الذي حلَّ على المسيح وهو هو الذي حلَّ على الرسل، وهو هو الذي يحل على مَنْ آمن ودعى باسم الرب. فكل معمودية لأي فرد مربوطة بمعمودية المسيح ومسحته لأن الروح واحد. فالروح القدس هو الرباط الذي يجمع ويوحِّد الرب يسوع سواء في معموديته أو قيامته أو صعوده مع الذين يعتمدون باسم المسيح ويصيرون أعضاء في جسده. فهم يشتركون في ذات مسحة المسيح على الأُردن كما يقول ق. يوحنا:

+ «مَنْ يحفظ وصاياه يثبت فيه وهو فيه، وبهذا نعرف أنه يثبت فينا من الروح الذي أعطانا.» (١يو ٣:٢٤)
+ «بهذا نعرف أننا نثبت فيه وهو فينا أنه قد أعطانا من روحه.» (١يو ٤:١٣)

فالروح القدس هو الصلة وهو الرباط الذي يربط المؤمن بالمسيح، ومن خلال شركة الروح تتكوَّن الكنيسة وتُبرز المسيح إلى الوجود وتستعلن محبته. لهذا فمن يحوز على الروح القدس فهو يقبض على الحقيقة وعلى الوعد الأخروي بآن واحد، محقِّقاً في حياته صورة للدهر الآتي. وهو ضامن أن يتغيَّر بالنهاية إلى الكمال.

وبقبول المعمودية من أيدي الرسل يصير المعمَّدون الجدد تابعين للمسيح وأعضاءً مع المؤمنين

تحت اسم المسيح، وباشتراكهم في مسحة الروح القدس ينالون نصيباً في مسحة المسيح لعهد المسيَّا الذي قد حضر.



قصة هامة:

أمَّا المعمودية الآن وفي أيامنا فقد صارت كما يقول المثل "أثراً بعد عين"، والمعنى أنها بعد أن كانت عيناً قائمة لها مهابتها وجمالها وعظمتها، صارت آثاراً يطويها الزمن. فقد عاينت بنفسي حال بنايات المعمودية في الأديرة، ففي دير السريان في وادي النطرون معمودية ولكن أثراً بعد عين. ففي دير السريان غرفة هامة تسمَّى "آلجوْ al goo" أي المخزن بالسرياني، وكنت كلما أدخلها أشعر برهبة خاصة وقشعريرة. فسألت أحد الشيوخ ما سرّ هذه الغرفة وهي مساحتها تقريباً ٨ متر × ٨ متر ولها قبة هائلة مهيبة ترتكز على الجدران الأربعة، وموقعها غرب الكنيسة ملاصقة لها، فقال لي هذه الغرفة كانت مغطس يغطس فيها الآباء ليلة عيد الغطاس بعد القداس، حيث يكون الزمان شتاءً والبرد قارساً. فأدركت بحسِّي أنها كانت المعمودية وضاع زمانها فكانوا يملأونها ماءًا للغطس ليلة الغطاس تكريماً لغطاس المسيح. فلمَّا قدم هذا الطقس أيضاً وشاخ واستكثر الرهبان هذا الإجراء الشديد القسوة، ملأوا المغطس تراباً وصارت الغرفة مخزناً للمأكولات.

هذه النبذة هي قصة واقعية ولكنها تحكي حال المعمودية وما آلت إليه. كما علمت أنه توجد معموديات كثيرة في أديرة وكنائس أثرية تحتاج لمن يكتشفها ويقدم لنا عنها نبذة تاريخية ترد روحنا.

ولكن هذا يذكرنا ويحقّق لنا أن عماد السيد المسيح في الأُردن كان فعلاً بالغطس، وأن هذا التقليد أخذته الكنيسة وصار تراثاً مقدَّساً.

كما أنه لا تزال كل عائلات الأقباط المحافظين يقدِّسون عيد الغطاس، فكل ابن يولد لهم في هذا العيد المقدَّس كانوا يسمُّونه "غطاس"، وهو اسم جليل يحمل ذكرى عماد السيد المسيح كما يحمل روح طقس العماد بالتغطيس.

الموعوظون Catechumens[١]

الكلمة من الأصل اليوناني κατήχησις - κατηχέω وتعني عموماً التعليم الأَوَّلي. ولكنها في وضعها الكنسي هي تعليم المبادئ الأوَّلية للديانة المسيحية. ويُسمَّى الموعوظون أيضاً الجنود الجدد لله كما هو حادث عند ترتليان وأُغسطينوس. وقد يُسمُّون في الكنيسة بالسامعين لأنهم يسمعون التعليم، كما كان يُصرَّح لهم بسماع العظات فقط، ولكن لا يشتركون في صلوات الكنيسة.

ويجب البدء بهذا النشاط الكنسي مع الداخلين إلى الإيمان، لأن تعليمهم هو أساس اشتراكهم في الخدمات الكنسية، وأساس تدريبهم المتواصل لحفظ مستوى التعميد والنمو في بناء الكنيسة. ودرجتهم الأدبية والاجتماعية لدى الكنيسة هي أقل من المؤمن ولكن أعلى من اليهود والوثنيين. والمجموعات المختارة منهم يُجرى عليهم طقس القبول وهو الصلاة ووضع اليد عليهم بواسطة الأسقف وسط الكنيسة ورشمهم بالصليب. ويذكر سلبسيوس ساويرس إن القديس مارتن (٣٨٥م) كان ماراً خلال مدينة وكانت جماعة من الأُمم كبيرة ولم يكن أحد منهم مسيحياً، وقد أجرى بعض المعجزات فأعلن جميعهم الإيمان بالمسيح وطلبوا أن يكونوا مسيحيين. ففي الحال رفع القديس مارتن يديه على رؤوسهم وصلّى عليهم وجعلهم موعوظين قائلاً: وإن كان المكان عراءً وغير لائق لتكريسهم، لكن هذا المكان تقدَّس بشهادة مسيحيين ماتوا في سبيل الاعتراف بالإيمان وتكرَّسوا قديسين لله[٢].

وهكذا كان يُعتبر تكريس الناس ليكونوا موعوظين مشابهاً لتكريسهم ليكونوا مسيحيين، فهذا وذاك يتم بواسطة وضع اليد للصلاة. ووضع اليد على الموعوظ هو جزء من طقس المعمودية لإعداد الشخص لقبول الانضمام.

ومعروف أن الموعوظ وقبل المعمودية يأخذ علامة الصليب حتى يُعدّ لقبول الطقوس الرسمية

(١) يُلاحَظ أن أكبر وأقدم مدرسة للموعوظين في العالم كانت مدرسة الإسكندرية، وكان يُدرِّس فيها أعاظم الشخصيات مثل بنتينوس وكليمندس وأوريجانوس وديديموس وثاوفيلس الكبير وكيرلس الكبير. وكان يدرِّس فيها اللاهوت في أعلى مفهوماته والكتاب المقدَّس في أعلى لاهوته — ودرس فيها غريغوريوس التزينزي والنيسي وباسيليوس قبل أن يصيروا أساقفة.

(2) *Dialogue* II, C. 4, NPNF 2nd ser., vol. XI, p. 40.

لتعميده. وقد ذكر هذا الطقس ق. أوغسطينوس في اعترافاته، وأنه استُخدم له عندما قبلوه كموعوظ. وفي حياة الأسقف بروفيوس أسقف غزَّة يُذكر:

+ [إنه عندما سقط على رجله بعض الموعوظين وطلبوا أن يُرسموا بعلامة الصليب، فأعطاهم علامة الصليب وجعلهم موعوظين، وطلب منهم أن يواظبوا على الكنيسة. وفي مدة بسيطة علَّمهم وعمَّدهم.](٣)

والمهم جدًّا للقارئ في هذه الأيام التي نعيشها في نهاية القرن العشرين، أن يعرف أن الكنيسة الأُولى حينما كانت تعمِّد الأطفال الصغار، كان يُؤخذ وثيقة على أبويه أن يُقدِّماه عندما يصير صبيًّا لكي يدخل في صفوف الموعوظين عندما يصبح قادراً على التعلُّم. ويقرِّر ق. تيموثاوس أسقف الإسكندرية أن الطفل حينما يبلغ ٧ سنوات من العمر كان يُستدعى للدخول في صفوف الموعوظين. وكتاب المراسيم الرسولية(٤) يقرِّر أن مدة الموعوظية من البدء إلى التعميد كانت ثلاث سنوات. والقديس جيروم يقول إنه كان من المعتاد في أيامه:

+ [أن يمضي الموعوظ أربعين يوماً وهي أيام الصوم الكبير في التعليم ليتقن عقيدة الثالوث الأقدس.](٥)

والقديس كيرلس الأُورشليمي يقول مخاطباً الموعوظ الذي يستثقل الاعتكاف أربعين يوماً قبل المعمودية:

+ [هل بعد أن قضيت كل هذه السنين في الانشغال بأمور العالم الباطلة، لا تجد الآن وقتاً كافياً لتكرِّس أربعين يوماً للصلاة ولما ينفع نفسك؟](٦)

ولكن المدة كانت تختصر جدًّا في حالات دخول جماعات كبيرة للمسيحية مثل الذي وصفه سقراط عند دخول البورجانديين معاً مرَّة واحدة، فالأسقف الفرنسي أعطاهم سبعة أيام تعليم كموعوظين وفي اليوم الثامن عمَّدهم.

والقديس كيرلس الإسكندري في إحدى رسائله القانونية أعطى نفس هذه الأوامر لتعميد الخارجين عن الإيمان وعادوا في ساعة الموت.

ولكن في الأزمنة العادية كان تعليم الموعوظين يدوم وقتاً كثيراً ليتتلمذوا ويتمرَّنوا حتى يُقبلوا في

(3) Vit Pophyr (ap. Galland. [c. 4:n. 31] t. g. p. 265a).
(4) *Apostolic Constitutions,* VIII, 32.
(5) *Letter to Pammachius,* 13; NPNF, 2nd Ser., vol. VI, p. 431.
(6) *Catech.* I, 5, NPNF 2nd Ser., vol. VII, p. 7.

المعمودية. على أن يبتدئوا يتمرَّنون على التوبة والتوقُّف عن الخطية وعلى الأعمال الصالحة، لكي يدخلوا عهداً جديداً مع الله. وكانوا يدرسون كل مفردات قانون الإيمان، ويدرسون معنى عدم موات النفس، ويدرسون الكتب القانونية في الإنجيل التي كانت جسم العظات الثمانية عشرة لكيرلس الأُورشليمي للموعوظين. وكاتب المراسيم الرسولية يقول:

+ [دعوا (الموعوظ) يتعلّم قبل المعمودية معرفة الله الآب كما يعلنها له الابن الوحيد ويؤكّدها له الروح القدس. وليدرس نظام الخليقة في العالم وحلقات العناية الإلهية وكل الشرائع، ولماذا خُلق العالم والإنسان في العالم، وليدرس طبيعة الإنسان وما هي صفاتها، وكيف عاقب الله الخارجين عن الفرائض بالطوفان ونزول نار من السماء، وكيف مجَّد القديسين في كل جيل. شيث وأخنوخ ونوح وإبراهيم وكل نسله، ملكي صادق وأيوب وموسى ويشوع وكالب وفينحاس الكاهن وكل القديسين في كل جيل. وليدرس عناية الله التي لم تترك جنس البشر، بل دعتهم من الباطل والضلال إلى معرفة الحق في كل حين، وعتقتهم من العبودية والفجور إلى الحرية والصلاح، ومن الإثم إلى البر، ومن الموت الأبدي إلى الحياة الأبدية (...) ثمَّ يدرس العقائد الخاصة بتجسُّد ربنا وآلامه وقيامته وصعوده (...) ثمَّ يتعلّم معنى جحد الشيطان، وكيفية دخول العهد مع المسيح.](٧)

ويُلاحَظ هنا أنه لم يذكر شيئاً عن الأسرار المقدَّسة لأنها ممنوعة على الموعوظين حتى يكمل تعميدهم. وكانت تُقسَّم هذه التعاليم على مراحل وحصص تلائم المعرفة. والذي يود أن يعرف المزيد في ذلك عليه أن يدرس مدرسة الموعوظين في الإسكندرية بمناهجها الضخمة ولاهوتها الذائع الصيت.

وكان على الموعوظين أن يدرسوا الأسفار المقدَّسة وكتباً أخرى نافعة لتقويم النفس مثل كتاب الديداخي. ويقول القديس أثناسيوس:

+ [وهناك كتب أخرى، ولو أنها غير محسوبة ضمن قانون الأسفار المقدَّسة، لكن الآباء أوصوا بقراءتها بواسطة الراغبين أن ينضموا إلينا وأن يتعلّموا كلام التقوى، وهي حكمة سليمان وحكمة ابن سيراخ وأستير ويهوديت وطوبيت والكتاب المعروف بتعليم الرسل (الديداخي) والراعي هرماس.](٨)

وقد أُضيفت بعد ذلك كتب ق. أثناسيوس. وفي مدرسة الموعوظين بأُورشليم كانت تُدرَّس عظات كيرلس الأُورشليمي. وكان محرَّماً عليهم أن يدرسوا كتباً خاصة بمعرفتهم لأن الكنيسة

(7) *Apostolic Constitutions,* VIII, 39,40.
(8) Athanasius, *Letter* 39, 7; NPNF 2nd ser., vol. IV, p. 552.

كانت تحدِّد لهم الكتب التي يقرأونها. ويقول العالِم بيد Bede وهو عالِم مدرسي كتابي أبو التاريخ الإنجليزي، أن الموعوظين كانوا يُجبرون على حفظ بعض الأجزاء من الأسفار المقدَّسة عن ظهر قلب كتمرين وتلمذة على الحفظ والاستيعاب وذلك قبل أن يتعمَّدوا، كما يدرسون بدايات الأناجيل الأربعة ومختصرها وأغراضها، وذلك بجوار حضور العظات التي تفتح آذانهم وتوعِّيهم في المعرفة والإيمان. فخرج منهم أوائل وأبطال وعظماء في الحفظ والفهم والمناقشة في اللغات والفلسفة والرياضيات واللاهوت والإيمان.

الفصل الثاني

الجزء التقليدي الكنسي

(أ) المعمودية من واقع الإنجيل وسفر الأعمال

١ ـ التعليم عن المعمودية في سفر الأعمال

٢ ـ المعمودية في كتابات القديس يوحنا

٣ ـ المعمودية في رسالة بطرس الرسول الأُولى

٤ ـ مدى الإلهام الذي قدَّمه القديس بولس

٥ ـ التعليم عن المعمودية في رسائل بولس الرسول.

٦ ـ تعقيب على تعاليم بولس في كل رسائله عن المعمودية

ملخّص تعاليم العهد الجديد عن المعمودية

٧ ـ ختم الروح القدس

(ب) معمودية الأطفال ـ شهادة الآباء

الفصل الثاني

الجزء التقليدي

أ ـ المعمودية من واقع الإنجيل وسفر الأعمال والرسائل

١ ـ التعليم عن المعمودية في سفر الأعمال

وقد وضعناها في أول التعليم عن المعمودية لأنها شملت أول عملية عماد تمّت بعد قيامة الرب وصعوده إلى السماء، كما ابتدأ التعليم عن المعمودية منذ بدء السفر. ومعروف أن المعمودية ذُكرت في سفر الأعمال ٢١ مرَّة، ولكن لا تأتي على صورة عقيدة لاهوتية ولكن بمجرَّد إجراء عملي. ويلزم أن نضع في الاعتبار أن كتابة "سفر الأعمال" بواسطة ق. لوقا جاءت متأخِّرة جدًّا عن تعاليم ق. بولس في كل رسائله. فتعليم ق. بولس عن المعمودية كما جاء في رسائله دخل الكنيسة وتداول فيها قبل سفر الأعمال.

كذلك لا يمكن أن يفوت علينا أن الجزء الأول من سفر الأعمال تمَّ ودُوِّن قبل دعوة بولس الرسول على طريق دمشق، وبالتالي قبل تعليمه في الرسائل بمدة كبيرة.

أ ـ بداية ممارسة المعمودية:

فالمعمودية بدأت في سفر الأعمال تمارس مبكِّراً جدًّا، منذ يوم الخمسين مباشرة حسب تحديد الرب يسوع نفسه: «وفيما هو مجتمع معهم أوصاهم أن لا يبرحوا من أُورشليم، بل ينتظروا موعد الآب الذي سمعتموه مني، لأن يوحنا عمَّد بالماء وأمَّا أنتم فستتعمَّدون بالروح القدس، ليس بعد هذه الأيام بكثير.» (أع ١: ٤و٥)

وهذه المعلومة الإلهية تفصل تمام الفصل بين معمودية يوحنا المعمدان ومعمودية العهد الجديد، القائمة على أساس الروح القدس **بواسطة** وبتدبير المسيح ووعده(١).

وهذه المعلومة أثبتها بطرس الرسول من واقع خبرته في بيت كرنيليوس الذي طلب العماد، والله

---

(١) هذا التوجيه الإلهي للرسل يجعل المعمودية بداية ونهاية بآن واحد لتعليم الرسل، أي الكريجما، أو أن المعمودية هي الكريجما عملياً.

أرسل ق. بطرس برؤيا خاصة ليعمِّده وهو أُممي بلا فحص: «ما طهَّره الله لا تدنِّسه أنت» (أع ١٠: ١٥). ويحكي ق. بطرس للتلاميذ في أُورشليم قائلاً: «فلمَّا ابتدأت أتكلَّم حلَّ الروح القدس عليهم كما علينا أيضاً في البداءة (يوم الخمسين)، فتذكَّرت كلام الرب كيف قال إن يوحنا عمَّد بماء وأمَّا أنتم فستُعمَّدون بالروح القدس» (أع ١١: ١٥و١٦). ولكن العجيب في الأمر أن كرنيليوس أُممي وأن حلول الروح القدس لم يتم لا بوضع اليد ولا بأسبقية معمودية الماء(٢).

وهذا يأتي أيضاً مطابقاً لاعتراف يوحنا المعمدان نفسه «وكان يكرز قائلاً يأتي بعدي مَنْ هو أقوى مني، الذي لست أهلاً أن أنحني وأحل سيور حذائه. أنا عمَّدتكم بالماء وأمَّا هو فسيُعمِّدكم بالروح القدس.» (مر ١: ٧و٨)

وهكذا نقيم مقابلة شديدة فاصلة بين معمودية يوحنا المعمدان بالماء، والمعمودية المسيحية "بالروح القدس". هذا الفاصل في العمل والتعليم هو من عمل المسيح كما أثبتنا، على أن هذا الفاصل ابتدأ فقط بحلول يوم الخمسين كتتميم لوعد الرب في مطلع سفر الأعمال، لأنه واضح غاية الوضوح أن ما رواه ق. بطرس في (أع ١١: ١٥و١٦) يؤكِّد أن كرنيليوس وكل بيته **لم يعتمدوا بالماء أولاً**، ولكنهم اعتمدوا بالروح القدس أولاً وبعدها اعتمدوا بالماء: «أترى يستطيع أحد أن يمنع الماء حتى لا يعتمد هؤلاء الذين قبلوا الروح القدس كما نحن أيضاً. وأمر أن يعتمدوا باسم الرب» (أع ١٠: ٤٧و٤٨). هنا الماء والعماد **بالماء** جاء لاحقاً لعماد الروح القدس لتحقيق الإجراء الكلي.

ب ــ وضع اليد:

والقصة تبدأ هكذا في سفر الأعمال (١٩: ١-٧):

+ «فحدث فيما كان أبلُّوس في كورنثوس، أن بولس بعد ما اجتاز في النواحي العالية جاء إلى أفسس. فإذ وجد تلاميذ قال لهم: هل قبلتم الروح القدس لمَّا آمنتم؟ قالوا له: ولا سمعنا أنه يوجد الروح القدس. فقال لهم: فبماذا اعتمدتم؟ فقالوا: بمعمودية يوحنا. فقال بولس: إن يوحنا عمَّد بمعمودية التوبة، قائلاً للشعب أن يؤمنوا بالذي يأتي بعده، أي بالمسيح يسوع. فلمَّا سمعوا اعتمدوا باسم الرب يسوع. **ولمَّا وضع بولس يديه عليهم** حلَّ الروح القدس

(٢) هنا العماد بالروح القدس تمَّ بدون وضع يد وبدون إجراء العماد بالماء تماماً كما حدث للتلاميذ يوم الخمسين، ولكن العامل الوحيد الذي يبرز أمامنا في سر حلول الروح القدس على كرنيليوس هو سلطان الروح القدس في المعمودية. وهنا المقارنة الفاصلة واضحة جدًّا أن «يوحنا عمَّد بالماء أمَّا أنتم فستُعمَّدون بالروح القدس».

عليهم، فطفقوا يتكلَّمون بلغات ويتنبَّأون. وكان جميع الرجال نحو اثني عشر.» (أع ١٩: ١-٧)

في هذه الرواية يتثبَّت لنا في التعليم المسيحي عن المعمودية الصلة المباشرة بين المعمودية باسم الرب يسوع، ووضع اليد الرسولية وقبول الروح القدس، وانقضاء معمودية يوحنا بالماء للتوبة وعدم نفعها.

والقصة الأخرى المطابقة التي فيها حل الروح القدس ثمَّ بعد ذلك تمَّ العماد بالماء هي قصة شاول نفسه المدعو بولس:

+ «فمضى حنانيا ودخل البيت ووضع عليه يديه وقال: أيها الأخ شاول قد أرسلني الرب يسوع الذي ظهر لك في الطريق الذي جئت فيه، لكي تبصر وتمتلئ من الروح القدس. فللوقت وقع من عينيه شيء كأنه قشور، فأبصر في الحال وقام واعتمد.» (أع ٩: ١٧و١٨)

وهنا أيضاً هذه الحادثة تثبت الصلة المباشرة بين وضع اليد وقبول الروح القدس، ونفس هذه الرواية يرويها ق. بولس نفسه إذ يصف ما سمع وما قيل له فيقول:

+ «ثم إن حنانيا رجلاً تقياً ... أتى إليَّ، ووقف وقال لي: أيها الأخ شاول، أبصر! ففي تلك الساعة نظرت إليه. فقال: إله آبائنا انتخبك لتعلم مشيئته، وتبصر البار، وتسمع صوتاً من فمه. لأنك ستكون له شاهداً لجميع الناس بما رأيت وسمعت. والآن لماذا تتوانى؟ قُمْ واعتمد واغسل خطاياك داعياً باسم الرب.» (أع ٢٢: ١٢-١٦)

هنا اعتُبرت المعمودية "غسل خطايا بدعاء باسم الرب".

وهناك حالة أخرى أيضاً تَّم فيها العماد باسم الرب يسوع ولكنهم لم يقبلوا الروح القدس لعدم وجود رسول يضع يده:

+ «ولكن لَّما صدَّقوا فيلبس وهو يبشِّر بالأمور المختصة بملكوت الله **وباسم يسوع المسيح، اعتمدوا** رجالاً ونساءً ... ولَّما سمع الرسل الذين في أُورشليم أن السامرة قد قبلت كلمة الله، أرسلوا إليهم بطرس ويوحنا، اللذين لَّما نزلا صلَّيا لأجلهم لكي يقبلوا الروح القدس. لأنه لم يكن قد حلَّ بعد على أحدٍ منهم، غير أنهم كانوا مُعتمدين باسم الرب يسوع. حينئذ وضعا الأيادي عليهم فقبلوا الروح القدس.» (أع ٨: ١٢و١٤-١٨)

هذا مثال لمعمودية تَّمت باسم الرب يسوع ولم يحل الروح القدس لغياب وضع اليد الرسولية.

وبهذا يتأكَّد لنا من واقع هذه الحوادث التي تمَّ فيها العماد بدون وضع يد - مهما كان كامل

الشروط ـ فلم يحل فيها الروح القدس، أن المعمودية في المسيح يتحتّم فيها وضع اليد.

هنا جيد أن نعود إلى معمودية المسيح بالماء من يد يوحنا. واضح أن المعمدان تمنّع جدًّا أن يقبل أن يعمّد المسيح لأن هذا يستوجب وضع يده عليه. هنا بادره المسيح بالقول ينبغي أن نتمّم كل برّ بمعنى بر الاتضاع! أو ربما برّ المعمودية نفسها. فكانت النتيجة أن حلّ الروح القدس عليه ولكن ليس على مستوى حلوله على المعمَّدين الآخرين، ولكن حلول الروح القدس كان بصفة المسحة من الآب مباشرة للبدء في الخدمة، حسب قراءة إشعياء التي تلاها في المجمع: «فدُفع إليه سفر إشعياء النبي، ولمّا فتح السفر وجد الموضع الذي كان مكتوباً فيه: روح الرب عليَّ لأنه مسحني لأبشّر المساكين ...» (لو ٤: ١٧و١٨)

ويلذ لنا جدًّا أن نتأمّل في هذا الحلول فهو للخدمة كلزوم لها على الأرض.

أمّا قبوله روح القيامة من الأموات فهو أيضاً لخدمة المجد كلزوم لها في السماء. والجميل حقًّا أن نتأكّد أن حلول الروح القدس عليه في المعمودية للمسحة للخدمة إنما صار كسابقة واجبة التنفيذ في كل الذين يعتمدون لاسم المسيح، فإنهم حتماً يقبلون الروح القدس كمسحة للخدمة والشهادة على الأرض باسم المسيح.

أمّا قيامتنا مع المسيح وقبولنا روح القيامة فهو أيضاً بقبول شركة خدمة المجد في ملكوت الله والشهادة لقيامته التي نحياها.

لذلك كان عمل المعمودية الآن باسم المسيح هو على شقّين:

شق تحدِّده مسحة الروح القدس لخدمة العتيدين أن يرثوا الخلاص باسم المسيح، وهو مطابق تماماً لحلول روح المسحة على المسيح في معمودية يوحنا بالماء، حيث الروح القدس حينئذ يُعطي الاعتراف والشهادة أننا نحيا بالقيامة كأولاد الله: «الروح نفسه أيضاً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله» (رو ٨: ١٦). تماماً كشهادة الآب من السماء للمسيح وهو خارج من معموديته ـ الروح القدس الذي هو وعد الآب وجميع الأنبياء وعلامة ومجد العهد الجديد ونوره.

أمّا الشق الثاني فنحن نحصل عليه بالدفن في ماء المعمودية بالإيمان كشركة في موت الرب، كما نحصل عليه بالخروج من ماء المعمودية بالإيمان لابسين الرب يسوع كشركة في جسد قيامته ـ في جسد جديد للإنسان، خليقة جديدة سماوية.

الخلاصة:

- بهذا نفهم أن المسيح بعماده من يد يوحنا في مياه الأُردن، وحصوله على الروح القدس، وشهادة الآب ببنوَّته، قد أكمل تأسيساً حقيقياً إلهياً لمعموديتنا بكل أجزائها.
- كذلك فمعمودية المسيح أو صبغته التي اصطبغ بها على الصليب، التي بها قدَّس وعمَّد الجسد الحامل البشرية بدم صليبه ليؤهِّله للموت والقيامة وقبول الحياة الأبدية ودخول ملكوت الله؛ كان هذا تأسيساً لفاعلية المعمودية التي فيها نموت بالإيمان والدفن في الماء مع المسيح، ونقوم حاصلين على قيامة المسيح بالروح بالإيمان ولابسين الرب يسوع ثوب المجد والخلاص الأبدي.
- فمعمودية الرب يسوع في الأُردن، ومعمودية المسيح بالموت على الصليب، هما أساس المعمودية التي ورثتها الكنيسة من جسده في جسدها "بالماء والروح القدس" كقول الرب لنيقوديموس. وهي حديث السماويات منذ البدء: «إن كنت قلت لكم الأرضيات ولستم تؤمنون فكيف تؤمنون إن قلت لكم السماويات.» (يو ٣:١٢)

خبرة الكنيسة في المعمودية ابتدأت يوم الخمسين:

+ «فلمَّا سمعوا نُخسوا في قلوبهم وقالوا لبطرس ولسائر الرسل: ماذا نصنع أيها الرجال الإخوة. فقال لهم بطرس: **توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس.** لأن الموعد هو لكم ولأولادكم ولكل الذين على بُعد. **كل مَنْ يدعوه الرب إلهنا.**» (أع ٢: ٣٧-٣٩). فاعتمدوا وانضم في ذلك اليوم ثلاثة آلاف نفس.

هذا صار منطوق عقيدة الكنيسة الأُولى الفتيَّة منذ اليوم الأول.

عمليات قوية وهامة:

أولاً: كل مَنْ يدعوه الرب إلهنا حتى الذين على بُعد (أي الأُمم) وإلى آخر الأيام.

ثانياً: نُخسوا في قلوبهم: هذا هو عمل الروح القدس المسبق الذي يمهِّد للمعمودية بالوعظ.

ثالثاً: ليعتمد كل واحد: المعمودية فردية والإيمان فردي والخلاص فردي.

رابعاً: على اسم(٣) **يسوع المسيح:** (وليس يوحنا بعد) كان هذا طقس الكنيسة الأول

---

(٣) **الاسم** هنا هو التمثيل الواقعي لحضور الرب نفسه، فكلمة: "باسم يسوع المسيح" تعني أن الرب حاضر ويُعمِّد وأن السر فائق وأن المعمَّد أصبح يحمل اسم المسيح كختم = سفراجس. والمختوم يعني: معمَّد حامل اسم المسيح ولهذا يُدعى المعمَّد مسيحياً! **لأن الختم هو صفة التبعية** (انظر ٢صم ١٢:٢٨، إش ٤:١و٦٣:١٩، إر ٧:١٠و١٤:٩ و١٥:١٦).

الذي صار بعد ذلك باسم الثالوث.

خامساً: لمغفرة الخطايا: هذا هو الالتحام في الصليب والدم!

سادساً: فتقبلوا عطية الروح القدس.

بهذه العقيدة الأُولى كحدث وفعل رسولي:

- يتحقّق الوعد بقبول الروح القدس منذ أول لحظة، لأنهم نُخسوا في قلوبهم وطلبوا الخلاص قبل أن يعرفوا ما هي المعمودية أو يعتمدوا.
- كما يتحقّق تعليم الرب عن المعمودية لنيقوديموس: «إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله.» (يو ٣:٥)
- إن المعمودية باسم الرب يسوع هي لغفران الخطايا.
- إن الروح القدس يُعطى مقترناً معها ولكن هي لا تمنح الروح.
- إن المعمودية تحتاج إلى يد رسولية أو مَنْ يحملها ليكون حاملاً الروح القدس ليتم الوعد الذي وعد به الرب: «لكنكم ستنالون قوة متى حلَّ الروح القدس عليكم ... وأمَّا أنتم فستتعمَّدون بالروح القدس» (أع ١: ٨و٥). هذه القوة وهذا الروح ظهر فعله منذ أول يوم، إذ أن ق. بطرس ومَنْ معه من الرسل قد عمَّدوا ثلاثة آلاف نفس!

المعمودية سر الانضمام للكنيسة:

من نتائج حادث عماد ق. بطرس للثلاثة آلاف نفس يهودي أنهم آمنوا ودخلوا المسيحية، فاعتبرت المعمودية من أول يوم الخمسين أنها الباب الأول للانضمام إلى الكنيسة ونمو المسيحية بها!

+ «فقبلوا كلامه بفرح (فرح الروح القدس) واعتمدوا وانضم في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف نفس.» (أع ٢:٤١)
+ «وكان الرب كل يوم يضم إلى الكنيسة الذين يخلصون.» (أع ٢:٤٧)

الإفخارستيا كانت هي السر الملازم للعماد منذ اليوم الأول:

+ «وكانوا يواظبون على تعليم الرسل **والشركة وكسر الخبز** والصلوات.» (أع ٢:٤٢)
+ «وإذ هم **يكسرون الخبز** في البيوت كانوا يتناولون الطعام (وليمة الإفخارستيا) بابتهاج وبساطة قلب، مسبِّحين ولهم **نعمة** لدى جميع الشعب.» (أع٢ :٤٦و٤٧)

أثر فعل المعمودية وشركة الإفخارستيا في الكنيسة:

في الاتحاد والوحدة والكرازة:

+ «وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة. ولم يكن أحد يقول إن شيئاً من أمواله له، بل كان عندهم كل شيء مشتركاً. وبقوة عظيمة كان الرسل يؤدُّون الشهادة بقيامة الرب يسوع، ونعمة عظيمة كانت على جميعهم.» (أع ٤: ٣٢و٣٣)

وهناك ملاحظة للرد على العالِم جوانس وايس الناقد الألماني، الذي خرج علينا بنقده أن المائة والعشرين الذين حلَّ عليهم الروح القدس لم يُذكر أنهم اعتمدوا بالماء. والرد على ذلك أنهم جميعاً سبق واعتمدوا من المعمدان لأنها كانت جماعة تقيَّة مختارة، فهنا العماد تمَّ على دفعتين: الماء أولاً على يد يوحنا المعمدان، والروح القدس يوم الخمسين. وبالتأكيد فإن معظم هؤلاء المذكورين المائة والعشرين أو كلهم عاينوا المسيح القائم من الأموات، فأصبح من غير ضرورة أن يعتمدوا باسم المسيح، وإيمانهم بالقيامة ويسوع نفسه حاضر فيهم!

فهل ممكن أن يكفّ الناقدون للمعمودية في سفر الأعمال؟

بل نحن نقول إن الأشخاص الذين ظهروا في الكنيسة في يوم الخمسين: الرسل والتلاميذ والمائة والعشرون، هؤلاء الذين رأوا يسوع المسيح قائماً من الأموات، يبدون في الحقيقة حاملين قوة وشهادة قيامة الرب، فالاعتراف في قلوبهم والشهادة في فمهم بالمسيح وقيامة المسيح قائمة لا تحتاج إلى شرح أو تعليم أو عماد بالماء، لأن الروح القدس أيضاً عليهم! فما حاجة هؤلاء أن يعتمدوا باسم المسيح؟ يُستثنى من ذلك شاول المدعو بولس فقد اعتمد ليصير مسيحياً وهو منتخب رسولاً.

المعمودية شهادة موت وقيامة الرب:

من أجل ذلك، أي من أجل أن الذين قاموا بعمليات العماد الأُولى في الكنيسة وأسَّسوها هم رُسل وهم شهود قيامة الرب، اندمغت المعمودية منذ البدء بأنها رمز أو شكل أو قانون إيمان بالقيامة بحد ذاتها، حاملة الروح القدس الجاهز للشهادة: «روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الابتداء» (يو ١٥: ٢٦و٢٧). فالمعمودية شهادة فعلية وتنشئ معمَّدين قادرين على الشهادة الفعلية بموت الرب وقيامته. لأن المعمودية كما رأيناها وسنراها كثيراً أنها فعل موت وقيامة مع الرب.

المدركات الهامة التي تؤدِّي إلى المعمودية.

- **سماع كلمة الوعظ** ἀκούσαντες
  + «فلمَّا سمعوا نُخسوا في قلوبهم ... واعتمدوا.» (أع ٢: ٣٧و٤١)
  + «**فقبلوا** كلامه بفرح واعتمدوا ἀποδεξάμενοι.» (أع ٢:٤١)
- **الإيمان** ببشارة **الإنجيل** فيما يخص اسم المسيح وملكوت الله:
  + «ولكن لمَّا **صدَّقوا** فيلبُّس (حرفياً: آمنوا بما يقوله) وهو يبشِّر (حرفياً: يعلن **الإنجيل** εὐαγγελιζομένῳ) بالأمور المختصة بملكوت الله وباسم يسوع، اعتمدوا.» (أع ٨:١٢)
- **فبشَّره** بيسوع: εὐηγγελίσατο
  + «ففتح فيلبُّس فاه وابتدأ من هذا الكتاب **فبشَّره** بيسوع ... فقال الخصي هوذا ماء ماذا يمنع أن أعتمد.» (أع ٨: ٣٥و٣٦)
- **فتح الرب قلبها لتصغي:** διήνοιξεν τὴν καρδίαν προσέχειν
  + «فكانت تسمع امرأة اسمها ليدية بيَّاعة أرجوان من مدينة ثياتيرا متعبِّدة لله. **ففتح** الرب قلبها **لتصغي** إلى ما كان يقوله بولس. فلمَّا اعتمدت هي وأهل بيتها ...» (أع ١٦: ١٤و١٥)
- **وكلَّماه** وجميع مَنْ في بيته **بكلمة الله:** ἐλάλησαν
  + «**وكلَّماه** (حافظ السجن) وجميع مَنْ في بيته **بكلمة الرب. فأخذهما** في تلك الساعة من الليل وغسلهما من الجراحات واعتمد في الحال هو والذين له أجمعون.» (أع ١٦: ٣٢و٣٣)
- **إذ سمعوا آمنوا:** ἀκούοντες
  + «وكريسبس رئيس المجمع آمن بالرب مع جميع بيته. وكثيرون من الكورنثيين **إذ سمعوا** آمنوا واعتمدوا.» (أع ١٨:٨)
  + «**فبينما** بطرس **يتكلَّم** بهذه الأمور **حلَّ الروح القدس** على جميع الذين كانوا **يسمعون** الكلمة.» (أع ١٠:٤٤)
  + «فلمَّا **ابتدأت أتكلَّم** حلَّ الروح القدس عليهم» (أع ١١:١٥). هذا كان في عماد كرنيليوس.

هذه الأمثلة توضِّح أنه ينبغي أن نلتفت إلى كثرة المرَّات التي فيها حدثت المعمودية مباشرة **بعد الكلام والسمع وقبول الكلمة والإيمان. فالمعمودية هنا استجابة لرسالة الإنجيل.** وهذه في لغة الكنيسة الأُولى كانت تُدعى kerygma أي المضمون الأساسي لتعليم الرسل.

خلاصة ما وجدناه في سفر الأعمال فيما يخص المعمودية:

(أ) أنه منذ الأيام الأُولى للكنيسة وطقس المعمودية بالماء كان هو المعتبر الإجراء الأساسي للدخول في المسيحية.

(ب) أحياناً كان الطقس يُذكر ببساطة كما نراه في الأمثلة الآتية:

+ «وسيمون أيضاً نفسه آمن. ولمَّا اعتمد كان يلازم فيلبس.» (أع ٨:١٣)
+ «وفيما هما سائران في الطريق أقبلا على ماء، فقال الخصي هوذا ماء ماذا يمنع أن أعتمد ... فنزلا كلاهما إلى الماء فيلبُّس والخصي فعمَّده.» (أع ٨: ٣٦و٣٨)
+ «فلمَّا اعتمَدَتْ هي وأهل بيتها طلبت قائلة إن كنتم قد حكمتم أني مؤمنة بالرب فادخلوا بيتي وامكثوا. فألزمتنا.» (أع ١٦:١٥)
+ «فأخذهما في تلك الساعة من الليل وغسلهما من الجراحات واعتمد في الحال هو والذين له أجمعون.» (أع ١٦:٣٣)
+ «وكريسبس رئيس المجمع آمن بالرب مع جميع بيته، وكثيرون من الكورنثيين إذ سمعوا آمنوا واعتمدوا.» (أع ١٨:٨)

(ج) أحياناً أخرى كان يوصف بالتفصيل كما في المعمودية باسم يسوع المسيح:

+ «فقال لهم بطرس توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح.» (أع ٢:٣٨)

أو باسم الرب:

+ «وأمر أن يعتمدوا باسم الرب. حينئذ سألوه أن يمكث أياماً.» (أع ١٠:٤٨)

أو باسم الرب يسوع:

+ «... غير أنهم كانوا معتمدين باسم الرب يسوع.» (أع ٨:١٦)
+ «فلمَّا سمعوا اعتمدوا باسم الرب يسوع.» (أع ١٩:٥)

(د) أو أن ترافق المعمودية عملية توبة وتكون المعمودية لمغفرة الخطايا:

+ «فقال لهم بطرس توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا، فتقبلوا عطية الروح القدس.» (أع ٢:٣٨)
+ «والآن لماذا تتوانى؟ قم واعتمد واغسل خطاياك داعياً باسم الرب.» (أع٢٢:١٦)

(هـ) وهي كذلك متصلة بالروح القدس كعطية:

+ «فقال لهم بطرس توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا، فتقبلوا عطية الروح القدس.» (أع ٢:٣٨)
+ «فبينما بطرس يتكلَّم بهذه الأمور حلَّ الروح القدس على جميع الذين كانوا يسمعون الكلمة، فاندهش المؤمنون الذين من أهل الختان كل مَنْ جاء مع بطرس لأن موهبة الروح القدس قد انسكبت على الأُمم أيضاً، لأنهم كانوا يسمعونهم يتكلَّمون بألسنة ويعظِّمون الله. حينئذ أجاب بطرس: أترى يستطيع أحد أن يمنع الماء حتى لا يعتمد هؤلاء الذين قبلوا الروح القدس كما نحن أيضاً. وأمر أن يعتمدوا باسم الرب.» (أع ١٠: ٤٤–٤٨)

غير أن في هذه الحالات كانت المعمودية تتبع وتأتي بعد أن يحل الروح القدس بدلاً من أن يرافقها.

(و) وفي أمثلة أخرى وجدنا أن الروح القدس كان مرتبطاً بوضع اليد بالضرورة:

+ «لأنه لم يكن قد حلَّ بعد على أحد منهم، غير أنهم كانوا معتمدين باسم الرب يسوع. حينئذ وضعا الأيادي عليهم فقبلوا الروح القدس.» (أع ٨: ١٦و١٧)
+ «فمضى حنانيا ودخل البيت ووضع عليه يديه. وقال أيها الأخ شاول قد أرسلني الرب يسوع الذي ظهر لك في الطريق الذي جئت فيه، لكي تبصر وتمتلئ من الروح القدس. فللوقت وقع من عينيه شيء كأنه قشور، فأبصر في الحال وقام واعتمد.» (أع ٩: ١٧–١٨)
+ «فلمَّا سمعوا اعتمدوا باسم الرب يسوع. ولمَّا وضع بولس يديه عليهم حلَّ الروح القدس عليهم، فطفقوا يتكلَّمون بلغات ويتنبَّأون.» (أع ١٩: ٥و٦)

النتيجة:

إن الحقيقة العظمى فيما يخص المعمودية في سفر الأعمال:

١ ــ أنها كانت التعبير العملي لمعنى الإنجيل، فهي محسوبة أنها المحتوى الأساسي لتعليم الرسل!

٢ ــ أنها تعني تماماً مغفرة الخطايا، والعضوية الحيَّة في الجماعة المسيحية الجديدة، وأنها تحمل هبة أو عطية الروح القدس، وكل بركات العهد الجديد كتحصيل لكل ما وعدت به العظات بالكلمة.

٣ ــ أنها هي بالنسبة للذي اعتمد: شهادة له وشهادة منه أنه قَبِل الكلمة وأنه آمن.

٤ ـ ينبغي أن ندرك أن المقصود من هذه النواحي الخاصة بالمعمودية كما جاءت في سفر الأعمال هو أنها تعبِّر عن عظمة وقيمة الطقس.

٥ ـ والخضوع والطاعة للتعميد هي التعبير العملي المسموع في السماء عن إيمان الموعوظ، ولكن ليس الموعوظ هو الذي يعطي المعمودية قيمتها وعظمتها.

٦ ـ ونعود نقول إن المعمودية تحمل جوهر ومعيار إنجيل القيامة. فطقس المعمودية قد أُعطي كسِّر "تحقيق الأخرويات!". فهو يحمل في مضمونه وشكله معنى وروح الإنجيل.

٧ ـ إن حلول الروح القدس في المعمودية على المعمَّد هو المعاملة العلنية للروح القدس مع الخاطئ، تماماً كما كان المسيح يجالس الخطاة قبل الصليب!

٨ ـ والإنسان الذي تعمَّد أصبح يمتلك في كيانه وقلبه وذهنه قوة هذا السر وفاعليته ليرافقه مدى الحياة وبعد الحياة!

٩ ـ والذخيرة التي تحملها المعمودية كطقس بالنسبة للمعمَّد هي فرصة العمر الأُولى والعظمى لإدراك حقيقة هبة المسيحية التي كانت تسمِّيها الكنيسة الأُولى "عطية الروح" (أع ٢:٣٨ و١٠:٤٥)، أو نعمة المسيحية التي تطل من وجه المعمَّد لتحكي قصته.

١٠ ـ وعلى أساس أن في معمودية المسيح بعد أن خرج من الماء **انفتحت له السموات**، هذا بعينه يشعر به الذي يعتمد (عَلَى كِبَر) إذ يحس بأنه وكأن السموات قد انفتحت له! وحياة جديدة امتدت أمامه وفرح لا يُنطق به. اسألوا المتنصِّرين! وسوف نقابل في رسائل بولس الرسول ما يطابق هذا.

١١ ـ وكانت معمودية المسيح على يد يوحنا من الماء على نهر الأُردن هي الضمان الإلهي لدوام معمودية الماء والروح كل الأجيال وإلى الانقضاء!

٢ ـ المعمودية في كتابات القديس يوحنا

(يو ٣:٣-٥):

حديث المسيح مع نيقوديموس:

+ «أجاب يسوع وقال له: الحق الحق أقول لك: إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله. قال له نيقوديموس: كيف يمكن الإنسان أن يولد وهو شيخ. ألعلّه يقدر أن يدخل بطن أُمه ثانية ويولد. أجاب يسوع: الحق الحق أقول لك، إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله».

حديث المسيح مع نيقوديموس هو تشديد الحاجة إلى الميلاد الروحي! كضرورة حتمية لدخول ملكوت الله. ولكن قد سبق أن عبَّر القديس يوحنا عن الميلاد الروحي في بدء إنجيله إذ قال:

١ ـ «وأمَّا كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد ا لله، أي المؤمنون باسمه.» (يو ١٢:١)

٢ ـ «الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسدٍ ولا من مشيئة رجل، بل من ا لله.» (يو ١٣:١)

وتأتي في اليونانية: ἐκ θεοῦ ἐγεννήθησαν. هنا استخدام الحرف ἐκ يقابل استخدام نفس هذا الحرف في الحديث مع نيقوديموس: «المولود من الجسد جسد هو والمولود من ἐκ الروح هو روح». فالروح محسوب عند ق. يوحنا أنه هو الذي يلد المؤمنين(٤). فإذا أُضيفت المياه تحقَّق للمعمودية عمق لاهوتي في الطقس المسيحي "بالماء والروح"، كما حدَّده المسيح لنيقوديموس ليكونا الواسطة للميلاد من فوق. هنا يمتاز طقس العماد في إنجيل ق. يوحنا باستعلان الميلاد الجديد، الخليقة الجديدة من الماء والروح القدس.

فطقس معمودية الماء عند ق. يوحنا متحداً مع فعالية الروح يُعتبر الواسطة التي بها يولد المسيحي "من فوق" كنص المسيح الرب.

هذا التعليم فيما يخص **الخليقة الجديدة** الممثَّلة في إنجيل ق. يوحنا أنها **"ميلاد من فوق"**، قد

(4) "(The Spirit is) the Begetter of believers", cf. J. H. Bernard, *St. Johm*, ICC, 1928, cited by W. F. Flemington, *op. cit.*, p. 87.

وضعه الإنجيل على قاعدة موت المسيح، إذ أكمل المسيح تعليمه لنيقوديموس بقوله:

+ «وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يُرفع ابن الإنسان، لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية.» (يو ٣: ١٤و١٥)

▪ هكذا جعل المسيح موته على الصليب أساس الميلاد من الماء والروح، والإيمان بالمسيح المرفوع على خشبة كشرط أساسي لعبور الهلاك (عقوبة الموت). وهكذا تصوَّرت المعمودية منذ البدء.

▪ والقديس يوحنا أعطى "للإيمان بالمسيح" موضعه في أساس المعمودية منذ بدء إنجيله بقوله:

+ «وأمَّا كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، أي **المؤمنون باسمه، الذين وُلِدُوا ... من الله.**» (يو ١: ١٢و١٣)

▪ وهكذا تأسَّس الميلاد من فوق "بالماء والروح" كعمل الروح القدس في المعمودية، وأصبح الحصول على الحياة الأبدية كأولاد الله هو النتيجة النهائية لرفع الابن على الصليب، وصارت المعمودية عند ق. يوحنا مثيلة للمعمودية عند القديس بولس.

(١يو ٥: ٥-٨):

+ «مَنْ هو الذي يغلِبُ العالم، إلاَّ الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله؟ هذا هو الذي أتى بماء ودم يسوع المسيح. لا بالماء فقط بل بالماء والدم، والروح هو الذي يشهد لأن الروح هو الحق. فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثةٌ: الآبُ، والكلمةُ، والروح القدس. وهؤلاء الثلاثة هم واحدٌ. والذين يشهدون في الأرضِ هم ثلاثةٌ: الروح والماءُ والدمُ. والثلاثة هم في الواحد».

هنا يدافع ق. يوحنا عن أن المعمودية ليست **ماءً فقط** (كقول كيرنثوس الهرطوقي) بل روح وماء ودم، والثلاثة على مستوى المسيح (هم في الواحد). ولكن واضح أن المقاومين ينكرون صليب ربنا يسوع المسيح كعنصر أساسي في الخلاص، كما يكشفها إيرينيئوس بعد ذلك عن كيرنثوس قائلاً إنه يَفْصِل يسوع عن المسيح ويدَّعي أن المسيح فارق يسوع عند الصليب(٥). لذلك اهتم ق. يوحنا بذكر يسوع أنه هو المسيح، وهو الذي صُلب وأتى بماء ودم، وليس بماء فقط كقول كيرنثوس. وق. يوحنا يؤكِّد أن الماء والدم والروح هم في الواحد أي في يسوع المسيح. هنا ق. يوحنا يلجأ إلى الرموز، علماً بأن ق. يوحنا شَهِدَ خروج الدم والماء من جنب المسيح على الصليب

(5) Irenaeus, *A.H.*, I, XXVI, 1.

من ضربة حربة وكان قد مات (يو ١٩:٣٤).

يفسِّر الآباء والعلماء أن هذا النص يفيد المعمودية وأصولها الأُولى وكذلك الإفخارستيا(٦)، ولكن كثيرين يؤكِّدون أن هذا النص يختص فقط بالمعمودية، حيث الدم يفيد ويرمز إلى موت الرب على الصليب، بحسب التقليد الذي كان سارياً في الكنيسة الأُولى. وقد أشار إليه ق. بولس في (رو ٦:٣): «أم تجهلون أننا كل مَنْ اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته». وتأخذ أصولها الأُولى من قول الرب نفسه: «لي صبغة βάπτισμα أصطبغها وكيف أنحصر حتى تُكمل» (لو ١٢:٥٠)

ويقول الشُّرَّاح وهم على حق أن ق. يوحنا يقصد معمودية المسيح إنه اعتمد بالماء على الأُردن واعتمد بدمه على الصليب، وهذا منتهى الحق - ونحن نلنا هذا كأساس لمعموديتنا.

- وهكذا فإن ربط المعمودية بموت الرب لم يكتشفه ق. بولس ولكنه تقليد الكنيسة الأُولى المأخوذ من المسيح. وإدخال "الروح" كعنصر أساسي هو من صُنع الرب نفسه في حديثه مع نيقوديموس.
- إن حقيقة المعمودية وقيامها أساساً على فعل موت ابن الله على الصليب وصبغة الدم وفعالية الروح القدس هي التقليد الثابت الدائم والأبدي للكنيسة، كذلك قيام المعمودية المسيحية على أساس مقولة ق. يوحنا: «وأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله» (يو ١:١٢)، على أساس معمودية المسيح في الأُردن ونزول صوت الآب عليه قائلاً: «هذا هو ابني الحبيب.» (مت ٣:١٧)
- ذلك لأن قول ق. يوحنا: «يصيروا أولاد الله» هو نابع من الإيمان بالمعمودية. فإذا كانت المعمودية المسيحية في الكنيسة قامت أصلاً على معمودية المسيح في الأُردن وصبغة الصليب بالدم، فحتماً كلمة "يصيروا أولاد الله" أو أبناء الله هي امتداد لصوت الآب من السماء على المسيح «هذا هو ابني الحبيب.» (مت ٣:١٧)
- وإن كان دخول الملكوت كما يقول الرب لنيقوديموس يقوم على الميلاد الثاني من الماء والروح أي من فوق، فالنتيجة المرصودة في حديث نيقوديموس هي الدخول إلى الملكوت الذي افتتحه الرب بموته وقيامته.
- وكان من المحتَّم بحسب قول المسيح: «خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي»

(6) W.F. Howard, *Christianity According to st. John,* 1943, p. 147.
وقد جمعنا أقوال الآباء الخاصة بذلك في كتابنا: "شرح إنجيل القديس يوحنا" الجزء الثاني صفحة ١٢٢٧-١٢٢٩.

(يو ١٦:٧) أن يدخل المسيح أولاً إلى ملكوته منتصراً قائماً من الأموات. فدخوله ملكوت الله الذي أعدَّه للمؤمنين باسمه هو الذي أفاض الروح القدس من عند الآب ليعدّنا لدخول الملكوت أيضاً عبر المعمودية، التي تعطينا شركة مع المسيح المقام والجالس في السماء عن يمين الآب.

- قد لاحظ العلماء أنه ولو أننا نجد في كتابات ق. يوحنا القدر الكثير من تعاليم الأسرار في العهد الجديد، غير أنها تأتي عادة بصورة مغطّاة veiled، وليست مباشرة. ولكن يقول العالِم هوارد إن العلّة في ذلك بسبب ظروف الجيل الذي يكتبه له ق. يوحنا(٧). فهو قد مهَّد على مدى نصف جيل لظهور التعليم الواضح المقنّن عن الأسرار كما نجده مثلاً في خطابات القديس إغناطيوس. فمثلاً في تعاليم ق. إغناطيوس عن الإفخارستيا يقول عن خبز الإفخارستيا (الجسد) إنه "دواء عدم الموت = φάρμακον ἀθανασίας"(٨). وكان القديس يوحنا هو المُلهِم للقديس إغناطيوس بهذا الاصطلاح بقوله المتكرِّر في إنجيله: «لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت» (يو ٦:٥٠)، «مَنْ يأكل هذا الخبز فإنه يحيا إلى الأبد.» (يو ٦: ٥٨و٥١)
- تعاليم ق. يوحنا تربط بين المعمودية والميلاد الجديد ἀναγέννησις ,Regeneration ولو أن هذه الكلمة لم ترد في كتاباته، ولكنه أورد الفعل γεννάω في المبني للمجهول: «إن كان أحد **لا يولد** من فوق»، وهذا يشرح عبارة: «أولاد ا لله τέκνα θεοῦ» (يو ١:١٢) الواردة في بدء إنجيله والمعبّر عنها في نفس المكان بعبارة: «الذين وُلِدُوا من ا لله ἐκ θεοῦ ἐγεννήθησαν»، كذلك في (١يو ٢:٢٩): «كل مَنْ يصنع البر مولود منه ἐξ αὐτοῦ γεγέννηται» وأيضاً في (١يو ٣:٩): «كل مَنْ هو مولودٌ من الله ὁ γεγεννημένος ἐκ τοῦ θεοῦ».
- ويُعتقد أن ق. يوحنا استلهم "**الميلاد الجديد**" كاصطلاح، واصطلاح «أولاد الله» (يو ١:١٢) من قول المسيح نفسه: «**إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات.**» (مت ١٨:٣)
- كما أن صلة اصطلاح "**الميلاد من فوق**" (يو ٣:٣) و"**المولودين من الله**" (يو ١:١٣) في إنجيل ق. يوحنا شديدة القربى باصطلاح "التبني" عند القديس بولس، الذي نناله بالمعمودية (غل ٣: ٢٦-٢٧). فهي اصطلاحات متوازية لحقيقة واحدة. وقد بدأها المسيح بنفسه في

(7) H.F. Howard, *Ibid*, p. 145, p. 129,130.
(8) Ignatius, *Ad Eph.*, XX.

المعمودية التي نال فيها نداء الآب بالبنوَّة. وهذه البنوَّة انعكست على المعمودية المسيحية للمؤمنين، فالمولودون من الماء والروح هم المولودون من فوق، هم المولودون من الله، هم "أبناء الله"، سواء عند القديس يوحنا أو عند القديس بولس.

- كما لا يمكن أن نغفل حادثة القيامة، فظهور المسيح في العلية الذي سجَّله القديس يوحنا: «فقال لهم يسوع أيضاً سلام لكم، كما أرسلني الآب أرسلكم أنا. ولمَّا قال هذا نفخ وقال لهم: اقبلوا الروح القدس، مَنْ غفرتم خطاياه تغفر له، ومَنْ أمسكتم خطاياه أُمسكت» (يو ٢٠: ٢١-٢٣). ألا نرى في هذا إشارة واضحة إلى التعميد وإعطاء هذا السطان الروحي من قِبل الرب كقوة للتعميد؟ لأن التلاميذ كانوا يعمِّدون بالماء كتعليم يوحنا المعمدان. هنا أضاف المسيح الروح القدس على معمودية الماء كقوة وسلطان إلهي لمغفرة الخطايا بواسطة التعميد. لأن مغفرة الخطايا والتعميد هما عمل واحد في العهد الجديد والأناجيل.

٣ ـ المعمودية في رسالة بطرس الرسول الأُولى

إن رسالة بطرس الأُولى بشهادة أقوى العلماء المتخصِّصين في شرح الأسفار والطقوس باقتدار، تُعتبر بأكملها عظة موجَّهة للذين قبلوا العماد حديثاً وخرجوا وذاقوا اللبن والعسل اللذين يُعطيان للمُعمَّد وهو خارج من المعمودية، رمزاً لميراث كنعان السماوية، وكلها مشحونة بمعاني واصطلاحات المعمودية.

ونحن هنا نقدِّم مقتطفات من هذه الرسالة كنصوص مضيئة في شرح معنى المعمودية ولاهوتها وعملها في المعمَّدين:

١ ـ «**مباركٌ الله أبو ربنا يسوع المسيح، الذي حسب رحمته الكثيرة ولدنا ثانيةً لرجاءٍ حيٍّ، بقيامة يسوع المسيح مِنَ الأمواتِ.**» (١بط ١:٣)

يكمِّلها بوضوح قوله: «فاطرحوا كل خبثٍ وكل مَكرٍ والرياء والحسد وكل مذمَّةٍ، **وكأطفالٍ مولودينَ الآنَ**، اشتهوا **اللبن العقليَّ** العديمَ الغِشِّ لكي تنموا به.» (١بط ٢: ١و٢)

هنا إشارة قوية لكأس اللبن الممزوج بالعسل الذي كان يُعطى للخارجين من المعمودية. ثمَّ يقول في الموضع نفسه وبخصوص اللبن والعسل: «إن كنتم قد ذقتم أن الرب صالِحٌ» (١بط ٢:٣). هنا عودة إلى مذاقة كأس اللبن والعسل.

٢ ـ «الذين أُعلن لهم (الآباء) **أنهم ليس لأنفسهم، بل لنا كانوا يخدمون بهذه الأمور** التي أُخبرتُم بها أنتم الآن، بواسطة الذين بشَّروكم في الروح القدس المرسل من السماء، التي تشتهي الملائكة أن تطَّلع عليها.» (١بط ١:١٢)

هنا بقوله: «إنه ليس لأنفسهم» (هؤلاء الآباء والأنبياء قديماً) يلغي كل الأمور القديمة بالنسبة لليهود المعمَّدين جديداً باعتبارهم يهوداً وتنصَّروا وصاروا مسيحيين. ثمَّ بقوله: «**بل لنا كانوا يخدمون بهذه الأمور**»، ينسب كل أقوال الآباء قديماً وكل أقوال الأنبياء أنها لم تكن لليهود بل لنا نحن المسيحيين، لأنها كانت تُشير للمسيح الآتي. وقوله: «**التي أُخبرتم بها أنتم الآن بواسطة الذين بشَّروكم في الروح القدس**»: هنا الرد والتوضيح لكلمة «**بهذه الأمور**» فهي نفسها التي بشَّرهم

بها الرسل قبل قبول العماد، ولأنها كانت مزكّاةً من الروح القدس لذلك آمنوا بها واستجابوا لها وللدعوة إلى المعمودية المسيحية: «نظير القدوس الذي دعاكم.» (١بط ١:١٥)

٣ ـ **«كأولاد الطاعةِ، لا تُشاكِلوا شهواتكم السابقة في جهالتكم، بل نظير القدوس الذي دعاكم، كونوا أنتم أيضاً قديسين في كلِّ سيرةٍ.»** (١بط ١: ١٤و١٥)

«كأولاد الطاعة»: وهي لقب المعمَّدين جديداً لأنهم أطاعوا الإيمان وأطاعوا دعوة العماد.

«القدوس الذي دعاكم»: واضح أنه المسيح هو الذي دعاهم للإيمان والاعتراف به، وقبلوا المعمودية كدعوة لإعلان إيمانهم عملياً بالموت مع الرب والقيامة معه. وهنا القداسة موهوبة لهم بالمعمودية والاعتماد باسم المسيح القدوس، فقدَّسهم. والقديس بطرس يعظهم بأن يحتفظوا بهذه القداسة **«كونوا أنتم أيضاً قديسين»**.

٤ ـ **«مولودينَ ثانيةً، لا مِنْ زرعٍ يفنى، بل مما لا يفنَى، بكلمة الله الحيَّةِ الباقيةِ إلى الأبدِ.»** (١بط ١:٢٣)

هنا كشف المعنى اللاهوتي لعمادهم باسم المسيح إنه **"ميلاد ثانٍ"**، ومواجهة للمعمَّدين بوصفهم الجديد في المسيحية: **«مولودين ثانية»**. ومعروف أن الميلاد الثاني هو من الماء والروح بحسب الرب.

ولكي يفرِّق بين ولادة الجسد وولادة الروح كما قال المسيح: «المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح»!! (يو ٣:٦)، هذه يترجمها بطرس الرسول بقوله: «مولودين ثانية لا من زرع يفنى بل مما لا يفنى» تماماً كما قال المسيح، حيث «مما لا يفنى» تعني من الروح من الله!! والواسطة هي كلمة ا **لله الحية الباقية إلى الأبد**. هنا شرح مباشر لقوة الكلمة الفاعلة في المعمودية للميلاد الثاني.

ويُلاحَظ هنا أن ق. بطرس يعظ المولودين ثانية أي المعمَّدين جديداً.

٥ ـ **«وكأطفالٍ مولودينَ الآنَ، اشتهوا اللبن العقليَّ العديمَ الغِشِّ لكي تنموا به، إن كنتم قد ذقتم أن الرب صالِحٌ.»** (١بط ٢: ٢و٣)

يُلاحَظ أن كلمة **"الآن"** هنا تعني أنهم اعتمدوا حديثاً جدًّا، حتى عبَّر عنها ق. بطرس بكلمة "الآن". أمَّا قوله: **«اشتهوا اللبن العقلي عديم الغش لكي تنموا به»** يقصد بها بوضوح أنهم كما ذاقوا اللبن والعسل الشهي بعد خروجهم من المعمودية، الآن عليهم أن يشتهوا اللبن العقلي الذي

يعني الإنجيل وتعليم الرسل، الأمور التي تبني النفس. وقوله: «عديم الغش» يقصد به أقوال الرب الصادقة والحقّة وأقوال الرسل غير المغشوشة بتعاليم الخارجين عن الإيمان، وما أكثرهم في تلك الأيام، وقد اشتكى منهم بولس الرسول مرّ الشكوى وهم اليهود المنازعين.

ثمَّ يقول: «**إن كنتم قد ذقتم أن الرب صالح**». هنا لعب بالألفاظ، فإنهم ذاقوا اللبن والعسل اللذيذ فيأخذها ق. بطرس ويجعلها: «**ذقتم أن الرب صالح**». وهذا قد نالوه بالتعليم الذي ذاقوه على أيدي الذين عمَّدوهم. أمَّا قوله: «**لكي تنموا به**» فهنا قوة كلمة الحق سواء في الإنجيل أو عند الرسل، القادرة فعلاً أن تبني الفكر والإيمان حتى بلوغ «قامة ملء المسيح» (أف ٤:١٣). «أمَّا نحن فلنا فكر المسيح.» (١كو ٢:١٦)

٦ - «**كونوا أنتم أيضاً مبنيِّينَ - كحجارةٍ حيَّةٍ - بيتاً روحيًّا، كهنوتاً مقدَّساً، لتقديم ذبائح روحيَّةٍ مقبولةٍ عند الله بيسوع المسيح.**» (١بط ٢:٥)

هنا إشارة واضحة لبناء الهيكل بحجارته الضخمة التي كانت فخر إسرائيل، والكهنة اللاويين الذين يقدِّمون الذبائح الحيوانية. وواضح من هذا أن ق. بطرس يخاطب يهوداً تنصَّروا وقبلوا العماد.

فبعد أن صاروا مولودين ثانية بكلمة الله الحيَّة، واشتهوا اللبن العقلي عديم الغش، أي تتلمذوا لكلمة الله، وهي فرح ومسرَّة للنفس، فهنا يحضّهم القديس بطرس **أن يكونوا مبنيين**، ولكن هنا البناء ليس بحجارة صمَّاء ميتة بل حجارة حيَّة، وهي ذاتها كلمات الحق الثابتة والقوية.

وعوض الهيكل الذي كان مبنيًّا بحجارة ومدعواً هيكلاً للرب، يقول هنا أن الكلمات «الحية الباقية إلى الأبد» التي تعمَّدوا بمقتضاها هي نفسها التي تبني النفس، ومع بقية نفوس الذين تعمَّدوا يصنعون هيكلاً جديداً أو بيتاً حقيقياً روحياً له.

وعوض الكهنوت اللاوي الذي كان يقدِّم ذبائح حيوانية لا قيمة لها عند الله ولا مقبولة، جاء هنا «**كهنوتاً مقدَّساً**» في المسيح لا من سبط لاوي بل في يسوع المسيح نفسه، لتقديم ذبائح روحية التي وصفها بولس الرسول أنها ثمر الشفاه (عب ١٣:١٥) أي التسبيح والتمجيد والصلاة والترتيل، وهي مقبولة جدًّا من الله لأنها في المسيح يسوع.

٧ - «**وأمَّا أنتم فجنسٌ مختارٌ، وكهنوتٌ ملوكيٌّ، أُمَّةٌ مقدَّسةٌ، شعبُ اقتناءٍ، لكي تُخبِروا بفضائل الذي دعاكم مِنَ الظلمةِ إلى نورهِ العجيب.**» (١بط ٢:٩)

هنا الكلمات مصوَّبة للمعمَّدين الجدد وقد تغيَّروا من مختارين في إبراهيم ويعقوب إسرائيل، إلى مختارين من المسيح في المسيح.

وقوله: «كهنوت ملوكي» يقابل كهنوت العهد القديم للاوي، أمَّا هنا فكهنوت ملوكي نسبة إلى الملك المسيح ملك المجد.

وقوله: «أُمَّة مقدَّسة» فهو يقابل بها الأُمة الإسرائيلية التي كانت تُدعى ظلماً أُمَّة مقدَّسة، ولكن هنا أُمة مقدَّسة لأنها تقدَّست بالمسيح نفسه - كُرأس الكنيسة - إيماناً به واتحاداً في المعمودية، هنا التقديس إلهي.

وقوله: «شعب اقتناء» يعني شعب مقتنى من الله في المسيح وله الميراث الحقيقي.

وقوله: «من الظلمة إلى نوره العجيب» فالظلمة ما قبل المسيحية والنور في المسيحية لأن المسيح هو نور العالم.

٨ - **«الذين قبلاً لم تكونوا شعباً، وأمَّا الآن فأنتم شعبُ الله. الذين كنتم غير مرحومين، وأمَّا الآن فمرحومون.»** (١بط ٢:١٠)

كانوا بصفتهم يهوداً فهم شعب إسرائيل وأمَّا الآن فشعب الله، مما يفيد أنهم لم يكونوا شعب الله.

وقوله: «كنتم غير مرحومين» ذلك بسبب غضب الله عليهم وسبيهم. وأمَّا الآن فدخلوا في رحمة الله بواسطة يسوع المسيح الذي صالح الاثنين في جسد واحد.

٩ - **«الذي مِثَالُهُ (مثال الفلك) يُخلِّصُنَا نحن الآن، أي المعموديةُ، لا إزالةُ وسخِ الجسدِ، بل سؤالُ ضميرٍ صالحٍ عن الله، بقيامة يسوع المسيح»** (١بط ٣:٢١)

«سؤال ضمير صالح» صحتها: "الاعتراف لله من ضمير صالح بقيامة يسوع المسيح" = σεινειδήσεως ἀγαθῆς ἐπερώτημα εἰς θεόν δι' ἀναστάσεως Ἰησοῦ Χριστοῦ.

وفي الأبحاث الآبائية عند كليمندس الإسكندري(٩) قُرِئت: "ἐπερώτημα = سؤال" على أنها Confessio أي اعتراف إيمان لتكون اعتراف لله بضمير صالح بقيامة يسوع المسيح لتصبح منطوق معمودية. وقد أخذ بهذا المعنى القديس كيرلس الإسكندري (On Rom: 6:3 (P.G. 74. 729

(9) G.C.S. III. 203. 68205-17.

هنا يعطي ق. بطرس المثال الذي انحدرت منه المعمودية في المسيح وهو الفلك وخلاص مَنْ بداخله وهلاك الذي لم يدخل الفلك، وبذلك خَلُصت هذه الثمانية أنفس التي كانت فيه من الهلاك. ولكن المعمودية الآن وهي مثال الفلك(١٠) لا تخلّص من هلاك الجسد بل تخلّص من هلاك النفس. ثمَّ يعود ويصف قيمة المعمودية في المسيح بالماء والروح إذ هي ليست استحماماً عادياً لإزالة وسخ الجسد، **بل غسل النفس من الخطايا وسؤال ضمير صالح عن الله بقيامة المسيح من الأموات.** لأن المعمودية هي شركة في موت المسيح على الصليب ثمَّ القيامة معه، فشركة الصليب هي شركة في الدم المسفوك الذي قال عنه ق. بولس: «دم المسيح الذي بروح أزلي قدَّم نفسه لله بلا عيب يطهِّر ضمائركم من أعمال ميتة» (عب ٩:١٤). هذا هو «**الضمير الصالح عن الله بقيامة يسوع المسيح**» الذي صالحنا مع الله فأصبح لنا ضمير قد اغتسل بدم المسيح من كل الخطايا، التي سمَّاها الأعمال الميتة والمؤدِّية إلى الموت، وقد صار ضميراً مطهَّراً بدم المسيح أي صالحاً.

إلى هنا نكون قد انتهينا من الرسالة الأُولى للقديس بطرس. والواقع أن رسالته الثانية لا تخلو من تعبيرات تكشف أنها تعليم لليهود المتنصِّرين، ولكن نكتفي بالرسالة الأُولى.

---

(١٠) يشير إلى هذا المثال القديس كليمندس الروماني في رسالته الأُولى (٤:٩) قائلاً: إن نوحاً بما فعله «صار كارزاً بميلاد جديد παλιγγενεσίαν للعالم».

٤ – مدى الإلهام الذي قدَّمه القديس بولس لخزانة الكنيسة في عقيدة المعمودية(١١)

كان الأثر الذي أحدثه انضمام القديس بولس الرسول انضماماً إلهياً حرًّا مثيراً للجماعة المسيحية الأُولى ذا فاعلية تفوق الحدود والتصوُّر. كما أن التحامه الهادئ غير المثير في تقليد الكنيسة الأُولى يبدو وكأنه طبيعي لعلو الوسائل التي أدخلته في عمق الكنيسة، كشاهد مثل باقي الشهود، مع أنه لم ير الرب يسوع المسيح على الأرض قط. مما يفيد إفادة بالغة أن مقدار انسكاب النعمة والمعرفة والحكمة والرؤية والشهادة معاً كانت فوق العادة.

ولأول وهلة أعلن أمانته المطلقة لمضمون إيمان الكنيسة العام: «فإنني سلَّمت إليكم في الأول ما قبلته أنا أيضاً، أن المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب. وأنه دُفن وأنه قام في اليوم الثالث حسب الكتب. وأنه ظهر لصفا ثمَّ للاثني عشر، وبعد ذلك ظهر دفعة واحدة لأكثر من خمس مئة أخ أكثرهم باقٍ إلى الآن ولكن بعضهم قد رقدوا. وبعد ذلك ظهر ليعقوب ثمَّ للرسل أجمعين. وآخر الكل كأنَّه للسقط ظهر لي أنا، لأني أصغر الرسل، أنا الذي لست أهلاً لأن أدعى رسولاً، لأني اضطهدت كنيسة الله.» (١كو ١٥: ٣-٩)

كما أن شاول المدعو بولس قد استلم سر العماد كبداية ونهاية لكرازته وختم إيمانه وعلامة غفران خطاياه: «أيها الأخ شاول أبصر. ففي تلك الساعة نظرت إليه. فقال: إله آبائنا انتخبك لتعلم مشيئته وتبصر البار وتسمع صوتاً من فمه. لأنك ستكون له شاهداً لجميع الناس بما رأيت وسمعت. والآن لماذا تتوانى؟ قُم واعتمد واغسل خطاياك داعياً باسم الرب» (أع ٢٢: ١٢-١٦)، الأمور التي صارت في صميم لاهوته وكرازته منذ أول يوم كشاهد وكارز. وكانت المعمودية انفتاحه الأول على الكنيسة والإيمان والموت والقيامة. وصار مركز لاهوته أن كل تغيير أخلاقي يؤهِّل لدخول ملكوت الله قائم على اسم الرب يسوع من داخل الثالوث: «وهكذا كان أُناس

(١١) استعنتُ في هذا الجزء بالكتاب التالي:
R.E.O. White, *The Biblical Doctrine of Initiation*, 1960, pp. 200-227.

منكم، لكن اغتسلتم، بل تقدَّستم، بل تبرَّرتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا» (١كو ٦:١١). حيث بالمعمودية تقوم التوبة ومغفرة الخطايا لا بالماء وحده أو بفعل الغسل، بل بسلطان موت المسيح وقيامته وقوة روح الله! حيث تقوم هذه المفاعيل كلها كما ذكرها في شأن العروس الكنيسة أنه أسلم نفسه لأجلها ليقدِّسها بتطهيرها بغسل الماء بالكلمة، أي باعترافها العلني. وهكذا تصبح المعمودية القائمة على تسليم الرب لنفسه على الصليب للفرد ولمجموع الأفراد أي للكنيسة هي المدخل المقدَّس للمقدَّسات من خلال الكلمة، أي الاعتراف بمضمون الكريجما.

وفي رسالته إلى تيطس جمع التجديد بما حوى من تغيير أخلاقي والمروق إلى حالة الجدة المطلقة كخليقة جديدة بفعل الروح القدس، بصورة إعجازية يستمدها من الصليب: «لا بأعمال في برٍّ عملناها نحن، بل بمقتضى رحمته (على الصليب) خلَّصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس» (تي ٣:٥). على أن الروح القدس لا من ذاته ولا من دعاء آخرين بل: «سكبه (الله) بغنى علينا بيسوع المسيح مخلِّصنا.» (تي ٣:٦)

وهكذا كان دأب بولس الرسول أن يأخذ التقليد الجاري ويُرجعه إلى أصوله، ويعمِّق مفهومه اللاهوتي، ليكون الخلاص مفهوماً وممارساً معاً على ضوء نعمة الله المجانية.

وهكذا دخلت المعمودية في مدرسة ق. بولس الرسول اللاهوتية كفعل تطهير أخلاقي، كما نصَّت عليه العقيدة الأُولى في الكنيسة، ولكن على أساس "الكلمة" قبولاً واعترافاً واستجابة لحياة جديدة معطاة بالروح القدس.

أمَّا أن المعمودية فعل انضمام للكنيسة فقد أوضحها ق. بولس في رسالته إلى أفسس: «كما أحبَّ المسيح أيضاً الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها، لكي يقدِّسها، مطهِّراً إيَّاها بغسلِ الماءِ بالكلمةِ، لكي يُحضِرها لنفسه كنيسةً (أفراد) مجيدةً، لا دنسَ فيها... مقدَّسةً وبلا عيبٍ.» (أف ٥: ٢٥-٢٧)

وكما جاء أيضاً في (١كو ١٢:١٣): «لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد، يهوداً كنا أم يونانيين، عبيداً أم أحراراً، وجميعنا سقينا روحاً واحداً». هنا الفرد أخذ وجوده في جسم الكنيسة بل وجسد المسيح بالنهاية.

فسواء كان الجسد أو العروس في المسيح، فالكنيسة تستقبل كل الذين يعتمدون باسم المسيح للمسيح ليكونوا في المسيح = «لأن كُلَّكُم الذين اعتمدتُم بالمسيح قد لبستُم المسيح» (غل ٣:٢٧). أي وُجدتم فيه متحدين، لأن غاية ق. بولس اللاهوتية أن تصير البشرية كلها إنساناً واحداً على قامة ملء المسيح، كنيسة يملأها المسيح.

وهكذا بقيت المعمودية في فكر القديس بولس الرسول طقساً كنسياً عائلياً بشبه بيت الله، بحيث أن الذي يُطرد منها لا يكون له عزاء ولا وجود ولا كيان: «ولكن إن كان أحد قد أحزن فإنه لم يحزنني بل أحزن جميعكم ... مثل هذا يكفيه هذا القصاص الذي من الأكثرين» (٢كو ٢: ٥و٦)، «لأننا بروح واحد اعتمدنا إلى جسد واحد»، فإذا كان الطقس بدون معنى ولا قوة داخلية فهو لا شيء.

هكذا فالتغيير الأخلاقي والتجديد والانفتاح في المعمودية يعتمد أساساً على الروح القدس! هذا هو أساس فكر بولس الرسول. فالقديس بولس يقول عن المسيح بالنسبة لآدم: «(صار) آدم الأخير روحاً محيياً» (١كو ١٥:٤٥) بمعنى أن كل المسيحيين هم حاملون الروح القدس: «وأمّا أنتم فلستم في الجسد بل في الروح إن كان روح الله ساكناً فيكم. ولكن إن كان أحد ليس فيه روح المسيح فذلك ليس له (أي المسيح)» (رو ٨:٩). لأن ق. بولس بعد خبرة طريق دمشق لم يعد يستطيع أن يفرِّق بين خبرة الروح وخبرة المسيح. وأصبح عنده اقتران المعمودية بعمل الروح القدس أمراً حقيقياً لا يمكن التفريط فيه، ومسحة المعمودية هي عمل الله وهي عمل الروح القدس: «ولكن الذي يثبِّتنا معكم في المسيح وقد مسحنا هو الله. الذي ختمنا أيضاً وأعطى عربون الروح في قلوبنا» (٢كو ١: ٢١و٢٢). بمعنى أن الأداء الذي تمَّ في المعمودية هو أداء الله بمسحة الخدمة أو بطابع أو ختم التبعية للأصالة بالروح. والتجميع لا يفارق ذهن ق. بولس: «لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد ... وجميعنا سُقينا روحاً واحداً» (١كو ١٢:١٣). لذلك يقول بمعمودية واحدة وروح واحد ورب واحد. بهذا انجمعت البشرية المشرَّدة المرفوضة تحت الخطية واللعنة. فالخلاص وإن كان يلزم أن يكون فردياً، لأن الإيمان يلزم أن يكون فردياً، ولكن غاية الخلاص جماعية، فمن هو خارج الإيمان هو خارج الكنيسة، هو خارج الصليب حيث لا يخلص أحد. ولكن الصليب والكنيسة وملء المسيح هو للكل في الكل. والمعمودية تعطي هذا الملمح.

والقديس بولس يحذِّر أن يفهم أحد أن طقس المعمودية من ذاته يمنح الروح القدس، هذا لا يطيق تصوُّره، ولكنه ينسب دائماً عطية الروح لله ذاته:

+ «ونحن لم نأخذ روح العالم بل الروح الذي من الله لنعرف الأشياء الموهوبة لنا من الله.» (١كو ٢:١٢)

فالمعمودية هي هبة الله بالروح وليست المعمودية تهب الروح! فالروح هو من الله ومن الله فقط: «ولكن الذي صنعنا لهذا عينه هو الله الذي أعطانا أيضاً عربون الروح» (٢كو ٥:٥)، «فالذي يمنحكم الروح ويعمل قوات فيكم أبأعمال الناموس أم بخبر الإيمان؟» (غل ٣:٥)، «ثم بما

أنكم أبناءٌ أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً: يا أَبَا الآبُ.» (غل ٤:٦)

من هذا نفهم أنه كان يسيطر على فكر ق. بولس اللاهوتي أن الإنسان المسيحي يرتبط بالمسيح بالإيمان والمعمودية. هنا المشكلة التي يحلها بولس الرسول بتلقائية سهلة هي علاقة الإيمان بالمعمودية بالنسبة للمسيحي. فالإيمان هو القوة والطاقة الإلهية في حياة المسيحي، أمَّا المعمودية فيراها مُكمِّلةً دائماً للإيمان ومترافقة معه.

فبالإيمان والمعمودية يستقي المسيحي من الروح الواحد: «هل قبلتم الروح القدس لَّما آمنتم؟» (أع ١٩:٢) كفعل مرافق. وق. بولس يرى أن المعمودية مربوطة بالروح القدس بالنتيجة الطبيعية التي تنشأ من عمل الروح في المعمودية، وهي حصول حالة البنوَّة الروحية لله. وعنده قانون روحي مسيطر على تفكيره أن المنقادين بروح الله هم أولاد الله، لأن الروح المعطَى في المعمودية هو روح البنوَّة، يشهد للتبني الذي حصلنا عليه كأهل بيت الله، الذي يلهمنا الصلاة لله كأب: «يا أبا الآب»!

+ «لأن كُلَّ الذين ينقادون بروح الله، فأُولئِكَ هُم أبناءُ اللهِ. إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوفِ، بل أخذتم روح التبنِّي الذي به نصرخُ: يا أَبَا الآبُ!» (رو ٨: ١٤و١٥)

+ «ثم بما أنكم أبناءٌ أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً: يا أَبَا الآبُ.» (غل ٤:٦)

والقديس بولس يقولها صراحة إن بالمعمودية نحن نصير «في المسيح»، وإذ نصير في المسيح نصير أبناء الله، ولأننا نصير أولاد الله يُرسل الله روح ابنه إلى قلوبنا، وهذا كله يصير لنا بالإيمان: «لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع» (غل ٣:٢٦)

+ «إذاً لستَ بعدُ عبداً بل ابناً. وإن كنتَ ابناً فوارثٌ لله بالمسيح.» (غل ٤:٧)

ومن مآثر بولس الرسول في عقيدة الانفتاح الأساسية للروح موضوع "الختم" الروحي فيما يخص الأخرويات، مترافقاً مع ومقترناً في سياق الخلاص. كما نراه في (أف ٤:٣٠): «ولا تُحزنوا روحَ الله القدوس الذي به خُتِمْتُم ليوم الفداء»، وأيضاً في (أف ١:١٣و١٤): «الذي فيه أيضاً أنتم، إذ سمِعتُم كلمة الحقِّ، إنجيل خلاصِكُم، الذي فيه أيضاً إذ آمنتم خُتِمتُم بروح الموعد القدوس، الذي هو عربون ميراثنا، لفداء المقتنى، لمدحِ مجدهِ». وأيضاً في (٢كو ١:٢٢): «الذي ختمنا أيضاً وأعطى عربون الروح في قلوبنا».

حيث يُفهم الختم أنه ميثاق للضمان أو عربون ذو مقدرة للميراث القادم مثل: «ولكن أساس

ا لله الراسخ قد ثبت إذ له هذا الختم» (٢تي ٢:١٩)، أو مثل: «لا تضروا الأرض ولا البحر ولا الأشجار حتى نختم عبيد إلهنا على جباههم» (رؤ ٧:٣). وكأنه صك إلهي للحماية والعناية: «وقيل له أن لا يضر عشب الأرض ولا شيئاً أخضر ولا شجرة ما إلاَّ الناس فقط، الذين ليس لهم ختم الله على جباههم» (رؤ ٩:٤). وهنا غياب الختم معناه فقدان الحماية والرعاية والوقوع تحت الغضب المريع. هكذا كان الختم معروفاً في الكنيسة وأعطاه ق. بولس تقييمه الروحي الأخروي مع الخلاص ويوم الفداء.

٥ ـ التعليم عن المعمودية في رسائل بولس الرسول

+ «جسدٌ واحِدٌ، وروحٌ واحِدٌ، كما دعيتم أيضاً في رجاء دعوتكم الواحد. ربٌّ واحِدٌ، إيمانٌ واحِدٌ، معموديةٌ واحِدةٌ، إلهٌ وآبٌ واحِدٌ للكلِّ، الذي على الكلِّ وبالكل وفي كلكم.» (أف ٤ : ٤ـ٦)

الآيات الواضحة عن المعمودية في رسائل بولس الرسول ـ بالرغم من أنها مملوءة نفائس ـ إلاَّ أنها قليلة في العدد. وهذا لا يثير عجبنا إذا التفتنا إلى الغاية التي من أجلها كُتبت هذه الرسائل.

والمعروف عن بولس الرسول أن أهمية العقائد عنده لا تُقاس بعدد المرَّات التي يذكرها، فالمعمودية عقيدة أساسية عنده على الرغم من أنه قليلاً ما يذكرها. وربما كان لقوله إن الله قد أرسله ليُبشِّر وليس ليُعمِّد دخل في هذا الأمر. إنها حقيقة معروفة أن ق. بولس في الرسائل حتى الكبرى منها والأساسية لا يُقدِّم تعليماً منهجياً للاهوت المسيحي، حتى في رسالتَيْ رومية أو أفسس.

فبينما نجد أن التوبة والمعمودية يردان بكثرة في تعاليم الأناجيل المتناظرة وفي سفر الأعمال، ولكن لأن الذين كان يخاطبهم بولس الرسول كانوا قد أكملوا توبتهم ومعموديتهم، لذلك نجده نادراً جداًّ ما يذكر لهم التوبة (ذكر اسم التوبة ٣ مرات والفعل مرَّة واحدة فقط). وبالمقارنة بذلك يكون ذكره للمعمودية ليس بقليل إذ أنه ذكر اسم المعمودية ٣ مرَّات وأمَّا الفعل "يُعمِّد" فقد ذكره أكثر من ١٣ مرَّة!

وعند القديس بولس تأخذ المعمودية عملاً له أهمية تاريخية في حياة الإنسان، فهو كثيراً ما يرجع بالمؤمنين إلى زمن معموديتهم وكيفية التحامهم واتحادهم في جسد المسيح.

ولكي نسهِّل البحث في الموضوع نُقسِّم المعمودية عند ق. بولس إلى ثلاثة أقسام:

(أ) أربعة نصوص ذكر فيها المعمودية في الرسالة الأُولى لأهل كورنثوس.

(ب) ثلاثة نصوص من الرسائل الأخرى وفيها تعرَّض لمعنى المعمودية بأكثر تفصيل.

(ج) نصَّان في الرسالة إلى أفسس.

(د) ثلاثة نصوص أخرى استخدم فيها الفعل يختم σφραγίζομαι مشيراً به إلى المعمودية.

(أ) التعاليم الواردة في الرسالة الأُولى إلى أهل كورنثوس عن المعمودية:

(١كو ١: ١٣-١٧):

+ «هل انقسم المسيح؟ ألعلَّ بولس صُلب لأجلكم، أم باسم بولس اعتمدتم؟ أشكر الله أني لم أُعمِّد أحداً منكم إلاَّ كريسبس وغايس، حتى لا يقول أحدٌ إني عمَّدت باسمي. وعمَّدت أيضاً بيت استفانوس. عدا ذلك لست أعلم هل عمَّدتُ أحداً آخر، لأن المسيح لم يُرسلني لأُعمِّد بل لأُبشِّر، لا بحكمة كلام لئلاَّ يتعطَّل صليب المسيح».

القديس بولس الرسول كان قد عَلِمَ بأن هناك مشاجرة في كنيسة كورنثوس بين قادة مسيحيين انقسموا، بعضهم تشايع لبولس والآخر تشايع لأبولُّس وآخرون إلى كيفا أي بطرس. لهذا خصَّص بولس الرسول الجزء الأول من رسالته لفض هذه المشاجرة. ولكنه أثار موضوعاً هاماً يخصنا جداً وهو كيف يتشايعون لاسمه؟ هل صُلب بولس من أجلهم حتى يستخدموا اسمه وكأنهم اعتمدوا لاسم بولس وليس لاسم المسيح؟ هنا يثير ق. بولس اختراع صلة الذين يعتمدون بالذي يُعمِّدهم، كما ذكر العالِم موفات(١٢) أن في بعض طقوس غير المسيحيين يُكرِّم المعتمد الذي عمَّده كأب.

هذا مما أرعب بولس الرسول أن ينحرف أهل كورنثوس في تعليم المعمودية وفي أخطر عناصرها، وهو أن المعمودية هي باسم يسوع المسيح، هذا جعل ق. بولس يصرخ: «المسيح لم يرسلني لأُعمِّد بل لأُبشِّر بالإنجيل». فعمله هو الإنجيل أساساً كرسول. والتركيز هنا على أن المسيحية قائمة على اسم المسيح وليس اسم آخر ... به ينبغي أن نخلص (أع ٤: ١٢)، والمعمودية لا تصح ولا تجوز إلاَّ إذا كانت بدعاء اسم يسوع المسيح.

وفي الحال الحادث هنا لمَّا انقسم القوم بين المتشيعين لبولس ولأبولُّس ولصفا صارت هذه الأسماء طاغية على العبادة والطقس.

(١كو ٦: ٩-١١):

بولس الرسول يذكر هنا العماد باسم الثالوث الأقدس:

+ «أم لستم تعلمون أن الظالمين لا يرثون ملكوت الله: لا تضلوا، لا زناة ولا عبدة أوثان ولا فاسقون ولا مأبونون ولا مضاجعو ذكور ولا سارقون ولا طمَّاعون ولا سكِّيرون ولا شتَّامون ولا خطَّافون يرثون ملكوت الله. وهكذا كان أُناس منكم؛ لكن اغتسلتم بل تقدَّستم

(12) J. Moffatt, *I Corinthians*, Moffatt New Testament Commentary, 1938, p. 11.

بل تبرَّرتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا».

هذا موضع من المواضع التي بلغ فيها بولس الرسول الحسم القاطع بين أخلاق الحياة القديمة والحياة الجديدة. وهو هنا يضغط بشدَّة لدعوى أخلاقية مذكِّراً القرَّاء أن الإنسان المسيحي إنسان قد تعمَّد!! ويذكر هنا مجموعة من القبائح والشذوذ التي كان يمارسها غير المسيحيين والتي كان يُقشعرّ منها حتى في عين الوثنيين، والتي كان يمارسها بعضهم. ولكن الآن كل هذا انتهى، فالأمور تغيَّرت جدًّا حينما صاروا مسيحيين:

(أ) لقد اغتسلتم ἀπελούσασθε : وذلك بمياه المعمودية. وهي تعني الاغتسال من الخطية.

(ب) بل تقدَّستم: أي تكرَّستم لخدمة الله، إذ قد صاروا أبراراً في عين الله. بمعنى أن المسيحي الذي يعيش عيشة لا أخلاقية فهو ينكر معموديته.

وملاحظتنا على هذا المثل هي:

١ ـ أنه يذكر العماد باسم الرب يسوع، ويذكر روح إلهنا باهتمام كأحد مفاعيل المعمودية والغسيل والتقديس والتبرير.

٢ ـ يربط المعمودية **بالتبرير والتقديس** (ع ١١) وهما من مدركات ق. بولس العظمى عن عمل الصليب.

٣ ـ يذكر **ميراث الملكوت** (ع ١٠).

٤ ـ يذكر أن الله قد أقام الرب **وسيقيمنا** نحن أيضاً بقوته (ع ١٤).

ق. بولس يقدِّم اعترافاً للمعمودية باسم الثالوث مبكِّراً جداً:

«اغتسلتم بل تقدَّستم بل تبرَّرتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا» (١كو ٦: ١١)

هنا ثلاثة مفاعيل:

اغتسل، تقدَّس، تبرَّر

لثلاثة أسماء:

باسم الرب يسوع، وروح، إلهنا.

الاغتسال بالإيمان باسم الرب يسوع.

التقديس في الروح القدس.

التبرير أمام الله الآب.

وقد علّق عليها ثيؤدوريت بقوله(١٣):

τῇ γὰρ ἐπικλήσει τῆς ἁγίας Τριάδος ἁγιάζεται τῶν ὑδάτων ἡ φῦσις καὶ χορηγεῖται τῶν ἁμαρτημάτων ἡ ἄφεσις.

وترجمتها:

[لأنه باستدعاء الثالوث الأقدس، تتقدّس طبيعة المياه، وتُمنح مغفرة الخطايا].

(١كو ١٠: ١-٤):

+ «فإني لست أريد أيها الإخوة أن تجهلوا أن آباءنا جميعهم كانوا تحت السحابة، وجميعهم اجتازوا في البحر، وجميعهم اعتمدوا لموسى في السحابة وفي البحر، وجميعهم أكلوا طعاماً واحداً روحياً، وجميعهم شربوا شراباً واحداً روحياً، لأنهم كانوا يشربون من صخرة روحية تابعتهم، والصخرة كانت المسيح».

هنا ق. بولس يمزج خبرة شعب إسرائيل القديم بشعب المسيح الجديد، والاثنان طبعاً هما شعب الله. فكما أن المسيحيين يعتمدون في المسيح، هكذا الآباء الأول القدامى اعتمدوا لموسى. وكما أن المسيحيين يشتركون في طعام وشراب على مائدة الرب في عشاء الرب بعد المعمودية، كذلك آباء إسرائيل أكلوا طعاماً وشراباً روحياً.

ولكن النتيجة أن بأكثرهم لم يُسرّ الله وهلكوا في القفر!!

هنا يستخدم ق. بولس هذا المثل وهذه الخبرة المؤلمة لتحذير شعب المسيح، إسرائيل الجديد! فطقوسهم لا تسعفهم أو تخلّصهم من الهلاك. فالأسرار Sacraments ليست حماية لحياة منحلة آثمة، ولكن فقط إذا مورست بروح الله، فروح الله وحده هو الذي يحفظهم ويحميهم ويقودهم في الطريق الصحيح.

(١كو ١٢: ١٢و١٣):

+ «لأنه كما أن الجسد هو واحد وله أعضاء كثيرة وكل أعضاء الجسد الوحد إذا كانت كثيرة هي جسد واحد، كذلك المسيح أيضاً. لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد، يهوداً كنّا أم يونانيين، عبيداً أم أحراراً، وجميعنا سقينا روحاً واحداً».

---

(13) Theodoret, PG. 86, 268, cited by Joseph H. Crehan, SJ, *Early Christion Baptism and Creed.* p. 15

هنا يذكر بولس الرسول في معرض ذكره للمعمودية **عطايا روحية** كمواهب التكلّم بألسنة أو النبوَّة أو الشفاء، مما جعل بعض الأعضاء يتكبَّرون. هنا بدأ يمثِّل الكنيسة بجسد له أعضاء كثيرة ولكن الجسد واحد، لأنهم حينما اعتمدوا اتحدوا في جسد المسيح أي الكنيسة. هذا هو المعنى الحقيقي للمعمودية وهو من عمل الروح، ثمَّ قدَّم تعبيراً جديداً عن استقبال المعمودية في كياننا بأننا «سُقينا روحاً واحداً»، بمعنى أنهم لمَّا اعتمدوا وانضموا إلى الكنيسة، وكان هذا هو انضمامهم الحقيقي لجسد المسيح كأعضاء بالمعمودية، كانت هذه العمليات الأولية كلها بفاعلية الروح الواحد.

والملاحظات الهامة في هذا المثل:

١ ـ أن المسيحيين يعتمدون «**إلى جسد واحد**»: هذا الاصطلاح وبمقتضى ما قاله في (عدد ١٢)، فالقديس بولس يعني **في المسيح** كما جاءت في (غل ٣:٢٧، رو ٦:٣).

٢ ـ يقدِّم لنا المعمودية **كسرِّ الوحدة**: أي المعمودية هي الرمز أو المعيار الفعَّال الذي يجمع كل المسيحيين إلى واحد في المسيح. حيث تتلاشى كل المفارقات العنصرية والجنسية والاجتماعية.

٣ ـ ونلاحظ أن من بين المواهب الروحية المذكورة في عدد (٩): الإيمان.

(ب) التعاليم الواردة في الرسائل الأخرى:

(غل ٣: ٢٦-٢٩):

+ «لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع. لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح (أو في المسيح εἰς Χριστόν) قد لبستم المسيح. ليس يهودي ولا يوناني، ليس عبد ولا حر، ليس ذكر وأنثى. لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع. فإن كنتم للمسيح فأنتم إذاً نسل إبراهيم وحسب الموعد ورثة».

١ ـ يضع ق. بولس هنا اصطلاحين في المعمودية في غاية الأهمية والعمق:

الأول: في المسيح εἰς Χριστόν: حينما يخلعون ثيابهم ويدخلون الماء عرايا يعتمدون في المسيح فيصيرون تبع المسيح.

الثاني: يلبسون المسيح: حينما يخرجون من الماء يلبسون ثياباً جديدة بيضاء، هذا بمعنى أنهم يلبسون المسيح.

٢ ـ يعطي ق. بولس هبة جديدة للمعمودية من خلال الإيمان: «لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع»، هذه البنوَّة تبدأ بإعلان الآب من السماء لما انشقَّت السماء بعد خروج المسيح من الماء والإعلان عن البنوَّة الفائقة للمسيح، ثمَّ تسحَّبت على المعمَّدين باسم يسوع

المسيح إذ ينالون بالمثل، ولكن بالتبنّي[١٤] حالة بنوَّة لله إذ قبلوا المسيح بالإيمان واعتمدوا له. ولأن الحياة الجديدة في المسيح هي حياة **حرَّة** وهي عكس حياة عبد، **فهي** حياة ابن:

+ «ولكن لمَّا جاء ملءُ الزمان، أرسلَ الله ابنه مولوداً من امرأةٍ، مولوداً تحت الناموسِ، ليفتدي الذين تحت الناموس، لننال **التبني**. ثم **بما أنكم أبناءٌ** أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً: **يا أبَا الآبُ**. إذاً لستَ بعدُ عبداً **بل ابناً**. وإن كنتَ ابناً **فوارثٌ** لله بالمسيح.» (غل ٤: ٤-٧)

٣ ـ هنا إرسال الله روح ابنه إلى قلوبنا هو عمل الآب في المعمودية، إذ يعطينا التبني على مثال ما أعلنه عن ابنه في المعمودية مثالاً لنا.

٤ ـ يكشف لنا ق. بولس عن عطية جديدة مخفية في المعمودية، لأنه إن كنَّا في المعمودية نعتمد في المسيح ونصير أعضاءً في جسده، فقد صرنا بالتالي أبناءً معه **وورثة**، ورثة حسب الموعد لإبراهيم، وورثة بحسب التبني لله بآن. هنا تُحسب المعمودية **سرًّا أخروياً بمعنى تحقيق ما هو آت**، بميراث الحياة الأبدية. فالمعمودية باب التبنّي والميراث. وقوله: "لبستم المسيح" بهذا الفعل السرِّي أي دخلنا في عمق حياة المسيح وأخذنا مخصَّصاته، يحتِّم أن نكون أبناءً وورثة معه، وأن نقبل الروح العامل في قلبه للشهادة بأبوة الله "يا أبا الآب"، فهي حياة بنويَّة تحت رضا الآب.

(رو ٦: ١-٨):

+ «فماذا نقول؟ أنبقَى في الخطية لكي تكثر النعمة؟ حاشا! نحن الذين مُتنا عن الخطية، كيف نعيش بعد فيها؟ أم تجهلون أننا كل مَنِ اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته، فدُفِنَّا معه بالمعمودية للموت، حتى كما أُقيم المسيح من الأموات، بمجد الآب، هكذا نسلك نحن أيضاً في جدَّة الحياة. لأنه إن كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته، نصير أيضاً بقيامته. عالمين هذا: أن إنساننا العتيق قد صُلب معه ليُبطَلَ جسد الخطية، كي لا نعود نُستعبد أيضاً للخطية. لأن الذي مات قد تبرَّأ من الخطية. فإن كنا قد متنا مع المسيح، نؤمن أننا سنحيا أيضاً معه».

هنا يضغط بولس الرسول على الحياة الجديدة في المسيحية من زاوية جديدة. فهو يركِّز بوضوح على لحظة المعمودية باعتبارها تجمع كل ما تعنيه المسيحية، وكما ركَّز في رسالته إلى غلاطية

(١٤) أمَّا بنوَّة المسيح لله فهي بحسب الجوهر الإلهي والطبيعة الإلهية الواحدة، وأمَّا نحن فنلنا التبني كهبة.

(٢٦:٣-٢٩) على أنَّ من يعتمد يلبس المسيح، بلبسه الجديد بعد خروجه من الماء، هكذا يركِّز هنا على لحظة الانغمار تحت الماء أنها لحظة موت حقيقي بل ودفن (ثلاثة أيام بثلاث مرَّات مع المسيح).

فالمسيحي في لحظة العماد والانغمار تحت الماء يمارس بالإيمان حالة شركة حقيقية في موت المسيح. ولكن المسيح مات من أجل الخطية ليدوسها ويميتها بموته، هكذا نحن لمَّا متنا معه متنا بسبب الخطية كعقوبة قديمة حلَّت بآدم وذريَّته، وبالتالي متنا عن الخطية ومات الجسد العتيق تماماً كما مات المسيح ودفن في القبر ثلاثة أيام. هنا المعمودية تشمل حالة موت ἀπεθάνομεν، فكيف نعيش بعد في الخطية.

وبولس الرسول يستخدم هذه الحقيقة ردًّا على بدعة سرت في رومية يرد عليها في الأصحاح الخامس دون أن يُعلن مضمونها: أنه إن كنَّا قد حصلنا على نعمة، والنعمة شيء عظيم فلا تحسب معها الخطية بعد، بمعنى خاطئ: أن نبقى في الخطية. فردَّ عليهم: فماذا نقول؟ أنبقى في الخطية لكي تكثر النعمة؟ أم تجهلون أننا كل مَن اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته ... كما جاء عاليه.

هنا يعطينا ق. بولس معياراً جديداً أو قياساً جديداً نقيس به المعمودية، وهو التطبيق العملي لِما تمَّ للرب يسوع على الصليب وفي القبر. فإذا نحن آمنا تماماً أننا متنا مع المسيح ودفنا معه، لأن المسيح يحملنا في جسده وقد حمل خطايانا في جسده على الخشبة ومات فمتنا معه، فبهذا الإيمان نحن ننزل إلى ماء المعمودية ونُدفن فيه تحقيقاً سريًّا واعترافاً إيمانياً لما تمَّ بالفعل على الصليب وفي القبر. لذلك حُسبت المعمودية: أننا «**اعتمدنا في المسيح**»، و«**اعتمدنا لموته**»، و«**دُفنَّا معه**»، و«**قمنا معه**» «كما أُقيم المسيح من الأموات بمجد الآب». وبناء على ذلك نسلك نحن أيضاً كبني قيامة في جدَّة الحياة.

لأنه بحسب محاجاة ق. بولس: «لأنه إن كنا قد صرنا متحدين معه بشبه (مثال) موته، نصير أيضاً بقيامته»، وحجة ق. بولس في هذا أنه بموت المسيح أمات الخطية وأبطلها بقيامته ونحن فيه، في موته وقيامته. إذن، فنحن أيضاً قد متنا عن الخطية وأبطلناها بحياتنا الجديدة معه! بهذا أصبح القول بإمكانية الخطية في الحياة الجديدة باطلاً ومنافياً لواقع الإيمان والمعمودية التي نلنا فيها الحياة الجديدة.

وحجَّته الختامية في هذا: «أن الذي مات قد تبرَّأ من الخطية» بمعنى أنه بموته بالإيمان وبالمعمودية مع المسيح يكون قد دفع ثمن العقوبة القديمة، ويكون قد تبرَّأ أو صار بريئاً من دينونتها وفعلها.

ثمَّ يستطرد ق. بولس بعد ذلك في نفس الأصحاح ويقول: «فإن كنا قد متنا مع المسيح **نؤمن** (بفاعلية سر المعمودية أيضاً) أننا سنحيا أيضاً معه، عالمين أن المسيح بعدما أُقيم من الأموات لا يموت

أيضاً» (رو ٦: ٨و٩). بمعنى أنه يستحيل أن يحمل الخطية مجدَّداً ليموت بها! ويشرح ذلك أيضاً: «لأن الموت الذي ماته قد ماته للخطية **مرَّة واحدة** (الصليب) والحياة التي يحياها فيحياها لله» (رو ١٠:٦). بمعنى أننا نحيا الآن مع المسيح لله وليس للخطية.

وفي موضع آخر في رسالة غلاطية (٥: ٢٤و٢٥) يقول ق. بولس: «ولكن الذين هم للمسيح قد صلبوا الجسد مع الأهواءِ والشهواتِ. إن كنَّا نعيش بالروح، فلنسلك أيضاً بحسب الروح». وإن كان هذا النص لا يخص المعمودية ولكنه ينطبق على ما يقوله هنا في رسالة رومية في أمر المعمودية أننا متنا معه والآن نحيا معه بحياته!!

فقول ق. بولس في (غل ٢٤:٥): «**الذين هم للمسيح**» هو قائم على خلفية قوله: «**إننا كل مَن اعتمد ليسوع المسيح**» (رو ٣:٦)، وأيضاً قوله: «لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح» (غل ٢٧:٣). فخلفية ق. بولس حينما يتكلَّم عن علاقتنا بالمسيح هي خلفية المعمودية.

(كو ٢: ٩-١٣)

+ «فإنه فيه يحل كل ملءِ اللاهوت جسديًّا. وأنتم مملوؤون فيه، الذي هو رأس كل رياسةٍ وسلطان. وبه أيضاً ختنتم ختاناً غير مصنوع بيدٍ، بخلع جسم خطايا البشرية، بختان المسيح. مدفونينً معه في المعمودية، التي فيها أُقمتم أيضاً معه بإيمان عمل الله، الذي أقامه من الأموات. وإذ كنتم أمواتاً في الخطايا وغلف جسدكم، أحياكم معه، مسامحاً لكم بجميع الخطايا».

وأيضاً في هذا النص نجد الرباط يمتد بين المعمودية والحياة الجديدة للمسيحي. ففكر ق. بولس هنا يتماشى مع فكره الذي رأيناه في (رو ٦:١-٨)، حيث كان ق. بولس يقدِّم المعمودية المسيحية على أنها إعادة درامية فعلية لموت ودفن وقيامة المسيح. كذلك فكره هنا، حيث النتيجة العملية هي أن الله الذي أقام يسوع قادرٌ أن يقيمنا معه نحن الذين اعتمدنا في المسيح، ويعطينا القوة لنحيا حياة جديدة ذات أخلاق جديدة. هذه الحياة الجديدة ذات الأخلاق الجديدة التي للمؤمنين هي كامتداد لحياة المسيح الفادي القائم من الأموات.

ولكن هنا في رسالته إلى كولوسي ينبِّه ق. بولس ذهننا إلى ناحية أخرى وهي أن المعمودية تُحسب بمثابة ختانة اليهود، حيث كانت الختانة تعني ليس أكثر من إشارة مسبقة للمعمودية في العهد الجديد. حيث كانت الختانة هي قطع الجزء المنجس من الجسد، والمعمودية قطع أو موت الإنسان العتيق الفاسد. وقد أخذ إبراهيم الختان كعلامة للإيمان الذي آمن به بالله وكهبة له للتبرير

المجاني. وهكذا نأخذ **المعمودية** في المسيح **هبة التبرير المجّاني** نتيجة أو **مجازاة للإيمان** الذي آمنا به بالمسيح.

وقبل الختان كان إبراهيم إنساناً عادياً، وبعد الختان صار باراً مؤمناً بالله بختم. وهكذا قبل المعمودية كان المسيحي رجلاً خاطئاً غير بار، وبعد المعمودية صار باراً بلا خطية. إبراهيم لم يعمل أي عمل، ولكنه آمن فتبرَّر وأخذ الختان علامة برٍّ، والإنسان المسيحي لم يعمل أي عمل بل كان في الخطية، ولكنه آمن فتبرَّر وأخذ المعمودية ختم إيمان وبر.

ولكن العنصر المهم في المعمودية هو "الموت"، موت الإنسان العتيق الذي يتساوى مع الختان. وقول بولس الرسول هنا: «وبه أيضاً ختنتم ختاناً غير مصنوع بيد بخلع جسم خطايا البشرية بختان المسيح»، هنا عبَّر عن موت المعمودية الذي هو المثيل المتحد بموت المسيح بختان غير مصنوع باليد، حيث خلعنا الإنسان العتيق مع خلع المسيح جسد خطايا البشرية مع الصليب، الذي نرمز إليه بخلع الملابس عند النزول إلى المعمودية.

أمَّا ما هي **ختانة المسيح**؟ فهي موت الجسد الحامل للخطايا بالصليب والدفن وقيامة المسيح **كإسرائيل الجديد مبرَّراً.**

- ويضيف بولس الرسول معلومة جديدة أن الإيمان بعمل الله سواء في موت المسيح أو قيامته هو العامل الأساسي في إماتتنا نحن أيضاً مع المسيح وإقامتنا معه (١٢).
- كما يضيف بولس الرسول أن الآب أحيانا مع المسيح بعد أن كنا معتبرين أمواتاً بالخطايا ونجاسات الجسد (١٣).
- كما يضيف العامل الأول والأساسي في نوال بر الله وهو «مسامحاً لكم بجميع الخطايا»، على أساس صليب ابنه: «هكذا أحبَّ الله العالم حتى بذلك ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية.» (يو ٣:١٦)

+ وهكذا حُسبت المعمودية عملية موازية للصليب والقيامة، وتضمَّنت مسامحة الله لنا من جميع الخطايا = «إذ محا الصك الذي علينا في الفرائض الذي كان ضدًّا لنا، وقد رفعه من الوسط مسمِّراً إيَّاه بالصليب» (كو ٢:١٤). فكما سمَّرت الخطية يدي المسيح ورجليه على الصليب، هكذا سمَّر الله سجل خطايانا كله ومحاه على الصليب. فالخطية أماتت المسيح على الصليب، ولكن على نفس الصليب أمات المسيح الخطية وأنهى على سلطانها.

(ج) التعاليم الواردة في رسالة أفسس:

(أف ٤:٤-٦)

+ «**جسدٌ واحِدٌ، وروحٌ واحِدٌ**، كما دعيتم أيضاً في رجاءِ دعوتكم الواحد. **ربٌّ واحِدٌ، إيمانٌ واحِدٌ، معموديةٌ واحِدةٌ، إلهٌ وآبٌ واحِدٌ** للكلِّ، الذي على الكل وبالكل وفي كلكم.»

أولاً: أن يضع ق. بولس المعمودية الواحدة مع الإيمان والله الآب الواحد كتفاً بكتف شيء مذهل للعقل، يجعل الإنسان يفكر مائة مرَّة في قيمة المعمودية عند ق. بولس أولاً، ثمَّ قيمة المعمودية ماذا تكون عندنا.

ثانياً: والذي يثير العجب في هذا النص الفريد أنه لا يحوي الإفخارستيا، مع أن ق. بولس يقول في رسالة كورنثوس: «فإننا نحن الكثيرين خبز واحد جسدٌ واحد، لأننا جميعاً نشترك في الخبز الواحد» (١كو ١٠:١٧). هكذا كنا نظن أنه يورد هذا هنا في هذا النص! لم يورد نص (١كو ١٠:١٧) هنا في (أف ٤:٤-٦) يجعلنا أكثر تأثراً.

لهذا إذا أخذنا نص (أف ٤:٤-٦) بجزئياته نجد أنه لا يوجد أي نص آخر للمعمودية له مثل هذه القوة والبلاغة والاختصار في وصف وتقييم المعمودية ومعناها وهيبتها في العهد الجديد، بل وفي كل القرن الأول المسيحي.

فإذا بحثنا في ما كان السبب في إيراد هذا النص لهذه الجماعة، نجده أنه جاء كتعقيب لدعوته لهم: «أن تسلكوا كما يحق للدعوة التي دعيتم بها»!

فضخامة النص الذي رفع من شأن المعمودية الواحدة هو ليقنع أهل أفسس بمدى خطورة وأهمية السلوك الذي يحق لهذه الدعوة أي المعمودية.

(أف ٥:٢٥-٢٧)

+ «أيها الرجال، أحبُّوا نساءَكُم كما أحبَّ المسيح أيضاً الكنيسة وأسلم نفسه لأجلِها، لكي يقدِّسها، مطهِّراً إيَّاها بغسلِ الماءِ بالكلمةِ، لكي يُحضِرها لنفسه كنيسةً مجيدةً، لا دَنسَ فيها ولا غضنَ أو شيءٌ من مثل ذلك، بل تكون مقدَّسةً وبلا عيبٍ».

القديس بولس أراد أن يصوِّر محبة المسيح للكنيسة (التي هي جسده) بمحبة الرجل لامرأته! لماذا؟ لأن المرأة أصلاً غريبة عن الرجل، فالحب الذي طرأ عليهما هو بالرغم من عدم وجود علاقة سابقة،

هذا الحب ظهر إلى الوجود بسبب رغبة الرجل للارتباط بالمرأة وإنجاب البنين منها، هذه هي علة حب الرجل للمرأة. ق. بولس يرى أن هذه العلّة واردة بين المسيح والكنيسة، فالمسيح إله ولكنه تنازل وأخذ جنس المرأة (الكنيسة) وصار إنساناً ليناسبها، ثمَّ وجد أنه لكي يحبّها حبًّا صادقاً يؤدِّي فعلاً إلى وحدة واتحاد، التزم التزاماً أن يموت على الصليب من أجلها، وجرى دمه على الصليب وعلى جسده الذي احتوى البشرية، جسده الذي تجسَّد به والكنيسة منه وفيه، فقدَّس الجسد أي قدَّس الكنيسة. ووضع لها سر المعمودية بالماء والكلمة ليطهِّرها من كل دنس لتكون مقدَّسة وبلا عيب!

ونلاحظ ما يلي:

١ - أن ق. بولس قد أورد اصطلاحين: "**أحب** ἠγάπησεν"، والاصطلاح الآخر: "**أسلم** παρέδωκεν". فبالبحث عن هذين الاصطلاحين في أقوال ق. بولس وجدناهما يعبِّران عن محبة الله للقديس بولس نفسه:

+ «مع المسيح صُلِبتُ، فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فيَّ. فما أحياهُ الآن في الجسد، فإنما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله، الذي **أحبني وأسلَمَ** نفسه لأجلي.» (غل ٢: ٢٠)

فالقديس بولس دون أن يدري سابقاً أعطى نفسه مثالاً فردياً لما عمله المسيح في الكنيسة ككل. ولكن أضاف في حب المسيح للكنيسة أنه أسلم نفسه لأجلها «لكي يقدِّسها مطهِّراً إيَّاها بغسل الماء بالكلمة».

٢ - والمعنى في ذلك عميق وسام سمو السماء، إذ أن هذا يعني أن المسيح لكي يدشِّن حبه الإلهي للكنيسة ويوثِّقه دشَّنه ووثَّقه بدم العهد!! وهذا منتهى التقديس الذي جعله في متناول يدها بالمعمودية التي عبَّر المسيح عنها سابقاً تعبيراً مأساوياً هكذا:

+ «ولي صبغة (أي معمودية) أصطبغها وكيف أنحصر حتى تُكمل.» (لو ١٢: ٥٠)

وهنا حسناً أعطانا المترجم اسماً آخر للمعمودية وهو الصبغة والاصطباغ، فجعلت المعنى أقرب وأقوى، وأظهر فيها الدراما أي المأساة، إذ أن الصبغة تفيد هنا الدم كما تفيد المعمودية. فالمسيح عَبَّرَ معمودية الصليب للموت **فاصطبغ الجسد بالدم وقدَّسه تقديساً — وأسكن روحه فيه — إعداداً للموت وللنزول إلى القبر، تمكيناً للجسد (الكنيسة) الذي فيه روح الرب من القيامة بقيامته! جسداً روحانياً جديداً خليقة جديدة مبرَّرة ببر المسيح!**

٣ - نستفيد من هذا أن تسليم المسيح نفسه هو الذي أعطى المعمودية فعلها المؤثِّر الإلهي.

٤ ـ هذا يفيد إفادة قاطعة أن أي إنسان مسيحي قد تعمَّد صحيحاً يكون وراءه موت المسيح.

٥ ـ كذلك فإن وراء كل معمودية إنسان مسيحي حُب المسيح الذي ألزمه بتسليم نفسه بالآلام.

٦ ـ هذا أوجب للمعمودية أن تكون سرًّا sacrament رهيباً.

٧ ـ وهذا هو الذي أوجب على ق. بولس أن يقول: «إننا كل مَنْ اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته» (رو ٦:٣). وأيضاً: «مدفونين معه في المعمودية التي فيها أُقمتم أيضاً معه» (كو ٢:١٢).

٨ ـ هنا أيضاً أعطى ق. بولس للمعمودية سمة إلهية لا تُمحى، ورفع من سر الماء فيها بقوله: «لكي يقدِّسها مطهِّراً إيَّاها بغسل "الماء بالكلمة"». فالتطهير الذي يفعله ماء المعمودية يرجع أصلاً للكلمة الفاعل فيه وهو النطق الإلهي، الذي هو هو قوة الإيمان.

٩ ـ وكنتيجة لحبه وتسليم نفسه للصليب بإرادته من أجلها، الذي أنشأ تقديساً لها، ثمَّ تطهيرها بغسل الماء بالكلمة، فإنه في النهاية يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة ἔνδοξον، بهذا يكون قد أعطى للمعمودية بعداً أخروياً سيظهر في المجد.

١٠ ـ وبالنهاية لكي تكون بلا عيب، حيث الكلمة بلا عيب ἄμωμος أو بلا لوم تعني بلوغها منتهى الاستحقاق أن تتقدَّم للوقوف أمام الله، كما جاء في رسالة أفسس (١:٤):

+ «كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم ἀμώμους قدامه في المحبة».

وكما جاءت أيضاً في الرسالة إلى كولوسي (١: ٢١و٢٢):

+ «قد صالحكم الآن في جسم بشريته بالموت، ليحضركم قديسين وبلا لوم ولا شكوى أمامه».

(د) النصوص التي تحتوي على الفعل "يختم":

(٢كو ١: ٢١و٢٢):

+ «ولكن الذي يثبِّتنا معكم في المسيح وقد مسحنا هو الله. الذي ختمنا أيضاً وأعطى عربون الروح في قلوبنا».

(أف ١:١٣و١٤):

+ «الذي فيه أيضاً أنتم، إذ سمِعتُم كلمة الحقِّ، إنجيل خلاصكُم، الذي فيه أيضاً إذ آمنتم خُتِمتُم

بروح الموعد القدوس، الذي هو عربون ميراثنا، لفداء المقتنى، لمدحِ مجدِهِ».

(أف ٤: ٣٠):

+ «ولا تُحزِنُوا روحَ الله القدوس الذي به **خُتِمْتُم** ليومِ الفداءِ».

في هذه التسجيلات توجد كلمة مشتركة وهي الفعل خَتَمَ σφραγίζομαι ويقصد به بولس الرسول الختم الذي يناله المعمَّد باعتباره صار من رعية المسيح.

وقد ذكرها هرماس (الراعي) *Sim.*, IX, vvi، كما ذُكرت أيضاً في الرسالة الثانية المنسوبة لكليمندس الروماني 2 Clem. 7.6; 8.6 - وقد استخدمها بولس الرسول في الرسالة إلى أهل رومية (٤: ١١) للتعبير عن الختانة، باعتبار أن الختان هو ختم الإيمان عند إبراهيم. والكلمة متداولة في الكنيسة من القرن الثاني ومنذ ذلك التاريخ وهي تستعمل كرمز للمعمودية. ولكن بتاريخ سابق كانت تُستخدم للتعبير عن الختان، وانتقلت من التراث اليهودي إلى المسيحية الأُولى. والقديس بولس استخدمها لقربها من اصطلاح الختانة كختم الله، مما دعاه أن يعتبر المعمودية كنوع من الختانة المسيحية غير مصنوع باليد كما سبق وقال ذلك.

والذي يرجِّح بالأكثر أن المقصود بالختم عند بولس الرسول هو المعمودية، هي الكلمات الواردة مع النصوص، فمثلاً في (٢كو ١: ٢٢) وردت كلمة **المسحة** وأيضاً **عربون الروح** وهي خاصة بالمعمودية، وأيضاً: **"في المسيح"**.

ومع أن المسحة في الأناجيل وسفر الأعمال قد جاءت فقط للتعبير عن حلول الروح على المسيح وقت العماد (أع ١٠: ٣٧و٣٨)، ولكن هنا يجيء القول: «الذي يثبتنا معكم في المسيح وقد **مسحنا** هو الله»، ذلك لأن الذين اتحدوا في جسد المسيح هكذا أيضاً استلموا مسحته، كما عبَّر عنها القديس يوحنا في رسالته: «وأمَّا أنتم فلكم **مسحة** من القدوس وتعلمون كل شيء» (١يو ٢: ٢٠). وهذه أيضاً تزيد اليقين أن كلمة ختم في (٢كو ١: ٢١و٢٢) هي تعبير عن المعمودية.

أمَّا في النص الثاني **(أف ١: ١٣و١٤): «الذي فيه أيضاً أنتم، إذ سمِعتُم كلمة الحقِّ، إنجيل خلاصِكُم، الذي فيه أيضاً إذ آمنتم خُتِمتُم بروح الموعد القدوس، الذي هو عربون ميراثنا، لفداء المقتنى، لمدحِ مجدِهِ».**

فلكي نحدِّد الوارد هنا عن المعمودية يلزم أن ندرك أن الموضوع يبدأ من العدد (٣)، ذاكراً أعمال

ا الله في الأزلية من الأعداد ٣-١٤، والقصد هو الاختيار الأزلي للتبني، حيث يبدأ الكلام في العدد (٣) ببركة الله لنا منذ الأزل (نحن المسيحيين) في المسيح، ثمَّ عدد (٤) الله الآب اختارنا في المسيح قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم في المحبة، ثمَّ (٥) التبني إذ سبق فعيَّننا للتبني بيسوع المسيح لنفسه، ثمَّ (٦) الفداء بموت المسيح، ثمَّ (٧) غفران الخطايا، ثمَّ مدح مجده، وفي عدد (١٣) ختم الروح القدس إذ آمنتم، ثمَّ الميراث جاء في (١١)، (١٤) كما جاء في النص عاليه.

والذي يلفت نظرنا هنا أن من عدد (١٣) يبدأ بذكر سماع الكلمة «كلمة الحق إنجيل خلاصكم». هذا يطابق ما جاء كثيراً في سفر الأعمال عن "سماع الكلمة والعماد". وهكذا نرى هنا أن الختم بروح الموعد القدوس يأتي مباشرة نتيجة لسماع إنجيل خلاصكم، فهو يقابل المعمودية في سفر الأعمال.

بهذا يتضح لنا أن استخدام ق. بولس لكلمة خُتمتم يقصد بها المعمودية دائماً.

٦ - تعقيب على تعاليم بولس في كل رسائله عن المعمودية وإلى أي مدى يُعتبر تعليماً سرائرياً Sacramental

١ - كانت نظرة ق. بولس للمعمودية دائماً أنها طقس مهيب: حيث يتحد الموعوظون في الكنيسة في جسد واحد: (١كو ١٢:١٣)، أو في المسيح يسوع (رو ٦:٣) أو في المسيح (غل ٣:٢٧)، (٢كو ١:٢١).

٢ - وأن المعمودية فعل يتم بواسطة الروح القدس: ومن خلالها يقبل المعتمد الروح (١كو ٦:١١، أف ١:١٣ وأيضاً: غل ٣:٢، رو ٨:١٥).

٣ - أن الروح الذي يقبله المعمَّد كان أيضاً يسمَّى "روح ابنه": (غل ٤:٦) معطياً للمعتمد المسيحي إحساساً بأبوَّة الله (يا أبا الآب) = (غل ٤:٦، رو٨:١٥).

٤ - عطية أو هبة الروح القدس تُعطى من خلال الإيمان: (غل ٣:٢٦و٢٣-٢٥، كو ٢:١٢، أف ١:١٣ و٤:٥، رو ٦:٨، ١كو ١٢:٩).

٥ - اهتم ق. بولس بذكر عمل الله الآب في المعمودية: (رو ٦:٤، ٢كو ١:٢١و٢٢، كو ٢:١٢، أف ٤:٦ و١:٣ وغل ٤:٦).

٦ - الصلة بين المعمودية والروح، والروح والتبني: قادت بولس الرسول أن يذكر الصلة بين المعمودية والتبني: (غل ٣:٢٦و٢٧) مع (غل ٤:٦).

٧ - الثلاثة مدركات: المعمودية والروح والتبني: موجودة في الأصحاح الأول من الرسالة إلى أهل أفسس، ولو أن التبني (عدد ٥) منفصل بعدة أعداد عن المعمودية والروح (١٣)، غير أن النص كله يُعتبر جملة واحدة.

علماً بأن الروح والبنوَّة مرتبطان بوضوح في قصة عماد المسيح.

٨ - هناك اتصال بين المعمودية والتقديس والتبرير باسم الرب يسوع وروح إلهنا: (١كو ٦:١١).

٩ – وأيضاً اتصال بين المعمودية والتبرير: (غل ٣:٢٤، رو ٦:٧).

١٠ – واتصال بين مغفرة الخطايا والمعمودية: (كو ٢:١٣، أف ١:٧ و٤:٣٢).

١١ – أفعال المعمودية غاية في الأهمية وتعطي للطقس معناه:

(أ) **خلع الملابس قبل الانغمار في المعمودية:** يعتبرها ق. بولس رمزاً لخلع الإنسان العتيق (كو ٢:١١، أف ٤:٢٢).

(ب) **لبس الملابس البيضاء بعد الخروج من المعمودية:** (غل ٣:٢٧) يعتبرها أننا «لبسنا المسيح» (كو ٢:١١)، (كو ٣:٨و١٢ ولكن هذه بدون ذكر المعمودية).

١٢ – التغطيس الكلّي تحت الماء: يوضِّح أن المسيحي يموت ويُدفن ويقوم مع المسيح:

(أ) **المسيحي في المعمودية يموت مع المسيح:** (رو ٦:٣، كو ٣:٣، غل ٥:٢٤).

(ب) **المسيحي في المعمودية يندفن مع المسيح:** (رو ٦:٤، كو ٢:١٢).

(ج) **ويقوم في المعمودية مع المسيح:** (رو ٦:٤، كو ٢:١٢ و٣:١).

١٣ – كل هذا من خلال الإيمان با لله الذي أقام المسيح من الأموات: (كو ٢:١٢، ١كو ٦:١٤).

١٤ – القيامة مع المسيح تعني حياة أخلاقية للدخول في صفات جديدة: (رو ٦:٤ و١٣و١٩، كو ٢:٦ و٣:١ إلخ و١٢ إلخ، أف ١:٤ و٤:١و٢و٣٢، ١كو ٦:٩-١١).

١٥ – وأحياناً بدون ذكر المعمودية يذكر ملابساتها ونتائجها: إننا متنا وقمنا مع المسيح (رو ٨:١٠و١١)، ونحيا حياة جديدة في الروح (رو ٨:٩ إلخ).

١٦ – ليس الموت والقيامة مع المسيح فقط بل وأيضاً التمثُّل بمحبته وبذل ذاته هي التي تعطي المعمودية قوتها للتطهير والتقديس بالنسبة للكنيسة: (أف ٥:٢٥-٢٧، أف ٤:٣٠ ؛ ٥:٢).

١٧ – نصوص كثيرة يُرى فيها الصلة الوثيقة بين المعمودية المسيحية والكنيسة كإسرائيل الجديدة:

(أ) المعمودية في المسيحية هي كالختانة لليهود: (كو ٢:١١).

(ب) استخدام كلمة ختم وختمتم (σφραγίζομαι): (٢كو ١:٢٢، أف ١:١٣ و٤:٣٠).

(ج) بالمعمودية **في المسيح** (غل ٣:٢٧) يصير المعمَّد جزءاً من نسل إبراهيم **ووارثاً** حسب الموعد (غل ٣:٢٩ و٤:٧، ١كو ٦:٩و١٠، أف ١:١٤، رو ٨:١٧). حيث شرط في المسيح أو بالمسيح أو مع المسيح فيها جميعاً.

(د) يؤرِّخ لبدء انتماء الإنسان للمسيح والمسيحية من لحظة المعمودية ـ (كمثيل للختان): (غل ٣:٢٦و٢٧، كو ٢:١٠-١٢) ἐν αὐτῷ وأنتم مملوؤون فيه = في المسيح!! (رو ٦:١١ و١كو ٦:١١و١٧).

١٨ ـ عند القديس بولس الإفخارستيا طقس أخروي [... إلى أن أجيء] وفي المعمودية ما يفيد ذلك كما في (أف ٤:٣٠): «خُتمتم **"ليوم الفداء"**» أي أن نظرة ق. بولس في تسجيلاته **للمعمودية أنها هي طقس أخروي** لأن الحياة الجديدة في المسيح ممتدة إلى كمال الأخروية:

(أ) لهذا يربط ق. بولس المعمودية بهبة الروح القدس: [ومعروف أن تعاليم اليهود ترهن انسكاب الروح القدس بأنه هو علامة الدهر الآتي (يؤ ٢:٢٨) كما هو مذكور في (أع ٢:١٦-١٨)].

(ب) في كثير من تسجيلات المعمودية يذكر **"المجد"** حيث ملكوت المسيَّا (رو ٦:٤، أف ١:١٤).

(ج) يشرح ق. بولس الكلمات الواردة في (٢كو ٥:٥): «ولكن الذي صنعنا لهذا عينه هو الله الذي أعطانا أيضاً عربون الروح»، أن هذا العربون للروح هو المأخوذ في المعمودية (٢كو ١:٢٢)، وهذا العربون هو لضمان الميراث الآتي كما في (أف ١:١٣): «ختمتم بروح الموعد القدوس الذي هو عربون ميراثنا لفداء المقتنى (تكميل فداء أجسادنا المقتنى لمدح مجد نعمته)» = «نحن الذين لنا باكورة الروح (بالمعمودية) نحن أنفسنا أيضاً نئن في أنفسنا متوقِّعين التبني فداء أجسادنا» (رو ٨:٢٣) = منتهى الأخروية!

(د) فالروح والتجديد الأخلاقي للحياة الجديدة بالقيامة والخروج من المعمودية ولبس الثياب السمائية هذه كلها سَبْق مذاقة البركات التي تنتظرنا في الحياة الأخرى، حيث الثياب الجديدة ترمز أيضاً إلى بيتنا السماوي الجديد، لأن خلع الملابس لدخول المعمودية يعتبرها ق. بولس نقض بيتنا الأرضي أو خيمتنا الأرضية (٢كو ٥:١)، ولبس ثوب المعمودية الجديد هو كناية عن البناء في السموات من الله: بيت غير مصنوع بيد، أبدي = مسكننا الذي من السماء. فإن كنا نئن في أنفسنا مشتاقين أن نلبس مسكننا الذي من السموات كما يقول ق. بولس، لذلك أعطانا أيضاً **عربون الروح**! لنتأكَّد من الآتي!

(هـ) المعمودية طقس أخروي بدأه المسيح منذ أن بدأ يربط المعمودية بموته [الذي بدأه المسيح نفسه بقوله: «لي صبغة أصطبغها وكيف أنحصر حتى تُكمَل» (لو ١٢:٥٠)]، وفي الحال جعل الخروج من المعمودية كاشتراك في قيامة الرب، الأمر الذي صار معياراً لاهوتياً شاملاً جامعاً لكل لاهوت العهد الجديد كالمعمودية، حيث الأخروية تربط نظرنا لا للمعمودية فقط بل للاهوت العهد الجديد. فالمسيحية بكل أسرارها تحقيق أخروي في الحاضر الزمني! فإذا أدخلنا هذا في اعتبارنا انفتحت كل أبواب فهم ومعرفة كل الأناجيل والرسائل.

هذا كله نابع من المعمودية التي تعطي خليقة جديدة وروح عربون الميراث المعدّ!

لذلك رأينا سابقاً أن في هبة المعمودية كل شرح لكل شيء.

١٩ ـ المعروف الآن لاهوتياً أن قول ق. بولس وبإصرار إننا «نعتمد في المسيح» εἰς = Into هو تجميع لكل ما يخص المسيح من أعماله الخلاصية من موت ودفن وقيامة وتخصيصه لنا، فهي ليست مجرَّد أوصاف أو رموز بل حقائق لاهوتية يستقيها ق. بولس من التراث القائم ويشرحها.

٢٠ ـ ففي الفكر اللاهوتي للقديس بولس أن المعمودية هي الشرح العملي الظاهري للإنجيل! لأن موت الرب وقيامته هو الأمر الذي قامت وانبنت عليه المعمودية، والذي أعطى المعمودية معناها المميَّز المتخصِّص! لذلك فكل ما استخرجه ق. بولس من المعمودية لا يُشكِّل أي اجتهاد أو تصوُّر شخصي، ولكن هو ملء وعاء المعمودية بما هو لها وبما هي تعنيه من واقع التقليد اللاهوتي. والدليل على ذلك أن اعتماد ق. بولس الأساسي في التعرُّض للمعمودية قائم على أساس تصريح المسيح نفسه «لي معمودية أعتمد بها وكيف أنحصر حتى تكمل»، التي ترجمها المترجم إلى "صبغة". فإن كانت معمودية المسيح هي الموت فمعموديتنا هي موت المسيح.

٢١ ـ والذي عمله ق. بولس وأصرَّ عليه أنه دشَّن العلاقة بين موت الرب والمعمودية، معتبراً بعد ذلك أن المعمودية تحمل في عملها ومفهومها تعاليم الرسل للخلاص.

٢٢ ـ **كذلك فإن الطقس في نظر بولس الرسول يجمع أهم وأخطر عمليات تعبِّر عن الحقيقة الأساسية للتسليم الرسولي.** فوراء كل معمَّد موت وقيامة المسيح، عمل الله الذي **افتتح به العهد الجديد. فالمعمودية تفتح أمام المعمَّد فجر حياة جديدة، وتجعله وريثاً للملكوت وتسلِّمه الروح عربوناً لميراثه. وتجعل كل الأخرويات بالنسبة له أموراً متوقَّعة!** (وليست محقَّقة بعد).

٢٣ ـ فالمسيح أمامه **عاش** (في الإنجيل) ومات على الصليب وقام، وأعطى الروح القدس

للكنيسة، وجعل ملكوت الله أمراً متوقَّعاً وصارت للمعتمد شركة فيه لم تكمل بعد. فالدهر الآتي الجديد أشرق له مع المسيح، وفي المعمودية بلغته بركات هذا الدهر الآتي.

٢٤ ـ ولم يكفّ بولس الرسول في كل رسائله من أن ينظر إلى تكميل المستقبل جنباً إلى جنب مع الحياة الحاضرة ذات صفات سماوية: فيكتب إلى فيلبي (٣:٢٠): «فإن سيرتنا نحن هي في السماوات، التي منها أيضاً ننتظر مخلّصاً هو الربُّ يسوع المسيح»، وأيضاً في كولوسي (٣:٣و٤): «لأنكم قد مُتم **وحياتكم مستترة مع المسيح في الله**، متى أُظهر المسيحُ حياتُنا، فحينئذ **تُظهرون أنتم أيضاً معه في المجد**». هذه أفكار رسولية موضوعية تنتظر بفارغ الصبر الاستعلان الأخير!

- المعمودية تشير في معناها إلى موت آتٍ: «الذي به ختمتم ليوم الفداء!» (أف ٤:٣٠)
- في نظر ق. بولس أننا نعيش تحقيق الرجاء جزئياً، وتكميل الرجاء ننتظره في المستقبل بفارغ الصبر.
- بالمعمودية اعتمدنا لإنجيل خلاصنا وننتظر تكميل الخلاص بمجيء المخلِّص من السماء الذي ننتظره.
- موت الرب وقيامته: الأعمال الخلاصية التي أتمَّها ليست أخباراً عن حقائق لماض في التاريخ، ولكن وُهِبَ للكنيسة أن تحقّقها وتعيد عملها في المعمودية والإفخارستيا، فالقديس بولس لا يقف عند عطية الروح القدس والتكلُّم بألسنة ولكنه يمتد إلى طريق أفضل ومواهب حسنى.
- المعمودية حقيقة مسيحية لا تُشرح للمعتمد ولكن تُعمل له، يقبلها بالإيمان ليُقبل كمسيحي.
- عند القديس بولس الطقس الذي تجرى به المعمودية ومعناه اللاهوتي هو وحدة واحدة لا تنفصل. فالمعمودية كإجراء خارجي للإيمان بالمسيح له في كل أجزائه وحركاته عمق المعنى الروحي بلا فرق.

ملخّص تعاليم العهد الجديد عن المعمودية

المعمودية جاءت في سفر الأعمال ٢١ مرّة كمجرد إجراء عملي، وفي إنجيل ورسالة ق. يوحنا ١٣ مرّة.

في سفر الأعمال:

- طقس المعمودية بالماء يحوي تعاليم الرسل التي يقابلها رد فعل الإنسان إزاء رسالة الخلاص.
- فالذين يسمعون ويتوبون ويؤمنون يُعمَّدون باسم يسوع المسيح فيتّحدون في جماعة المسيحيين.
- منذ بدء المسيحية أخذت المعمودية معناها من إنجيل الخلاص في المسيح مصلوباً وقائماً من الأموات.
- المعمودية مربوطة بغفران الخطايا، والمعمودية مربوطة بالروح القدس وبوضع اليد.

في رسائل القديس بولس الرسول:

- المعمودية تحوي كل المعروف إنجيلياً منذ بدء التعليم المسيحي، لذلك فالقديس بولس يربط بين المعمودية وموت المسيح وقيامته وبذلك تتحقّق الكريجما، أي تعليم الرسل الأساسي.
- والخلاص يعني الاشتراك بواسطة المعمودية في موت الرب وقيامته، المعبَّر عنه بالإيمان (غل ٢٠:٢)، وهو في نفس الوقت معنى المعمودية (رو ٣:٦و٤).
- المعمودية هي لبس المسيح والحصول على التبني (غل ٢٦:٣و٢٧) كنتيجة للإيمان.
- ثمر المعمودية هو التجديد الأخلاقي كنتيجة لعطية الروح القدس المربوطة بالمعمودية، حيث المحبة تفوق التكلّم بالألسن.
- المعمودية اتحاد في جسد المسيح والباب المؤدّي إلى مخصصات العهد الجديد في اسم يسوع المسيح وعمل الآب، الذي أقام المسيح من الأموات والذي يقيم المؤمن من الموت، وحالياً ينقله إلى حياة جديدة أخلاقياً (١كو ١٤:٦، رو ٤:٦، كو ١٢:٢و١٣، أف ٦:٤). والمعمودية قائمة أساساً على **الإيمان** (غل ٢٤:٣-٢٦، ١كو ٩:١٢، رو ٨:٦، كو ١٢:٢، أف ١٣:١و٥:٤)، وبها يصير المعمَّد **"في المسيح"** (غل ٢٦:٣، رو ١١:٦، كو ١٠:٢)، ويتحد بجسد المسيح (غل ٢٨:٣، ١كو ١٢:١٢و١٣، أف ٣:٤-٦)، والكنيسة تصير إسرائيل الجديدة (غل ٢٩:٣، ١كو ٩:٦و١٠، كو ١١:٢، أف ١٤:١).

في إنجيل القديس متى:

في نهاية إنجيل ق. متى، أصل التقليد الكنسي بالنسبة للمعمودية وله صدى في إنجيل ق. مرقس، يفيد على أية حال أن المعمودية تأسَّست وصارت بدايتها ببداية الكنيسة ذاتها كصفة خاصة جدًّا لها ومميِّزة، كواسطة للالتحاق بالجماعة المسيحية الأُولى بسلطان قيامة المسيح:

(مت ٢٨: ١٨-٢٠)

+ «فتقدَّم يسوع وكلَّمهم قائلاً: دُفع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأُمم وعمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس. وعلِّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به. وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر. آمين».

- هنا النص يوفِّر لنا البرهان على أن تأسيس المعمودية هو من عمل المسيح.
- والبرهان الذي يوفِّر لنا أيضاً أصالة وجود هذا النص هو ما قاله بولس الرسول عن إرساليته الرسولية قائلاً: «لأن المسيح لم يرسلني لأُعمِّد بل لأُبشِّر» (١كو ١: ١٧). يُفهم من هذا فوراً أن باقي الرسل أُرسلوا ليعمِّدوا بأمر الله والمسيح! وأن المعمودية هي تأسيس صادق من المسيح نفسه.

في كتابات القديس يوحنا الرسول:

- المعمودية تتم ظاهرياً بالماء وداخلياً بالروح لكنها ولادة من فوق!
- هي ولادة من فوق تؤهِّل مباشرة لدخول ملكوت الله.
- المعمودية المسيحية في الكنيسة هي المثيل المقابل لمعمودية المسيح في الأُردن وعلى الصليب بالدم.
- وهكذا أصبح نوال البنوية لله في المعمودية أمر استحقاق كمثيل للمثيل، خاصة بعد قبول الروح القدس.
- القديس يوحنا يعي تماماً علاقة المعمودية بموت المسيح واستوفاها بعبارة: «هذا هو الذي أتى بماء ودم»، ويرمي بهذا الاصطلاح إلى قول المسيح أن له معمودية (صبغة) ينبغي أن يصطبغ بها.

في رسائل بطرس الرسول:

(١بط ٣: ١٨-٢١):

+ «فإن المسيح أيضاً تألَّم مرَّة واحدةً من أجلِ الخطايا، البارُّ مِنْ أجل الأثمةِ، لكي يقرِّبنا إلى الله، مُماتاً في الجسدِ ولكن محييٌّ في الروحِ، الذي فيه أيضاً ذهب فكرز للأرواح التي في السجن، إذ عصت قديماً، حين كانت أناة الله تنتظر مرَّةً في أيام نوحٍ، إذ كان الفُلْكُ يُبنى، الذي فيه خَلَصَ قليلونَ، أي ثماني أنفسٍ بالماءِ. الذي مِثَالُهُ يُخلِّصُنا نحن الآن، أي المعموديةُ، لا إزالةُ

وسخ الجسدِ، بل سؤالُ ضميرٍ صالحٍ عن الله، بقيامة يسوع المسيح».

- هنا يؤسِّس ق. بطرس الحياة الجديدة بعد المعمودية على ضمير صالح **على أساس قيامة يسوع المسيح من الأموات**. ليس بجهد ذاتي من الإنسان بل بالله الآب الذي أقام ابنه يسوع المسيح من الأموات لكي يلدنا جديداً (١بط ١:٣) لحياة جديدة، هو العامل فيها بقوته، التي أقام بها ابنه من الأموات.
- **إن المعمودية المسيحية تعتمد أساساً في قوتها وفعلها على قيامة المسيح من الأموات، فالمسيح الذي دخل إلى راحته في الأمجاد السماوية هو الذي يعطي الحياة الجديدة للإنسان لأنه هو نفسه دخل إلى مثلها.**
- كما يذكر بطرس الرسول أن القيامة والحياة الجديدة المطهَّرة من كل عيب تقوم على قوة الروح «مماتاً في الجسد ولكن محييً في الروح» (١٨). أي على موت المسيح وعلى الروح!

إشارات عن المعمودية في مواضع أخرى في العهد الجديد:

- **غسيل المعمودية يعني داخلياً محو الخطية، الأمر الذي يكشف عن أن غسل الخطية قد تمَّ بذبيحة المسيح.**

(عب ١٠: ١٩-٢٢):

+ «فإذ لنا أيُّها الإخوةُ ثقةٌ بالدخولِ إلى الأقداس بدم يسوع، طريقاً كرَّسه لنا حديثاً حيًّا، بالحجابِ، أي جسده، وكاهنٌ عظيمٌ على بيت الله، لنتقدَّم بقلبٍ صادقٍ في يقين الإيمان، **مرشوشةً قلوبنا من ضميرٍ شريرٍ، ومُغتَسِلةً أجسادنا بماءٍ نقيٍّ.»**

هنا المفهوم عملياً أن يسوع المسيح بكونه كاهناً عظيماً على رتبة ملكي صادق بذبيحة نفسه للموت قد فتح لنا طريقاً حيًّا حديثاً. هنا الحي الحديث يشير إلى الذبيحة الحديثة فهي نظرة حادة إلى الأصل الذي انبثق منه سر العماد كطريق نقترب به إلى الله، بشجاعة الإيمان بناءً على شركة معه غير محدودة. هذا يقوله صاحب السفر لتشجيع القلوب المطهَّرة من ضمير يشتغل بالشر بسبب اغتسال أجسادنا، وهي لغة تكريس الكهنة في القديم حيث رش الدم هو من الذبيحة المقدَّسة، والاغتسال والتطهير بالماء طبَّقها المؤلِّف على المعمودية مثل ما قاله ق. بطرس في (١بط ٣:٢١)، حيث الاغتسال بالماء يشمل فعلاً سرًّا متعمِّقاً في كيان المعمَّد أي نفسه، وذلك بسبب أن الذبيحة هي ذبيحة المسيح، ورش دم المسيح يُطهِّر كما يقول ق. بولس حتى الضمائر من الأعمال الميتة (عب ٩:١٤).

١ ـ **هنا واضح أن سفر العبرانيين يعطي المعمودية معناها على أساس موت المسيح على الصليب كذبيحة حيَّة!**

٢ ـ ولكن الملاحَظ في سفر العبرانيين أنه ينتحي ناحية جديدة في ربط المعمودية بموت المسيح تُخالف الذي علَّم به ق. بولس. فالقديس بولس جعل الانغمار في ماء المعمودية، بينما سفر العبرانيين يؤسِّسه على رش الدم كطقس خيمة الاجتماع في تكريس أي تقديس الكهنة.

٣ ـ كما نُلاحِظ أن المعمودية هنا لا تقوم فقط على موت المسيح بل على **الإيمان** (عدد ٢٢) وعلى الوضع الأخلاقي الجديد (عدد ٢٤): «ولنلاحِظ بعضنا بعضاً للتحريض على المحبة والأعمال الحسنة»، وعلى الرجاء (عدد ٢٣): «لنتمسَّك **بإقرار الرجاء** راسخاً لأن الذي **وعد** هو أمين».

▪ **الاستنارة صفة المعمودية:**

+ «لأنَّ الذين **استنيروا** مرَّة، وذاقوا الموهبة السماوية وصاروا شركاء الروح القدس ... وسقطوا، لا يمكن تجديدهم أيضاً للتوبة.» (عب ٦: ٤-٦)

+ «ولكن تذكَّروا الأيام السالفة التي فيها بعدما **أُنرتم صبرتم على مجاهدة آلام كثيرة.**» (عب ١٠: ٣٢)

وهكذا نرى أن تسمية المعمودية بالاستنارة قديمة قِدَم الإنجيل والرسائل.

▪ **المعمودية تعني الميلاد الثاني وتحقّق التجديد بقوة الروح القدس:**

+ «ولكن حين ظهر لطف مخلِّصنا الله وإحسانه ـ لا بأعمال في برٍّ عملناها نحن، بل بمقتضى رحمته ـ خلَّصنا بغُسل **الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس**، الذي سكبه بغنى علينا بيسوع المسيح مخلِّصنا. حتى إذا تبرَّرنا بنعمته، نصير ورثة حسب رجاء الحياة الأبدية.» (تي ٣: ٤-٧)

١ ـ هذا يثبت أن التغيير الحادث لهم من حياة شريرة منحلة إلى حياة برٍّ هو من عمل قوة الله المخلِّصة بلطف الله χρηστότης وإحسانه φιλανθρωπία أي محبته للبشر التي فجأة أُظهرت للعالم في المسيح، ليس بجهد بشري بل بسبب طبيعة الله الرحومة التي أنعمت بغسل الميلاد الثاني regeneration والروح القدس.

٢ ـ جعل "**غسل الميلاد الثاني والروح**" مبادرة سماوية "**انسكبت**" في جملتها مرَّة واحدة كما

"**انسكب**" الروح القدس يوم الخمسين، بقصد "**تبرير الإنسان**" بنعمة الله.

٣ ـ غاية الغسل للميلاد الثاني والروح هو: «فإذ قد تبرَّرنا بنعمته نصير ورثة حسب رجاء الحياة الأبدية».

٤ ـ وعليه يبدأ يعيش الآن الإنسان هنا على رجاء الحياة الأبدية الآتية.

٥ ـ هكذا تربط هذه الرسالة بين المعمودية والروح القدس. كما رأينا سابقاً في (١كو ٦: ١١ـ١٣، ٢كو ١:٢٢، أف ١:١٣ و٤:٤و٥).

٦ ـ والمُلاحَظ أنه هنا يذكر الله **كمخلِّص**، ووصف المعمودية **بالميلاد الجديد** παλιγγενεσία ووصف عمل الروح القدس **بالتجديد** ἀνακαινώσεως. هذه أمور جديدة ليس بالألفاظ والمعاني ولكن من واقع السر.

٧ ـ وصف عمل الله في المعمودية بأنه «سكب علينا بغنى بيسوع المسيح» يعتبر تعبيراً جديداً.

٨ ـ في الرسائل السابقة كانت النعمة والتبرير هي حاصل موت المسيح، ولكن هنا تعود إلى صلاح الله وإحسانه.

٩ ـ نلاحظ هنا في الرسالة إلى تيطس أن "**موت المسيح**" لا يتصدَّر عمل المعمودية ولكنه موجود.

١٠ ـ هنا عمل المعمودية معتبر كغسل كما سبق أن رأينا في (أف ٥:٢٦).

وأخيراً نستخلص من تعليم العهد الجديد عن المعمودية:

- أن التبني وعطية الروح القدس وفعله في المعمودية في العهد الجديد هذه كلها مثيل لمعمودية المسيح.
- كل التعاليم الواردة في العهد الجديد تكشف عن مدى أهمية المعمودية ورهبتها والتجديد الأخلاقي فيها لا يُعلَّل إلاَّ كنتيجة لعمل الله والمسيح والروح القدس.
- في كل أمثلة المعمودية في العهد الجديد هي في الحقيقة طقس له معناه ومبناه وقيامه الثابت في أساس نمو الكنيسة ووجودها.
- الأساس الروحي اللاهوتي لقيام المعمودية وأصولها الأُولى قائم في موت المسيح وقيامته، وفي الخلاص الذي تمَّ بهذا الموت وهذه القيامة، حيث فعل الموت والقيامة متجدِّد في المعمودية، فهو واسطة خلاص بالدرجة الأُولى.
- لذلك فشكل الطقس خارجياً لا يعبِّر إطلاقاً عن مضمونها الرهيب كسر الأسرار.

- إن تطوُّر المعمودية بمرور الزمن لتصبح من نصيب الصغار حتى إلى ٨ أيام جعل المعمودية غائبة عن فكر الناس جميعاً. ولكن الحقيقة هي أن الإنسان المسيحي مهما بلغ من العمر فالمعمودية هي أُمّه التي لم يفارق رحمها. لذلك فشكل المعمودية وواقعها يستحيل فصلهما لأنهما معاً في كيان الإنسان وحدة واحدة لا تنفصل.
- المعمودية تحيا مع الإنسان إلى النهاية وتستمر من جيل إلى جيل طالما استمرَّت الحياة المسيحية، لأنها في مصدرها الأول كانت أمراً إلهياً صدر من المسيح بعد قيامته كما هو وارد في إنجيل ق. متى (٢٨: ١٨-٢٠). فكما قال الله ليكن نور فكان وهو قائم حتى اليوم كيوم خلقته، كذلك المعمودية أصل الاستنارة للإنسان الجديد فهي امتداد لخلقة النور، ولكن على مستوى السماء وقلب الإنسان.
- والمعمودية ستظل مرتبطة - كيوم ما أمر بها المسيح - بالتلمذة بكل معناها، فطالما كانت هناك تلمذة جديدة فهناك معمودية حتماً «تلمذوا ... وعمِّدوهم.» (مت ٢٨:١٩)
- لهذا اعتبرت المعمودية سر المسيحية!!
- فإن كان سر المسيحية الأعظم هو المسيح، فالسر الذي ربط المسيح بالإنسان المسيحي هو المعمودية.

٧ – ختم الروح القدس

(سر التثبيت)

- بينما في المعمودية ينال المعَمَّد هبة مغفرة الخطايا والتجديد لحياة مسيحية قائمة مع المسيح بواسطة حلول الروح القدس الملازم لمعمودية الماء؛ إلاَّ أنه في سر التثبيت بالميرون المقدَّس تنال النفس عطية الروح القدس للسكنى والإقامة في هيكل الإنسان الجديد لملء حياة المعمَّد بمواهب الروح.

- ومعلوم أنه في الكنيسة الأُولى كان سر التثبيت، الذي يُجرى على المعمَّد في هذه الأيام الأخيرة بزيت الميرون، كان يُجرى ويُمارس على المعمَّد برسم الصليب على الجبهة ثمَّ بوضع يد الأسقف أو الكهنوت حيث يُعطَى الروح القدس بكل مواهبه، حتى أنه بوضع اليد كان يحصل المعمَّد على التكلُّم بالألسن في الحال.

- ويُلاحَظ أن وضع اليد إجراء سرِّي كان منفصلاً عن المعمودية ولكن مُكمِّلاً لها، كما هو ظاهر في (أع ٨: ١٤–١٧): «ولمَّا سمع الرسل الذين في أُورشليم أن السامرة قد قبلت كلمة الله، أرسلوا إليهم بطرس ويوحنا اللذين لمَّا نزلا صلَّيا لأجلهم لكي يقبلوا الروح القدس، لأنه لم يكن قد حلَّ بعد على أحد منهم. غير أنهم كانوا معتمدين باسم الرب يسوع. حينئذ وضعا الأيادي عليهم فقبلوا الروح القدس».

- كذلك يمكن أن نجيز في (٢تي ١: ٦) أنها حالة وضع يد لقبول الروح القدس: «فلهذا السبب أذكِّرك أن تضرم أيضاً موهبة الله التي فيك بوضع يديَّ». ويُلاحَظ أنها وضع اليدين.

- ولكن يوجد شواهد كثيرة تثبت أنه كانت هناك مسحة أو ختم بالروح القدس التي تشير إمَّا إلى وضع اليد فقط أو معها المسحة بالميرون.

+ «ولكن الذي يثبِّتنا معكم في المسيح **وقد مسحنا** هو الله. الذي **ختمنا** أيضاً **وأعطى عربون الروح في قلوبنا.**» (٢كو ١: ٢١و٢٢)

ومعروف منذ العهد القديم أن المسحة كانت بقرن الدهن وحلول الروح القدس، ولو أن

المسيح قد قبل مسحة بالروح القدس فقط.

+ «وأمَّا أنتم فلكم **مسحةٌ** من القدوس وتعلمون كل شيء ... وأمَّا أنتم **فالمسحة** التي أخذتموها منه ثابتةٌ فيكم، ولا حاجة بكم إلى أن يعلّمكم أحدٌ، بل كما تعلّمكم هذه **المسحة** عينها عن كل شيءٍ، وهي حقٌّ وليست كذباً. كما علّمتكم تثبتون فيه» (١يو ٢: ٢٠و٢٧)

+ «الذي فيه أيضاً أنتم، إذ سمِعتُم كلمة الحقِّ، إنجيل خلاصكُم، الذي فيه أيضاً إذ آمنتم **خُتِمتُم بروح الموعد القدوس.**» (أف ١٣:١)

+ «ولا تُحزِنُوا روحَ الله القدوس الذي به **خُتِمْتُم** ليومِ الفداءِ.» (أف ٣٠:٤)

والمعروف أن طقس المسحة unction كان يُجرى في الكنيسة الأُولى منذ الأيام الأُولى. وهناك إشارة ضمنية على أن قبول الروح القدس كان له إجراء خاص بعد المعمودية وذلك من قول بطرس الرسول: «توبوا **وليعتمد** كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لمغفرة الخطايا، **فتقبلوا عطية الروح القدس**» (أع ٣٨:٢). كذلك نجد في كلام بولس الرسول تفريقاً بين المعمودية وقبول الروح القدس فيها وسقي الروح القدس بعدها (١كو ١٣:١٢): «لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد، يهوداً كنّا أم يونانيين، عبيداً أم أحرار. وجميعنا سقينا روحاً واحداً».

ب - معمودية الأطفال - شهادة الآباء

أولاً: عماد الأطفال

إن قانونية ولاهوتية عماد الأطفال، كانت مشروحة جاهزة في حلول الروح القدس على أهل البيت كباراً مع صغار فيعتمدون جميعاً، فهذه هي شهادة الروح القدس، وبالتالي شهادة المسيح، لأن الروح القدس يشهد للمسيح.

والبحث في مؤلفات الآباء القدامى جدًّا انتهى إلى أن عماد الأطفال صار من الصعب تتبُّعه في ما قبل منتصف القرن الثاني.

ولكن الكتاب المقدَّس كوثيقة من القرن الأول أشار بوضوح إلى معمودية الأطفال ضمن العائلة أو الأسرة التي كانت تدخل العماد بكاملها تحت كلمة: "فلان وجميع بيته" أو "أهل بيته"، حيث جميع أفراد الأسرة تعني حتماً الأطفال. والكلمة المدرجة في الأسفار والأناجيل هي Household بمعنى كل مَنْ في البيت.

والأمثلة على ذلك هي:

+ «...وهو تقي وخائف الله مع **جميع بيته** ... ويصلّي إلى الله كل حين.» (أع ١٠:٢)
+ «وهو يكلّمك كلاماً به تخلص **أنت وكل بيتك**، فلمَّا ابتدأت أتكلَّم حلَّ الروح القدس عليهم كما علينا أيضاً في البداءة. فتذكَّرت كلام الرب كيف قال إن يوحنا عمَّد بماء وأمَّا أنتم **فستعمَّدون بالروح القدس.**» (أع ١١: ١٤-١٦)

وهكذا كل أهل البيت قبلوا الخلاص وحلَّ عليهم الروح القدس.

+ «فقالا (بولس وسيلا) آمن بالرب يسوع المسيح **فتخلُص** (حافظ السجن) **أنت وأهل بيتك، واعتمد في الحال هو والذين له أجمعون.**» (أع ١٦: ٣١-٣٣)
+ «وكريسبس رئيس المجمع آمن بالرب **مع جميع بيته.**» (أع ١٨:٨)
+ «ففهم الأب أنه في تلك الساعة التي قال له فيها يسوع أن ابنك حيٌّ. **فآمن هو وبيته كله.**» (يو ٤:٥٣)

+ «وعمَّدت أيضاً **بيت** استفانوس ...» (١كو ١:١٦)
+ «فلمَّا اعتمدت **هي** (ليدية بيَّاعة الأرجوان) **وأهل بيتها** ...» (أع ١٥:١٦)

بجوار هذه الشهادات توجد شهادة القديس بطرس نفسه:

+ «فقال لهم بطرس: توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس. لأن الموعد **هو لكم ولأولادكم** ولكل الذين على بُعدٍ.» (أع ٢: ٣٨و٣٩)

هنا كلمة أولادكم تشمل كل الذرية، ولكي نحدِّد معنى كلمة "أولادكم" تُقرأ في الإنجليزية: Children.

ثانياً: شهادة الآباء

١ ـ هيبوليتس (التقليد الرسولي) سنة ٢١٥م تقريباً:

+ [٢١: ١ - في الساعة التي يصيح فيها الديك يبتدئون بالصلاة على الماء.

٢ ـ وليكن الماء الذي يأتون إليه نقياً وجارياً.

٣ ـ وحينئذ يخلعون ملابسهم.

٤ ـ ويعمِّدوا الأطفال أولاً فالذين يستطيعون أن يجاوبوا عن أنفسهم فليجاوبوا. والذين لا يستطيعون ذلك فليجاوب عنهم أبوهم أو أي شخص آخر من العائلة.

٥ ـ وبعد ذلك يعمِّدوا الرجال البالغين وأخيراً السيدات.](1)

على أن أقوال هيبوليتس وهي الموجودة في التقليد الرسولي لا تخص أيامه فقط، ولكنه يسرد ما اعتادت الكنيسة عليه منذ القديم في تدبيرها أثناء العماد.

وتعليقنا على هذا أن الكنيسة منذ البدء، منذ أيام الرسل، كانت تعمِّد البيت كله بكل أهله صغاراً وكباراً، وكانت تراعي الفصل بين الرجال والنساء، وهذا سار عليه الجيل الذي جاء بعد الرسل وهكذا.

٢ ـ العلاَّمة ترتليانوس (شمال أفريقيا سنة ٢٠٣م):

ولو أن العلاَّمة ترتليانوس كان شخصياً لا يشجِّع تعميد الأطفال إلاَّ في حالة الضرورة، ولكن أقواله تبيِّن أن العادة السائدة في الكنيسة في أيامه كانت أن يُعمَّد جميع الأطفال.

يقول ترتليانوس معترضاً على العجلة في تعميد الأطفال:

+ [لماذا هذه اللهفة في تعميد الأطفال في غير الحالات الخطرة؟ ولماذا نعرِّض الأشبين للخطر؟ لأنه ربما يموت الأشبين قبل أن يتمم واجبه تجاه الطفل الذي ضمنه، وربما يخيب عشمه في هذا الطفل بظهور ميول رديئة فيه.](2)

---

(1) *The Apostolic Tradition*, XXI, 1-5, cited by E.C. Whitaker, *op. cit.*, p. 4,5.

(2) *De Baptismo*, 18,4.

لكن هذا بحد ذاته يثبت أن في أيام ترتليانوس في قرطاجنة سنة ٢٠٠م كانت العادة السائدة في الكنيسة أن يُعمَّد الأطفال، وأن يُحدَّد لكل منهم أشبين يجاوب عنه في المعمودية ويتعهَّد أن يلقِّنه حقائق الإيمان متى بلغ سن الرشد، حتى أن موقف الأشبين يكون خطراً إن لم يُتمِّم هذا الواجب.

هذه كانت عادة الكنيسة في شمال إفريقيا سنة ٢٠٠م، حيث نرى أن عماد الأطفال كان جارياً وبلهفة. وبعد ذلك بخمسين سنة أي سنة ٢٥١–٢٥٣م جاء أسقف يُدعى Fidus وأعطى أمراً أن لا يُعمَّد الأطفال حتى يبلغوا **ثمانية أيام** بعد الولادة (زمن الختانة عند اليهود). وبعد ذلك في اجتماع للأساقفة وعددهم كان ٦٧ أسقفاً في مجمع قرطاجنة، أقروا أن العماد يلزم أن يحدث بصفة دائمة حتى في اليوم الثاني أو الثالث بعد الولادة. هكذا في هذا العصر كانت تمارس معمودية الأطفال(٣).

٣ ــ شواهد على قبور الأطفال:

وهناك ثلاثة شواهد على قبور الأطفال من القرن الثالث وتذكر وقت عماد أصحابها لأنهم توفّوا مباشرة بعد عمادهم:

الأول: مكتوب اسمها Tyche وعمرها سنة واحدة وعشرة شهور وخمسة عشر يوماً وماتت في يوم عمادها(٤).

الثانية: مكتوب اسمها Irene ماتت عن عمر أحد عشر شهراً بعد عمادها بستة أيام(٥).

الثالث: مكتوب اسمه أبرونيانس Apronianus وعمره واحد وعشرون شهراً وثلاثة أيام عُمِّد في حالة مستعجلة(٦).

وهذه الثلاث كتابات المحفورة هي في روما في السراديب التي تحت الأرض(٧).

٤ ــ القديس يوستين (١٥٠–١٥٥م):

في دفاعه الأول يقول:

+ [هناك كثير من الرجال والنساء بلغوا من العمر ستين سنة وسبعين سنة محتفظين بالبتولية كل أيام حياتهم

(3) J. Jeremias, *op. cit.*, p. 65,66.

(4) Diehl, *Inscriptiones Latinae Christianae Veteres* I, N°1531.

(5) *Ibid.*, I, N°1532.

(6) *Ibid.*, I, N°1343, Rome, Catacomb of Priscilla.

(7) Joachim Jeremias, *The Origins of Infant Baptism*, p. 52.

منذ أن صاروا تلاميذ للمسيح في طفولتهم.] (الدفاع الأول ١٥:٦)

والقديس يوستين يكتب بين سنة ١٥٠–١٥٥م وقد جاءت باليونانية بوضوح أكثر:

[οἵ ἐκ παίδων ἐμαθητεύθησαν τῷ Χριστῷ]

فالمعنى الدقيق أنهم حفظوا بتوليتهم منذ الطفولة! وكانوا تلاميذ المسيح منذ طفولتهم وصاعداً. وهنا يشرح العالِم يواقيم إرميا(٨) عبارة: "صاروا تلاميذ للمسيح" على أنها تعني أنهم اعتمدوا باسمه! ومرجعه في ذلك ما ورد في (مت ٢٨:١٩): «فاذهبوا **وتلمذوا** جميع الأمم **وعمّدوهم**»، والتلمذة للمسيح هي قرينة المعمودية. ويُلاحِظ العالِم إرميا أنهم كانوا في أعمار ستين وسبعين سنة، هذا يعني أنهم اعتمدوا ما بين سنة ٨٠م، ٩٥م في القرن الأول المسيحي!

٥ – القديس بوليكاربوس الشهيد أسقف سميرنا ١٦٧–١٦٨م:

عندما طالبه الوالي أن ينكر المسيح أجاب:

+ [ستاً وثمانون سنة وأنا أخدم المسيح ولم يسيء إليّ في أي شيء. فكيف أجدّف الآن على ملكي الذي خلّصني؟](٩)

ويقول العالِم يواقيم إرميا(١٠) إن بقية تواريخ حياة بوليكاربوس معروفة وأنها تحتّم أن يكون قد استشهد وعمره ٨٦ سنة، وعلى ذلك يكون قد حسب سني خدمته للمسيح منذ ولادته. وفي هذا إشارة ضمنية أنه اعتمد في بدء طفولته. وهذا دليل أنه منذ سنة ٨٠م كان يُمَارَس عماد الأطفال.

وما يُقال عن القديس بوليكاربوس يُطبَّق على بوليكراتس أسقف أفسس سنة ١٩٠–١٩١م إذ يقول:

+ [أنا عشت إلى الآن أيها الإخوة ٦٥ سنة في الرب وقد تكلّمت مع إخوة من كل أنحاء العالم وقد تلوت كل الأسفار – (كان الأسقف هو الثامن في عائلته)].

وهذا يعود بنا إلى سنة ١٢٥–١٢٦م عندما تعمَّد لأنه يقول إن له ٦٥ سنة في الرب، بمعنى أنه تعمَّد في بدء عمره.

(8) *Ibid.*, pp. 55-58.
(9) *Mart. Polyc.* 9,3.
(10) *Ibid.*, p. 58.

٦ ـ القديس إيرينيئوس:

يكتب بعد سنة ١٨٠م ويقول:

+ [إن الرب جاء ليخلّص الجميع بذاته، أعني جميع الذين وُلدُوا لله ميلاداً ثانياً بواسطته: الرُضَّع والأطفال الصغار والصبيان والبالغين والشيوخ.](١١)

هنا القديس إيرينيئوس يقصد بالولادة الثانية المعمودية. وهو في قوله هذا يدافع عن العلاقة بين الميلاد الثاني والمعمودية (ضد مرقيانوس). والمعنى هو أن المسيح يُخلِّص ويُقدِّس الناس من كل الأعمار: من الرُضَّع إلى الأطفال إلى الرجال البالغين لأنهم قد اعتمدوا، إذ يقول صراحة: إنهم "وُلِدوا لله ميلاداً ثانياً بواسطة المسيح" وهذه إشارة واضحة إلى المعمودية.

٧ ـ أوريجانوس ٢٣١ـ٢٥٠م:

يذكر أوريجانوس أن عماد الأطفال هي عادة الكنيسة، وفي تعليقه على رسالة رومية يقول إن هذا التقليد في الكنيسة يعود إلى الرسل(١٢)!

ويُعلِّق على اختتان المسيح وهو ابن ثمانية أيام بقوله:

+ [بهذه المناسبة يلزم أن أقول كلمة بخصوص السؤال الذي يثير مناقشات بين الإخوة بخصوص عماد الأطفال. فإن الأطفال يُعمَّدون لمغفرة الخطايا. أية خطايا؟ ومتى أخطأوا؟ في الحقيقة لم يخطئوا قط، ومع ذلك فإنه «ليس أحد بلا دنس» (أي ١٤: ٤ سبعينية) ولو كانت حياته يوماً واحداً، وهذا الدنس يُرفع عنهم بواسطة سر المعمودية. ولهذا السبب فإن الأطفال يُعمَّدون.](١٣)

+ [من أجل هذا استلمت الكنيسة من الرسل تقليد عماد الأطفال لأن الذين استؤمنوا على الأسرار الإلهية (أي الرسل) كانوا يعلمون أن في كل واحد يوجد تلوث جذري (من آدم) يلزم أن يُغسل بالماء والروح.](١٤)

(11) Irenaeus, *A.H.*, II, 33.2.
(12) Origen, *On Romans* V, 9, PG 14, 1047.
(13) Origen, *Hom. on Luke* XIV (on 2.22), cited by J. Jeremias, *op. cit.*, p. 70.
(14) Origen, *On Romans* V, 9, PG 14, 1047, cited by J. Jeremias, *op. cit.*, p. 72.

الفصل الثالث

الجزء الطقسي

(أ) طقس المعمودية عند الآباء كل أب بمفرده

(ب) طقس المعمودية عند الآباء حسب خطوات قانون التعميد

الفصل الثالث

الجزء الطقسي

(أ) طقس المعمودية عند الآباء كل أب بمفرده

(ب) طقس المعمودية عند الآباء حسب خطوات قانون التعميد

مقدِّمة:

نقدِّم هنا للقارئ كل ما قاله الآباء على مدى العصور عن المعمودية. والقصد من ذلك أن يطَّلع القارئ على دقائق المعمودية وتعاليمها من مصادرها مباشرة. فقدَّمناها في معظمها كنصوص وردت في تعاليمهم.

وهناك حقيقة هامة ينبغي أن يعرفها القارئ وهي أنه حتى القرن الخامس كانت المعمودية تُمارس كقانون بواسطة الأسقف أو على الأقل في حضوره، وبعد ذلك صار الكاهن يقوم بعمل الأسقف في العماد في غياب الأسقف. على أن التثبيت كان يُجرى بيد الأسقف.

وسوف يرى القارئ أن طقس المعمودية الذي حازه وتعاطاه كل واحد منا، هو من الأسرار الرهيبة حقًّا، لأن المُعطَى في سر المعمودية أشياء تفوق العقل وتتعلَّق رسمياً بذات المسيح وجسده وعمل الله المباشر لاختيار شعبه المبارك.

فإن كانت الختانة هي علامة العهد القديم، فالمعمودية هي علامة العهد الجديد. وإن كانت الختانة تُدخل اليهودي في شعب الله المختار بمواريثه، فالمعمودية تُدخل المسيحي الشعب المختار في المسيح وشركة ميراثه.

وإليك أقوال وأفكار الآباء وهي ممتعة حقًّا وثمينة للغاية:

(أ) طقس المعمودية عند الآباء كل أب بمفرده

١ ـ القديس كليمندس الروماني (سنة ٩٦م):

أسقف روما، كان يُظن أنه ثالث أسقف بعد القديس بطرس، وبالتحقيق قيل إنه خلف القديس بطرس مباشرة ـ ويُعتقد أنه هو الذي أشار إليه ق. بولس في رسالته إلى أهل فيلبي (٤:٣) التي كتبت في روما.

وله رسالتان إلى كورنثوس، ولكن الأُولى هي الأصيلة وكُتبت سنة ٩٦م.

والقديس كليمندس في رسالته الأُولى (٤٦:٥) يشير إلى "**انسكاب روح النعمة الواحد**" وهذه إشارة إلى إعطاء الروح القدس في المعمودية.

كما أن في (٩:٤) إشارة واضحة إلى نجاة نوح والذين معه من الغرق والهلاك واصفاً هذه النجاة بأنها "**ولادة ثانية παλιγγενεσίαν, Regeneration**".

وله أيضاً في نفس الرسالة الأُولى (٣٦:٢):

+ [**الذي فيه خرج عقلنا الجاهل والمظلم إلى النور**].

وكلمة: "**إلى النور**" جاءت في (عب ٦:٤) باليونانية هكذا: "**φωτισθέντας استنيروا**": «**لأن الذين استنيروا مرّة (إشارة إلى المعمودية) ...**» (عب ٦:٤). وهذه الصفة خاصة بالمعمودية، وهكذا نجد في هذه الرسالة إشارة من بعيد إلى **التجديد والاستنارة** وهما من خصائص المعمودية، لأنه يقول خرج إلى النور وليس اصطلاح الاستنارة.

وللقديس كليمندس رسالة ثانية منسوبة إليه لأهل كورنثوس وهي عظة لها تاريخ ولا يُعرف بالتحقيق صاحبها، ولكنها تُسمَّى بالرسالة الثانية لكليمندس. وفي (٦:٩) تشير إلى ضرورة حفظ نعمة المعمودية بلا دنس حتى ندخل بها الملكوت. وفي (٧:٦ و٨:٦) يكرِّر نفس التحذير مشيراً للمعمودية بأنها **ختم**، وهذا يتفق مع ما جاء في رسائل بولس الرسول أنها ختم الروح (٢كو ١: ٢١و٢٢، أف ١:١٣و١٤، ٤:٣٠). وتقول الرسالة الثانية إن المعمودية التي تطبع الجسد المائت الذي للمؤمن بختم هي علامة له أنه من خاصة الرب. وعليه أن يحفظ هذا الختم مصوناً غير منثلم بالسلوك الصالح!

٢ ـ القديس إغناطيوس الأنطاكي (سنة ١٠٧م):

القديس إغناطيوس أسقف أنطاكية (٣٥-١٠٧م) وشهيد. كان يصف نفسه في بدء كل رسائله ـ وصار ذلك لقباً له ـ أنه حامل الله θεόφορος أو ربما المحمول من الله θεοφόρος والفرق هو في موضع النبرة التي فوق حرف (ο) الأول أو الثاني، ويُعتقد أنه سرياني الأصل، وبحسب أوريجانوس فهو الأسقف الثاني على أنطاكية التالي للقديس بطرس، ولكن يوسابيوس يقول إنه الثالث وخلف الأسقف إيفوديوس Evodius سنة ٦٩م. قاده عشرة جنود للاستشهاد في روما، وحيَّاه في الطريق الأسقف بوليكاربوس أسقف أزمير (سميرنا).

+ [لقد تعمَّد الرب لكي يصير كل بر مكمَّلاً بواسطته.](١)

+ [لقد تعمَّد الرب لكي بآلامه يطهِّر ويقدِّس الماء.](٢)

ومعنى هذا القول إن معمودية الرب متصلة بآلامه على الصليب وهذه تُطهِّر وتقدِّس ماء المعمودية.

وهكذا يُحسب القديس إغناطيوس أنه أعطى وصفاً لماء المعمودية لم يرد في الكتاب المقدَّس، بقوله إن معمودية المسيح أعطت ماء المعمودية قداسة سريَّة كقوة أو طاقة. وقد ظهر هذا التعليم بعد ذلك عند الآباء.

وحيث إن المعمودية هي الطقس الذي يهيِّئ الدخول إلى الكنيسة، لذلك لا ينبغي أن يُمارس بدون أسقف:

+ [لا يفعلن أحد شيئاً في الكنيسة بدون الأسقف ... غير مسموح لأحد أن يُعمِّد بدون الأسقف ولا أن يقيم مائدة محبة. بل كل ما يستحسنه الأسقف هذا يكون مرضياً عند الله.](٣)

٣ ـ الديداخي: وهي تعاليم الرسل الاثني عشر بكور القرن الثاني:

بالرغم من أن الديداخي تُعرف عادة كعمل من بكور القرن الثاني، ولكن قامت دراسات كثيرة بخصوص تاريخها وكل عباراتها وقد جمعها العالِم F.E. Vokes في كتاب أسماه: "**لغز الديداخي**"(٤) وانتهى إلى أنها تتبع ما قبل نيقية وهي تعطي صورة عن بكور جماعة المسيحيين في

(1) Ignatius, *Letter to the Smyraeans*, 1.
(2) Ibid., *Letter to the Ephesians*, 18.
(3) Ibid., *Letter to the Smyraeans*, 8.
(4) F.E. Vokes, *The Riddle of the Didache*, S.P.C.K. 1938.

الكنيسة في القرن الأول.

والديداخي تصف ممارسة المعمودية هكذا:

+ [بعدما تتلون كل محفوظات الطقس (أي طريق الحياة والموت): عمِّد باسم الآب والابن والروح القدس في مياه جارية (مياه حيَّة)، فإذا لم تكن هناك مياه جارية ففي مياه أخرى. وإذا لم يكن بمياه باردة فبمياه دافئة. فإذا لم يكن هذا ولا ذاك، فاسكب المياه ثلاثاً على رأس المعمَّد باسم الآب والابن والروح القدس(٥)، وقبل المعمودية ليت المعمِّد والمعمَّد يصومان أولاً، والمعمَّد عليه أن يصوم يوماً أو اثنين قبل العماد.](٦)

٤ ـ هرماس الراعي (سنة ١٤٠م):

محسوب أنه واحد من الآباء الرسوليين، وقد امتدح كتاباته القديس أثناسيوس. يحكي عن رؤية رأى فيها الكنيسة كبرج مبني على الصخر، والذين يلبسون الروح يدخلون إلى البرج لأن الاسم وحده لا يخلِّص(٧)، **وجميع الذين يدخلون إلى البرج يلبسون ثياباً بيضاء كالثلج(٨) لأنهم قد لبسوا اسم ابن الله(٩).**

اللباس الذي يلبسه المعمَّدون هو الروح القدس(١٠) الذي ينعم به على المعمَّد ويتحتَّم حفظه سليماً لا يُمس(١١). وجميع الذين يقبلون الختم يصير لهم معرفة واحدة وفكر واحد ويكون لجميعهم إيمان واحد ومحبة واحدة(١٢).

وبواسطة المعمودية يُنقلون من الموت إلى الحياة، والذين رقدوا في الرب منهم يدخلون ملكوت الله. لأنه قبل أن ينال المعمَّد اسم المسيح يكون ميتاً، ولما يقبل الختم يترك موته ويستلم الحياة ثانية. فالختم هو الماء، والذين ينزلون إلى المعمودية أمواتاً يصعدون منها أحياء(١٣).

---

(٥) وفي موضع آخر توصي الديداخي في أن يتم العماد "باسم الرب" (٩:٥) (أي باسم المسيح) ومن هذا يظهر أن الصيغتين (أي باسم الثالوث أو باسم الرب يسوع) كانتا مستعملتين وكان لهما مغزى واحد ومفعول واحد.

(6) *Didache*, 7.

(7) Hermas, *Sim.* 9,13.

(8) *Ibid.*, 8, 2.

(9) *Ibid.*, 9,13; 9,16.

(10) *Ibid.*, 9,24.

(11) *Ibid.*, 9,32.

(12) *Ibid.*, 9,17.

(13) *Ibid.*, 9,16.

فالمعمودية تُرى أنها تُعطَى لأناس بلغوا سني المعرفة لأنهـم يوعظون عـن الختم(١٤)، ومفهـوم جيداً أن المؤمنين يُدفنون ويقومون إلى جدة الحياة، والتوبة هي الشرط سابقاً على المعمودية، وغفران الخطايا والحياة المقدَّسة هي نتائجها.

٥ ـ القديس يوستين الشهيد (سنة ١٥٠م):

وهو عاش من سنة ١٠٠ـ١٦٥م.

ونقدِّم هنا مقتطفات من دفاعه الأول عن المسيحية، وقد أرسله للإمبراطور أنطونينوس بيوس، ولذلك فهو لا يسترسل كثيراً في التعليم السرِّي إذ هو دفاع مقدَّم لإمبراطور وثني:

+ [سأقص عليكم كيف كرَّسنا أنفسنا لله لما وُلدنا ميلاداً جديداً في المسيح: فالذين يقتنعون ويؤمنون أن التعاليم التي قلناها هي الحق، ويتعهَّدون أن يعيشوا بمقتضاها، نعلِّمهم أن يطلبوا من الله بالصلاة والصوم لكي يغفر خطاياهم السابقة، ونحن أيضاً نصلِّي ونصوم معهم. ثمَّ نقودهم إلى موضع به ماء وهناك يولدون من جديد بحسب الطريقة عينها التي وُلدنا نحن أيضاً بها ميلاداً جديداً، وذلك بأن ينالوا غسل الماء باسم الله الآب الضابط الكل ومخلِّصنا يسوع المسيح والروح القدس ... وقد تعلَّمنا من الرسل لماذا نحن نعتمد هكذا، ذلك لأننا في ميلادنا الأول وُلدنا بغير اختيارنا من والدينا ثمَّ نشأنا بعادات رديئة وخاطئة، فلكي لا نبقى أبناء الضرورة والجهل بل نصير أبناءً عن اختيار ومعرفة، ولكي ننال في الماء غفران خطايانا السابقة، لذلك يُنادى فوق من يريد أن يولد ثانيةً، الذي يكون قد تاب عن خطاياه، باسم الله الآب الضابط الكل. فالذي يقود المعمَّد إلى جرن المعمودية ينادى عليه بهذا الاسم ... وهذا الاغتسال يُدعى استنارة لأن الذين يتعلَّمون هذه الأمور يستنيرون في معرفتهم. وبعد ذلك فالذي استنار يُعمَّد أيضاً باسم يسوع المسيح الذي صُلب على عهد بيلاطس البنطي، وباسم الروح القدس الناطق في الأنبياء بكل ما يختص بيسوع.](١٥)

+ [وبعد أن نعمِّد هكذا المؤمن الجديد الراغب في الانضمام إلينا، نحن نقوده إلى الموضع الذي يجتمع فيه الذين ندعوهم "الإخوة"، حيث نرفع جميعاً معاً الصلوات الحارة من أجل نفوسنا، ومن أجل ذلك الذي اعتمد، ومن أجل كل الناس في كل مكان، حتى إننا بعد أن حصلنا على الحق نوجد مستحقين أن نظهر

(14) *Ibid.*
(15) *Apol.*, I, 61.

بأعمالنا أننا مواطنون صالحون مطيعون للشرائع، وننال بالنهاية الخلاص الأبدي."(١٦)

فالقديس يوستين يدرك بوضوح أن المعمودية المسيحية تُمارس باسم الثالوث وتُمنح للمؤمن فقط. والذين يقبلون المعمودية هم الذين "**قد اقتنعوا وآمنوا**" بالتعليم المسيحي أنه هو الحق ويتعهَّدون بأن يحيوا بمقتضاه، ومن أجل ذلك يصومون ويصلُّون. والتجديد أو الخليقة الجديدة التي يتقبَّلونها في المعمودية لا تُعطى إلاَّ لمن يكون عنده الإيمان الواعي، وكنتيجة "**لتكريس نفسه لله**". بحيث إن الذين كانوا مولودين عن ضرورة أو جهل يصيرون "**أبناء الاختيار والمعرفة**"، والتلميذ الذي يختار العماد والتجديد وقد أكمل التوبة "**ينال في الماء غفران خطاياه السابقة**".

وهذا الاغتسال **يُدعى الاستنارة "لأن الذين يتعلَّمون هذه الأمور يستنيرون في معرفتهم"**.

والقديس يوستين يقارن بين المعمودية اليهودية التي تغسل الجسد فقط وبين المعمودية المسيحية التي هي ذات أهمية وخطورة، التي هي "**غسل**" التوبة ومعرفة الله فهي "**ماء الحياة**"(١٧)، "**والمعمودية بالروح القدس**"(١٨) وهي "**حميم الميلاد الجديد**"(١٩). **وختانة من نوع خاص تُعطَى مغفرة الخطايا برحمة الله**(٢٠).

٦ ــ القديس كليمندس الإسكندري (سنة ٢١٥م):

القديس كليمندس الإسكندري عاش من سنة ١٥٠ــ٢١٥م وتتلمذ على يدي بنتينوس مدير مدرسة الإسكندرية وقد خلفه كمدير لمدرسة الإسكندرية سنة ١٩٠م. وهو معاصر لترتليان، وفي سنة ٢٠٢م أُجبر على الهرب بسبب الاضطهاد. وقد تنيَّح سنة ٢١٥م. وتعيِّد له الكنيسة في ٤ ديسمبر. وأهم مؤلفاته هي خطاب موجَّه إلى الوثنيين *Protrepticus* وكتاب المربِّي *Paedagogus* الذي يجعله لقباً للمسيح الذي يربينا ويعلِّمنا الأداب اللائقة بالحياة المسيحية، وكتاب المتفرِّقات *Stromata* ومقالة عن: "مَنْ هو الغني الذي سيُخلَّص *Qui dives salvetur*". **وهو يعتبر الاستنارة أنها كمال المسيحية**، ويعطي قيمة أساسية للمعرفة الحقيقية (غنوسيس)، لذلك فمحور تعليمه اللاهوتي هو اللوغس المسيح الكلمة الذي عرَّفنا كل شيء عن الله. وهو من أكثر الشارحين

(16) *Apol.*, I, 65.
(17) *Dial.*, 14.1.
(18) *Ibid.*, 29.1.
(19) *Apol.*, I, 61, 66.
(20) *Dial.*, 19, 2, 43.2.

لعمل اللوغس من نحو البشرية، **فلأن المسيح صار إنساناً أصبح الإنسان فيه يمكن أن يشترك في عدم الموت. وهو يعتبر أن سر العماد والإفخارستيا هما أداة لهذا الاشتراك. ومن أقوال ق. كليمندس الإسكندري عن المعمودية(٢١):**

- **المعمودية هي الولادة الثانية:**

+ [لأنه هكذا أراد لنا أن نتحوَّل ونصير كالأطفال معلنين إيَّاه حقًّا كأبينا مولودين ثانية بالماء. وهذا ميلاد آخر غير الذي كان في الخليقة.](٢٢)

+ [اسمعوا المخلِّص يقول: أنا ولدتكم ثانية، بعد أن كنتم مولودين من العالم ولادة تعيسة للموت، أنا حرَّرتكم وشفيتكم وفديتكم وسأعطيكم حياة بلا نهاية، أبدية، فائقة للطبيعة. سأريكم وجه الله الآب الصالح، فلا تدعوا لكم أباً على الأرض. من أجلكم أنا حاربتُ الموت ودفعت دينكم المميت الذي أُدنتم به بخطاياكم السالفة وعدم إيمانكم بالله.](٢٣)

وإنه حقًّا من الصعب أن نجد شرحاً أفضل من هذا عن التبني لله الذي نحصل عليه في المعمودية التي للخلقة الجديدة.

والقديس كليمندس يستخدم كلمة الختم σφραγίς والاستنارة والحميم والكمال للتعبير عن سر المعمودية في كتابه "المربِّي"، حيث يشرح تأثير المعمودية كالآتي:

+ [وإذ نكون قد اعتمدنا نكون استنرنا، وإذ نكون استنرنا نكون صرنا أولاداً، وإذ صرنا أولاداً نكون قد تكاملنا. وإذ نكون قد تكاملنا نكون قد صرنا غير مائتين: «أنا قلت إنكم آلهة وكلكم أبناء العلي ...» (مز ٨٢:٦). هذا العمل يُسمَّى نعمة ويُسمَّى استنارة وكمالاً وحميماً. فهو حميم لأننا به نغسل خطايانا. وهو نعمة لأنه به تُرفع عنا العقوبة المتحصِّلة من تعدياتنا. ويُسمَّى استنارة لأننا به نعاين النور المقدَّس الذي للخلاص، أي نرى الله واضحاً. والآن نُدعى كاملين إذ لا نحتاج شيئاً. لأنه ماذا يعوز الإنسان إن هو عرف الله؟ لأنه يكون أمراً مشيناً حقًّا لو أن شيئاً غير كامل يُدعى هبة نعمة الله.](٢٤)

+ [لقد أُبطلت آثامنا بهذا الدواء الفائق: معمودية اللوغس. فإننا قد اغتسلنا من خطايانا ولم نعد بعد

(21) Quasten, *Patrology,* II, pp. 27ff.
(22) *Strom.,* 3, 12, 87.
(23) *Qui div. Solv.,* 23,1.
(24) *Paedagogus,* I, 6, 26.

منغمسين في الشر. وهذه هي النعمة الفريدة التي نلناها بالاستنارة: إن طبائعنا الآن لم تعد مثلما كانت قبل أن نغتسل.](٢٥)

كذلك يرى القديس كليمندس الإسكندري **أن الروح القدس الذي يُعطى للمؤمن في المعمودية يحوِّله من الوضع الترابي إلى الوضع السماوي**(٢٦) (انظر: ١كو ١٥:٤٩)، **ويحميه**(٢٧) **من الأرواح الشريرة**(٢٨).

- **والاستنارة التي ننالها في المعمودية تلازمها المعرفة والاستعلان ورؤية الله**(٢٩).
- **وهناك إشارة خفية لمعمودية الأطفال في وضع رمزي في كتاب "المربي"**(٣٠).

٧ ـ هيبوليتس (سنة ٢٣٦م):

عاش من سنة ١٧٠-٢٣٦م. وهو عالِم عقائدي كنسي، وهو أعظم لاهوتي في الكنيسة الرومانية في القرن الثالث، وقد أُهمل ذكره لأنه كتب باللغة اليونانية. وفوتيوس يؤكِّد أنه كان تلميذاً لإيرينيئوس. وإغفال اسمه وتعاليمه في روما بسبب كونه كان ضد الباباوات الذين كانوا في زمانه. لكنه مات شهيداً واحتُسب بعد عراك طويل أنه كاثوليكي العقيدة وكان قد أُعطي له رتبة كاهن، ثمَّ سيم أسقفاً من مجموعة قليلة من الذين ناصروه(٣١).

والتقارير التي قدَّمها هيبوليتس عن المعمودية نظراً لتكاملها، بمعنى أنها تحوي كل عناصر المعمودية، أصبح لها قيمة فريدة وعظيمة، فهي تمثِّل الكنيسة الأرثوذكسية في الشرق حتى إنها برزت باعتبارها المصدر الأساسي لمعرفتنا للمعمودية وممارستها في القرن الثاني في الشرق والغرب.

- **وهيبوليتس يقرن المعمودية بمغفرة الخطايا وبالميلاد الجديد والانضمام للكنيسة، وبعطية**

---

(25) *Paedagogus,* I, 6.

(26) *Eclogae.,* 24; cited by A. Gilmore, *Christian Baptism,* p. 202.

(٢٧) في قصة تنصُّر "بلقيس الشيخ" أنها بعد أن تعمَّدت بالروح القدس حاول الشيطان إزعاجها فاشتكت للمسيح فقال لها: [يا بلقيس يلزم أن تعتمدي بالماء].

(28) *Eclogae,* 12.

(29) *Poedagogus,* I, 6; *Stromata,* V, 10.

(30) *Paedegogus,* III, 2.

(31) J. Quasten, *Patrology,* II, p. 164.

الروح القدس التي تُعطى للمعمَّد(٣٢)، وهو أحياناً يعتبر أن عطية الروح القدس تُعطى في المعمودية(٣٣) وأحياناً أخرى يقول إنها تُعطى بواسطة مسحة الزيت(٣٤) بعد المعمودية.

+ [ينزل المعمَّد إلى حميم التجديد بعد أن يقر بإيمانه ويجحد الشيطان ويلتصق بالمسيح وينكر العدو ويعترف بأن المسيح هو الله، وحينئذ يخلع عنه العبودية ويلبس التبني ... ويخرج من المعمودية مضيئاً كالشمس مشعاً بالبر ويعود ابناً لله ووريثاً مع المسيح الله.](٣٥)

▪ وفي كتابه: "التقليد الرسولي" يشرح بتفصيل جميع خطوات المعمودية: **فالموعوظ يستمر تعليمه ثلاث سنوات(٣٦) ثمَّ تُقال عليه صلاة إخراج الشياطين(٣٧) ويُختم بواسطة الأسقف بعلامة الصليب على جبهته ومنخاره وأذنيه(٣٨). وبعد ذلك يجحد الشيطان وكل أعماله ويُدهن بزيت إخراج الشياطين(٣٩)، ويجيب على أسئلة الإيمان قبل تغطيسه في الماء ثلاث مرَّات. وبعده يُعطى مسحة زيت البهجة أو الشكر بواسطة الكاهن، ويلتحق بالجماعة حيث يضع الأسقف عليه يده بصلاة ويدهنه بالزيت المقدَّس باسم الله الآب القادر على كل شيء والمسيح يسوع والروح القدس(٤٠)، وأخيراً يختمه على جبهته ويعطيه قبلة السلام.**

هذا هو ترتيب المعمودية بحسب كتاب هيبوليتس الأصلي المدعو "التقليد الرسولي"، وقد نشره وحقَّقه العالِم جريجوري دكس(٤١). وفي عصر لاحق صيغت محتويات هذا الكتاب صياغة جديدة عُرفت باسم "قوانين هيبوليتس".

---

(32) A. Gilmore, *Christian Baptism*, p. 202.
(33) E-g. *Homily on the Theophania*, 8-10 (P.G. 10, 860-861).
(34) *On Daniel*, I. 16.4 (P.G. 10, 693A).
(35) *Homily on the Theophania*, 10.
(36) *Apostolic Tradition*, 17.
(37) *Ibid.*, 20,8.
(38) *Ibid.*,.
(39) *Ibid.*, 21, 10.
(40) *Ibid.*, 22, 1,2.
(41) Gregory Dix, *The Treatise on the Apostolic Tradition of st. Hippolytus of Rome*, 1968.

قوانين هيبوليتس:

أول مَنْ نشر هذه القوانين هو العالِم Achelis(٤٢) سنة ١٨٩١، ثمَّ حقَّقها وأعاد نشرها العالِم Coquin(٤٣) وتاريخ هذه الوثيقة هو سنة ٥٠٠م (ولكن أصلها يرجع إلى سنة ٢١٥م قبل وفاة هيبوليتس وهو كتاب "التقليد الرسولي"). والنص الأصلي لهذه القوانين مكتوب باللغة اليونانية ولكنه مفقود و لم تبقَ نسخة منه. والنص الوحيد الذي يعتمد عليه العلماء الذين نشروا هذه القوانين (مثل: Achelis ثمَّ Coquin) هو النسخة العربية. ويعتقدون أنها لم تُترجم عن اليوناني رأساً بل عن نسخة قبطية متوسطة مفقودة. وسوف نرى هنا أن طقس العماد في هذه القوانين يقوم على أساس التقليد الرسولي الذي كتبه هيبوليتس ولكن بتغييرات طفيفة ليوافق احتياجات المكان والعصر الذي كُتبت فيه.

ونقدِّم هنا القوانين الخاصة بالموعوظين والمعمودية بحسب ترقيم العالِم Achelis:

النص:

+ ٦٠] ـ هؤلاء الذين يترددون على الكنيسة بكثرة لكي يُقبلوا بين المسيحيين، يلزم أن يُمتحنوا بكل عناية لمعرفة لماذا تركوا دينهم، لئلاَّ يكونوا قد جاءوا لكي يستهزئوا بنا.

٦١ ـ وإن أي إنسان أتى بإيمان صادق، ينبغي أن يُقبل بفرح ويُسأل عن وظيفته (عمله) ويُعلَّم بواسطة شماس، ويتعلَّم كيف يصنع جحداً في الكنيسة للشيطان وكل أعوانه.

٦٢ ـ ويجب أن يُلاحَظ هذا كل وقت تعليمه قبل أن يدخل في عداد بقية الشعب.

٦٨ ـ بعد أربعين يوماً يُسمح لهم أن يسمعوا المواعظ وإن كانوا مستحقين يُسمح لهم بالعماد، ولكن يلزم أن معلِّمهم يرجع للكنيسة من أجل هذه الأمور.

٦٩ ـ ٩٠ ـ قائمة بأنواع التجارات والمهن التي تتعارض مع قبول طلب المتقدِّم (المرشَّح) لأن يُقبل كموعوظ.

٩١ ـ والموعوظ المستحق النور لا ينبغي أن نؤخِّره حتى يكمِّل الوقت المحدَّد. ومعلِّم الكنيسة هو الذي يتصرَّف في هذه الأمور.

٩٢ ـ وعندما يكمِّل المعلِّم دروسه اليومية ليتهم يصلُّون ولكن ليس مع المسيحيين.

٩٣ ـ ٩٨ ـ التعليمات الخاصة بالحوامل ومعاملة الإناث الموعوظات.

٩٩ ـ ينبغي أن يضع المعلِّم يده على الموعوظين قبل أن يصرفهم.

(42) Achelis, *Die Canones Hippolyti*, Leipzig, 1891, cited by Whitaker, op. cit., pp. 78-81.
(43) R.-G. Coquin, *Les Canons d'Hippolyte*, PO31,2 (1966), pp. 340-427.

١٠١ ـ الموعوظ الذي قُبل واقتيد لكي يعطي شهادته ويكون قد قُتل قبل أن يعتمد ليته يُدفن مع بقية الشهداء ـ لأنه يكون قد تعمَّد في دمه.

١٠٢ ـ يكون الموعوظ مؤهَّلاً لأن يتقدَّم للمعمودية إذا كان قد امتُدح بواسطة هؤلاء الذين قدَّموه بشهادة حسنة، قائلين إنه في مدة تعليمه زار المرضى وساعد الضعيف وحفظ نفسه من الكلام الملتوي، ويكون قد سبَّح الله بمدايح وقد كره المجد الباطل واحتقر الكبرياء واختار التواضع لنفسه.

١٠٣ ـ وعليه أن يعترف للأسقف ـ لأن الأسقف وحده هو الذي يقوم بهذه المهمة ـ حتى أن الأسقف يقبله ويعتبره مؤهَّلاً لأن يتقدَّم لينال الأسرار، إذ يكون قد صار طاهراً بالحقيقة.

١٠٤ ـ وبعد ذلك يُقرأ عليه إنجيل الموسم ويُسأل عدة مرَّات: هل لك قلب منقسم؟ هل لازلت مثقَّلاً بشيء من العار؟

١٠٥ ـ لأنه غير مسموح لأحد أن يستهزئ بملكوت السموات، لأنه حينما يأتي الملكوت ستُفرز هذه الأمور من قلوب الناس.

١٠٦ ـ في اليوم الخامس من الأسبوع ليغتسل بالماء الذين سيُعمَّدون، وليأكلوا في هذا اليوم. وفي اليوم السادس (الجميع) يصومون.

١٠٨ ـ وفي يوم السبت ليت الأسقف يجمع كل الذين سيعمَّدون ويقول لهم أن يتجهوا إلى الشرق ويحنوا الركب، ثمَّ يفرد يديه ويُصلِّي حتى يطرد الأرواح الشريرة من كل أعضائهم.

١٠٩ ـ وليحذروا إن كان في شغلهم وأعمالهم أن تعود إليهم (تلك الأرواح).

١١٠ ـ وبعد أن ينهي استحلالهم ليته ينفخ في وجوههم ويعطي علامة (يختم) على صدورهم (القلب) وأحجبتهم (العين) وآذانهم وأفواههم.

١١١ ـ وليقضوا الليل كله ساهرين منهمكين في الصلوات المقدَّسة.

١١٢ ـ وعند صياح الديك ليقفوا معاً بجوار الماء الجاري لنهر: النقي والمُعد والمقدَّس.

١١٣ ـ وليت الذين يجيبون عن الأطفال الصغار يُخلِعونَهم ملابسهم، وأمَّا الأطفال القادرين أن يفعلوا ذلك بأنفسهم فليفعلوا.

١١٤ ـ وليت النساء يكون لهن نساء أخريات كمرافقات لهن ليخلعن ملابسهن.

١١٥ ـ ليت النساء يخلعن كل الحلي والذهب ويفكُّون رباطات شعورهن حتى لا ينزلن بها في ماء الولادة الثانية، ولا بأي شيء غريب تملك عليه الأرواح الغريبة.

١١٦ ـ وليت الأسقف يصلِّي على زيت إخراج الأرواح الشريرة ويسلِّمه للكاهن.

١١٧ – وبعد ذلك يصلّي على دهن المسحة الذي هو زيت البهجة ويسلّمه لكاهن آخر.

١١٨ – والذي يحمل زيت إخراج الأرواح الشريرة في يده يقف على شمال الأسقف، والذي يحمل زيت المسحة على يمينه.

١١٩ – والذي سيعتمد يوجّه وجهه نحو الغرب ويقول: أجحدك أيها الشيطان و كل قواتك.

١٢٠ – وعندما يقول هذا يمسحه الكاهن بزيت إخراج الشياطين الذي سبق أن صلّوا عليه حتى أن كل روح شرير يغادره.

١٢١ – وبعدها يُرسله بيد شماس إلى الكاهن والواقف بجوار الماء، وهذا الكاهن يمسك يده اليمنى ويحوّل وجهه نحو الشرق في الماء.

١٢٢ – وقبل أن ينزل الماء بوجهه الملتفت نحو الشرق يقف بجوار الماء ويقول، بعد أن يكون قد مُسح بزيت إخراج الأرواح الشريرة: أومن وأنحني لك ولكل قواتك أيها الآب والابن والروح القدس.

١٢٣ – ثمّ ينزل بعد ذلك إلى الماء ويضع الكاهن يده فوق رأسه ويسأله.

١٢٤ – هل تؤمن بالله الآب القادر على كل شيء؟

١٢٥ – يجيب الطالب المرشّح نعم أومن، وبعدها يغطّسه في الماء. ثمّ يسحب الكاهن يده من على رأسه ويسأله مرّة أخرى:

١٢٦ – هل تؤمن بيسوع المسيح ابن الله الذي ولدته مريم العذراء وحملت به بالروح القدس،

١٢٧ – الذي جاء ليخلّص البشرية،

١٢٨ – الذي صُلب من أجلنا في عهد بيلاطس البنطي، الذي مات وقام من بين الأموات في اليوم الثالث وصعد إلى السموات وجلس عن يمين الله الآب، والذي سيأتي ليدين الأحياء والأموات؟

١٢٩ – يجيب أومن، فيغطس ثانياً في الماء، ثمّ يسأله الكاهن مرّة ثالثة:

١٣٠ – هل تؤمن بالروح القدس،

١٣١ – المعزّي المنسكب علينا من عند الآب والابن؟

١٣٢ – يجيب: أومن. ثمّ يُغطّس في الماء للمرّة الثالثة.

١٣٣ – وكل مرّة يقول المعمّد: أعمّدك باسم الآب والابن والروح القدس (المساوي).

١٣٤ – عندما يخرج من الماء (يصعد) يأخذ الكاهن مسحة البهجة ويرشم جبهته (المخ) وفمه (الكلام) وصدره (القلب) بعلامة الصليب، ويدهن كل جسمه ورأسه ووجهه قائلاً: أمسحك باسم الآب والابن والروح القدس.

١٣٥ – حينئذ يُنشّفه بفوطة وعندما يلبس يقوده إلى داخل الكنيسة.

١٣٦ ـ وهنا يضع الأسقف يده على كل مَنْ اعتمدوا ويقول هذه الصلاة:
١٣٧ ـ نحن نباركك أيها الرب الإله القادر على كل شيء لأنك جدَّدت هؤلاء وحسبتهم مستحقين أن يولدوا ثانية، وسكبت عليهم روحك القدوس حتى أنهم الآن صاروا متحدين بجسد الكنيسة ولن يفترقوا عنها بأي أعمال غريبة.
١٣٨ ـ أعطِ هؤلاء الذين أعطيتهم مغفرة الخطايا عربون الملكوت بسخاء بربنا يسوع المسيح، الذي به لك معه ومع الروح القدس المجد إلى كل الدهور آمين.
١٣٩ ـ وبعد ذلك يرشم أجفنتهم بعلامة المحبة ويقبِّلهم قائلاً: "الرب معكم".
١٤٠ ـ فيجيب المعمَّد: "ومع روحك أيضاً". وإنه يفعل ذلك مع كل واحد من الذين اعتمدوا.]⁽٤٤⁾

٨ ـ ترتليان: Quintus Septimius Forens Tertullianus (١٥٥–٢٢٥م):

أبو كنيسة شمال إفريقيا، ويقول عنه جيروم أنه أب كل الكتّاب اللاتين. وُلِدَ وعاش في قرطاج Carthage وهو ابن قائد مائة في قنصلية في شمال أفريقيا. تعلَّم تعليماً أكاديمياً كمحامٍ واعتنق المسيحية سنة ١٩٣م. وبحسب ق. جيروم فإنه صار كاهناً، وكان ترتليان عضواً في الكنيسة بشمال أفريقيا، والتحق بالمونتانية (انحراف عقائدي) سنة ٢١٣م. وله مؤلَّفات ضخمة دفاعية ولاهوتية ونسكية يظهر منها اتساع درايته بالآداب اللاتينية واليونانية. وهو أول من كتب عن الأسرار في ما قبل نيقية. وقد خصَّص للمعمودية كتاباً كاملاً. ومعظم أقواله التي نقدِّمها هنا مأخوذة من الكتب التالية التي كتبها عندما كان في الإيمان الكنسي العام (كاثوليكي):

1 - *De Baptismo*, sources Chrétiennes, vol. 35.
2 - *De Spectaculis*, C.S.E.L., vol. 20.
3 - *De Praescriptione Haeraticorum*, PL 2.
4 - *De Resurrectione Carnis*, PL 2.

+ [إن البصخة (الأسبوع قبل عيد القيامة) تقدِّم أعظم الفرص المهيبة للمعمودية.]⁽٤٥⁾
+ [الذين يتقدَّمون للمعمودية عليهم أن يصلُّوا بصلوات متواترة وأصوام وإحناء الركب والسهر كل الليل

(44) E.C. Whitaker, *op. cit.*, pp. 78-81.
(45) *De Baptismo*, C. 19,1.

والاعتراف بكل الخطايا السابقة.](٤٦)

+ [والآن أضع أمام فكركم الإجراءات الخاصة بإعطاء وقبول المعمودية. أمّا إعطاؤها فهذا بالأساس من حق رئيس الكهنة، أي الأسقف إن كان موجوداً، وإلاَّ فالكهنة ثمَّ الشمامسة، ولكن ليس بدون سلطان الأسقف ذلك لأجل كرامة الكنيسة، لأنه حيثما حفظ هذا النظام وُجِدَ السلام. وبالإضافة لذلك فإن العلمانيين أيضاً لهم الحق أن يعمّدوا (في حالة الضرورة) لأن الذي استَلم بالتساوي يمكن أيضاً أن يُعطى بالتساوي.](٤٧)

+ [ومع أخذ في الاعتبار ظروف كل شخص واستعداداته بل وعمره أيضاً، يكون التأخير في المعمودية مفضّلاً. وبالدرجة الأولى من حيث الأطفال الصغار، لأنه ما الحاجة أن نعرض الأشبين للخطر إلاَّ إذا كانت هناك حاجة عاجلة تحتِّم ذلك.](٤٨)

+ [إذن فبعد أن يكون الماء قد تقبّل القوة الشافية بتدخُّل الملاك، فإن الروح تغتسل بالماء والجسد يتطهَّر روحياً أيضاً في الماء.](٤٩)

+ [وعندما نكون قد دخلنا الماء نعترف بالإيمان المسيحي بالكلمات الخاصة بالقانون (قانون الإيمان). فنحن نقدِّم الشهادة العامة أننا قد جحدنا الشيطان وخدَّامه وأعماله.](٥٠)

+ [وعندما نخرج من جرن المعمودية ندهن كليًّا بالمسحة المقدَّسة بحسب القديم، إذ منذ أن مُسح هارون بواسطة موسى، صار الكهنة يُمسحون للكهنوت بقرن الدهن. وبمقتضى المسحة فإنكم تُدعون "مسحاء" أي مسيحيين.](٥١)

+ [وفي الخطوة الثانية توضع اليد للتقديس واستدعاء الروح القدس](٥٢). وهكذا فإن اليد التي تدعو الروح القدس تكوِّن مع الماء ــ بحسب تصوُّر ترتليان ــ شبه آلة موسيقية تستدعي الروح القدس.

---

(46) *Ibid.*, C. 20.
(47) *Ibid.*, C. 17.
(48) *Ibid.*, C. 18.
(49) *Ibid.*, C. 4.
(50) *De Spectaculis*, C. H.
(51) *De Baptismo*, C. 7.
(52) *Ibid.*, C. 8.

+ [وعندما نكون ذاهبين لندخل الماء أو قبلها قليلاً في محضر الجماعة وتحت يد الأسقف، نحن نعترف علانيةً أننا نجحد الشيطان وكل قواته وملائكته. عندئذ نُغطّس ثلاث مرّات مجاوبين الأشياء التي أمر بها الرب في الإنجيل "الاعتراف بالمسيح (مت ١٠: ٣٢)"، وبعد ذلك عندما نقوم كأولاد مولودين جديداً نذوق جزءاً من اللبن الممزوج بالعسل، ومن ذلك اليوم نمتنع عن الحمام اليومي إلى أسبوع كامل.](٥٣)

+ [الآن الجسد يغتسل حتى تتطهَّر الروح. ويُمسح الجسد حتى تتكرَّس الروح، ويُعطى ختم على الجسد حتى تتقوّى الروح. والجسد قِبَلَ وضع اليد حتى تستنير النفس بالروح، والجسد يُطعم بجسد ودم المسيح حتى تدسم النفس بالله.](٥٤)

+ [هذا الكتاب يشرح سر العماد بالماء الذي يغسل خطايانا التي عملناها في عمى جهلنا المبكِّر، وها المعمودية أطلقتنا أحراراً وقبلنا الدخول إلى الحياة الأبدية ...

نحن السمكات الصغيرة التي تولد في الماء على شبه ربنا يسوع المسيح السمكة الفائقة (Ιχθυς)، لا يكون لنا خلاص إلاّ بالتمسُّك بالماء ــ وأمَّا التنين عدونا، فلم يجد وسيلة ناجحة لقتل هذه السمكات الصغيرة إلاّ بإخراجهم خارج الماء.](٥٥)

+ [إن روح الله الذي كان يرف على وجه المياه فهو لا يزال يرف على ماء المعمودية، ولكن لا يرف القدّس إلاّ على المقدّس أو الذي يقدّسه. وهكذا يصير ماء المعمودية مقدّساً ... فبعدما يُستدعى الله بالصلاة تصير المياه ذات قوة سرائرية للتقديس، لأن الروح ينحدر في الحال من السماء ويستقر على الماء ويقدّسها من ذاته فتصير مقدَّسة وحاملة لقوة التقديس، فلأننا تنجَّسنا بخطايانا كالوسخ فإنها تغتسل بالماء المقدّس. ولكن الخطايا لا تظهر على الجسد بل تدنّس النفس، لأن النفس هي صانعة الخطية والنفس للجسد كالسيد للعبد ولكنهما مشتركان معاً في الذنب، النفس لأنها هي التي تآمرت والجسد لأنه خضع وخدم الخطية. لذلك فبعدما تتزوَّد مياه المعمودية بقوة الموهبة الشافية (الطبية) بتوسُّط الملاك فتغسل النفس جسدياً ويغتسل الجسد نفسياً.](٥٦)

+ [ونحن تحت الماء نتطهَّر بحضور الملاك وهكذا نتهيَّأ للروح القدس. هذا أيضاً له مثال سابق، فيوحنا

(53) *De Corona,* C. 3.
(54) *De Resurrectione Carnis,* C. 8.
(55) *De Baptismo,* C. 1.
(56) *Ibid.,* C. 4.

المعمدان كان هو الملاك السابق للرب يعد له الطريق، هكذا أيضاً الملاك الشاهد للمعمودية يجعل الطريق مستقيماً أمام الروح القدس المزمع أن يحل علينا عند تطهير خطايانا ويختمنا بالإيمان باسم الآب والابن والروح القدس. لأن من فم ثلاثة شهود تقوم كل كلمة (مت ١٨:١٦). حيث في بركة سر المعمودية يكون هؤلاء الثلاثة شهوداً لإيماننا ويكونون مثل موثّقين لخلاصنا. وهذا كاف جداً لرجائنا وبالأكثر بعد ضمان إثبات إيماننا وإعطاء وعد خلاصنا أمام هؤلاء الشهود الثلاثة: الآب والابن والروح القدس. ويلزم أيضاً ذكر الكنيسة لأنه حيث يكون هؤلاء الثلاثة تكون الكنيسة.](٥٧)

+ [وبعد أن نصعد من جرن المعمودية ندهن دهناً كاملاً بالمسحة المقدّسة، وهذا الترتيب الطقسي قديم حينما كان يُمسح طالب الكهنوت بدهن القرن كما مُسح هارون أيضاً بواسطة موسى. ولذلك دُعي يسوع مسيح الرب لأنه مُسح بالروح بواسطة الله الآب، كما كُتب في سفر الأعمال: «لأنه بالحقيقة اجتمع على فتاك القدوس يسوع الذي مسحته» (أع ٤:٢٧). هكذا أيضاً في ما يختص بنا، فإن المسحة تتم جسدياً ولكنها تثمر روحياً كالمعمودية نفسها، لأنها تُجرى جسدياً عندما نُغطّى في الماء بالجسد ولكن ثمرها روحي إذ نخلص من خطايانا.](٥٨)

+ [وبعد المسحة توضع اليد على المعمَّد بصلاة ودعاء الروح القدس ... لأنه ليس عسيراً على الله أن يستخدم يد الإنسان وهو أصلاً صنعة يديه ...

لأنه فوق أجسادنا التي اغتسلت من الخطية وتقدّست يُرسل الآب روحه القدوس ... وقد نزل على الرب يسوع بشبه حمامة. وكذلك في الفلك ... وهكذا على أجسادنا حينما نخرج من جرن المعمودية بعد ترك خطايانا القديمة تنحدر حمامة الروح القدس.](٥٩)

تحذير عام:

يقول ترتليان في مطلع كتابه عن "المشاهد العامة"، وفيه يخاطب الموعوظين المتقدِّمين للمعمودية، ولكنه يقصد من ورائهم أن يحذِّر كافة المسيحيين:

+ [يا عبيد الله المزمعين أن يتقرّبوا إلى الله ويعلنوا انضمامهم له، اهتموا جداً وتفهّموا شروط الإيمان ومطالب الحق وقواعد السلوك المسيحي القويم التي تحرِّم الخطايا ومعها الملاهي العامة، وأنتم الذين تقرون

---

(57) *Ibid.*, C. 6.
(58) *Ibid.*, C. 7.
(59) *Ibid.*, C. 8.

أنكم أكملتم اعترافكم بالإيمان في ما سبق، أعيدوا النظر في الموضوع لئلاّ تخطئوا سواء عن جهل مقصود أو غير مقصود، لأن سلطان المسرّات الأرضية خطرها أنها تحتفظ لنفسها بفرصة الحث على مداومة الاشتراك فيها، وتتحايل على الإرادة في الاستمرار في الجهل وترشي المعرفة لتلعب دور الخائن.](٦٠)

٩ ـ تعاليم الرسل "الدسقولية" (القرن الثالث):

وثيقة مجهولة الهوية، أصلها اليوناني مفقود وتاريخ تدوينها سنة ٢٥٠م في شمال سوريا، ووصلتنا في ترجمة سريانية والنسخة العربية مترجمة عن السريانية، والدسقولية عموماً **مرتّبة على الديداخي وتُعتبر المصدر الأساسي الذي أخذت منه الكتب الستة الأُولى من المراسيم الرسولية(٦١).**

والنص الذي نقدّمه هنا مأخوذ من النسخة العربية(٦٢):

+ [نحن الاثني عشر رسولاً الذين لهذا الوحيد الواحد الابن الذي لله الآب ضابط الكل ربنا ومخلّصنا يسوع المسيح. لمّا اجتمعنا معاً في أُورشليم مدينة الملك العظيم ومعنا أخونا بولس الإناء المختار ورسول الأُمم ويعقوب أخ الرب أسقف هذه المدينة أُورشليم قرّرنا هذه التعاليم الجامعة:

الفصل الثالث عشر:

١ ـ لا يجوز للنساء أن يُعمِّدن.

٢ ـ إن كان «رأس المرأة هو الرجل» وهو الذي دُعي للكهنوت، فلا يليق أن يُرفض نظام الخليقة.

الفصل السادس والثلاثون:

١٠ ـ ولأجل المعمودية أيها الأسقف أو القسيس فقد أمرناكم من البدء ونقول لكم أيضاً هكذا تُعمِّد مثل وصية الرب لكم أن «اذهبوا وعلّموا جميع الأُمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس وعلّموهم حفظ كل شيء أوصيتكم به» ـ أعني الآب الذي أرسل المسيح الذي جاء والبارقليط الذي شهد.

١١ ـ فأمّا الذي يعتمد فتدهنه أولاً بدهن مقدّس وبعده بماء وفي الآخر تختمه بالميرون لكي تكون بالمسحة مشاركة للروح القدس ـ والماء علامة الموت ـ والميرون ختم الترتيبات التي قُرِّرت.

١٢ ـ فإن لم يوجد دهن أو ميرون فالماء يكفي للمسحة والختم والاعتراف للذي مات أو بالحري صار

(60) *De Spectaculis,* 1; ANF, vol. III, p. 79.

(61) J. Quasten, *Patrology,* vol. II, p. 147.

(٦٢) كتاب: "الدسقولية تعاليم الرسل"، إعداد وتعليق وتقديم الدكتور وليم سليمان قلادة، المطبوع سنة ١٩٧٩.

شريكاً لموت الرب.

١٣ – وقبل المعمودية فليصم الذي يعتمد لأن الرب لمّا اعتمد من يوحنا في البرية وصام أربعين يوماً وأربعين ليلة، أي اعتمد وصام – ليس أنه هو محتاج إلى الغسل ولا الصوم ولا التطهير فهو الطاهر والقدوس في طبيعته، ولكن (عمّده يوحنا) لكي يشهد يوحنا للحق وليعطينا أن نتبع سبله.

١٥ – لأجل هذا فإنه بعد المعمودية صام بسلطانه لأنه رب يوحنا.

١٦ – فأمّا الذي يعتمد لموت الرب فإنه يجب عليه أن يصوم أولاً وحينئذ يعتمد، فليس يحق للذي صار شريكاً لدفن المسيح وصار مصاحباً لقيامته معه أن يُعبّس لوقته بمجرّد قيامته].

١٠ – أوريجانوس: سنة ١٨٥–٢٥٤م:

رئيس مدرسة الإسكندرية بعد كليمندس. وحينما طرد من مصر أقام في قيصرية عشرين سنة.

يؤكّد أن المعمودية هي ختم الإيمان والتوبة وجحد الشيطان(٦٣). وهو يهتم بالأثر الداخلي للمعمودية من جهة الأخلاق وبالمعاني التي يشير إليها الطقس. وهو يركّز على التوبة الصادقة مع الإيمان والاتضاع في المبتدئين الموعوظين كضرورة لقبول مغفرة خطاياهم وعطية الروح القدس الذي ينالونه بالمعمودية(٦٤). وأوريجانوس يستشهد بما جاء في (١كو ١٠: ١–٤) ليؤكّد أن المعمودية بالغمر أو الغطس ليصعد منها المعمَّد إنساناً جديداً باستعداد أن ينشد أنشودة جديدة(٦٥). "وهؤلاء الذين يولدون ثانية من المعمودية الإلهية يوضعون في الفردوس أي الكنيسة ليعملوا أعمالاً روحانية ويأخذون وصية أن يحبوا إخوتهم."(٦٦)

وأوريجانوس يشبّه المعمودية بعبور يشوع نهر الأُردن (يش ٣ كله)، ويكرّر عقيدة المعمودية في العهد الجديد أن المؤمن يتحد بواسطة المعمودية بالمسيح في موته ودفنه وقيامته(٦٧)، ويولد ثانية ويصير عضواً في الكنيسة.

وأوريجانوس يربط عطية الروح القدس بالمعمودية بالماء، ويقول شارحاً قول بولس الرسول عن

(63) *Hom.*, 12.4, in Num. (P.G. 12,665 C).
(64) *Hom.*, 6.2, in Lev. (P.G. 12,468 B).
(65) *Hom.*, 5, in Exod.
(66) *Comm. in Gen.* Tom, iii, 28 (P.G. 12,100).
(67) *Hom.*, 19.14, in Jer. (P.G. 13,493 C).

الروح القدس إنه عربون، أنه يؤخذ بالإيمان بقبول الإنجيل عن الخلاص(٦٨). ويصف أوريجانوس معمودية الأطفال بأنها عادة رسولية(٦٩)، ويؤكّد أن معمودية الأطفال هي لمغفرة الخطية الأصلية الموروثة من آدم ويستشهد في ذلك بالمزمور (٥١:٥): «بالخطايا ولدتني أُمي.»(٧٠)

١١ - القديس كبريانوس (سنة ٢٥٨م):

أسقف قرطاجنة. وهو معاصر لأوريجانوس.

يُعلّم بوجوب عماد الأطفال بسرعة على قدر الإمكان لأن هذا يوفّر لهم مغفرة الخطية الأصلية الوصمة الموروثة بالتناسل من آدم(٧١). ويرى أن المعمودية هي التي تصوّرها الختانة عند اليهود(٧٢). كما يُعلّم أن المعمودية تُعطي التجديد لأنها الواسطة التي بها يُعطَى الروح القدس(٧٣) حتى على الأطفال بقدر طاقتهم(٧٤). والمعمودية عند كبريانوس هي بالتغطيس ويجيز الرش عند المرض، حيث يحل الروح القدس مثل العماد بالتغطيس وليس هناك فرق(٧٥).

ويؤكّد أنه لا معمودية بدون الروح القدس، وأن الماء وحده غير قادر أن يغسل الخطايا أو يقدّس الإنسان(٧٦). ويؤكّد أن وضع اليد له القوة لإعطاء الروح القدس(٧٧). بل ويعتقد أن المعمودية وسر التثبيت هما طقس واحد وصلاة واحدة لإعطاء موهبة الروح القدس(٧٨).

١٢ - القديس سيرابيون Serapion (سنة ٣٥٦م):

أسقف تمي الأمديد رُسم سنة ٣٣٩م. كان صديقاً للقديس أثناسيوس، وكان قبل الأسقفية راهباً

(68) *Eph.*, 8 (J.T.S. iii (1951-2, 243), cited by A. Gilmore, *op. cit.*, p. 204.
(69) *Comm. in Rom.*, V. 9 (P.G. 14, 1047).
(70) *Ibid.*
(71) *Ep.*, 64.
(72) *Ep.*, 64. 4.
(73) *Ep.*, 63. 8.
(74) *Ep.*, 64. 3.
(75) *Ep.*, 69. 13-14.
(76) *Ep.*, 70.1; 74.5.
(77) *Ep.*, 73. 9.

نفهم من هذا أن كبريانوس يرى أن الروح القدس الكائن في الأسقف يكون الواسطة لنقل الروح القدس إلى المعمَّد. وهذا فكر وجيه.

(78) *Ep.*, 72.

ورفيق القديس أنطونيوس الذي أورثه واحدة من فَرْوَتَي الخروف اللتين كان يدَّثر بهما وكـان عنـده اثنان، والأخرى وهبها القديس أنطونيوس للقديس أثناسيوس. وقد أرسل ق. سيرابيون رسالة إلى تلاميذ أنطونيوس سنة ٣٥٦م (بمناسبة وفاة أنبا أنطونيوس) وقد خلّف كتاباً ضمن صلوات الكنيسة في مختلف المناسبات عُـرف باسـم Sacramentary أو Euchologion سيرابيون وهـو مـن تأليفـه. وعيد نياحته يوم ٢١ مارس.

والوثيقة التي بين أيدينا أي **"خولاجي Euchologion سيرابيون" تحوي ضمن صلوات أخـرى كثيرة صلوات سر المعمودية. وتاريخها سنة ٣٥٠م** وهي مترجمة للإنجليزية عن النص اليوناني(٧٩):

(صلاة ٧) صلاة من أجل تقديس المياه:

+ [يا ملك ورب كل شيء صانع المسكونة، الذي أعطى الخلاص مجاناً لكل الطبيعة المخلوقة بواسطة نزول ابنك الوحيد يسوع المسيح. أنت الذي فديت الخليقة التي خُلقت بمجيء الكلمة. الآن من السماء انظر إلى هذه المياه واملأها بالروح القدس. ليت كلمتك الفائق يأتي فيها ويحوّل طاقتها ويجعلها ولودة بملئها بنعمتك، لكي لا يكون السر الذي نقيمه باطلاً في هؤلاء الذين سيولدون منه ثانية – ولكن ليتك تملأ كل هؤلاء الذين ينزلون ويعتمدون بالنعمة الإلهية. أيها المحسن المحبوب أبق على صنعة يديك وخلّص المخلوق الذي صنعته يمينك. وكل هؤلاء الذين يولدون ثانية غيِّر شكلهم إلى شكلك الإلهي غير المنطوق، حتى أنهم بعد أن يتشكّلوا بك ويولدوا ثانية يقبلوا الخلاص ويُحسبوا أهلاً لملكوتك. وكما أن ابنك الوحيد الكلمة لما نزل في مياه الأُردن جعلها مياهاً مقدّسة، هكذا أيضاً الآن ليته ينزل على هؤلاء ويقدّسهم ويجعلهم روحانيين إلى النهاية. حتى أن الذين يعتمدون لا يكونوا بعد لحماً ودماً ولكن روحانيين قادرين أن يعبدوك أيها الآب غير المخلوق بابنك يسوع المسيح وفي الروح القدس، الذي به لك المجد والقوة الآن وإلى دهر الدهور. آمين.]

(صلاة ٨) صلاة من أجل الذين اعتمدوا:

+ [نحن نتوسّل إليك يا إله الحق، من أجل عبدك هذا ونصلّي حتى تحسبه مستحقاً للسر الإلهي من أجل الولادة الثانية الفائقة الوصف. لأن لك يا محب البشر نقدّم هذا لك إذ نحن نكرّسه لك. امنحه أن يكون شريكاً لهذا الميلاد الجديد السماوي إلى النهاية، حتى لا يساق في ما بعد بأي أمر شرير أو رديء. ولكن

(79) E.C. Whitaker, *op. cit.*, pp. 74-76, citing the translation of J. Wordsworth, *Bishop Sarapion's Prayer Book*, S.P.C.K., 1899.

ليخدمك باستمرار ويحفظ وصاياك. وأيضاً ليت ابنك الوحيد الكلمة يقوده. لأنه بـه لـك المجد والقوة في الروح القدس الآن وكل أوان وإلى كل الدهور. آمين.]

(صلاة ١٠) صلاة بعد الاستقبال:

+ [يا محب البشر مخلّص كل الذين لجأوا إليك للإغاثة، كن منعماً علـى عبـدك هـذا، قُدْهُ إلى الميـلاد الثـاني بيمينك. وليت ابنك الوحيد الكلمة يقوده إلى الغسل. واجعل ميـلاده الثـاني مكرَّمـاً بموافقتـك ولا تجعلـه فارغاً من نعمتك. وليت كلمتك المقدَّسة ترافقه. وليت روحك القدوس يكون معه طارداً بعيـداً عنـه كـل تجربة. لأنه بابنك الوحيد يسوع المسيح لك المجد والقوة الآن وإلى كل الدهور. آمين.]

(صلاة ١١) صلاة بعد أن اعتمد وخرج:

+ [يا الله إله الحق صانع كل شيء رب كل خليقـة. بـارك عبـدك هـذا ببركتك، واجعلـه طـاهراً في الميـلاد الجديد. واجعل له أُلفة مع قواتك الملائكية حتى لا يُدعـى في مـا بعـد جسـدانياً بـل روحانيـاً باشـتراكه في عطيتك الإلهية النافعة. ليته يُحفظ إلى النهاية لك، لك أنت يا صانع المسكونة بابنك الوحيد يسوع المسيح الذي به لك المجد والقوة الآن وإلى كل الدهور. آمين.]

(صلاة ١٥) صلاة سيرابيون أسقف تميّ من أجل مسحة الزيت للذين يعتمدون:

+ [يا سيدي محب البشر ومحب النفوس (حكمة ١١:٢٦) العطوف والمشفق. يا إلـه الحق نحن ندعـوك تبعاً وطاعة لوصاياك التي لابنك الوحيد القائل مَنْ غفرتم خطاياه تُغفر لـه (يو ٢٠:٢٣)، ونحن نمسـح بمسـحة الزيت هذه أُولئك المتقدِّمين لهذا الميلاد الجديد الإلهي، متوسِّلين إليك أن يعمـل فيهـم ربنـا يسـوع المسـيح للشفاء ولقوة تمنحهم العافية، ولكي يستعلن لهـم نفسـه بمسـحة هـذا الزيـت ليعـافي نفوسـهم وأجسـادهم وأرواحهم من كل أثر للخطية والأخطاء الشيطانية المنحطة، وبنعمته يوفِّر لهـم الغفـران حتى يموتـوا عـن الخطية فيعيشوا للبر (١بط ٢:٢٤)، ويُخلقوا من جديد بهذه المسحة. ويتطهَّروا بهـذا الغسـل ويتجـدَّدوا بالروح (أف ٤:٢٣) ليكونوا قادرين من الآن فصاعداً أن ينالوا النصرة ضد كـل القـوى المضـادة والغـش الذي لهذا العالم، الذي يطغي عليهم حتى يرتبطوا ويتحدوا مع الرعية التي لربنـا ومخلِّصنـا يسـوع المسـيح، لأن به لك المجد والقوة في الروح القدس الآن وإلى كل الدهور. آمين.]

(صلاة ١٦) صلاة من أجل المسحة التي بها يمسح الذين اعتمدوا:

+ [يا إله القوات معين كل نفس تلتجيء إليك وتأتي تحت يد ابنك الوحيد القوية، ندعوك أن تعمل في هـذه المسحة بطاقة إلهية سماوية بالقوة الإلهية غير المنظورة التي لربنا ومخلِّصنا يسوع المسيح، مـن أجـل أن الذين

اعتمدوا يمسحون بها بعلامة الختم التي للصليب المقدَّس الذي لابنك الوحيد، ذلك الصليب الذي يهرب وينهزم أمامه الشيطان و كل قوة مضادة. حتى أن هؤلاء الذين ولدوا ثانيةً وتجدَّدوا بغسل الميلاد الثاني (تي ٣:٥) يصيروا شركاء عطية الروح القدس مصونين بهذا الختم، ويستمروا راسخين غير متزعزعين (١كو ١٥:٥٨)، غير مصابين ولا مطفي عليهم، خالين من كل معاملة بالعنف أو المكيدة، في صدق الإيمان وملء معرفة الحق، منتظرين حتى النهاية الرجاء السماوي لوعود الحياة الأبدية التي لربنا ومخلِّصنا يسوع المسيح، الذي به لك المجد والقوة الآن وإلى كل الدهور. آمين.]

١٣ – المراسيم الرسولية The Apostolic Constitutions (سنة ٣٧٥م):

النص: النص اليوناني الأصلي نشره العالِم Funk:

F.X. Funk, *Didascalia et Constitutiones Apostolorum,* Paderborn, 1905.

وقد نُشرت ترجمته الإنجليزية في مجموعة A.N.F. آباء ما قبل نيقية.

وتاريخ هذا النص المجهول الهوية هو حوالي سنة ٣٧٥م وهو منسوب لفئة المكتوبات المعروفة باسم الأنظمة الكنسية Church Orders. ويُلاحَظ أن طقس المعمودية في الكتاب الثالث ابتداءً من الفصل السادس عشر هو قائم على أساس الدسقولية Didascalia، والكتاب السابع فصل (٢٢) على الديداخي، في حين أن الكتاب السابع فصل (٣٩) وما بعده ليس له علاقة بالمكتوبات الأخرى.

الكتاب الثالث(٨٠):

الفصل السادس عشر:

+[٢ – نحن نحتاج إلى امرأة شماسة لأمور هامة كثيرة وأولها في معمودية النساء، فالشمَّاس الرجل يمسح فقط جباههن بالزيت المقدَّس، وبعد ذلك فعلى الشمَّاسة أن تمسحهنَّ لأنه ليس هناك حاجة أن تظهر المرأة وتُنظر عند الرجال.

٣ – ولكن في وضع يد الأسقف، عليه أن يمسح رأسها فقط كما كان يُمسح الكهنة والملوك سابقاً. ليس لأن هؤلاء الذين يعتمدون يُرسمون كهنة ولكنهم كمسيحيين يُمسحون من المسيح الممسوح: فهم «كهنوت ملوكي وأُمَّة مقدَّسة» (١بط ٢:٩) ولكنهم الآن محبوبون ومختارون.

٤ – وأنت يا أسقف بحسب هذا المثال تمسح رأس الذين سيعتمدون، سواء رجال أو نساء بالزيت

(80) E.C. Whitaker, *op. cit.,* pp. 27-32.

المقدّس لأجل مثال المعمودية الروحية. بعد ذلك سواء أنت يا أسقف أو الكاهن الذي تحت تدبيرك تدعو باسم الآب والابن والروح القدس وتُعمّدهم في الماء، واجعل شمّاساً يستقبل الرجال و شمّاسة تستقبل النسوة، وهكذا يتم إعطاء الختم بالحشمة اللائقة به. وبعد ذلك على الأسقف أن يمسح بالميرون أولئك الذين اعتمدوا].

الفصل السابع عشر:

+ [١ – هذا العماد يُعطى لموت يسوع (رو ٦:٨)، فالماء بدل الدفن، والزيت يشير إلى الروح القدس، والختم عوض الصليب، والمسحة هي لتثبيت الاعتراف.

٢ – ويُذكر الآب بصفته معطي المعمودية، ويُذكر الروح القدس بصفته الشاهد عليها.

٣ – والنزول في الماء هو الموت مع المسيح، والخروج من الماء هو القيامة مرّة أخرى معه.

٤ – الآب هو الله فوق الجميع، والمسيح هو الله الابن الوحيد الابن المحبوب رب المجد، والروح القدس هو المعزّي الذي أرسله المسيح ويعلّمنا بواسطته، وهو الذي يشهد للمسيح].

الفصل الثامن عشر:

+ [يجب على الذي تعمّد أن يكون خالياً حرّاً من كل شر، وأن يكون إنساناً قد كفَّ عن أن يعمل خطية وصار صديقاً لله وعدواً لإبليس، وارثاً لله الآب، ووريثاً شريكاً مع ابنه (رو ١٧:٨)، إنساناً قد جحد الشيطان وكل أعوانه وغشّه – طاهراً، نقياً، قدّيساً، محبوباً من الله بل وابناً لله، ويصلّي كابن نحو أبيه قائلاً كبقية جماعة المؤمنين: أبانا الذي ... إلخ].

الكتاب السابع:

الفصل الثاني والعشرون:

+ [١ – في ما يختص بالمعمودية يا أسقف أو الكاهن قد سبق أن أعطينا توجيهاً، ونحن نقول الآن عليك أن تعمّد كما أمر الرب قائلاً: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به» (مت ١٩:٢٨و٢٠)، وذلك عن الآب الذي أرسل وعن المسيح الذي جاء وعن المعزّي الذي يشهد.

٢ – ولكن عليك أن تمسح أولاً الشخص بالزيت المقدّس، وبعده تُعمّده بالماء، وأخيراً تختمه بالميرون، حتى أن المسحة بالزيت تصير له مشاركة في الروح القدس، والماء رمزاً للموت والميرون ختماً للعهد.

٣ ــ ولكن إذا لم يكن لا زيت ولا ميرون فالماء يكون كافياً للمسحة والختم، وأخذ اعتراف الذي يشرف على الموت وهو في الحقيقة يموت مع المسيح.

٤ ــ ولكن قبل المعمودية اجعل الذي يعتمد يصوم].

الفصل التاسع والثلاثون:

+[٢ ــ واجعل الذي يتعلّم معرفة التقوى أن يتثقّف قبل معموديته، ذلك في معرفة الله غير المولود وإدراك ابنه الوحيد ويقين الروح القدس، واجعله يتعلّم نظام كل أجزاء الخليقة.

٤ ــ ليت الذي يقدّم نفسه ليعتمد، يتعلّم هذه الأمور وما يشابهها أثناء تدريسه ليعبد الله رب كل العالم ويشكره من أجل خليقته، وإرساله ابنه الوحيد المسيح ليخلّص الإنسان وليمحو تعدياته.

٥ ــ وبعد تقديم الشكر ليته يتعلّم العقائد في ما يخص تجسُّد الرب وبخصوص آلامه وقيامته من الأموات وصعوده].

الفصل الأربعون:

+[وعندما لا يتبقّى أمام الموعوظ شيء يمنعه من أن يعتمد، اجعله يتعلّم ما يخص جحد الشيطان والالتصاق بالمسيح، لأنه لائق أن يمتنع أولاً عن الأشياء المخالفة ثمَّ بعد ذلك يُسمح له بالأسرار].

الفصل الواحد والأربعون:

+[١ ــ واجعل المتقدّم للمعمودية يُعلن ما يلي في جحده للشيطان:

٢ ــ "أنا أجحد الشيطان وكل أعماله وكل قواته وخدمته، وملائكته واختراعاته وكل ما هو تحت سلطانه".

٣ ــ وبعد الجحد اجعله يقرّ التصاقه بالرب بقوله هكذا: "وأنا ألتصق بالمسيح"،

٤ ــ وأومن أني أعتمد في الواحد الوحيد فقط الله الحقيقي والقادر على كل شيء، أبي يسوع المسيح خالق وصانع كل شيء والذي منه كل شيء (١كو ٨:٦).

٥ ــ وفي الرب يسوع ابنه الوحيد بكر كل خليقة (كو ١:١٥)، المولود قبل الدهور بمسرّة أبيه الصالح، غير المخلوق، الذي به كل شيء (١كو ٨:٦) صُنع سواء في السموات أو على الأرض، ما يُرى وما لا يُرى.

٦ ــ الذي في الأيام الأخيرة نزل من السماء وتجسَّد ووُلِدَ من العذراء القديسة مريم، وسلك سلوكاً

مقدّساً بحسب قوانين الله الآب، وصُلب على عهد بيلاطس البنطي ومات من أجلنا وقام من بين الأموات في اليوم الثالث بعد أن تألّم، وصعد إلى السموات وجلس عن يمين الآب وسيأتي أيضاً في نهاية العالم بمجده ليدين الأحياء والأموات (٢تي ٤:١) الذي ليس لملكه انقضاء (لو ١:٣٣).

٧ – وأنا أعتمد في الروح القدس الذي هو المعزّي الذي عمل في كل القديسين منذ بدء العالم. ولكنه بعد ذلك أُرسل للرسل من الآب حسب وعد مخلّصنا وربنا يسوع المسيح – وبعد الرسل يعمل في كل الذين يؤمنون بالكنيسة الجامعة المقدّسة،

٨ – وبقيامة الأجساد ومغفرة الخطايا وملكوت السموات وحياة الدهر الآتي].

الفصل الثاني والأربعون:

+ [١ – وبعد هذا النذر يأتي ليُمسح بالزيت.

٢ – هذا الزيت يُبارَك بواسطة الكاهن من أجل مغفرة الخطايا وأول إعداد للمعمودية

٣ – لأنه يدعو عليه باسم الله غير المولود أبي يسوع المسيح ملك كافة الطبيعة ذات الإحساس وذات الفهم، لكي يقدّس الزيت باسم الرب يسوع المسيح (أع ٨:١٦) ويمنحه النعمة الروحانية والقوة العاملة ومغفرة الخطايا والاستعداد للاعتراف بالمعمودية، حتى أن المرشّح (أو التلميذ) عندما يُمسح يُحرَّر من كل عدم تقوى ويصبح مستحقاً للانضمام حسب أمر الابن الوحيد].

الفصل الثالث والأربعون:

+ [١ – بعد ذلك يأتي إلى الماء

٢ – يُبارك ويُعظم الرب الإله الضابط الكل أبا الابن الوحيد الإله. ويعود الكاهن ويُقدّم التشكّرات لأنه أرسل ابنه ليصير إنساناً، ذلك من أجلنا حتى يخلّصنا، لأنه سمح أن يصير طائعاً في كل شيء لكل قوانين التجسُّد، ويعظ عن ملكوت السموات، ومغفرة الخطايا، وقيامة الأموات.

٣ – وأيضاً يعبد الابن الوحيد الذي هو نفسه الله كما الآب أيضاً، ويقدّم له التشكرات لأنه تعهّد أن يموت من أجل البشر على الصليب الذي على مثاله رسم أن تكون معمودية الميلاد الثاني.

٤ – ويعظّمه أيضاً لأنه الله الذي هو سيد العالم كله في اسم المسيح وبالروح القدس لم يرذل البشر، ولكنه وفق عنايته لتناسب كل الحقبات، فأولاً أعطى لآدم الفردوس للسكنى بمسرّة، وبعدها أعطى أمراً من أجل عنايته، وطرد بالعدل الإنسان العاصي (...)

٥ – ويدعوه الكاهن في المعمودية ويقول: "انظر من السماء وقدّس هذا الماء واجعل فيه نعمة وقوة حتى

أن الذي يعتمد بحسب أمر مسيحك، يُصلب معه ويموت معه ويُدفن معه ويقوم معه للتبني الذي فيه، حتى يكون ميتاً للخطية وحيًا للبر"].

الفصل الرابع والأربعون:

+[١ ـ وبعد ذلك بعد أن يكون قد عمَّده في اسم الآب والابن والروح القدس يمسحه بمسحة (الميرون) ويقول:

٢ ـ أيها الرب الإله الذي بلا ميلاد، وبلا من هو أعلى منك، رب كل العالم، الذي نثر الرائحة العطرة التي لمعرفة الإنجيل بين كل الأمم، امنح الآن أن تكون هذه المسحة ذات فاعلية على الذي تعمَّد، حتى تكون الرائحة الزكية التي لمسيحك تدوم عليه ثابتة وملتحمة ويكون الآن قد مات معه حتى يقوم ويحيا معه.

٣ ـ ويقول هذا وما هو مثله لأن هذا هو تأثير وضع اليد على كل واحد، لأنه إن لم تكن تُصنع هذه التلاوة بواسطة قسيس تقي على كل واحد من هؤلاء المرشَّحين للمعمودية، فإنهم ينزلون فقط في الماء كما كان يصنع اليهود، وهم يطرحون فقط نجاسة الجسد وليس نجاسة النفس].

الفصل الخامس والأربعون:

+[١ ـ بعد هذا يقف ويصلِّي الصلاة التي علَّمها الرب لنا ... وليته الذي كان ميتاً مع المسيح وأُقيم معه يقف.

٢ ـ وليته يُصلِّي نحو الشرق ...

٣ ـ وليته يصلِّي هكذا بعد تتميم الصلوات السابقة ويقول: يا الله الآب الضابط الكل أبا مسيحك ابنك الوحيد، أعطني جسداً غير نجس وقلباً نقياً وعقلاً صاحياً ومعرفة بلا خطأ، وأعطني حلول الروح القدس من أجل الحصول على الحق ويقينه في مسيحك، الذي به لك المجد في الروح القدس إلى الأبد. آمين.

٤ ـ ونحن رأينا أنه من اللائق والمناسب أن نقرِّر هذه المراسيم **Constitutions** التي تخص الموعوظين].

١٤ ـ القديس باسيليوس أسقف قيصرية (سنة ٣٧٩م):

ويُدعى باسيليوس الكبير وعاش من سنة ٣٣٠-٣٧٩ وهو أحد الكبادوكيين الثلاثة الكبار، ويُؤكِّد **أن تعليم الموعوظ يلزم أن يسبق المعمودية، وأن الموعوظ يلزم أن يصمِّم على السلوك في**

حياة صالحة(٨١)، والمسيحيُّون يخلصون بالإيمان بالنعمة التي قبلوها في المعمودية باسم الثالوث(٨٢)، والإيمان والمعمودية هما الطريقان للخلاص، هما متصلان بعضهما ببعض ولا يمكن فصلهما عن بعض(٨٣). ويشدِّد على العماد بالتغطيس لأنه المثيل لموت المسيح ودفنه وقيامته، وهو ينتقد بشدَّة عادة الشرق في تأخير العماد إلى سن متقدِّمة(٨٤). وهو يقرن المعمودية بإعطاء موهبة الروح القدس وفعله(٨٥). فوجود الروح القدس وإقامته داخل النفس تبدأ حينما يقبل المعمَّد التجديد في المعمودية(٨٦).

١٥ - تيموثاوس أسقف الإسكندرية (سنة ٣٨١م):

يوجد كتابان فيهما أسئلة وأجوبة بخصوص الرعاية والليتورجية منسوبان إلى تيموثاوس أسقف الإسكندرية. وقد قام بنشرهما باللغة اليونانية العالِم Pitra:

Pitra, *Iuris Ecclesiastici Graecorum Historia et Monumenta,* Rome, 1864.

ويُحتمل أن الكتاب الثاني نُسب خطأً لتيموثاوس وأنه كُتب في القرن الخامس.

الكتاب الأول:

سؤال ٦: إن كانت امرأة موعوظة أعطت اسمها للعماد وفي يوم العماد حدث لها ما للنساء هل تعتمد في نفس اليوم؟ أو أن تؤجَّل، وإلى كم يوم؟

الإجابة: يلزم أن تؤجَّل حتى تتطهَّر.

سؤال ٣٨: إن كان طفل قد تعمَّد وصار شك في معموديته لأي سبب وصار عدم تأكُّد. هل يلزم أن يعتمد مرَّة أخرى أم لا؟

الإجابة: إن كان هناك أي أمر مثل هذا يوحي بأنه ينبغي أن يُعمَّد، فإن الذي يُعمِّده يلزم أن يقول: "إن لم تكن قد تعمَّدت أنا أُعمِّدك في اسم الآب والابن والروح القدس".

(81) *De Baptismo,* I, 1f. (P.G. 31, 1513f).
(82) *De Spiritu Sancto,* 26-28 (P.G. 32, 113-117).
(83) *Ibid.,* 28.
(84) *Hom.* XIII, *in Sanctum Baptisma,* 5f (P.G. 31, 432f).
(85) *De Spiritu Sancto,* 35, (P.G. 32, 129C).
(86) *Hom. in Ps. 28* (P.G. 30, 81B).

الكتاب الثاني:

سؤال ٤: في حالة احتمال موت قادم هل يُقبل طفل حديث الولادة كموعوظ ويُعمَّد قبل سبعة أيام؟

الإجابة: يلزم ذلك.

سؤال ٨: إن كان هناك كاهن سيُمارس وحده التعميد كيف يتبع النظام المعتاد؟ أينبغي عليه أن يتمِّم جحد الشيطان الذي للموعوظ بعد تقديس ماء المعمودية الذي للميلاد الثاني وبعدها يعطيه مسحة الزيت؟ أو أنه يلزم أن يتمِّم الجحد أولاً وبعدها يقدِّس الأُردن أي ماء الجرن؟ أو يمكن أن يُعمِّد في الحال بعد مباركة المياه ولا يخرج خارجاً للجحد؟

الإجابة: عليه أولاً أن يتمِّم الجحد وبعدها يدخل ليقدِّس الماء ويُعمِّد.

سؤال ٩: في المعمودية هل يلزم الكاهن أن يتمِّم الجحد بنفسه في حالة وجود كهنة آخرين موجودين – أو ينبغي أن يقوم به هؤلاء؟

الإجابة: إن كان هناك شمَّاس موجود فعليه أن يتمِّم الجحد. وإن كان هناك كاهنان فواحد منهما يكلِّف نفسه بالجحد والآخر يُعمِّد، كل واحد منهما يكلِّف نفسه، وذلك ليكرم الآخر.

سؤال ١٠: هل يلزم الشمَّاس أن يعد الموعوظين للجحد أم لا؟

الإجابة: بكل تأكيد لأن هذا في العادة هو عمل الشمَّاس الخاص.

سؤال ١١: هل مسموح للقارئ أو مساعد الشمَّاس أن يُقدِّم موعوظاً للمعمودية وينادي اسمه أم لا؟

الإجابة: إنه مسموح لمساعد الشمَّاس أن ينادي الأسماء في غياب الشمَّاس. وفوق ذلك إذا لم يوجد شمَّاس، حتى القارئ يمكن أن يصنع هذا بسبب الحاجة.

١٦ ــ القديس كيرلس الأُورشليمي (سنة ٣٨٦م):

عاش من سنة ٣١٥–٣٨٦م ورُسم أسقفاً سنة ٣٤٩م.

وملخَّص تعاليمه عن المعمودية هي **أن الموعوظين يتلقُّون أولاً التعاليم، ثمَّ يُعمَّدون بالغطس.** **ويشدِّد أن الآتين إلى المعمودية يلزم أن يكون غرضهم مستقيماً**(٨٧) **ولهم أمانة ورغبة لترك الخطايا وجحد الشيطان**(٨٨) **لأن هؤلاء فقط هم الذين يستضيئون بواسطة هذا السر**(٨٩). **وعمل**

(87) *Procat.,* 1.
(88) *Cat.,* 19, 2.

المعمودية هو على شقّين: غفران وتقديس: غسل النفس من الخطية وعطية الروح القدس. ويكرِّر قول بولس الرسول أن المعمودية دفن مع المسيح للموت(٩٠) (رو ٦:٣) وهي فدية للفكاك من العبودية، وغفران الخطايا، وموت الخطية وتجديد الروح، وثوب النور والبهاء والختم المقدَّس غير المنثلم(٩١). وأن الروح القدس يُعطى على قدر إيمان المعتمد(٩٢).

وأحياناً يقول ق. كيرلس إن الروح القدس يُعطى في المعمودية(٩٣)، وأحياناً يقول إن الروح القدس يُعطى مع المسحة. ومسحة الروح القدس هي التي تجعل المعمَّدين المؤمنين مسحاءَ حقًّا(٩٤) χριστοί, christs وهو الذي يخلع علينا السلاح الكامل بواسطة الروح(٩٥). وهو يفرِّق بين عطية الروح القدس في المعمودية وموهبة الروح الكاملة في المسحة.

والقديس كيرلس يلقي ضوءًا كبيراً على المعمودية كطقس جارٍ في الكنيسة في القرن الرابع وهو يصف طريقة التعميد كالآتي، من الألف إلى الياء: فالموعوظون يجتمعون في الغرفة أو الدهليز المؤدِّي إلى المعمودية ὁ προαύλιος τοῦ βαπτιστηρίου οἶκος ويلتفتون إلى الغرب بأيادي مرفوعة ويجحدون الشيطان وكل أعماله وخدمته وكبريائه - ثمَّ يلتفتون إلى الشرق ويقولون: أومن بالآب والابن والروح القدس، وبمعمودية واحدة للتوبة(٩٦). ثمَّ يدخلون إلى غرفة داخلية = بيت خلع الملابس، فيخلعون ملابسهم ويُدهنون بزيت إخراج الشياطين وبعدها ينزلون واحداً فواحداً إلى "البركة المقدَّسة التي للمعمودية الإلهية" τὴν ἁγίαν τοῦ θείου βαπτίσματος κολυμβήθραν حيث بعد الاعتراف مرَّة أخرى بإيمانهم يغطسون ثلاث مرَّات في الماء المبارك في المعمودية رمزاً لثلاثة أيام دفن المسيح(٩٧). بعدها يأخذون المسحة التي بعد المعمودية، وبعد أن يلبسوا ملابس بيضاء يُقاد المولودون جديداً حاملين شموعاً مضاءة من

(89) *Procat.*, 2.
(90) *Cat.*, 20, 6.
(91) *Procat.*, 16.
(92) *Cat.*, 1.5.
(93) *Cat.*, 21.1.
(94) *Ibid.*
(95) *Cat.*, 21, 4.
(96) *Cat.*, 19.
(97) *Cat.*, 20.4.

المعمودية إلى الكنيسة حيث تتم زفّتهم بنشيد المزامير(٩٨)، ويتناولون لأول مرّة سر الشركة(٩٩) (جسد المسيح ودمه).

وفي سنة ٣٥٠م قدَّم ق. كيرلس الأُورشليمي عظات في موسم الصوم الكبير للموعوظين، ثمَّ في موسم القيامة (الخمسين المقدَّسة) للذين قد اعتمدوا في يوم السبت المقدَّس، وهذه العظات لا تزال موجودة إلى اليوم(١٠٠).

تعاليم للذين اعتمدوا حديثاً:

+ [نقدِّم تعاليم في الأسرار يوماً بيوم، وهذه التعاليم الجديدة التي هي إعلانات لحقائق جديدة هي نافعة لنا وبالأكثر لكم أنتم الذين تجدَّدتم من العتق إلى الجدة. لهذا فمن الضروري أن أضع أمامكم ملخَّص محاضرة أمس لكي تتعلَّموا ما هذه الأمور التي عُملت لكم في الغرفة الداخلية وما الحقائق التي ترمز لها].

+ [لأنه بمجرَّد أن دخلتم داخلاً وخلعتم ملابسكم، كان ذلك صورة لخلع الإنسان العتيق بأعماله (كو ٣:٩). وإذ نزعتم ملابسكم صرتم عرايا، وفي هذا أيضاً تتمثَّلون بالمسيح الذي عُلِّق على الصليب عرياناً، وبعريه قهر الرئاسات والقوات وانتصر علناً عليهم (كو ٢:١٥) ...].

+ [وبعد أن نزعتم أو خلعتم (ملابسكم) مُسحتم بزيت إخراج الأرواح النجسة من هامة شعور رأسكم حتى أقدامكم، وصرتم شركاء الزيتونة الجديدة يسوع المسيح ...].

+ [بعد ذلك قادوكم إلى البركة المقدَّسة التي للمعمودية الإلهية كما حُمل المسيح من الصليب حتى القبر الذي هو أمامكم (نحن في أُورشليم)، وسُئل كل واحد منكم إن كان يؤمن باسم الآب والابن والروح القدس. وأنتم قدَّمتم اعترافكم المقدَّس للخلاص، وغطستم في الماء ثلاث مرَّات وصعدتم منه، وهذا يمثِّل ثلاثة أيام المسيح في القبر. وكما أمضى المسيح ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ في بطن الأرض هكذا أنتم تمثِّلون بخروجكم الأول من الماء اليوم الأول للمسيح في القبر وبنزولكم في الماء الليلة الأُولى ــ فكما أن الذي في الليل لا يرى، هكذا أنتم في نزولكم في الماء وأمَّا الخروج منه فيمثِّل النهار].

+ [وأنتم في هذه اللحظة كنتم تموتون وتولدون جديداً وماء الخلاص صار لكم قبراً وأُمًّا. وكما قال سليمان: «يوجد وقت للولادة ووقت للموت» (جا ٣:٢)، ولكن الأمر معكم بالعكس فكان لكم وقت

(98) *Procat.*, 15. Cf. Gregorg Naz., *Orat* XL, 46.
(99) *Cat.*, 21-22,
(100) St. Cyril of Jerusalem, *Catechetical Lectures,* NPNF, 2nd ser., vol. VII.

الموت هو وقت الميلاد، وفي وقت واحد تحقّق لكم هذان الحدثان. فميلادكم (الجديد) كان ملازماً لموتكم.[(١٠١)

ويؤكّد القديس كيرلس أن الموت في المعمودية هو شركة في موت المسيح وقيامته بالمثل، فهنا أكثر من مغفرة خطايا وتبنّي:

+ [مدهش وغير مصدّق! فنحن لم نمت واقعياً ولا نحن دفنا واقعياً ولا نحن صُلبنا وقمنا، ولكن اقتداءنا بموت المسيح كان فقط بالشكل في حين أن خلاصنا صار حقيقة واقعة. لأن المسيح صُلب حقاً ودُفن حقاً وحقاً قام ثانية. وهذه كلها وهبها لنا مجّاناً حتى بالشكل والمثل نشترك في آلامه فنحصل على الخلاص في الحقيقة. يا للمحبة الفائقة الحانية! فالمسيح قبل المسامير في يديه وقدميه المقدّستين واحتمل الآلام المميتة بينما أنا وبدون الآلام أو أي مشقة أحصل على شركة آلامه، فينعم عليّ مجّاناً بالخلاص!].

+ [فلا يظن أحد بعد ذلك أن المعمودية هي مجرّد نعمة لمغفرة الخطايا أو حتى للتبني كما كانت معمودية يوحنا المعمدان لمغفرة الخطايا. أبداً، فنحن الآن نعرف جيداً أن المعمودية كما هي تغسل خطايانا وتهبنا الروح القدس فهي أيضاً المقابل لآلام المسيح. ولهذا يصرخ ق. بولس عالياً: «أم تجهلون أننا كل مَنْ اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته، فدفنّا معه بالمعمودية للموت» (رو٦: ٣و٤)].

هذه الكلمات قالها للذين كانوا يظنون أن المعمودية لمغفرة الخطية والتبني فقط وليست شركة حقيقية في آلام المسيح.

+ [فلكي نعرف أن كل ما احتمله المسيح احتمله "من أجلنا ومن أجل خلاصنا" وفي الحقيقة وليس في الشكل، وأننا صرنا مشتركين في آلامه، لذلك يصرخ القديس بولس بمنتهى الحق: «إن كنّا قد صرنا متحدين معه بشبه موته نصير أيضاً بقيامته» (رو ٦: ٥). حقاً قال: "متحدين معه"(١٠٢) لأنه إذا كانت الكرمة الحقيقية قد زُرعت في هذا المكان فنحن أيضاً بشركتنا في موته نكون قد زُرعنا معه. ثبّتوا عقولكم في كلام الرسول لأنه يقول: متنا معه "بشبه موته" لأن موت المسيح صار حقيقة لأن نفسه فارقت جسده، وصار دفنه حقيقة لأن جسده قد لُفّ في كتّان نقي، ولكن في ما يخص ما عُمل لكم في ماء

(101) *Cat,* 20, 1 - 4, (= *Cat. Myst.*, 2,1 - 4); NPNF, 2nd ser. vol. VII, pp. 147,148.

(١٠٢) عبارة: "متحدين معه" في اللغة اليونانية: "σύμφυτοι" تعني في أصلها اللغوي: "مزروعين معه" أو "نبتنا معه كزرع واحد جديد". وعلى هذه المعنى يبني القديس كيرلس شرحه لهذه الآية.

المعمودية هو مجرَّد شبه الموت والآلام. ولكن الخلاص ليس شبهاً بل حقيقة.[(١٠٣)

- وفي العظة التي ألقاها كمقدِّمة لعظاته عن المعمودية Procatechesis: يدعو القديس كيرلس المعمودية "الختم الذي لا يُمحى ولا يزول". ويذكر مؤثِّراتها: "فكاك المأسورين"، "غفران كل السيئات"، "إماتة الخطية"، و"ميلاد جديد للنفس"(١٠٤) وهو مقتنع تماماً أنه لا يمكن أن يخلص أي إنسان إلاَّ بالمعمودية أو الاستشهاد:

+ [إذا لم يستلم الإنسان المعمودية فليس له خلاص، إلاَّ الشهداء فقط الذين يدخلون الملكوت دون أن يدخلوا جرن المعمودية، لأن المخلِّص عندما فدى العالم بواسطة صليبه قد خرج من جنبه المطعون دم وماء (يو ١٩:٣٤)، ليوضِّح أن في أيام السلام تلزم المعمودية للناس بالماء وفي أيام الاضطهاد فبدمهم. لأن المخلِّص تكلَّم عن الاستشهاد باعتباره معمودية عندما قال: «أتستطيعان أن تشربا الكأس التي أشربها أنا وأن تعتمدا بالمعمودية التي أعتمد بها أنا» (مر ١٠:٣٨). وأيضاً فإن الشهداء يقدِّمون اعترافهم بالإيمان عندما صاروا منظراً للعالم والملائكة والناس (١كو ٤:٩).[(١٠٥)

- وكان القديس كيرلس يدعو الصلاة التي تُقال على زيت المعمودية بنفس اصطلاح الاستدعاء ἐπίκλησις الذي يُقال على الخبز والخمر، لكي يوضِّح تأثير وقوة الدعاء بالاسم:

+ [لا تظنوا أن هذا هو مجرَّد دهن عادٍ، فكما أن خبز الإفخارستيا بعد استدعاء الروح القدس لم يعد بعد خبزاً ساذجاً بل جسداً للمسيح، هكذا أيضاً الدهن المقدَّس لم يعد مجرَّد دهن ساذج بل صارت فيه عطية المسيح، وبحلول الروح القدس صار قادراً أن يمنح شركة الطبيعة الإلهية.[(١٠٦)

- كما يذكر القديس كيرلس أن ماء المعمودية هو "الماء الحامل المسيح."(١٠٧)

- كما يذكر أن المسيح قد وهب المياه عطر لاهوته لمَّا اعتمد في الأُردن(١٠٨).

- ويبدأ القديس كيرلس عظته الثالثة عن الأسرار بقراءة (١يو ٢: ٢٠-٢٨) ليشرح المسحة المقدَّسة ثمَّ يقول:

---

(103) *Cat.*, 20, 5 - 7, (= *Cat. Myst.*, 2, 5 - 7); NPNF, p. 148.
(104) *Procatechesis*, 16.
(105) *Cat.*, 3,10.
(106) *Cat.*, 21,3 (= *Cat. Myst.*, 3.3).
(107) *Procat.*, 15.
(108) *Cat.*, 21,1. (= *Cat. Myst.*, 3,1).

+ [وإذ اعتمدتم في المسيح ولبستم المسيح (غل ٣:٢٧) فقد صرتم مطابقين لابن الله، لأن الله قد سبق فعيَّننا كمختارين وأبناء (أف ١:٣و٤)، لنكون مشابهين جسد مجده (في ٣:٢١)، وإذ قد صرتم شركاء المسيح (عب ٣:١٤) تُسمّون مسحاء وعنكم قال الله لا تمسُّوا مسحائي، أي الممسوحين (مز ١٠٥:١٥). والآن وقد صرتم مسحاء عندما استلمتم علامة الروح القدس وكل الأشياء عُملت عليكم كمثال لأنكم صرتم على صورة المسيح، ذلك الذي اغتسل في نهر الأُردن (أي تعمَّد)، وأفاض رائحة لاهوته الذكية للمياه التي صعد منها أيضاً، والروح القدس استقر عليه بهيئة جسمية كما يستقر المثيل على المثيل. وأنتم أيضاً بعدما صعدتم من المياه المقدَّسة في البركة أُعطيتم مسحة على مثال مسحة المسيح.](١٠٩)

+ [ومُسحتم أولاً على الجبهة وبعدها آذانكم وأنوفكم وعلى صدوركم.](١١٠)

+ [وعندما حُسبتم أهلاً لهذه المسحة المقدَّسة سُميتم مسيحيين محقّقين الاسم بميلادكم الجديد. لأنه قبل أن تنالوا هذه النعمة لم يكن من حقكم أن تُدعوا بهذا الاسم، ولكن كنتم فقط متقدِّمين في طريقكم لأن تكونوا مسيحيين.](١١١)

+ [برغم أن مغفرة الخطايا تُعطى بالتساوي للجميع، إلاّ أن الاشتراك في الروح القدس يُمنح على قدر الإيمان لكل واحد. فإذا كان سعيك قليلاً أخذت قليلاً وإذا كنت تعبت كثيراً كان جزاؤك عظيماً.](١١٢)

+ [فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما (عب ٢:١٤)، حتى إذا صرنا شركاء معه في الجسد نصير شركاء معه أيضاً في نعمة لاهوته. لهذا اعتمد المسيح حتى إذا اشتركنا في معموديته ننال الخلاص والكرامة.](١١٣)

+ [والآن أيها الإخوة الأحباء، كلمة التعليم تدعوكم جميعاً لتعدّوا ذواتكم لاستقبال المواهب السمائية ... والآن قد قرب يوم الفصح المقدَّس، وأنتم أيها الأحباء في المسيح مزمعون أن تتقدَّموا للاستنارة بواسطة «غسل الميلاد الثاني» (تي ٣:٥). فما أعظم مشاعر التقوى التي بها ينبغي أن تتقدَّموا حينما نُنادي عليكم

(109) *Ibid.*
(110) *Cat.*, 21, 4. (= *Cat. Myst.* 3,4).
(111) *Ibid., 5.*
(112) *Cat.*, 1,5.
(113) *Cat.*, 3,11.

... ثمَّ بكَمْ من الخشوع يجب أن تنتقلوا من المعمودية إلى مذبح الله المقدَّس لتنعموا بالأسرار الروحية السمائية، حتى أن نفوسكم التي سبقت فاستضاءت بكلمة التعليم تستطيع أن تستعلن في كل من هذه الأسرار عظمة المواهب التي أنعم بها الله عليكم.[(١١٤)

+ [وسوف تُعلَّمون بعد ذلك كيف اغتسلتم من خطاياكم بالرب «بغسل الماء بالكلمة» (أف ٥:٢٦)، وكيف صرتم بشبه الكهنة شركاء في اسم المسيح، وكيف مُنحتم ختم شركة الروح القدس.[(١١٥)

ـ ويعلِّق القديس كيرلس على التعليم السرِّي الذي يُعطى للذين اعتمدوا بقوله:

+ [أن نسمع الإنجيل فهذا حق للجميع، ولكن مجد الإنجيل محجوز لأولاد المسيح. لهذا كان الرب يتكلَّم بالأمثال لمن لا قدرة لهم على السماع. أمَّا التلاميذ فكان يعرِّفهم بتفسير الأمثال لأن بهاء المجد هو للذين استناروا، أمَّا العمى فهو للذين لا يؤمنون.[(١١٦)

+ [وإذ كنت أعلم تماماً أن الرؤية مقنعة أكثر من السمع، لذلك انتظرت حتى جاء الميعاد (اعتمدوا بالفعل) إذ أجدكم الآن أكثر انفتاحاً لقبول كلماتي بسبب خبرتكم الحاضرة ... إذ تأهَّلتم لاستقبال الأسرار المقدَّسة بعد ما حُسبتم أهلاً لقبول المعمودية الإلهية المحيية، ويبقى الآن أن أُقدِّم لكم مائدة من تعاليم أكثر استكمالاً فأعرِّفكم عن هذه الأمور بدقة حتى تدركوا أثر كل ما عُمل لكم في الليلة التي اعتمدتم فيها.[(١١٧)

+ [وإذ قد صرتم الآن «شركاء المسيح» (عب ٣:١٤) فأنتم تُدعون حقاً مسحاء χριστοί أي مسيحيين وذلك بقبولكم شكل المسيح بواسطة الروح القدس.[(١١٨)

ـ وكانوا يجعلون في أيدي المعمَّدين شعلات مضيئة رمز الاستنارة وكانت تسمَّى مصابيح استقبال العريس(١١٩) λαμπάδες νυμφαγωγίας باعتبار أن المعمَّد صارت نفسه عذراء حقيقية للمسيح، وهي الآن مع الخمس عذارى الحكيمات ومعهن الزيت بانتظار العريس.

---

(114) *Cat.*, 18,32.
(115) *Cat.*, 18,33.
(116) *Cat.*, 6,29.
(117) *Cat.*, 19,1.
(118) *Cat.*, 21,1.
(119) *Procat.*, 1; cf. NPNF, 2nd ser., vol. VII, p. xvi, n. 10.

ولا تزال هذه العادة كنوافل تافهة في الكنيسة إذ يخرج المؤمنون وفي أيديهم شموع مضاءة في ليلة القيامة ولكن ضاع المعنى والقصد.

ـ ويدعو القديس كيرلس الأُورشليمي ختم زيت الميرون: الختم الملكي الموضوع على جباه جند المسيح(١٢٠) وختم شركة الروح القدس(١٢١).

١٧ ـ القديس غريغوريوس النزينزي (سنة ٣٨٩م):

لاهوتي. أحد آباء كبادوكية. عاش من سنة ٣٢٩-٣٨٩م، درس في أثينا مع القديس باسيليوس، تعيَّن أسقفاً على القسطنطينية سنة ٣٨١م ثمَّ عاد إلى نزينزا ثمَّ إلى القرية التي نشأ فيها ومات هناك. وقد تتلمذ على يديه القديس جيروم وذلك باعتراف جيروم نفسه. ومن ضمن كتاباته الفيلوكاليا وهي مقتطفات من أقوال أوريجانوس قد جمعها مع القديس باسيليوس.

وهو ينصح بتعميد الأطفال الصغار في وقت الخطر، وفي الأوقات العادية تؤجَّل معموديتهم إلى أن يعرفوا أن ينطقوا ويردُّون على الأسئلة:

+ [هل نعمِّد الأطفال أيضاً؟ بكل تأكيد إذا كان هناك خطر يُهدِّد، لأن خير لهم أن يتقدَّسوا وهم لا يريدون من أن ينتقلوا من هذه الحياة بلا ختم ولا تكريس. فإن كان ختان الطفل يتم بعد ثمانية أيام الذي هو بنوع ما مثال للختم، هكذا المعمودية وقت الخطر، وإلاَّ فمن رأيي أن تؤجَّل حتى بلوغ الأطفال سن الثالثة أو أكثر أو أقل حتى يتسنَّى لهم السماع والإجابة عن السرائر. وهم وإن كانوا لا يفهمون فهماً كاملاً ولكنهم يستوعبون الحقائق البدائية.](١٢٢)

والمعمودية هي الاستنارة، وتغيير الحياة، والحافظة للإيمان، وتكميل العقل(١٢٣). ويقارن المعمودية بدم خروف الفصح، ويقول إن عمل المعمودية هو المثيل لختم الأبواب بدم خروف الفصح، فهو يختم المعمَّدين كمختارين لله ووارثين للحياة الأخرى. والطفل المعمَّد يقبل الختم فقط أمَّا اليافع فيُشفى من خطاياه كأفضل ختم σφραγὶς ἀρίστη(١٢٤) لأنه إعطاء نعمة واستعادة صورة الله

(120) *Cat.*, 12,8.

(121) *Cat.*, 18,33.

(122) *Orat.,X L, In Sanctum Baptisma,* 28 (P.G. 36, 400).

(123) *Ibid.*, 3 (P.G. 36, 361).

(124) *Carmina, i (poemata theologica),* Sect. 1, 9 *(de Testamentis et adventu Christi),* Lines 91-92 (P.G. 37, 464).

التي فقدها آدم بالخطية، كما أنها تعطي التطهير κάθαρσιν من أي خطية(١٢٥).

والقديس غريغوريوس يضع فاصلاً مميِّزاً بين **معمودية الكبار ومعمودية الصغار، حيث الكبار ينالون التكريس وغفران الخطايا، أمَّا الأطفال فينالون التكريس فقط**(١٢٦).

١٨ ـ العلاَّمة ديديموس الضرير (سنة ٣٩٠م):

وُلِدَ سنة ٣١٣م وهو معاصر للقديس أثناسيوس وهو الذي عيَّنه رئيساً على مدرسة الإسكندرية Catechetical School وهي أصلاً مدرسة لتعليم الموعوظين وقد قفلت أبوابها بعد نياحته. ومن تلاميذه القديس جيروم (٣٤٧-٤١٩م)، وروفينوس (٣٤٥-٤١٠م)، وغريغوريوس النزينزي (٣٢٩-٣٨٩م). وقد كتب الشيء الكثير على الإنجيل وعلى الأمور اللاهوتية التي كانت تخص أيامه. وهو يُعتبر حلقة الوصل بين تعاليم القديس أثناسيوس وتعاليم الكبادوكيين ثمَّ تعاليم القديس كيرلس الإسكندري.

وهو أول مَنْ وضع اصطلاح الثالوث [**طبيعة واحدة وثلاثة أقانيم**].

μία οὐσία, τρεῖς ὑποστάσεις

وهو أيضاً أول مَنْ قال إن [**الروح القدس مساوٍ في الجوهر للآب والابن**].

وأول مَنْ أكَّد أن [**الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية اتحدتا بغير تغيير ولا امتزاج.**](١٢٧)

وبينما هو يحاضر على الروح القدس تكلَّم عن المعمودية. فهو يرى **أن جرن المعمودية هو من ناحية "معمل الثالوث"، حيث يسترجع الثالوث صورة الله في الإنسان**. ومن ناحية أخرى يعتبره [**رحم الكنيسة التي بينما تبقى عذراء تلد أولاداً جدداً لحياة جديدة.**](١٢٨)

ويُعتبر أول الناطقين باليونانية يتكلَّم عن **جرن المعمودية أنه الأُم العذراء دائمة البتولية للمعمَّدين. وهذا الجرن يُخصَّب بواسطة الروح القدس.**

---

(125) *Orat.*, XI, 6,7 (P.G. 36, 365-368).

(126) N.P. Williams, *The Ideas of the Fall and of Original Sin*, 1929, p. 290, cited by A. Gilmore, *op. cit.*, p. 210.

(127) T.M. Finn, *Early Christian Baptism and the Catechumenate*, pp. 216, 217.

(128) *De Trinitate*, 2,13.

+ [الروح القدس باعتباره أنه الله، يجدّدنا في المعمودية ويوحِّدنا بالآب والابن، ويعيدنا مرّة أخرى من حالة التشوُّه إلى جمالنا الأصلي، ويملأنا بالنعمة حتى لا نعطي مكاناً في ما بعد داخل قلبنا لأي شيء غير لائق، ويحرِّرنا من الخطية والموت و كل أمور الأرض، ويجعلنا أُناساً روحانيين شركاء المجد الإلهي وأولاداً وورثة لله الآب، ويغيِّرنا لنكون على صورة ابن الله وشركاء ميراث له وإخوة له، ويمجِّدنا ويجعلنا نملك معه، ويستبدل لنا الأرض بالسماء، ويمنحنا الفردوس بسخاء ويجعلنا مكرَّمين أكثر من الملائكة، وفي المياه المقدَّسة الإلهية التي لِبركة المعمودية يطفئ نار جهنم التي لا تُطفأ.](١٢٩)

+ [لأننا حينما نُغمر في بِركة المعمودية فنحن نُنتزع من خطايانا بصلاح الله الآب وبنعمة روحه القدوس، كما أننا نخلع الإنسان العتيق، فنُخلق جديداً regenerated ونُختم sealed بختمه الملكي الخاص. وعندما نخرج من البِركة نلبس المسيح مخلِّصنا كثوب عديم الفساد، لائق لنفس كرامة الروح القدس الذي أعاد خلقتنا وختمنا بخاتمه: «لأن كلكم - كما يقول الكتاب المقدَّس - الذين اعتمدتم في المسيح قد لبستم المسيح» (غل ٣:٢٧). لأننا في القديم بالنفخة المقدَّسة الإلهية تقبَّلنا صورة الله ومشابهته التي يتكلَّم عنها الكتاب، ثمَّ بسبب الخطية فقدناها، ولكن الآن وُجدنا من جديد كما خُلقنا: بلا خطية وأحراراً في أنفسنا.](١٣٠)

ويقول العلاَّمة ديديموس إن **المعمودية لازمة لزوماً كلياً لخلاصنا، ولا يستطيع أحد أن يستغني عنها حتى ولو بلغ إلى سيرة بلا خطية:**

+ [لا يستطيع أحد ما لم يتجدَّد بروح الله القدوس ويُختم بخاتم قداسته أن يحصل على المواهب السمائية، حتى ولو بلغ الكمال في سائر الأمور وإلى حياة بلا خطية.](١٣١)

- والاستثناء الوحيد من المعمودية هو الشهادة بسفك الدم لأنها هي أيضاً من فعل الروح القدس:

+ [الذين يعانون الاستشهاد قبل أن يتعمَّدوا يكونون قد اغتسلوا بدمائهم وقبلوا الحياة بفعل روح الله القدوس.](١٣٢)

- وهو يلخِّص آثار المعمودية المقدَّسة في الإنسان كالآتي:

---

(129) *Ibid.*, 2,12.
(130) *Ibid.*
(131) *De Trinitate*, 2,12.
(132) *Ibid.*

+ [إننا نتجدّد في المعمودية، ونستمتع بالألفة مع الله بقدر ما تسمح بـه قوانا الطبيعية. كما قال أحدهم: بقدر ما يمكن للإنسان المائت أن يصير شبيهاً بالله](١٣٣)

١٩ ـ القديس غريغوريوس النيسي (سنة ٣٩٥م):

عاش من سنة ٣٣٠-٣٩٥م ورُسم أسقفاً على نيسا سنة ٣٧١م، وهو أحد الآباء الكبادوك وهو الصديق اللصيق بالنزينزي، لاهوتي فيلسوف. وهو الأخ الأصغر للقديس باسيليوس أسقف قيصرية.

وهو يعتبر أن التقدُّم الروحي كله للمسيحي هو أن يتمِّم الـذي قَبِلَـهُ في المعمودية الـتي قبـل فيها الروح القدس، الذي يؤمِّن للمسيحي الاشتراك في حياة لا تخضع بعد للموت. وهو مثل ق. كيرلس الأُورشليمي ينتقـل بـين أن الـروح القـدس يُعطَى في المعمودية وأن الـروح يُعطَـى في المسحة. فمرَّة يؤكِّد هذا(١٣٤) ومرَّة يؤكِّد ذلك(١٣٥). كذلك وهو يشدِّد على الدور الذي يقـوم به المؤمن في عملية تجديده، بقبوله ذلك عن حرية واختيار(١٣٦)، وينكر أن المعمَّـد يتجـدَّد إلاَّ إذا تبع العماد بالماء تغيير واضح في الأخلاق والسلوك(١٣٧)، وهو لا يعتبر أن الطفـل الصغـير الـذي يموت بدون معمودية يكون معرَّضاً لغضب الله أو يكون مثقَّلاً بـوزر أي خطيـة(١٣٨). ويُعلِّـم أن نفس الطفل التي لم تبلغ عمر نضوج العقل تقبل البَرَكَة على قدر ما تكون قادرة على قبولها.

٢٠ ـ القديس أمبروسيوس (سنة ٣٩٧م):

عاش من سنة ٣٣٩-٣٩٧م. أسقف ميلانو وقد كان محامياً وحاكماً لولايـة Aemilia-Liguria وكان موعوظاً وتعمَّد ورُسم أسقفاً على ميلانو في نفس الوقت.

وكان هو صاحب الفضل في تحويـل القديـس أوغسـطينوس إلى المسـيحية وتعميـده سـنة ٣٨٦م وكان يحترمه جدًّا. وقد حارب الوثنية والأريوسية، واحتفظ بحرية الكنيسة ضد القـوى المدنيـة. وتكبَّد في دفاعه عن الإيمان متاعب كثيرة وقد ألَّف كُتباً عديدة ومن ضمنها كتاباً عن الأسـرار De Sacramentis قد أعطاه الشهرة حتى اليوم.

(133) *Ibid.*
(134) *Vita Moys.* (P.G. 44, 361D), cited by A. Gilmore, *op. cit.*, p. 211.
(135) *Maced.*, 16. (P.G. 45, 1321A).
(136) *Oratio Catechetica*, 39. (P.G. 45,100).
(137) *Ibid.*, 40. (P.G. 45,101).
(138) *De infantibus.* (P.G. 46, 161-192).

والقديس أمبروسيوس مع القديس أوغسطينوس مع القديس جيروم والقديس غريغوريوس الكبير هؤلاء الأربعة هم دكاترة الكنيسة اللاتينية.

والقديس أمبروسيوس يعطينا صورة للعماد في ميلانو في النصف الثاني من القرن الرابع(١٣٩). فالموعوظون كانوا على درجتين: الدرجة الأولى: مستمعون. والثانية: مختارون(١٤٠) وهؤلاء هم الذين قدَّموا أسماءهم للأسقف كتلاميذ معمودية(١٤١) في بداية موسم الصوم الأربعيني. والعماد العام كان يُجرى في العادة بالليل بين مساء العيد (عيد القيامة) ويوم العيد(١٤٢). وكان الموعوظون يسلّمون أنفسهم طول الصوم لتدريبات كثيرة استعداداً للطقس المقدَّس(١٤٣) بصيام شديد والامتناع عن العلاقات الزوجية(١٤٤). وكانوا يقيمون في جميع أيام الأسبوع - ما عدا السبت - في الساعة الثالثة ثمَّ في التاسعة اجتماعات وخدمات خاصة بالموعوظين عبارة عن دروس، مزامير، عظات، يتلقّون فيها التعليمات بخصوص الأخلاق المسيحية والعناصر الأساسية للإيمان المسيحي(١٤٥).

والاحتفال بالمعمودية كان يقام مساء عيد القيامة، ويبدأ بطقس يُسمَّى (إفثّا) أي سر الانفتاح الذي فيه يلمس الأسقف أنف وأُذن كل موعوظ رمزاً لانفتاح الحواس لاستقبال السرائر(١٤٦). وبعدها يخلع الموعوظ ملابسه عارياً(١٤٧). واستجابةً لأسئلة الأسقف يجحد الموعوظ الشيطان وكل أعماله وبعدها العالم وكل مسرّاته(١٤٨). وبعدها يقدِّس الأسقف الماء ويرشمه بعلامة الصليب(١٤٩).

(139) Cf. F. H. Dudden, *Saint Ambrose, His Life and Times,* I, 336ff, cited by A. Gilmore, *op. cit.,* p. 212.

(140) *De Elia,* 34.

(141) *De Abraham,* I, 23.

(142) *De Elia,* 34.

(143) Cf, C.H. Dudden, *op. cit.,* I, 336.

(144) *De Elia,* 79, 81.

(145) *De Myst.* 1.

(146) *Ibid.,* 3,4.

(147) *In Ps. Lxi Enarr.,* 32.

(148) *De Myst.* 5,8.

(149) *Ibid.,* 8,14,20.

بعدها ينزل المعمَّد في جرن المعمودية ويُسأل هل تؤمن بالله الآب القادر على كل شيء؟ هل تؤمن بربنا يسوع المسيح والصليب؟ هل تؤمن بالروح القدس[١٥٠]؟ ولكل سؤال يجيب أومن ووجهه ناحية الشرق[١٥١]. وبعد كل إجابة يُغطَّس في الماء. بعدها يُساعد على الخروج من جرن المعمودية ويجفّف نفسه بقماش كتان. ويُقاد إلى الأسقف الذي يمسح رأسه بالمسحة. وهكذا يُقدِّسه إلى الكهنوت الموعود به كل مسيحي[١٥٢].

بعدها يأتي غسل الأرجل، فالأسقف يغسل بنفسه أرجل قليل من المعمَّدين الجدد، والباقون يغسل أرجلهم الكهنة، وفي أثناء ذلك يُقرأ إنجيل غسل الأرجل (يو ١٣)[١٥٣].

وبعد ذلك يلبس المعمَّدون الجدد ملابسهم البيضاء والتي يظلُّون لابسين لها كل أيام العيد لمدة أسبوع[١٥٤]. ثمَّ يُقدَّمون للأسقف لقبول الختم الروحي الذي بعلامة الصليب[١٥٥]. الذي يعني بحسب القديس أمبروسيوس التثبيت على شبه المسيح في موته وقيامته، الأمر الذي يعمل ويؤثِّر فيهم فعلاً بواسطة الروح القدس[١٥٦]، الذي يجدِّد ويقدِّس ويختم النفس لاستعادة صورة الله[١٥٧]!

وفعل المعمودية هو مغفرة الخطايا والآثام والذنوب[١٥٨] والتجديد بواسطة الروح القدس[١٥٩]. والقديس أمبروسيوس يحبِّذ عماد الأطفال[١٦٠] لرفع أثر الخطية الأصلية والذنب[١٦١]، ويشدِّد على ضرورة المعمودية معلناً أنه إن لم يُعمَّد الإنسان باسم الآب والابن والروح القدس فلا يمكن أن يقبل غفران خطاياه ولا يستقي الروح القدس ولا هبة النعمة

(150) *Ibid.*, 21,28.
(151) *Ibid.*, 7.
(152) *Ibid.*, 30.
(153) *De Myst.*, 31-33.
(154) *Ibid.*, 34.
(155) *Ibid.*, 42.
(156) *De Sacramentis*, VI, 7, The Fathers of the Church, vol. 44, p. 320.
(157) *De Spir.*, 1.6; 3.10 (P.L. 16, 722f, 791f).
(158) *De Poenitentia*, 1.36.
(159) *De Spir.*, 1.80.
(160) *De Abraham*, ii, 81, 84.
(161) *Cf. In Ps. xxxvi Enarr.*, 63; *Expos. Ev. Luc.* I, 37.

الروحية(١٦٢)، ويشدِّد أنه لا يمكن دخول ملكوت الله إلاّ من خلال المعمودية، وحتى الأطفال كذلك(١٦٣)! يُستثنى من ذلك الشهداء الذين يعتمدون بالدم(١٦٤).

٢١ - الحاجة إثيريا من أسبانيا (سنة ٤٠٠م):

كتبت الحاجة إثيريا تقريراً في حجِّها للديار المقدَّسة سنة ٤٠٠م. وهذا التقرير يشمل ما سجَّلته عن إجراءات **إعداد الموعوظين للمعمودية في أورشليم.**

وقد نُشر تقرير الحاجة إيثريا بالإنجليزية سنة ١٩١٩م، ونقدِّم منه ههنا الصفحات الخاصة بالمعمودية(١٦٥).

فقد شاهدت في رحلتها إلى الديار المقدَّسة كيف يُعمَّد الموعوظون فكتبت تقول:

+ [والآن عليَّ أن أكتب كيف كانوا يعلِّمون (الموعوظين) الذين كانوا يُعمَّدون في عيد القيامة، فالذي كان يعطي اسمه ليُسجَّل وسط المعمَّدين كان عليه أن يقدِّمه قبل الصوم المقدَّس، والكاهن يكتب الأسماء كلها. بمعنى أن ذلك يكون قبل الثمانية أسابيع التي قُلتُ عنها إنها تُحفظ هنا.

وفي اليوم الثاني بعد أحد الرفاع أي في اليوم الذي تبدأ فيه الثمانية أسابيع، كان يُقام كرسي للأسقف وسط الكنيسة الكبيرة أي في الموضع المدعو بالشهادة **Martyrium** والكهنة يجلسون على كراسي على الجانبين بجواره. ثمَّ يُحضرون المستعدين واحداً واحداً ويأتون مع آبائهم إن كانوا ذكوراً، فإذا كُنَّ إناثاً فمع أمهاتهن. فيبدأ الأسقف سؤال الذين مع كل واحد: هل هذا الشخص يعيش عيشة صالحة؟ هل هو مطيع لأبويه؟ هل هو سكِّير أو يمارس الغش؟ ويسأل أيضاً عن علاقته بالشرور الكثيرة التي هي خطية بالنسبة للرجل.

فإذا ثبت بشهود أنه بلا لوم في كل هذه الأمور التي سأل الأسقف عنها، يكتب اسمه بيده. أمَّا إذا ثبت عكس ذلك فيقول: دعوه يراجع نفسه وبعدها فليأتِ للمعمودية. وكما يسأل عن الرجال يسأل عن النساء. أمَّا إذا كان الموعوظ غريباً فلا يأتي بسهولة إلى المعمودية إلاَّ إذا كان له شهادة من الذين يعرفونه].

(162) *De Myst.*, 20.

(163) *De Abraham*, ii, 11 (P.L. 14, 497).

(164) *De Obitu Val.*, 53.

(165) *The Pilgrimage of Etheria*, ed. M.L. McClure and C.L. Feltoe, S.P.C.K., 1919, pp. 79, 90-94; reproduced in E.C. Whitaker, *op. cit.*, pp. 33-36.

الإعداد للمعمودية: تعليم الموعوظين:

+ [وهذا أيضاً ينبغي أن أكتب فيه أيها الأخوات المكرَّمات، لئلاَّ تفتكرون أن هذه الأشياء تُعمل بلا سبب صالح:

فالعادة هنا أن الذين يأتون ليستعدوا للمعمودية أثناء هذه الأربعين يوماً التي تخصَّص للصوم، فهم أولاً يُجرى عليهم إخراج الأرواح الشريرة بواسطة الكهنة مبكِّراً صباحاً بمجرَّد أن تخرج الكنيسة في كنيسة القيامة. بعدها مباشرة يرتَّب كرسي الأسقف في مكان الشهادة **Martyrium** في الكنيسة الكبرى، وكل الذين سيعتمدون يجلسون حول الأسقف بجواره. رجالاً ونساءً مع آبائهم وأُمهاتهم يقفون أيضاً هناك. وكل الشعب الذين يريدون أن يسمعوا يدخلون ويجلسون، المؤمنون فقط، لأنه ممنوع على الموعوظ أن يدخل عندما يكون الأسقف يعطي الدروس الخاصة بالقانون (الناموس) مبتدئاً بسفر التكوين ويمر على كل الأسفار كل أيام الأربعين المقدَّسة(١٦٦)!! يشرحها لهم كلمة كلمة ثمَّ يكشف معانيها روحياً. ويُعلِّمون أيضاً عن القيامة وكل الأمور المختصة بالإيمان أثناء هذه الأيام. وهذا كان يُسمَّى درس الموعوظين **Catechizing**].

تسليم العقيدة: قانون الإيمان المسيحي:

+ [وبعد خمسة أسابيع من وقت بداية تعليم الموعوظين يبدأون استلام قانون الإيمان المسيحي. وكما شرح الأسقف معاني كل الأسفار هكذا يشرح معاني قانون الإيمان: كل معلومة تُشرح أولاً لفظياً وبعدها تُشرح روحياً. وبهذه الطريقة كل المؤمنين في هذه النواحي يفهمون معنى الأسفار حينما تُقرأ في الكنيسة بقدر ما تعلَّموا أثناء هذه الأربعين يوماً من بدء النهار حتى الساعة الثالثة، لأن تعليم المبتدئين يستمر ثلاث ساعات (في كل يوم).

والله يعلم أيتها الأخوات المحترمات أن أصوات المؤمنين الذين يأتون ويسمعون تعاليم المبتدئين يعطون استحسانهم بصوتٍ عالٍ في كل ما يُقال ويُشرح بواسطة الأسقف، أكثر مما يحدث حينما يجلس ليعظ داخل الكنيسة (في غير دروس الموعوظين).

وبعد تسريح المبتدئين، يزفون الأسقف بتسابيح إلى كنيسة القيامة **Anastasis** وكان تسريح الموعوظين في الساعة الثالثة من النهار. ثلاث ساعات يومياً كانت للتعليم حتى إلى سبعة أسابيع. والأسبوع الثامن للأربعين يسمَّى الأسبوع الكبير حيث لا وقت للتعليم بالنسبة للمبتدئين ...].

---

(١٦٦) لا يزال في الكنيسة القبطية عندنا حتى الآن تُقرأ أجزاء من هذه الفصول التي تنتهي يوم السبت قبل أحد الخوص كبقية أثرية لطقس العماد.

تلاوة قانون الإيمان:

+ [بعد مرور السبعة أسابيع ويبدأ أسبوع الفصح (Paschal) ويسمُّونه الأسبوع الكبير، يأتي الأسقف إلى الكنيسة الكبرى في موضع الشهادة ليجلس في المكان المعد لـه في الحنية (Apse)(١٦٧) خلف المذبح. ويأتي المبتدئون واحداً واحداً الرجل مع أبيه والمرأة مع أمها ويُسمِّعون نص قانون الإيمان (أو دستور الإيمان المسيحي) أمام الأسقف. وبعد تلاوة القانون، يبدأ في مخاطبتهم قائلاً:

أثناء هذه السبعة أسابيع تعلّمتم كل قانون الأسفار، وأيضاً سمعتم ما يختص بالإيمان، وفيما هو لقيامة الأجساد، وكل قانون الإيمان بمعناه بقدر قدرتكم لأنكم لازلتم موعوظين. وأمّا تعليم الأسرار العميقة التي هي مثلاً للمعمودية فأنتم غير قادرين على سماعها إذ أنكم لازلتم موعوظين. ولئلاً تظنوا أن هناك شيئاً يُعمل بدون سبب لائق، فإن هذه التعاليم بعد أن تعتمدوا في اسم الله سوف تسمعونها في كنيسة القيامة أثناء الثمانية أيام التي لعيد القيامة. لأنه طالما أنتم موعوظون فلا يصح تعليمكم الأسرار السريَّة الإلهية].

٢٢ ـ القديس يوحنا ذهبي الفم (سنة ٤٠٧م):

عاش من سنة ٣٤٧ـ٤٠٧م. وُلِدَ في أنطاكية ورُسم أسقفاً على القسطنطينية. عالِم الكنيسة (Doctor). كان واعظاً مقتدراً، وهذه الهبة هي التي أعطته اللقب "ذهبي الفم" فكان أعظم شرَّاح المسيحية. اتُهم بالأوريجانية بواسطة عدوّه ثاوفيلس بطريرك الإسكندرية فنحِّي عن كرسيه سنة ٤٠٤م ونُفي في مكان قريب من أنطاكية، ولكن إذ أرادت الملكة أفدوكسية موته سريعاً رحَّلته إلى بونتس فمات في الطريق.

يشجِّع ذهبي الفم عماد الأطفال ويستحسنه جدًّا، مع أن هذا لم يكن هو الإجراء العام في الكنيسة الشرقية. ويشدِّد على أن الختم الذي هو علامة انتماء الإنسان لله لابد أن يظهر في حياة الإنسان بالسلوك الصالح والأخلاق(١٦٨). ويربط بين ختم الروح القدس والمعمودية(١٦٩) التي يدعوها الاستنارة(١٧٠)، والمعمودية هي ذات صلة أساسية بالصليب(١٧١)، والمسيحي يصبح نبيًّا وكاهناً وملكاً ويُختم بختم الروح القدس كجندي مختوم للخدمة الحربية. وبينما اليهود لهم

(١٦٧) لا تزال آثاره باقية إلى الآن في الحنية التي خلف المذبح بدرجاتها.

(168) *Hom.*, 5.3, in 2 Tim. (P.G. 62, 627).
(169) *Hom.*, 2.2, in Eph. (P.G. 62, 8,19).
(170) *Hom.*, 3.4, in Phil. (P.G. 62, 203).
(171) *Hom.*, 25,2, in Joan. (P.G. 59, 151).

الختان كختم، فالمسيحيون هم العربون الداخلي بالروح الذي يُعطى بالمعمودية(١٧٢). وهناك صلة أساسية بين المعمودية وبين موت ودفن وقيامة المسيح، وهذا سائد عند الآباء إن كان بمعمودية الماء أو الشهادة بالدم.

ويقابل بين المعمودية والختان على أن المعمودية بلا آلام كختان يُصنع بغير يد!! (كو ٢:١١) ويقول إن المعمودية ليس لها زمن ووقت معيَّن مثل الختان عند اليهود، ولكن يمكن قبولها للأطفال أو لذوي السن المتوسط أو الكبار في السن. وبها يتطهَّر الإنسان من خطيته ويقبل العفو والغفران عن كل ما مضى من الآثام(١٧٣)، أمَّا ختان اليهود فبلا معنى روحي ولا قيمة.

٢٣ ـ ثيئوذور أسقف مبسوستا (سنة ٤٢٨م):

كان صديقاً ملاصقاً للقديس يوحنا ذهبي الفم، ولمَّا زلّ وخرج عن الرهبنة وعظه ذهبي الفم في رسالة معروفة باسم: (*Ad Theodorum Lapsum*, P.G. 47, 277-316) وبعدها عاد إلى الرهبنة ودخل المجال الكنسي ـ وله عدة عظات للمتقدِّمين للمعمودية، وقد فُقد أصلها اليوناني ثمَّ عُثر عليها حديثاً في نسخة سريانية وقد حقَّقها العالِم A. Mingana ونشرها في مجموعة:

Woodbrooke Studies, Vols 5 and 6 (Cambridge, 1933).

وقد أعاد نشرها بإتقان مع ترجمة فرنسية العالمان:

R. Tonneau et R. Devreesse, *Les Homélies Catéchétiques dé Théodore de Mopsueste*, (Studi e Testi 145), Vatican city, 1949.

والجزء الذي يهمنا موجود في الترجمة الإنجليزية في الكتاب السادس الجزء الثاني ويتكوَّن من ست عظات، أولها عن الصلاة الربَّانية تليها ثلاثة عظات عن طقس المعمودية. وهي عظات أُعطيت للمرشَّحين للعماد. وقد استُعملت في الكنيسة اليونانية لبطريركية أنطاكية ككتاب مدرسي للموعوظين:

تعاليم للمرشَّحين للعماد:

الجزء الثاني ـ العظة الثانية(١٧٤):

+ [إن كل مَنْ يريد أن يقترب لعطية المعمودية المقدَّسة يأتي إلى كنيسة الله. وهو يُستقبل في حينه بواسطة

(172) *Hom.*, 3.7, in 2 Cor. (P.G. 61, 418).
(173) *Hom.*, 40, in Gen. (P.G. 50, 373).
(174) E.C. Whitaker, *op. cit.*, p. 36-38.

شخص معيَّن لهذه المهمة، لأنه توجد عادة لتسجيل الذين يقتربون للمعمودية. وهذا الشخص يسـأله عن أسلوب حياته لكي يكتشف إن كانت حياته تحمل كل مطالب مواطنة المدينة العظمى وتسجيله فيها.

هذا الطقس يؤدَّى بواسطة شخص يُدعى عرَّاب أو أشبين ...

وبسبب إنكم غير قادرين بأنفسكم أن تتحاجوا ضد الشيطان وتحاربون ضدَّه، فإن خدمة الأشـخاص الذين يحملون زيت إخراج الشياطين تُعتبر خدمة لا غنى عنها بالنسبة لكم، لأنهم يعملون متكفّلين بإمدادكم بالمعونة الإلهية. إنهم يسألون بصوت مرتفع وباستمرار أن عدوّنا يعاقَب ويُؤمر بحكم من القاضي بأن يتقهقر ويبتعد عنّا. لذلك حينما ينطقون بكلمات إخراج الأرواح النجسة، تقفون هادئين تماماً وكأن ليس لكم صوت، وكأنكم لازلتم في خوف ورعبة من ذلك الطاغية. لذلك تقفون بذراعاتكم ممدودة كأنها للصلاة، وتنظرون إلى أسفل وتدومون على هذا الحال كي تحرّكوا قلب القاضي للرحمة.

ثمَّ تخلعون ملابسكم وتقفون حفاة القدمين لكي تُظهروا في أنفسكم حالة العبودية المستبدة التي فيها خدمتم الشيطان لمدة طويلة ...

وبخصوص كلمات إخراج الأرواح النجسة فإن لها القدرة أن تجعلكم لا تبقون كسالى وبلا عمل لكي تنالوا مثل هذا الربح الجليل. وبعدها تؤمرون في هذه الأيام أن تتأملوا كلمات الاعتراف بالإيمان لكي تتعلّموها، التي يضعونها في أفواهكم حتى بواسطة التأمُّل المستمر فيها تستطيعون أن تجتهدوا لكي تكونوا قادرين على تلاوتها عن ظهر قلب.

وعندما يحين وقت قبول السر وتكون إدانة ومحاربة الشياطين التي من أجلها قيلت كلمات الأكسورسزم (= إخراج الأرواح النجسة) قد بلغت نهايتها، وبأمر الله يخضع الطاغية ويستسلم لصراخ كلمات الأكسورسزم، ويُدان وتصيرون أحراراً تماماً من أي مشاغبة تأتي من جهته، وعندما تسعدون بالسماح لكم بالانضمام بلا تعويق، حينئذ تُستدعون بواسطة الأشخاص المعيَّنين إلى الكاهن. لأنه أمامه عليكم أن تقدّموا تعهدكم ووعودكم لله. وهي تختص بالإيمان وحقائق قانون الإيمان التي تعلنون رسمياً تصميمكم على الثبات عليها بمداومة. وأنكم لن تكونوا كآدم أبي جنسنا ترذلون أصل جميع الخيرات، بل تدومون حتى النهاية في عقيدة الآب والابن والروح القدس (...).

وعندما تأتون إلى بيت الله تقابلون الكاهن الذي وُجد مستحقاً أن يترأس على الكنيسة. وبعد أن نتلو اعترافنا بالإيمان أمامه، نقدّم لله بواسطة الكاهن ميثاق تعهُّدنا بحفظ الإيمان (...) فبعد أن نقدّم تعهُّدنا لله ربنا بتوسُّط الكاهن، نصير مستحقين أن ندخل بيته ونستمتع برؤياه ومعرفته وسكناه،

ونُحسب مواطنين للمدينة السماوية فتكون لنا ثقة كبرى].

العظة الثالثة(١٧٥):

+ [قد علمتم بما فيه الكفاية من العظات التي قلناها ما هي الطقوس التي تُعمل في وقتها قبل الدخول في السر وبمقتضى التقليد القديم بالنسبة للذين يُعمَّدون: فعندما تذهبون لتسجِّلوا أسماءكم برجاء الحصول على الإقامة والمواطنة السمائية، تجدون في طقوس إخراج الشياطين نوعاً من الدعوى القضائية السماوية المرفوعة ضد الشيطان، وبقضاء إلهي تتسلَّمون حريتكم من عبوديته، وهكذا تتلون كلمات الاعتراف بالإيمان والصلاة، وبهما تقطعون عهداً ووعداً مع الله أنكم ستكونون دائماً ثابتين في محبته الطبيعية الإلهية. وأنكم ستحيون في هذا العالم بأفضل إمكانياتكم بطريقة مطابقة للحياة ومواطنة السماء. والآن يحق لكم أن تقبلوا شرح الطقوس التي ستُجرى في ذات "السر". لأنكم إذا تعلَّمتم السبب في كل إجراء ستحصلون على معرفة ليست قليلة.

فبعد أن أُخذتم من تحت عبودية الطاغية بكلمات إخراج الشياطين وصنعتم تعهُّداً مهيباً مع الله، مع تلاوة قانون الإيمان، فإنكم تقتربون من السر نفسه. لذلك يلزم أن تتعلَّموا كيف يُعمل لكم: ستقفون حفاة القدمين وبأيدي مرفوعة نحو الله في وضع مَنْ يصلِّي. في كل هذا تكونون في وضع يتناسب مع كلمات إخراج الشياطين، لأنكم بذلك تُظهرون أَسْرَكم الماضي وعبوديتكم لهذا الطاغية التي وقعتم فيها بعقاب مُحقٍ.

فأولاً تحنون الرُّكب وجسمكم منتصب وفي وضع مَنْ يُصلِّي ترفعون أيديكم نحو الله، بهذا الوضع تقدِّمون صلاة لله وتتوسَّلون إليه ليهبكم خلاصاً من السقطة القديمة، فتكونوا شركاء في البركات السمائية. وبينما أنتم في هذا الوضع، فإن الأشخاص الذين تعيَّنوا لخدمتكم يقتربون إليكم ويقولون لكم أكثر مما قاله الملاك لكرنيليوس: صلواتكم سُمعت وطلباتكم استُجيبت (أع ١٠: ٤).

وما هي التعهُّدات والوعود التي تصنعونها في ذلك الوقت والتي بها تقبلون خلاصاً من المحنة القديمة وتشتركون في الخيرات العتيدة؟

"أنا أجحد الشيطان وكل ملائكته وعبوديته وكل غشه وكل إغرائه الدنيوي – وأتعهَّد وأؤمن وأعتمد في اسم الآب والابن والروح القدس". ويتقدَّم الشمامسة إليكم ويعدّونكم لكي تتلوا هذه الكلمات.

(175) *Ibid.*, pp. 38-40.

فعندما تقدّمون كل عهودكم، يتقدّم الكاهن في ثوب من الكتان الناصع يُعبِّر عن أفراح العالم المزمع أن تنتقلوا إليه في المستقبل. وبريق ثياب الكاهن يُعبِّر عن بهاء حياتكم الآتية ونقاء ثيابه يُعبِّر عن السعادة في العالم الآتي. ويرشمكم على جباهكم بالمسحة المقدَّسة قائلاً: "فلان يوسم باسم الآب والابن والروح القدس". مقدِّماً إليكم أول ثمار "السر"، ولا يصنعها أبداً إلاَّ باسم الآب والابن والروح القدس. وبينما أنتم تترقّبون أصل جميع الخيرات (أي المعمودية) يبدأ الكاهن بإجراء السر. وفي الحقيقة أن الكاهن يقرِّبكم من الدعوة التي نحوها ينبغي أن توجِّهوا نظركم! التي بمقتضاها يلزم أن تعيشوا بمقتضى إرادة الله. والوسم (الرشم) الذي وُسِمْتُم به يُعبِّر عن أنكم قد خُتِمتم كحمل للمسيح وجند للملك السمائي.

وفي الحال فإن الإشبين أو العرَّاب الواقف خلفكم يفرد لفافة من الكتان على رؤوسكم، ويقيمكم ويجعلكم تقفون مستقيماً، والكتان الذي يفرده على تاج رؤوسكم يُعبِّر عن حريتكم التي دُعيتم إليها. لأن الأحرار يتشحون بالكتان فوق رؤوسهم كزينة سواء في بيوتهم أو في الأسواق.

وبعدما تكونون قد وُسِمتم وخُتِمتم كجنود المسيح الرب تتقبّلون باقي السر وتتقلّدون باقي سلاح الروح الكامل. وبالسر تقبلون الشركة في البركات السماوية. وينبغي أن نشرح لكم قليلاً قليلاً كيف تتم كل هذه الأمور. ولكن الذي قلناه يكفي اليوم ونختم حديثنا كالعادة بتقديم الحمد والشكر لله الآب وابنه الوحيد والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين. آمين].

٣٤ ــ القديس أوغسطينوس أسقف هبو (سنة ٤٣٠م):

في القرن السادس غزا البربر شمال إفريقيا وخرَّبوا المدنية المسيحية هناك، وتوقّفت الكنيسة نهائياً حتى اليوم وضاعت كتبها الطقسية، ولم يتبقَّ لنا لنعرف شيئاً عن طقوس المعمودية في هذه الكنيسة إلاَّ ما نستدله من كتب آبائها وأهمهم القديس أوغسطينوس. وقد درس العالِم الراهب Bush أقوال القديس أوغسطينوس عن المعمودية وجمعها في المقالة التالية:

Dom Benedict Bush, "De Initiatione Christiana secundum S. Augustinum", in *Ephemerides Liturgicae,* 1938, pp. 159 ff, 385ff.

والقديس أوغسطينوس هو الذي أعطى معمودية الأطفال الأساس اللاهوتي المنهجي. ويقول القديس أوغسطينوس **إن المعمودية أبطلت وألغت ذنب خطية آدم، ولكن تركت وأبقت نشاطها actus كالشهوة التي لا تزال تؤذي**(١٧٦) **والنعمة التي يحصل عليها المعمَّد من المعمودية هي**

(176) *De nupt. et conc.,* I. 29f. (P.G. 44, 431f).

التجديد بالروح القدس، والغفران الإلهي، وإلغاء الإثم أو الجرم(١٧٧). ولكن الخلاص الكامل يمكن الحصول عليه فقط بواسطة تغيير الأخلاق: [سر المعمودية أمر، وتحوُّل القلب أمر آخر، ولكن خلاص الإنسان يكون كاملاً بواسطة كليهما معاً](١٧٨). فإن غاب أحد هذين العاملين عن غير قصد فإن الله يعوِّض عنه(١٧٩). فبالنسبة للصّ التائب على الصليب: تحوُّل القلب أخذ فعله فيه ولكن تحوُّل الإنسان وتجديده لم يكن ممكناً لأنه يحتاج إلى معمودية، فا لله أعطاه قوة المعمودية، لذلك أكَّد المسيح أنه سيدخل الفردوس. وهنا واضح أن القديس أوغسطينوس يقصد المعمودية الروحانية بالنسبة للصّ وليس معمودية الماء.

كذلك فالطفل المعمَّد إذا مات يكون قد نال المعمودية، وأمَّا تحوُّل القلب فا لله نفسه يمنحه إيَّاه، لذلك فهو ينال الخلاص. والقديس أوغسطينوس يربط إعطاء الروح القدس في طقس المعمودية بوضع اليد الذي يتم بعد المعمودية، وبهذا ينال حتى الأطفال الروح القدس(١٨٠). وقد علَّم القديس أوغسطينوس أن المعمودية تتوازى مع الختان اليهودي الذي يُجرى في اليوم الثامن الذي يسبق ويصوِّر قيامة المسيح في اليوم الثامن (الأحد) وتجديدنا في المسيح القائم(١٨١). لذلك نستطيع أن نقول إن الختانة في القديم قُدِّرت في العهد لتشير إلى المعمودية(١٨٢)، اللازمة للمسيحية كما الختان لإسرائيل.

وبعكس ما يقول القديس كبريانوس، فهو يعتبر المعمودية باسم الثالوث معمودية صحيحة حتى ولو مورست بواسطة إنسان غير مستحق(١٨٣). فالمعمودية واحدة لا تتكرَّر. وهي الختم الذي ينطبع على المعمَّد بأثر لا يُمحى.

ويقول القديس أوغسطينوس إن الأطفال بالرغم من أنهم لا يفهمون الحق للموافقة عليه،

(177) *Ep. ad. Boniface* Ep., 98.2 (P.L. 33,360).
(178) *Bapt.*, IV, 25,32 (P.L. 43,176).
(179) *Ibid.*
(180) *Bapt.*, III, 17, 22 (P.L. 43, 149).
(181) *Op.* imp. *C. Julian.*, 6,18 (P.L. 45,1541).
(182) *Ep.*, 187.11.34 (P.L. 33,845).
(183) *Bapt.*, 10,15 (P.L. 43,144).

لكن مع ذلك يُقال عنهم إنهم يؤمنون إن هم اقتبلوا سر المعمودية الذي هو سر الإيمان(١٨٤).

وقد أخذ برأيه مجمع ترنت (القانون ١٣) إذ يقرِّر أن الأطفال الصغار بالرغم من أنهم لا يمتلكون الإيمان الحقيقي إلاَّ أنهم بعد حصولهم على العماد يُحسبون مع المؤمنين!

وبعقيدة القديس أوغسطينوس هذه انتشر عماد الأطفال في الكنيسة.

(184) *Ep.*, 98 (P.L. 33,359f).

(ب) طقس المعمودية عند الآباء بأجمعهم حسب خطوات قانون التعميد[١]

١ ـ جحد الشيطان والتعهُّد بالالتصاق بالمسيح والاعتراف بقانون الإيمان[٢]

يُلاحَظ أن هذا الترتيب صحيح حيث يأتي في قانون التعميد جحد الشيطان والدهن بالزيت لإخراج الشياطين قبل النزول في الماء والعماد. فكان الطقس الجاري أن أثناء ما يكون الكاهن مشغولاً بدهن الموعوظين وجحد الشيطان، أنه يذهب الأسقف ويصلّي على ماء المعمودية إعداداً لنزول الموعوظين بعد جحد الشيطان مباشرة للعماد.

ـ **ثلاثة أمور مطلوبة من الموعوظ:** النطق بصيغة رسمية لجحد الشيطان، ثمَّ الاعتراف بالإيمان بحسب قانون الإيمان المُسلَّم، والأمر الثالث التعهُّد بأن يحيا الموعوظ في طاعة المسيح تحت قوانين الكنيسة والديانة المسيحية. على أن هذه الأمور الثلاثة كان الموعوظون قد أدُّوها علناً في صحن الكنيسة والأسقف واضع يده عليهم في بداية تسجيل أسمائهم، ولكن كان عليهم أن يعودوا ويكرِّروها أيضاً أمام الشعب عند مجيئهم للعماد.

وصيغة هذا الجحد كتبتها تسجيلات: "المراسيم الرسولية *Apostolic Constitutions*" وهي هكذا مترجمة عن الأصل اليوناني:

+ [أنا أجحد الشيطان وكل أعماله وكل تعظُّماته وكل خدمته وملائكته واختراعاته وكل ما يتعلَّق به ويخضع له.][٣]

ـ والقديس كبريانوس يضيف: [**جحد العالم**] **ويضم الشيطان والعالم معاً**. وأيضاً عند القديس

(١) أقوال القديسين المقدَّمة في هذا الفصل مسجَّلة باللغة اليونانية واللغة اللاتينية في كتاب:
The Works of the Rev. Joseph Bingham, vol. IV, Oxford, 1855.
ونشير في الحواشي إلى مواضعها في الطبعات الإنجليزية لأقوال الآباء مثل: ANF, NPNF متى توفَّر ذلك.

(2) *Ibid.*, pp. 119ff.

(3) *Apost. Const.*, VII, 41, ANF, vol. VII, p. 476.

أمبروسيوس حيث يجعل الجحد هكذا:

+ [أنت جحدت الشيطان وأعماله والعالم و كل عظمته ومسرّاته.](٤)

- وأيضاً القديس جيروم:

+ [أنا أجحدك أيها الشيطان و كل تعظّماتك و كل شرورك وعالمك الكائن في الإثم.](٥)

- وبعض الآباء يضيف **ألعاب الشيطان البهلوانية والمشاهد والمسارح.**

والعلاّمة ترتليان(٦) يذكر أهم أعمال الشيطان **وهي عبادة الأوثان.**

- ولكن الأمر الذي يُحزن قلب الإنسان أن أعمال الشيطان أيام عبادة الأوثان لم تكن بهذا القدر الهائل كما هي في هذه الأيام التي نعيشها وفي جميع أنحاء العالم، بل دخلت البيوت عن طريق **التلفزيونات** بصورة فاحشة خرّبت تربية الأجيال.

وفي أيام القديس كيرلس الأُورشليمي حينما بدأت عبادة الأوثان تتراجع كانت لا تزال أعمال الشيطان تملأ البلاد.

وعلى كل حال فإن بقايا جحد الشيطان لا تزال ضرورة في كل أنحاء العالم.

- على أننا نقرأ في رسائل بولس الرسول نصحاً يشير إلى هذا التعهُّد العلني في المعمودية، إذ يقول لتلميذه تيموثاوس: «جاهد جهاد الإيمان الحسن، وأمسِك بالحياة الأبدية التي إليها دُعيتَ أيضاً، **واعترفت الاعتراف الحسن أمام شهودٍ كثيرين.**» (١تي ٦:١٢)

وظلّت هذه الشهادة قائمة في الكنيسة يتكلّم عنها جميع الآباء. ويعتبرها القديس باسيليوس من بين الطقوس السريّة المسلّمة في الكنيسة من تقليد الرسل. ويذكرها ق. بطرس في رسائله عند قوله: «سؤال ضمير صالح نحو الله» (١بط ٣:٢١). هذا السؤال يسأله الأسقف للذي يتعمَّد ليعترف من جهة ضميره نحو الله.

كما يُلاحَظ بخصوص هذا الجحد أنه عند بناء المعموديات في الكنائس خصَّصوا غرفة ملاصقة لبيت المعمودية خاصة لجحد الشيطان وصارت عادة في جميع الكنائس. وكان يقف الموعوظون ووجوههم

(4) Ambrose, *On the Mysteries,* 5, NPNF, 2nd ser., vol. X, p. 317.
(5) *In Math.,* 5, 26 (Bingham, p. 120).
(6) *De Spectaculis,* C. 4., ANF, vol. III, p. 81.

متجهة نحو الغرب وحينئذ يجحدون الشيطان بحركات وأوضاع توضّح كراهية ومقاومة الشيطان.

ـ والقديس كيرلس الأُورشليمي في عظاته عن المعمودية للمستنيرين يصف ذلك:

+ [تأتون إلى الغرفة المجاورة للمعمودية وتتجهون نحو الغرب وتعطون الأمر لجحد الشيطان بمد أذرعكم نحوه بصورة من يتحدّاه كأنه حاضر.](٧)

ـ ثمَّ يستطرد في نفس العظة القديس كيرلس الأُورشليمي ويقول:

+ [نحو الغرب لأنه اتجاه الظلمة والشيطان لأنه هو نفسه ظلام فسلطانه أيضاً على الظلام. لهذا السبب أنتم تتجهون ناحية الغرب عندما تجحدون ملك الظلمة والرعب.](٨)

ـ أمَّا القديس جيروم فيقول:

+ [في الأسرار الكنسية (أقصد المعمودية) نحن نجحد أولاً متجهين ناحية الغرب ذلك الذي انفك عنا كما انفكت عنا خطايانا، ثمَّ ندور ناحية الشرق ونتعهَّد للرب شمس البر أن ندوم في خدمته.](٩)

ـ وأيضاً القديس أمبروسيوس وهو يخاطب المعمَّدين الجدد:

+ [عندما دخلتم بيت المعمودية وواجهتم عدوّكم الشيطان الذي جحدتموه، اتجهتم مرَّة أخرى نحو الشرق، لأن الذي يجحد الشيطان يصير له الحق أن يتجه ناحية المسيح.](١٠)

ـ وأيضاً القديس غريغوريوس النزينزي يصف ذلك:

+ [وسوف تعلم من الكلام والإجراءات العملية كليهما أنك جحدت كل القوة الأثيمة (التي للشيطان) والتصقت بكل كيانك باللاهوت.](١١)

ـ ويصف كتاب منسوب لديونيسيوس الأريوباغي كيف كان المتقدِّمون للمعمودية يقفون عرايا، وباتجاههم نحو الغرب وبأذرعهم ممتدة إلى فوق كلها احتجاجات ضد الشيطان، ويصفِّقون بأيديهم بنوع من التحدّي والمقارعة وحتى البصق احتقاراً وتحدِّياً(١٢).

---

(7) *Catech.*, 19,2. (= *Cat. Myst.*, 1,2); NPNF, 2nd ser., vol. VII, p. 144.
(8) *Ibid.*, 4; p. 145.
(9) *In Amos*, 6,14. (Bingham, p. 125).
(10) *On the Mysteries*, 7; NPNF, 2nd ser., Vol. X, p. 318.
(11) *Oration on Holy Baptism*, 40,45, NPNF, 2nd ser., vol. VII, p. 376.
(12) *De Hierarch. Eccles.*, 2,3,5; 2,2,6.

وعلمنا أن جحد الشيطان يتكرَّر ثلاث مرَّات، وبعدها يتجهون ناحية الشرق مرفوعي الرأس والأيدي إلى فوق ليدخلوا في عهد المسيح. والثلاث مرَّات لمقابلة الثالوث الأقدس الذي أصبحوا له، وأصبح جحدهم للشيطان يقابله تعهُّدهم أمام المسيح.

وبعدها يقدِّمون عهد الطاعة للمسيح بأن يسلِّمون أنفسهم لقضاء المسيح والسلوك في تدبيره. وكان هذا هو أهم الأشياء المفروضة عليهم قبل أن يتقدَّموا للتجديد.

والبعض مثل ق. أوغسطينوس يطالبون بضرورة الأعمال الصالحة على مستوى المطالبة بالإيمان حتى يصيروا مسيحيين.

- والقديس يوستينوس يشرح إجراءات المعمودية ببساطة قائلاً إن المعمودية لا تعطى إلاَّ للذين يضيفون على اعترافهم بالإيمان تعهُّداً وقسماً بأنهم سيعيشون بمقضى فرائض المسيح(١٣).

وهذا يتم بعد جحد الشيطان مباشرة وكخطوة ملازمة له.

فبعد أن يقول طالب المعمودية [أجحدك أيها الشيطان Ἀποτάσσομαί σοι, Σατανᾶ] يقول في صيغة مقابلة وهو يتجه نحو الشرق: [وأنضم لك (أو ألتصق بك وأتعهَّد) أيُّها المسيح Συντάσσομαί σοι, Χριστέ].

- ويشترك في ذكر هذه الكلمات وبنفس الصيغة كل من ذهبي الفم(١٤) والقديس باسيليوس(١٥)، والقديس كيرلس الإسكندري(١٦) والمراسيم الرسولية(١٧).

والقديس أمبروسيوس يُسمِّي جحد الشيطان والتعهُّد للمسيح وعداً وارتباطاً أو ضمانة بكتابة خط يد، أو يسمِّيها قيداً وميثاقاً يُعطَى لله ليُسجَّل في سجلات السماء، لأنه عهد يُبرم في حضرة الكهنة والملائكة كشهود له(١٨).

---

(13) *Apol.*, I, 61.

(14) *Hom 6, in Col.*, NPNF, 1st ser., vol., XIII, p. 287.

(15) *Hom 13, Exhort. ad Bapt.*

(16) *In Joan.*, II, 26.

(17) *Apostolic Constitutions,* VII, 41.

(18) *De Sacramentis,* I, ch. 2 (5-8); (The Fath. of the Church, vol. 44, pp. 271,272); *On the*

ـ وفي مكان آخر يكتب القديس أمبروسيوس:

+ [إنه مسجَّل ليس في مخلفات الأموات ولكن في كتاب الحياة.](١٩)

ـ والقديس أوغسطينوس يسمِّي جحد الشيطان والتعهُّد للمسيح:

+ [اعترافاً أمام محكمة الملائكة.](٢٠)

ـ ويقول أيضاً:

+ [أمَّا أسماء الذين علَّموا الموعوظين فتُكتب في كتاب الحياة ليس بإنسان ولكن بالقوات السمائية.](٢١)

ـ والقديس جيروم يدعو هذا التعهُّد:

+ [عهداً يُصنع مع شمس البر كوعد طاعة للمسيح.](٢٢)

غير أن في جحد الشيطان تكون وجوههم إلى الغرب، ولكن عند اتجاههم لعمل العهد مع المسيح يدورون نحو الشرق رمز النور الذي استلموه من شمس البر بالتحاقهم في خدمته.

أمَّا اتجاههم ناحية الشرق عندما يقدِّمون اعترافهم للطاعة للمسيح، فيذكره كل من القديسين: أمبروسيوس وغريغوريوس النزينزي وكيرلس الأورشليمي وديونيسيوس، ويقدِّمون لذلك سببين، الأول يقوله القديس كيرلس:

+ [لأن بمجرَّد جحدك للشيطان، ينفتح في الحال أمامك باب فردوس الله الذي غرسه شرقاً، الذي طُرد منه آدم أول جنسنا بسبب عصيانه.](٢٣)

وأمَّا السبب الثاني فهو لأن الشرق موضع الشمس والمسيح هو شمس البر (مل ٤: ٢). ويقول في ذلك القديس أمبروسيوس:

+ [بعد ذلك اتجهتم نحو الشرق لأن مَنْ يجحد الشيطان يتجه في الحال نحو المسيح ويعاينه وجهاً لوجه.](٢٤)

Mysteries, 6; NPNF 2nd ser., vol. X, p. 317.

(19) *On the Mysteries,* 5; NPNF, 2nd ser., vol. X, p. 317.

(20) *De Symbol.* 2,1,9 (t. 6, p. 556c); cited in Bingham, p. 129, n. 81.

(21) *Ibid.*

(22) *In Amos,* 6, 14. (Bingham, p. 130, n. 82).

(23) Cat., 19,9 (= *Cat. Myst.* 1,9); NPNF, 2nd ser., vol. VII, p. 146.

(24) *On the Mysteries,* 7; NPNF, 2nd ser., vol. X, p. 318.

الاعتراف بالإيمان:

ومع هذا التعهُّد بالطاعة يقدِّم كل واحد من الذين سيتعمَّدون اعترافه بالإيمان، ويكون دائماً بنفس كلمات قانون الإيمان الذي تسلّمته كل كنيسة للمعمَّدين ليحفظوه. وكانوا معتادين أن يردِّدوه خاصة مع أنفسهم كموعوظين حتى يحفظوه ليقولوه بعد ذلك علناً في الكنيسة بعد أن يكونوا قد أعطوا أسماءهم لتُسجَّل للمعمودية. وكان عليهم أن يقوموا بتقديم هذا الاعتراف رسمياً عند المعمودية. ويجاوبون على الأسئلة التي تُطرح عليهم بخصوص أجزاء من قانون الإيمان يختارها الكهنة. وفي زمن القديس أوغسطينوس كان البعض يختزلون الاعتراف بالإيمان إلى جملة واحدة: "أنا أومن أن يسوع هو ابن الله" متخذين مَثَل القديس فيلبُّس في تعميد خصي الملكة كنداكة كما ورد في سفر الأعمال (٨:٣٧)، والقول الذي قاله بولس الرسول إلى أهل كورنثوس: «لأني لم أعزم أن أعرف شيئاً بينكم إلاَّ يسوع المسيح وإياهُ مصلوباً» (١كو ٢:٢). ولكن الكنيسة لم تكتفِ بذلك قط، بل كانت تباشر شرح بقية مفردات قانون الإيمان مع الأسئلة والإجابة عليها: بخصوص الروح القدس والكنيسة المقدَّسة، وغفران الخطايا وقيامة الأموات، وتجسُّد المسيح، وآلامه حتى الموت على الصليب، ودفنه وقيامته في اليوم الثالث، وصعوده إلى السموات وجلوسه عن يمين الآب. كل هذه كان محتّماً أن يتعلّموها، ولم تحذف الكنيسة أي شيء منها. وحتى في حالات المرضى وهم يعتمدون على سرير الموت فإذا لم يكونوا قادرين، كان ذووهم يقولون ويردِّدون عنهم حتى يكمِّلوا كل بنود قانون الإيمان. وسار هذا بكل دقة وحرفية منذ أيام الرسل. وعاد القديس أوغسطينوس يقول إن عماد فيلبُّس المبشِّر للخصي لم يُسجَّل في الكتاب بأكمله ولكن باختصار، ولكن معموديته أخذت وضعها الرسمي الكامل(٢٥). وجميع القديسين ردَّدوا نفس الكلام الحادث في ما قبلهم وفي زمانهم بنفس العقيدة. والقديس يوستين يقول إن الإقناع بحقائق الإيمان وبصحة التعاليم المسيحية كان أول شرط في قبول الموعوظين: [إن الذين يقتنعون ويؤمنون بأن التعاليم التي قلناها هي الحق ويتعهَّدون بالحياة بمقتضاها، نعلِّمهم ...](٢٦)

- والقديس كبريانوس يؤكِّد أهمية قانون الإيمان في المعمودية، ويذكر بوضوح الأسئلة التي كانت تُسأل في ما يخص بعض بنود الإيمان مثل:

+ [هل يؤمنون بالحياة الأبدية وبغفران الخطايا في الكنيسة المقدَّسة؟](٢٧)

التي كانت باستمرار هي البنود الأخيرة في قانون الإيمان.

- وترتليان يوضِّح أركان قانون الإيمان في ما يخص الآب والابن والروح القدس والكنيسة

(25) *De Fide et Oper.*, c. 9 (Bingham, p. 132).

(26) *Apol.* I, 16 راجع النص الكامل صفحة: ١٤٢

(27) *Ep.* 70, *ad Episc. Numid.*, (Bingham, p. 132).

المقدَّسة كأهم الأسئلة التي يُسأل بها المعتمد(٢٨). كذلك يوسابيوس يتلو كلمات قانون الإيمان في قيصرية قائلاً إنه نفس القانون الذي اعتمد هو بمقتضاه(٢٩). **وقد استُخدم قانون مجمع نيقية في كل كنائس الشرق.**

وكان من السهل أن نسجِّل هنا أقوال الآباء وشهاداتهم: أمبروسيوس، جيروم، كيرلس الإسكندري، كيرلس الأُورشليمي، يوحنا ذهبي الفم، غريغوريوس النزينزي، باسيليوس، إبيفانيوس، وكتاب المراسيم الرسولية، **ولكن يتحتَّم أن نثق بالحقيقة أن كل الآباء قديماً كانوا يُعمِّدون بمقتضى قانون الإيمان بالكامل دون أي استثناء.**

وكانت اعترافات الإيمان تعمل جهاراً في الكنيسة وسط الشعب بناءً على التعليمات الرسولية. تماماً كما يُسجَّل عن تيموثاوس بقلم القديس بولس:

+ «جاهد جهاد الإيمان الحسن، وأمسِك بالحياة الأبدية التي إليها دُعيتَ أيضاً، **واعترفت الاعتراف الحسن أمام شهودٍ كثيرين** ... أن تحفظ الوصية بلا دنس ولا لوم إلى ظهور ربنا يسوع المسيح.» (١تي ٦: ١٢و١٤)

وهذا الاعتراف الحسن هو الاعتراف بالإيمان الذي قدَّمه تيموثاوس في المعمودية بشهود كثيرين، وهو نفس بنود الاعتراف الذي صار سارياً في الكنيسة في كل العصور. والقديس أفرآم السرياني يعلِّق على هذه الآية (١تي ٦:١٢-١٤) **بأنها تشير إلى الاعتراف العلني بالإيمان الذي يتم في المعمودية أمام شهود كثيرين**(٣٠).

ويخبرنا القديس أوغسطينوس عن طقس اعتراف المعمودية الذي كان سارياً في روما في أيامه:

+ [كان المزمعون أن يتقدَّموا إلى النعمة (المعمودية) في روما يُطالَبُون بأن يقدِّموا اعترافهم بالإيمان علناً في مكان مرتفع أمام جميع الشعب المؤمن بكلمات محفوظة، ولكن الكهنة عرضوا على الخطيب فكتورينوس أن يقدِّم اعترافه على انفراد كما كانت العادة بالنسبة للأشخاص المعرَّضين أن يقشعروا من الخجل، ولكنه صمَّم أن يقدِّم اعترافه الخلاصي علناً في محضر من الجماعة المقدَّسة كلها.](٣١)

---

(28) *De Bapt.*, 6.
(29) *Ep. ad Caesariens,* in Socrates, *H.E.*, I, 8, NPNF, 2nd ser., vol. II, p. 10.
(30) *De Poenitent.*, C. 5; (Bingham, p. 134).
(31) *Confessions,* VIII, 4,5; NPNF, 1st ser., vol. I, pp. 118,119.

أيدي وعيون مرفوعة نحو السماء:

ومن ضمن طقوس الاعتراف أن يكون المتقدِّمون للمعمودية ناظرين نحو الشرق وبأيدي وعيون مرفوعة نحو السماء، وكأنهم على صلة بالمسيح الذي سيدخلون في العهد معه، وربّهم الجالس على عرش مجده في السماء. فكما جحدوا الشيطان بأذرع ممدودة محتجَّة ومتوعِّدة، هنا على العكس يخاطبون المسيح بخضوع وتوسُّل وتودُّد بأيدي مبسوطة للأخذ باستعداد أن تعانقه.

يكرِّر ثلاث مرّات:

ويكرِّر الاعتراف ثلاث مرّات كما رأينا ذلك أيضاً **في جحد الشيطان.** والقديس كيرلس الإسكندري يقول في شرحه للآيات (يو ٢١: ١٥–١٧) **حيث يسأل الرب ق. بطرس ثلاث مرّات: «يا سمعان بن يونا أتحبني؟» ويجيب القديس بطرس ثلاث مرّات:** «يا رب أنت تعرف أني أحبك»: [**لذلك صارت العادة في الكنائس أن تطلب تكرار الاعتراف بالمسيح ثلاث مرّات من الذين أحبوه وقرّروا أن يتقدَّموا إلى المعمودية المقدَّسة.**](٣٢)

ـ ويقول القديس أمبروسيوس:

+ [هكذا في الأسرار (يعني المعمودية) يتكرَّر السؤال والجواب إلى ثلاث مرّات، ولا يتطهَّر أحد (أي لا يُعمَّد) إن لم يكرِّر اعترافه بالإيمان ثلاث مرّات، وهكذا أيضاً بطرس سُئل ثلاث مرّات في الإنجيل هل هو يحب الرب، حتى بمجاوبته ثلاث مرّات تنفك عنه قيود الظلمة التي قيَّد نفسه بها بإنكاره الرب.](٣٣)

ـ والقديس أمبروسيوس في موضع آخر يقول:

+ [لقد سُئلت: أتؤمن بالله الآب الضابط الكل؟ أجبتَ: أومن، ثمَّ غطست في الماء أي دُفنتَ. ثمَّ سُئلت أيضاً: أتؤمن بربنا يسوع المسيح وبصليبه؟ فأجبتَ: أومن، وغطست أيضاً. وهكذا دُفنت مع المسيح. لكن الذي يُدفن مع المسيح يقوم أيضاً مع المسيح. ثمَّ سُئلت مرّة ثالثة: أتؤمن بالروح القدس؟ فأجبتَ أومن وغطست مرّة ثالثة، وهكذا بالاعتراف المكرَّر ثلاث مرّات غُفرت خطايا حياتك السابقة الكثيرة.](٣٤)

ويكرِّر بعد ذلك تشبيه ذلك ببطرس الرسول الذي بسؤاله ومجاوبته ثلاث مرّات غُفرت خطية إنكاره.

---

(32) *On John*, 21, 15.

(33) *On the Holy Spirit*, II, ch. 10 (105); NPNF, 2nd ser., vol. X, p. 128.

(34) *On the Sacraments*, II, ch. 7 (20); The Fathers of the Church, vol. 44, p. 286.

ويكتبون ذلك بخط أيديهم:

وهناك مصادر تؤكِّد أن بعد إعطاء الاعتراف بالإيمان، يعودون ويسجِّلونه بخط أيديهم إن كانوا قادرين أن يصنعوا هذا في سجلات الكنيسة. وقد ذُكر هذا في بعض المكتوبات القديمة. فمثلاً القديس غريغوريوس النزينزي يقول عندما كان يحض المعمَّدين على أن يظلوا ثابتين على الإيمان الذي اعترفوا به في المعمودية بقوله:

+ [إذا أراد أحدهم أن يستولي على أفكاركم (لكي تكتبوا أسماءكم عنده)، قولوا له إننا قد سجَّلنا اعترافنا وما كتبناه قد كتبناه.][35]

ـ والقديس أمبروسيوس يشير إلى ذلك عندما يقول للمعمَّدين:

+ [إن كتاب خط يدكم قد تسجَّل ليس في الأرض فقط بل وفي السماء أيضاً (...) لأنه إن كان جسد المسيح ههنا فالملائكة أيضاً حاضرون.][36]

ـ والقديس أوغسطينوس يقول:

+ [إن أسماء الذين قدَّموا اعترافاتهم على المعمودية قد كُتبت في كتاب الحياة ليس بواسطة بشر فقط بل بقوات سمائية.][37]

قيمة هذه المبادرات في توثيق حاسة المعمَّدين ليكونوا ثابتين في تعهُّدهم:

من كل ما سجَّلنا يتضح أن تدبير الكنيسة في هذه الخطوات هو لكي تجعل المعمَّدين ذوي حساسية تلقائية وقوية لطبيعة الديانة المسيحية، التي لا تسمح لأي موعوظ الدخول إلى الكنيسة والالتصاق بالمؤمنين بدون هذه الإجراءات الرسمية، مع الإحساس بالمسئولية تجاه الإيمان بالمسيح وطاعته التي اعترف من أجلها بالفم والكتابة، ليس فقط أمام الناس بل بحضرة الله والملائكة والقديسين. كان هذا هو الإنجاز الأعظم الذي مارسته الكنيسة لحسابهم ليكونوا ذا فاعلية في حياتهم. الأمر الذي تكلَّم عنه ذهبي الفم كثيراً موصياً المعمَّدين الجدد أن يكونوا دائماً متذكِّرين عهودهم وهي في مخيلتهم، لكي يستخدموها تلقائياً وتكون دائماً كسلاح لهم ضد كل التجارب والمحاربات. كذلك يوبِّخ المسيحيين الذين يضعون القلادات والأحجبة في أجسادهم اتقاءً

(35) *Oration* 40, 44, *On Holy Baptism,* NPNF, 2nd ser., vol. VII, p. 376.

(36) *On the Sacraments,* I, ch. 2 (6); The Fathers of the Church, vol. 44, p. 271.

(37) *De Symbol. ad Catechumen.*, L. 2, c.1 (t6. p. 556d); (Bingham, p. 137).

للشرور والأمراض: [هل بعد الصليب وموت ربنا نعود ونضع ثقتنا في طواطم وثنية؟ أم تجهلون المعجزات التي صنعها الصليب؟ كيف أنه أبطل الموت وأطفأ الخطية وأفرغ الجحيم ممن كانوا فيه وحل قوة الشيطان؟ فهل لم يعد الصليب نافعاً ليشفي من مرض جسدي؟][٣٨]

٢ ـ المسحة بزيت الأكسورسزم (طرد الشياطين) وعلامة الصليب قبل المعمودية

وهي المسحة التي تسبق المعمودية وهي تُعمل إعداداً للمعمودية، وتُجرى بعد الاعتراف بالإيمان مباشرة بحسب ما جاء في وثيقة المراسيم الرسولية. ولكن القديس كيرلس الأورشليمي يضعها بين جحد الشيطان والاعتراف بالمسيح. وأمَّا القديس يوستين الشهيد فلم يذكرها ولا ترتليان، لأن المسحة التي يذكرها ترتليان في عظاته هي المسحة الرسمية التي تكون بعد المعمودية، أي المسحة بدهن الميرون المقدَّس للتثبيت مع وضع اليد لكي يستلموا الروح القدس. وهذا يكشف أن مسحة الزيت التي قبل المعمودية هي إلى حدٍّ ما أحدث في دخولها طقس المعمودية من مسحة الميرون بعد المعمودية.

والقديسون بعد ذلك كانوا واضحين جدًّا في ذكر **مسحتين**: واحدة قبل المعمودية وهي مسحة زيت الأكسورسزم، أي لطرد الأرواح النجسة، وهي بدهن أعضاء الجسم كله. وهذه المسحة الأُولى التي لطرد الشياطين تسمَّى مسحة الزيت المستيكي χρίσιν μυστικοῦ ἐλαίου، والمسحة الثانية بعد العماد وتسمَّى مسحة الميرون χρίσιν μύρου أو χρίσμα وهي هبة لأن فيها بوضع اليد يستلم المعمَّد بعد التعميد الروح القدس. وفي البداية كان الأسقف هو الذي يُجري المسحتين، وكتاب المراسيم الرسولية يعطينا نص التكريس المستخدم بواسطة الأسقف، فقبل المعمودية يستخدم زيت الزيتون العادي، وينبغي على الأسقف:

+ [أن يدعو على الزيت باسم الله الآب غير المبتدئ أبي المسيح وملك كل الطبائع العاقلة، لكي يقدِّس الزيت باسم الرب يسوع ويمنحه نعمة روحية، وقوة مؤثِّرة حتى يكون نافعاً لمغفرة الخطايا ويعد المعمَّدين لتقديم اعترافهم، حتى أن الذي يُدهن به يصير خالياً من كل عدم تقوى ويستحق قبول المعمودية حسب

---

(38) *Hom. 21 ad Pop.* Antioch., t. 1, p. 275; (Bingham, p. 139).

أمر الابن الوحيد.](٣٩)

والذي يقوم بتكريس هذا الزيت هم الأساقفة فقط في كل قوانين المجامع المقدَّسة، وسنرى ذلك بالأكثر حينما نأتي إلى ذكر تكريس زيت مسحة الميرون.

والزيت الأول يُسمَّى في كتاب المراسيم الرسولية: الزيت السرائري mystical oil والمسحة الثانية التي بعد العماد وهي للتثبيت تسمَّى المسحة السرائرية mystical chrism. وكان مَنْ يدهن بزيت إخراج الشياطين المُصلَّى عليه إمَّا أسقف موهوب أو كاهن أو حتى شمَّاس مقتدر في إخراج الأرواح الشريرة أو حتى واحد من عامة الشعب يُرسم خصيصاً لإخراج الشياطين ـ فكان بمجرَّد الصلاة على الموعوظ فإن كان به لمسة شيطان يخرج منه الشيطان بصراخ. فكان طقس جحد الشيطان عملاً هاماً وخطيراً ومخيفاً يهابه كافة الناس.

ـ والقديس كيرلس الأُورشليمي يتكلَّم عن المسحة الأولى فيقول:

+ [بعدما خلعتم ملابسكم دُهنتم ابتداء من شعر رؤوسكم حتى أقدامكم بهذا الزيت الذي للاكسورسزم أي لإخراج الأرواح النجسة ـ حتى أنكم بذلك صرتم أهلاً أن تشتركوا في الزيتونة الطيبة فصرتم شركاء في دسم الزيتونة الحقيقية. لذلك فإن زيت الأكسورسزم كان رمزاً لاشتراككم في دسم المسيح. وأيضاً كما أن النفخ على من به روح نجس بواسطة أشخاص قديسين واستدعاء اسم الله عليه يكونان كلهيب نار محرقة تطرد الشياطين لتفرّ منه، هكذا أيضاً زيت الأكسورسزم هذا باستدعاء الله وبالصلاة قد اكتسب هذه القوة، ليس فقط ليحرق ويطرد كل آثار الخطية، بل ليطرد أيضاً كل قوات الشر غير المنظورة.](٤٠)

ـ والقديس أمبروسيوس يقارن ذلك بدهن جسم المصارعين قبل أن يدخلوا حلبة الصراع:

+ [أنت أتيت إلى المعمودية ... ومُسحت كبطلٍ للمسيح لتحارب حرب العالم.](٤١)

ـ وهناك نص منسوب إلى يوستين الشهيد يقول مميِّزاً بين المسحتين:

+ [المعمَّدون يُمسحون أولاً بالزيت القديم حتى يكونوا مسحاء الله. ولكنهم بعد ذلك يُمسحون بالميرون

(39) *Apostolic Constitutions,* VII, 42; ANF VII, pp. 476,477.

(40) *Catech.* 20,3, (= *Catech. Myst.* 2,3); NPNF, 2nd ser., vol. VII, p. 147.

(41) *De Sacramentis,* 1, ch. 2 (4); The Fathers of the Church, vol. 44, p. 270.

الكثير الثمن بعد المعمودية، تذكاراً لذلك الذي اعتبر دهنه بطيب الناردين تكفيناً له[(٤٢)]

ـ وشهادة ذهبي الفم لهذه المسحة:

+ [إن المتقدِّم للمعمودية يُمسح كما يُمسح المصارعون قبل أن يدخلوا حلبة المصارعة، فهو لا يُمسح على الرأس فقط مثل كهنة العهد القديم ولكن بفيض أكثر. فإن الكاهن قديماً كان يُمسح فقط على الرأس والأذن اليمنى واليد (لا ٨: ٢٣و٢٤) ليتعلَّم الطاعة والأعمال الصالحة، ولكن هذا (المعمَّد) يُمسح على كل جسمه لأنه لم يأتِ فقط ليتعلَّم بل ليصارع ويدرِّب نفسه وينتقل إلى خليقة أخرى.][(٤٣)]

علامة الصليب (وليس الختم):

الرشم بعلامة الصليب هنا قبل المعمودية هو غير علامة الصليب الرسمية التي يأخذها المعمَّد على جبهته بيد الأسقف نفسه في نهاية المعمودية، وتُسمَّى الختم σφραγίς.

ـ والكتاب المنسوب لديونيسيوس الأريوباغي يقول:

+ [الأسقف يبتدئ بأن يرشم (المعمَّد بعلامة الصليب) ثلاث مرَّات ثمَّ يرسله للكهنة لكي يدهنوا جسمه كله. بينما يذهب الأسقف إلى المعمودية ليقدِّس الماء.][(٤٤)]

نكتفي بهذا لأن كثيراً من شهادات الآباء جاءت متداخلة بين المسحة الأُولى والمسحة الثانية وسوف نفرد مقالة خاصة للمسحة الثانية: مسحة التثبيت أي الختم بعد العماد.

٣ ـ تقديس ماء المعمودية للتعميد

بعد انتهاء الأسقف من مسحة زيت الأكسورسزم واعتراف المعمَّدين وجحدهم للشيطان وتوثيق العهد مع المسيح، يترك المعمَّدين بيد الكهنة ويذهب هو لبيت المعمودية ليكرِّس ويقدِّس ماء المعمودية ويجعله جاهزاً للميلاد الثاني، كما قرأنا في الكتاب المنسوب لديونيسيوس:

+ [بينما يكمِّل الكهنة مسح المعمَّد على جميع أجزاء جسمه يذهب الأسقف ويأتي إلى "أم التبني" ἐπὶ τὴν μητέρα τῆς υἱοθεσίας (هكذا يدعون جرن المعمودية)، وبواسطة الاستدعاء يُقدِّس الماء

(42) *Respons. ad. Orthodox. quaest.*, 137, (Bingham, p. 161).
(43) *Hom. 6. in Col.*, NPNF, 1st ser., vol. XIII, p. 287.
(44) *Hierarch. Eccles.*, C. 2, part. 2, n.7 (Bingham, p. 162).

وهو يصب من دهن الميرون على هيئة صليب.[(٤٥)

ـ والاستدعاء على الماء هو لتكريسه بالصلاة بالاسم، ويذكره ترتليان:

+ [يُحسب الماء أنه سر التقديس بالدعاء باسم الله عليه، فالروح ينزل مباشرة من السماء ويستقر على الماء يقدِّسه بنفسه والماء يتقبَّل طبيعة قوة التقديس.[(٤٦)

ـ والقديس كبريانوس يُعلن:

+ [إن الماء يجب أن يتقدَّس أولاً بواسطة الأسقف لتكون فيه القدرة على أن يغسل الخطايا بواسطة المعمودية.[(٤٧)

ـ كذلك مجمع قرطاجنة المعاصر للقديس كبريانوس يقرِّر:

+ [إن الماء يتقدَّس بصلاة الكاهن ليغسل الخطية.[(٤٨)

ـ والقديس أوغسطينوس يذكر تقديس الماء بواسطة الاستدعاء:

+ [إن الاستدعاء يُستخدم سواء لتكريس الماء في جرن المعمودية أو لتقديس الزيت للمسحة أو في الإفخارستيا أو في وضع اليد. وتصبح الأسرار سارية المفعول بالاستدعاء حتى وإن كان الذي يباشرها إنساناً خاطئاً.[(٤٩)

ـ صلاة قديمة يقدِّمها كاتب المراسيم الرسولية بعنوان: "صلاة شكر تُقال على الماء السرِّي (مستيكي)":

+ [فالأسقف يبارك ويمجِّد الرب الإله القادر على كل شيء أبا الابن الوحيد، يعطيه الشكر لأنه أرسل ابنه ليتجسَّد من أجلنا حتى يخلِّصنا، واحتمل التأنُّس صائراً مطيعاً في كل شيء، كارزاً بالملكوت وغفران الخطايا وقيامة الأموات. ثمَّ يقدِّم العبادة اللائقة للابن الوحيد الإله معطياً الشكر من أجله للآب لأنه احتمل أن يموت من أجل الجميع على الصليب تاركاً لنا مثالاً لهذا الموت في معمودية الميلاد الجديد. ثمَّ إنه يمجِّد الله سيد الكل لأنه في اسم المسيح وبالروح القدس لم يرذل جنس البشر بل أظهر في الأزمنة

(45) *Ibid.*
(46) *On Baptism,* 4, ANF, vol. III, p. 671.
(47) Epistle 70, 1, *To Januarius,* The Fathers of the Church, vol. 51, p. 259.
(48) *Ap. Cyprian. n.* 18; (Bingham, p. 167).
(49) *Cont. Parmenian.*, L. 5, c. 20 (Bingham, p. 167).

المختلفة عنايته المتنوعة من نحونا. فأولاً أعطى آدم سكنى الفردوس ليتنعّم، ثمّ أعطاه الوصية بسبب عنايته به، ولمّا أخطأ طرده كما استحق، ولكن بحسب صلاحه لم يطرحه نهائياً ولكنه أدّب ذريته بوسائل كثيرة. وأخيراً في نهاية الدهر أرسل ابنه ليكون إنساناً من أجل البشر وأخذ على نفسه كل مشاعر الإنسان ما عدا الخطية وحدها. ثمّ بعد هذا الشكر يطلب الكاهن من الله من أجل المعمودية فيقول:

انظر من السماء وقدّس هذا الماء. أعطه النعمة والقوة حتى أن كل مَنْ يعتمد فيه بحسب وصية مسيحك يُحسب مصلوباً مع المسيح ومائتاً معه ومدفوناً معه وقائماً معه للتبني الذي بواسطته حتى إذ يموت للخطية يحيا للبر.](٥٠)

استخدام الزيت ورسم الصليب في تقديس الماء:

ومع صلاة التكريس للماء هذه كانت تُستخدم إشارة الصليب ليس على الأشخاص الذين سيُعمَّدون - كما سبق - ولكن من أجل تكريس الماء، وهذا يصفه القديس أوغسطينوس:

+ [إن ماء المعمودية كان يرسم عليه رسم صليب المسيح.](٥١)

الأثر والتحوُّل في ماء المعمودية بعد تقديسه:

وقد لاحظت في أقوال الآباء اعتقادهم بأن ما يحدث لماء المعمودية بعد التقديس هو نفسه الذي يحدث في تقديس الخبز والخمر في الإفخارستيا، لأنهم لا يقولون فقط بحلول الروح القدس على الماء، ولكنهم **يعتقدون بحضور دم المسيح حضوراً مستيكياً في الماء بعد التقديس.**

- فالقديسان غريغوريوس النزينزي(٥٢) وباسيليوس الكبير(٥٣) يقولان عن ماء المعمودية:

+ [ههنا أعظم من الهيكل وأعظم من سليمان وأعظم من يونان] أي المسيح بحضوره المستيكي وقوة دمه.

- والقديس أوغسطينوس يقول:

+ [البحر الأحمر كان إشارة إلى معمودية المسيح. ولكن كيف تُحسب معمودية المسيح حمراء إلاَّ لكونها تقدَّست بدم المسيح؟!](٥٤)

(50) *Apostolic Canstitutions,* VII, 43; ANF, vol. VII, p. 477.
(51) Hom. 27. ex 50. t. 10. p. 175. (Bingham, p. 171).
(52) *Oration 40, 27, On Holy Baptism,* NPNF, 2nd, ser., vol. VII, p. 369.
(53) *De Bapt.,* I, 2 (Bingham, p. 172).
(54) *On the Gospel of St. John,* Tract. XI, 4; NPNF, 1st ser., vol. VII, p. 76.

ـ والقديس جيروم يشرح قول إشعياء النبي: «اغتسلوا تنقّوا ...» (إش ١:١٦) بأنه يعني:
+ [اعتمدوا في دمي بعمودية الميلاد الثاني.](٥٥)

ـ والقديس كيرلس الإسكندري يقول في تعليقه على نجاة بني إسرائيل بدم خروف الفصح:
+ [نحن في المعمودية نصير شركاء للحَمَل الروحاني.](٥٦)

ـ كذلك القديس غريغوريوس النزينزي يقول:
+ [إن كنت تتقوّى بهذا الختم وتتسلّح بأفضل وأقوى المعونات بمسح جسمك ونفسك كليهما بهذه المسحة، كما تمّ لبني إسرائيل في القديم بدم الخروف البكر الذي حفظهم، فأي شيء يمكن أن يضرك؟](٥٧)

ـ والقديس يوحنا ذهبي الفم يقول للذين سيُعمَّدون:
+ [إنكم ستأخذون الحلة الملوكية! إنكم ستلبسون الثوب البرفيري الأحمر المغموس في دم السيد!](٥٨)

ـ وأيضاً يقول للذي سيقبل العماد:
+ [إنك في الحال ستأخذ الرب داخلك، ستتحد بجسده، ستلتصق بذلك الجسد الكائن في العلا حيث لا يقرب منك شيطان.](٥٩)

ـ والقديس كيرلس الإسكندري يقول:
+ [بقوة الروح القدس فإن الماء الطبيعي المحسوس "يتحوّل في صميم طبيعته ἀναστοιχειοῦται" إلى قوة إلهية غير منطوق بها.](٦٠)

ـ ويقول أيضاً القديس كيرلس الإسكندري بالتحوُّل Transelementation = μεταστοιχείωσις بالنسبة لخبز وخمر الإفخارستيا. وهذا الاصطلاح هو الذي أخذته الكنيسة وعلماء اللاهوت بعد ذلك ونطقوه transubstantiation أي تحوُّل الطبيعة وهو

(55) *In Esai.*, 1, 16 (Bingham, p. 172).
(56) *In Exod.* 12, L. 2. (t. 1, p. 270b); (Bingham, p. 173).
(57) *Oration* 40, 15, *On Holy Baptism*, NPNF, 2nd ser., vol. VII, p. 364.
(58) *Baptismal Instruction IX*, 3; Ancient Christian Writers, vol. 31, p. 132.
(59) *On Colossians*, Hom. 6, NPNF, 1st ser., vol. XIII, p. 287.
(60) *On St. John*. 3, 5.

الحاصل في خبز وخمر الإفخارستيا المتحوّلان بالتقديس إلى جسد المسيح ودمه. فهو هنا يقول بتحوُّل طبيعة الماء لتكون طبيعة حيَّة إلهيـة لهـا القـوة والقـدرة بـالروح القـدس والاستدعاء بالاسم لتُخرج بنين أي تلد، بمعنى أن يصير مـاء المعمودية لـه قـدرة على الـولادة بـالروح القدس كما قال المسيح تماماً: «تولدوا من الماء والروح».

- والقديس كيرلس الأُورشليمي يقول هذا ولكن بالنسبة **للزيت** أنه بعـد الاستدعاء والتقديس يتحوَّل بمثل ما يتحوَّل الخبز والخمر في الإفخارستيا:

+ [احترس من أن تحسب هذا الدهن دهناً عادياً، لأنه كما أن الخبز في الإفخارستيا بعد استدعاء الروح القدس لم يعد بعد خبزاً ساذجاً بل جسداً للمسيح، هكذا هذا الدهن (الميرون) المقدَّس بعد الاستدعاء لم يعد دهناً ساذجاً أو عادياً، بل قد صار عطية المسيح، وقد صار قادراً بحلول الروح القدس عليه أن يمنح شركة في الطبيعة الإلهية.](٦١)

- ويشترك معه القديس غريغوريوس النيسي بقول مشابه لذلك(٦٢).

٤ - العماد(٦٣)

العماد بالانغمار أي الغطس = Immersion، وكان هو الطقس الجـاري منـذ بـدء المعمودية في كافة الكنائس، لأن المعمودية طقسها وروحها وفلسفتها اللاهوتية هي الموت والدفن مع المسيح ثـمَّ القيامة مع المسيح، وذلك تعبيراً عن موتنا للخطية وقيامتنا للبر.

أمَّا ضرورة خلع الملابس فهو تمَّ بحسب طقس وترتيب دهن زيت مسـحة الأكسورسـزم، حيـث يلزم أن يتعرَّى الموعوظ كاملاً للمسح بالزيت في كـل أعضائـه وذلـك في غرفـة مظلمـة، الـتي فيهـا يجحد الشيطان ويصنع عهداً مع المسيح للالتحاق في خدمته وطاعته والعمل بوصاياه. فبعـد مسـحة الزيت لإخراج الشيطان وبعد جحد الشيطان والتعهُّد بالالتصاق بالمسيح، يُقـاد إلى جـرن المعمودية

(61) *Catech.* 21, 3 (= Catech. Myst. 3,3), NPNF, 2nd ser., vol. VII, p. 150.

(62) *On the Baptism of Christ*, NPNF, 2nd ser., vol. Y, p. 519.

(٦٣) النصوص اليونانية واللاتينية لأقوال جميع القديسين المثبتة في هذا الفصل موجودة في كتاب:

The Works of the Rev. Joseph Bingham, Oxford, 1855, vol. IV, pp. 177 ff.

وسوف نشير في الحواشي السفلية إلى مواضعها في الطبعات الإنجليزية لأقوال الآباء مثل: ANF, NPNF.

حيث ينزل إلى الماء. وكان خلع ملابس الموعوظ لجحد الشيطان ومسحة الزيت تعبيراً عن خلع جسم خطايا البشرية (كو ٢:١١).

وإذ ينزل الموعوظ بعد مسحة الأكسورسزم إلى الماء يرشده الكاهن **كيف يغطس تحت الماء برأسه وكل جسمه**، وطبعاً تستثنى حالات المرض والعجز، فكان يُستخدم دفق الماء على الرأس أو الرش.

- والقديس ذهبي الفم يتكلّم عن العري قبل النزول إلى المعمودية فيقول:

+ [يصيرون عرايا في حضرة الله مثل آدم، غير أن آدم تعرَّى لأنه أخطأ (أي تعرَّى من النعمة)، أمَّا هنا (في المعمودية) فالإنسان يتعرَّى ليخلع عنه الخطايا التي لبسها. فالأول خلع المجد الذي كان له، ولكن الآخر يخلع إنسانه العتيق بسهولة مثلما يخلع ملابسه.](٦٤)

- والقديس أمبروسيوس يقول:

+ [يأتون عرايا إلى المعمودية كما جاءوا عرايا إلى العالم – فكيف يكون مُخجلاً أو غير لائق أن الإنسان كما وُلد عرياناً يُعمَّد عرياناً ثمَّ يذهب إلى السماء غنياً](٦٥)

- والقديس كيرلس الأُورشليمي يقول:

+ [أول ما دخلتم إلى داخل المعمودية (غرفة داخلية) خلعتم ملابسكم، الذي هو رمز خلع الإنسان العتيق مع أعماله، وهكذا وقفتم عرايا بشبه المسيح على الصليب الذي بعريه «جرَّد الرياسات والسلاطين وأشهرهم جهاراً ظافراً بهم في الصليب» (كو ٢:١٥) ... فأنتم صرتم عرايا في منظر الناس ولكن غير خجلين كالإنسان الأول آدم الذي كان عرياناً في الفردوس (قبل السقوط) ولم يخجل.](٦٦)

ولا نجد في التقليد أي استثناء من هذا العري قبل العماد: رجالاً أو نساءً أو أطفالاً، ما عدا المرضى. ولكن بالرغم من ذلك لم يكن في الكنائس عدم لياقة في هذا الأمر قط، **لأن الأعمال الجارية في المعمودية مقسَّمة قسماً للرجال وقسماً للنساء، كما أن معمودية الرجال كانت في موعد خاص غير موعد النساء.**

المعمودية كانت بالغطس:

الأشخاص الذين يذهبون إلى جرن المعمودية (وكان عادة عميقاً يمكن للرجل البالغ إذا طأطأ

(64) *Homily 6 on Colossians*, NPNF, 1st ser., vol. XIII, p. 287.
(65) *Serm.* 20. (in Edit. Paris 1642), cited by Binghaum, *op. cit.*, p. 178.
(66) *Catech.* 20,2 (= *Catech. Mystagog.* 2,2); NPNF, 2nd, ser., vol. VIII, p. 147.

رأسه قليلاً أن يكون مغموراً كله بالماء) كانوا ينزلون إلى جرن المعمودية. فإذا أُعطوا الأمر بذلك يخفضون رؤوسهم لتكون تحت سطح الماء. وبولس الرسول تكلّم كثيراً عن الدفن في الماء لنشترك في دفن المسيح: «فدفنّا معه بالمعمودية للموت حتى كما أُقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضاً في جدة الحياة» (رو ٦:٤)، وأيضاً: «مدفونين معه في المعمودية التي فيها أُقمتم أيضاً معه بإيمان عمل الله الذي أقامه من الأموات» (كو ٢:١٢). فكان هذا الإجراء بالدفن في الماء تحت سطح الماء إلى لحظة، إجراءً رتّبه الآباء الرسل وصار نظاماً عاماً للكنيسة. وكاتب المراسيم الرسولية يقول:

+ [إن المعمودية تُعطَى في موت الرب يسوع (رو ٦:٣ اعتمدنا لموته) والماء يماثل الدفن معه.](٦٧)

ـ وذهبي الفم يتكلّم عن الغطس كشركة في الدفن مع المسيح بل وفي نزوله إلى الجحيم:

+ [حينما نعتمد ونغمر تحت الماء ثمَّ نصعد مرّة أخرى من الماء فهذا يشير إلى نزولنا مع المسيح إلى الجحيم ثمَّ صعودنا معه من هناك. ولذلك أيضاً دعا بولس الرسول المعمودية دفناً قائلاً: «فدفنا معه بالمعمودية للموت» (رو ٦:٤).](٦٨)

ـ وفي مكان آخر يقول:

+ [عندما نُغطّس رأسنا تحت سطح الماء وكأنها في قبر، يكون إنساننا العتيق قد دُفن، وعندما نقوم ثانية يكون الإنسان الجديد هو الذي قام.](٦٩)

ـ القديس كيرلس الأُورشليمي يجعلها رمزاً للروح القدس المنسكب على الرسل:

+ [و كما أن الذي يغطس في الماء ويعتمد يحوطه الماء من كل جهة، هكذا اعتمد الرسل كليةً بالروح القدس. وإن كان الماء يحيط بخارج الإنسان فقط، فالروح القدس يعمّد النفس أيضاً في الداخل بطريقة كاملة.](٧٠)

ـ ويقول القديس أمبروسيوس:

+ [أنت سُئلت هل تؤمن بالله الآب الضابط الكل؟ فأجبت أنا أومن وبعدها غطست في الماء أي دُفنتَ.](٧١)

---

(67) *Apostolic Constitutions*, III, 17; ANF, vol. VII, p. 431.
(68) *Homily 40 on I Cor.*, NPNF, 1st ser., vol. XII, p. 245.
(69) *Homily 25 on St. John*, (on John 3:5); NPNF, 1st. ser., vol. XIV, p. 89.
(70) *Catech.* 17, 14; NPNF, 2nd ser., vol. VII, p. 127.
(71) *On the Sacraments*, II, ch. 7 (20); The Fathers of the Church, vol 44, p. 286.

ثلاث غطسات بالضرورة:

الغطس تحت الماء الذي هو الصورة الأساسية للعماد يتكرَّر ثلاث مرَّات. ويقول ترتليان عن الجاري في أيامه:

+ [نحن لا نغطس مرَّة واحدة بل ثلاث مرَّات بأسماء الثالوث الأقدس.](٧٢)

- والقديس أمبروسيوس واضح في هذا الأمر:

+ [قد سئلت: هل تؤمن بالله الآب الضابط الكل؟ فأجبت: أنا أومن، ثمَّ غطست في الماء أي دُفنت، ثمَّ سُئلت أيضاً: هل تؤمن بيسوع المسيح ربنا وبصليبه؟ فأجبت: أنا أومن، وغطست أيضاً وهكذا أنت دُفنت مع المسيح، ولكن الذي يُدفن مع المسيح يقوم مع المسيح، ثمَّ سُئلت مرَّة ثالثة: أتؤمن بالروح القدس؟ فأجبت: أومن، وحينئذ غطست ثالث مرَّة. وهكذا باعترافك المكرَّر ثلاث مرَّات غُفرت خطايا حياتك السابقة الكثيرة.](٧٣)

هناك سببان لهذا الإجراء: الأول ليمثِّل دفن المسيح ثلاثة أيام وقيامته في اليوم الثالث، والأمر الثاني لكي يوضِّح ويمثِّل الاعتراف بالإيمان بالثالوث الأقدس الذي باسمه يعتمد الموعوظ. أمَّا السبب البديع الذي قاله القديس كيرلس الإسكندري فهو أن التكرار ثلاث مرَّات هو للتشبُّه بالرب يسوع بعد القيامة حينما سأل ق. بطرس ثلاث مرَّات: «أتحبني يا بطرس» فأجاب القديس بطرس لثلاث مرَّات: «أنت تعلم يا رب إني أحبك». فهنا التكرار ثلاث مرَّات تدبير إلهي لتثبيت اعتراف الشخص أنه يؤمن ويُحب.

- والقديس جيروم يقول:

+ [إننا نغطس في الماء ثلاث مرَّات إظهاراً لسر الوحدة في الثالوث ... فمع أننا نغطس ثلاث مرَّات في الماء إشارة إلى الثالوث لكن تُحسب المعمودية واحدة.](٧٤)

(72) *Cont. Prax.* C. 26; ANF, vol. III, p. 623.
(73) *On the Sacraments,* II, ch. 7 (20); The Fathers of the Church, vol. 44, p. 286.
(74) *In Eph.* 4, L. 2, p. 222 (t. 7, p. 610 c); Bingham, p. 190).

٥ ـ مسحة دهن الميرون ـ الختم المقدَّس σφραγίς
(سر التثبيت عند اللاتين)

بعد خروج المعمَّد من مياه المعمودية مباشرة يقدِّمونه للأسقف لينال البركة، وهي عبارة عن صلاة مهيبة من أجل حلول الروح القدس على المعمَّد، ويتصل بهذه الصلاة عادة الاحتفال بالمسحة الثانية ووضع اليد ورسم الصليب، وهذه العملية كلها تُدعى: "المسحة χρῖσμα". "ووضع اليد χειροθεσία" (الشرطونية)، وعلامة الصليب للختم σφραγίς، وهي أسماء هامة ومتداولة في الكنيسة منذ القدم. أمَّا كلمة: "تثبيت" فهي كلمة حديثة من اختراع الكنيسة اللاتينية Confirmation، وهي كلها لا تخرج عن معنى صلاة الأسقف لحلول الروح القدس على المعمَّد الجديد ـ وكانت تمارس مع المعمودية وبعدها مباشرة. إلاَّ في حالة مرض أو لغياب الأسقف، ويقول ق. جيروم: إن العادة المتبعة أن الأساقفة يذهبون ليصلُّوا من أجل حلول الروح القدس على المعمَّدين الجدد(٧٥). وبسبب تهرُّب الأساقفة من هذه المهمة أصدرت المجامع قوانين مشدَّدة على الأسقف أن يمارس هذه الخدمة الأساسية التي من اختصاصه فقط، ولكن الإهمال أنهى على كل هذا التقليد.

ـ ويقول ترتليان بصراحة:

+ [عند خروج المعمَّدين من الماء كانوا يُدهنون بزيت التكريس، ثمَّ ينالون وضع اليد مع استدعاء الروح القدس ليحل بواسطة هذه البركة.](٧٦)

ـ والقديس كيرلس الأُورشليمي يقول:

+ [عندما خرجتم من بركة المياه المقدَّسة أُعطيت لكم المسحة χρῖσμα بمثال مسحة المسيح التي هي بالروح القدس، والتي تنبَّأ عنها إشعياء المبارك قائلاً بفم الرب: «روح السيد الرب عليَّ لأن الرب

---

(75) *Dialog. adv. Lucifer,* C.4, (Bingham, p. 196).

شرح: كان الأساقفة الأوائل موهوبين فعلاً بالروح القدس ويعطونه لحظة العماد - ولمَّا ضعف الأسقف روحياً كان يكلِّف بذلك أحد الشيوخ الكهنة الموهوبين بالروح. وإلاَّ فكانت أمانة الكنيسة تضطرها لاستدعاء أحد العلمانيين الموهوبين ولهم قدرة على استدعاء الروح القدس. وكانوا يرسمونهم كهنة خاصة لهذا الغرض.

(76) *On Baptism,* 7-8, ANF, vol. III, p. 672.

مسحني» (إش ٦١: ١).](٧٧)

ـ كذلك يذكرها كاتب المراسيم الرسولية وهو يصف احتفالات المعمودية، ويوصي أن يقوم بها الكاهن:

+ [بعد أن يكون عمّده باسم الآب والابن والروح القدس فليمسحه بالميرون μύρῳ χρισάτω قائلاً الصلاة التالية ... لأن هذه هي فاعلية وضع اليد.](٧٨)

ـ كما نجد في حياة ق. باسيليوس كيف أن مكسيموس الأسقف الذي عمّدَ ق. باسيليوس وشخصاً يُدعى Eubulus معه ألبسهما في الحال الثياب البيضاء ودهنهما بالمسحة المقدَّسة Chrism وأعطاهما المناولة(٧٩).

ـ كذلك القديس أمبروسيوس يذكر ذلك عند وصفه طقوس المعمودية(٨٠).

هذا الطقس السرائري يُجرى على الكبار والأطفال الصغار:

لم يكن هذا الطقس خاصاً بالكبار فقط، بل وكان يسري على الأطفال الصغار الذين كانوا يقبلون التثبيت بوضع اليد والمسحة المقدَّسة حالاً بعد أن يعتمدوا. ويقول جناديوس إنهم كانوا بعدها يُعطَون الإفخارستيا.

+ [إذا كان المعمَّدون أطفالاً فليجاوب عنهم الذين يقدِّمونهم بحسب طقس المعمودية المعتاد، ثمَّ يثبِّتونهم بوضع اليد والمسحة Chrism ويسمحون لهم بتناول الإفخارستيا.](٨١)

ـ والقديس أوغسطينوس يقول إنه كان يمارس بنفسه وضع اليد للتثبيت بالنسبة للكبار والأطفال لينالوا الروح القدس(٨٢).

والدليل القاطع على تثبيت الأطفال بوضع اليد والمسحة المقدَّسة هو تناول الأطفال من الإفخارستيا مثل الكبار بطول الزمن في جميع الكنائس.

(77) *Catech.* 21, 1 (= Catech. Mystag. 3,1); NPNF, 2nd, ser., vol. VII, p. 149.
(78) *Apostolic Constitutions,* VII, 43-44; ANF, vol. VII, p. 477.
(79) *Vita Basilii. ap. Amphiloch.* C. 5, (Bingham, p. 198).
(80) *On the Sacraments,* III, ch. 2 (8); The Fathers of the Church, vol. 44, p. 293.
(81) *De Dogmat. Eccles.,* C. 52 [C. 22 Juxt. ec. Bened.]; (Bingham, p. 199).
(82) *Homily 6, 10 on the Epistle of St. John,* NPNF, 1st ser., vol. VII, p. 498.

سر التثبيت لا يُحسب سرًّا قائماً بذاته منفصلاً عن المعمودية:

حدث أن القدماء أحياناً دعوا عملية مسح الميرون المقدَّس للمعمَّد "سرًّا" على أنهما هي والمعمودية سرَّان. وهذا راجع إلى أن كل احتفال لاستدعاء الروح كان يُحسب سرًّا - ولكن الانغماس في الماء بالغطس ومعه المسحة المقدَّسة بدهن الميرون كانا يُسمَّيان معاً بالمعمودية على اعتبار أن المعمودية فيها عدَّة أسرار مقدَّسة. وفي مجمع قرطاجنة تحت رئاسة القديس كبريانوس قال أحد الأساقفة:

+ [لا يكفي للناس أن يتجدَّدوا فقط بوضع اليد لقبول الروح القدس، ولكن يتحتَّم أن يولدوا ثانية بواسطة السرَّين في الكنيسة الجامعة.](٨٣)

وهكذا فإن غسل الماء ووضع اليد، الاثنان معاً يكمِّلان السر Sacrament أي الطقس المقدَّس الذي للخليقة الثانية. والقديس كبريانوس نفسه يقول:

+ [كلا السرَّين لازمان معاً ليصير الناس بهما أبناء الله ولتكميل تقديس الإنسان.](٨٤)

وهنا يقصد بكلمة كلا السرَّين الصلاة التي قيلت في كل من المعمودية والتثبيت.

- لذلك نجد أن إيسيذوروس أسقف سفيللا (سنة ٦٣٢م) يقول :

+ [هناك أربعة أسرار في الكنيسة: المعمودية ومسحة الميرون وجسد المسيح ودم المسيح.](٨٥)

فكما يُقال عن الإفخارستيا وهي سر واحد أن بها سرَّين سر الجسد وسر الدم، هكذا في المعمودية سر الغسل وسر المسحة: هما سرَّان في معمودية واحدة.

أول أخبار المسحة المقدَّسة للتثبيت وصلتنا:

- يُعتبر ترتليان (١٦٠-٢٢٥م) أول مَنْ أخبر عن طقس المسحة المقدَّسة:

+ [بمجرَّد أن نخرج نحن من ماء المعمودية نُمسح بالمسحة المقدَّسة، وبعدها ننال وضع اليد باستدعاء الروح القدس بصلاة بركة (Benediction).](٨٦)

أمَّا أصل هذه المسحة ومتى استُخدمت لأول مرَّة فأمرها مجهول في تاريخ الكنيسة التقليدي - ولكن عندنا نحن الأقباط يوجد تقليد متوارث يحبِّذه العقل ويتحمَّس له الفكر والقلب، وهو أن

(83) Bingham, p. 203.
(84) *Ep.* 72,1 *To Stephen*, The Fathers of the Church, vol. 51, p. 266.
(85) *Origin*, L. 6, C. 19 (Bingham, p. 205).
(86) *On Baptism*, 7,8, (Bingham, p. 220), ANF, vol. III, p. 672.

الميرون المقدَّس المستخدم الآن في الكنيسة القبطية في سر التكريس والتثبيت هو أصلاً حنوط جسد الرب: "مزيج مر وعود نحو مئة مناً" التي أحضرها يوسف الرامي ونيقوديموس بكثرة ودهنا بها الجسد كله ولفّاه بكتّان نقي وأوسدا الجسد القبر. والحاصل أن المسيح قام وترك اللفائف كما هي وتحتها كل الحنوط التي كانت ملاصقة للجسد. أين ذهبت، ومَنْ احتفظ بها؟ هنا يتبادر إلى الذهن أنها أُخذت إلى العلية وكانت أثمن كنز حسِّي ورثته الكنيسة وظلَّ يتقاسمه الرسل ومن بعدهم الآباء الرسوليين لخدمة الأسرار في الكنيسة.

وقد استلمت الكنيسة من مصادر سريَّة كيفية عمل هذه الأطياب نفسها، وكانت تضيف القديم على الجديد. ويقول أحد الآباء القدامى المدعو ثاوفيلس الأنطاكي - وهو مدافع عن الإيمان من الطراز الأول من القرن الثاني، وهو أول مَنْ استخدم كلمة الثالوث في الكنيسة عن الله - هذا القديس قال:

+ [نحن نُدعى مسيحيين لأننا نُمسح بزيت الله.](٨٧)

ويعتبر الآباء أن المسحة هي روحية وسريَّة (مستيكال) وهي أداة سببية لأثار ضخمة. فأصالة تكريس هذه المسحة يجعلها ذات آثار ضخمة في التأثير المباشر على ماء المعمودية وعلى المعمَّدين، مما جعل القديس كيرلس الأورشليمي يعتبر أن مادة الزيت فيها متحوّلة بشبه ما يتحوَّل الخبز والخمر في الإفخارستيا - كما رأينا سابقاً (انظر صفحة ٢٠٢) - والآباء يعتبرون هذه المسحة تكميلاً للمعمودية، فهي تعطيها القوة لتجعل كل مسيحي شريكاً في الكهنوت الملوكي. هذا ما قاله القديس أمبروسيوس(٨٨) وأيضاً القديس جيروم(٨٩) وآخرون. ولهذه المسحة يُعزى تثبيت النفس بقوة الروح القدس ونعمته، هذا من جهة عمل الله المباشر، وتعطي القدرة على الاعتراف والشهادة والتعليم والمحاجاة. وكتاب المراسيم الرسولية يقول عنها:

+ [إن هذا الميرون μύρον يُعتبر تثبيتاً للاعتراف بالإيمان.](٩٠)

+ [وأمَّا الميرون فهو ختم σφραγίς لتعهُّدات المؤمن (بالالتصاق بالمسيح).](٩١)

---

(87) *Ad Autolycum* , I, 12, ANF II, p. 92.
(88) *On the Mysteries,* Ch. VI (30), NPNF, 2nd ser., vol. X, p. 321.
(89) *Dialogue ag. the Luciferians,* 2, NPNF, 2nd ser., vol. VI, p. 321.
(90) *Apostolic Constitutions,* III, 17, ANF, vol. VII, p. 431.
(91) *Ibid.* VII, 22, p. 469.

نص صلاة المسحة بالميرون المقدَّس:

ـ النص المختصر بحسب قانون مجمع القسطنطينية، يقول الأسقف وهو يمسح المعمَّد بالميرون المقدَّس:

+ [ختم وعطية الروح القدس Σφραγὶς δωρεᾶς Πνεύματος ῾Αγίου.] [٩٢]

ولكن هناك صيغة أخرى مطوَّلة يذكرها كاتب المراسيم الرسولية هكذا تحت عنوان "صلاة شكر تُقال عند المسح بالميرون المقدَّس":

+ [أيها الرب الإله غير المولود الذي لا يعلوه أحد وهو رب الكل، الذي نشر معرفة الإنجيل رائحةً طيبةً بين الأمم، امنح أن تكون هذه المسحة ذات فعالية في هذا المعمَّد حتى تثبت فيه رائحة مسيحك الذكية، وحتى أنه كما مات الآن مع المسيح يقوم أيضاً معه.] [٩٣]

ختم الصليب σφραγίς:

مع هذه المسحة يرشمون المعمَّد بعلامة الصليب. وقد تغلغل هذا الطقس في المفهوم اللاتيني حتى أنهم سمُّوا سر التثبيت على اسم هذه العلامة التي تُسمَّى عندهم Consignation والتي بلغت من الأهمية حتى أن طقس المسحة كله دُعي أحيانا بهذا الاسم بدلاً من Confirmation والمقابل في الكنيسة اليونانية وهو أقدم كلمة σφραγίς التي تعني الختم بعلامة الصليب.

وضع اليد:

وهو الطقس الأكثر أهمية والأكثر قدماً وتأصُّلاً في الكنيسة لتسليم الروح القدس. ويستخدم وضع اليد في مناسبات عديدة أهمها التثبيت وإعطاء الحل للتائبين والرسامات الكهنوتية. واعتبر وضع اليد عند اللاتين أهم طقس في سر التثبيت، ولكن ليس هكذا بين اليونان الذين عندهم تأخذ المسحة المقدَّسة الأهمية الأُولى. غير أن كاتب المراسيم الرسولية وفي نفس الصفحة التي يتكلَّم فيها عن صلاة المسحة المقدَّسة يرفقها مباشرة بوضع اليد:

+ [هذه هي قوة وضع اليد الضرورية لكل إنسان، لأن المعمَّد إن لم يصلِّي عليه كاهن تقي هكذا صلاة استدعاء، فإنه يكون قد نزل إلى الماء مثل اليهود ليغتسل فقط من وسخ الجسد وليس من وسخ النفس.] [٩٤]

لذلك فإن وضع اليد يجب أن يرافق المعمودية ويلازمها.

(92) Canon VII, NPNF, 2nd ser., vol. XIV, p. 185.
(93) *Apostolic Constitutions*, VII, 44, ANF, vol. VII, p. 477.
(94) *Ibid.*

وأقدمية وضع اليد تعود إلى أيام الرسل، ثمَّ امتدت في الكنيسة على مثالهم حيث نقـرأ في أسفار العهد الجديد:

+ «حينئذ **وضعا الأيادي** عليهم فقبلوا الروح القدس.» (أع ٨:١٧)

+ «فقال له الرب قم وادخل المدينة فيُقال لك ماذا ينبغي أن تفعل... وقد رأى في رؤيا رجلاً اسمه حنانيا داخلاً **وواضعاً يده عليه** لكي يبصر ... فمضى حنانيا ودخل البيت **ووضع عليه يديه** ... لكي تبصر وتمتلئ من الروح القدس ... فأبصر في الحال وقام واعتمد.» (أع ٩: ٦–١٨)

+ «ولمَّا **وضع بولس يديه عليهم** حلَّ الروح القدس عليهم فطفقوا يتكلَّمون بلغات ويتنبَّأون.» (أع ١٩:٦)

+ «... تعليم المعموديات **ووضع الأيادي** ...» (عب ٦:٢)

– والقديس كبريانوس يستمدها من سفر الأعمال أيضاً هكذا:

+ [نفس العادة تلاحظ اليوم في الكنيسة أن المعمَّدين يتقدَّمون إلى الأساقفة لكي بصلاتهم ووضع أيديهم يتقبَّلون الروح القدس.](٩٥)

– والقديس أوغسطينوس يقول:

+ [لقد علَّمنا آباؤنا الأوَّلون أن نفهم قول الرسول: «لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا» (رو ٥:٥) عن الروح القدس الذي يُعطى في الكنيسة الجامعة فقط بواسطة وضع اليد. لأن هذا الروح هو المحبة الفائقة التي بدونها لا ينفع شيئاً أن نتكلَّم بألسنة الناس والملائكة ولا أن نعرف جميع الأسرار (١كو ١٣: ١و٢) ... والآن هذا الروح المعطَى بواسطة وضع اليد لا يظهر بالضرورة بطرق حسيَّة ملحوظة كما كان في العصر المسيحي الأول من أجل سرعة نشر الإيمان.](٩٦)

فكيف إذن نتحقَّق من حلول الروح القدس فينا؟

+ [«بهذا نعرف أنه يثبت فينا من الروح الذي أعطانا» (١يو ٣:٢٤). فإن وجدت في قلبك محبة لله فاعلم أن الروح القدس فيك ليعطيك كل معرفة. في العصر الأول كان الروح يحل على المؤمنين فيتكلَّمون بألسنة لم يتعلَّموها ... هذه كانت آيات مناسبة لذلك الزمان من أجل سرعة نشر الإيمان في العالم أجمع

(95) *Ep.* 73, 9, *To Jubaian,* The Fathers of the Church, vol. 51, p. 274.
(96) *On Baptism,* III, 16, NPNF, 1st ser., vol. IV, pp. 442,443.

بكافة الألسنة، وهذا كان يحدث من أجل ضرورة معيَّنة وقد مضت. فحينما نضع الأيدي الآن على المؤمنين لينالوا الروح القدس فهل نتوقَّع أنهم يتكلَّمون بالألسنة؟ وإن كان الآن لا توجد مثل هذه المعجزات فكيف يتحقَّق الإنسان أنه قبل الروح القدس؟ فليسأل قلبه: فإن كان يحب الإخوة فروح الله يسكن فيه.](٩٧)

ـ هكذا يستمد القديس أُوغسطينوس معرفته بوضع اليد وحلول الروح القدس من سفر الأعمال بالرغم من غياب التكلُّم بالألسنة والمعجزات، لأن نعماً أخرى كثيرة منحها الروح القدس لتناسب عصرنا الذي نعيش فيه. والمسئول عن سكب الروح القدس هي الكنيسة الحاملة لمجد الرسل كمؤسَّسة رسولية حاصلة على كلمتهم وعملهم وروحهم.

ـ ونلاحظ في (عب ٦ :٢) أنه يقرن "تعليم المعموديات" "بوضع الأيادي" حيث تُقرأ في الشرح المنسوب لأمبروسيوس:

+ [إنه يشير بذلك إلى وضع الأيادي الذي يحدر الروح القدس ويوصِّله، الذي يُعطَى بواسطة الأساقفة (كونهم حاصلين على الروح القدس) بعد المعمودية لتثبيت المعمَّدين في وحدة الكنيسة التي للمسيح.](٩٨)

ـ وقد قدَّم لنا أحد الأساقفة القدامى المجهولين في بداية القرن الخامس هذا التعليم:

+ [نقول إن التثبيت يمنح المعمَّد كمولود جديداً بوضع اليد كل ما ناله المؤمن بحلول الروح القدس (في يوم الخمسين). وقد يسأل الإنسان ماذا ينفع التثبيت بعد أن تعمَّدت؟ وإن كنا بعد المعمودية نشعر أننا محتاجون إلى عمل جديد. أهذا يعني أننا لم نأخذ كل شيء نحتاجه في المعمودية؟ ولكن الحقيقة ليست هكذا، فالروح القدس حافظ ومعزِّي ومعلِّم عظيم للذين وُلِدُوا ثانية في المسيح، كما يقول الكتاب: «إن لم يحفظ الرب المدينة فباطلاً يسهر الحارس» (مز ١٢٧:١)، لذلك فالروح القدس الذي يحل ومعه الخلاص على ماء المعمودية يعطينا كل ما يجعلنا أطهاراً وأبرياءَ وأبراراً. ولكن في مسحة التثبيت يعطينا ازدياداً في النعمة، لأننا طالما نحن في العالم فنحن نعيش بين أعداء غير منظورين ومخاطر. في المعمودية نولد ثانية إلى الحياة الأبدية، ولكن بعد المعمودية ننال تعضيداً للجهاد. في المعمودية نغتسل، ولكن بعد المعمودية نتقوَّى (...) فالتثبيت ضرورة للحياة، تسليح وتحضير المعمَّد ليدخل العالم قادراً على الصراع ويُحارب حروب الرب في هذا العالم (...) والمسيح يقول: «إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن

(97) *On the Epistle of St. John,* Homily VI, 9,10; NPNF, 1st ser., vol. VII, pp. 497,498.
(98) Ambrosiaster, *on Heb* 6,2; (Bingham, p. 229).

تحتملوا الآن. وأمّا متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق» (يو ١٦: ١٢و١٣). لهذا حينما يُعطَى الإنسان الروح القدس يعتلي القلب حكمةً وثباتاً. قبل حلول الروح القدس قَفَل الرسل على أنفسهم الأبواب خوفاً من أن ينكروا المسيح، وبعد أن حلّ الروح القدس انطلقوا يكرزون متسلّحين باحتقار الموت حتى إلى الشهادة بلا حذر من أجل اسمه. فنحن قبلنا الفداء من المسيح ولكن الروح القدس أعطانا الحكمة الروحية والاستنارة والتعليم والنمو حتى إلى منتهى الكمال.](٩٩)

من التعليم الذي وصلنا عاليه من الآباء القدامى نفهم أن فكر الآباء منصب على أن سر التثبيت له ضرورته وأهميته ولزومه بعد سر المعمودية والميلاد الثاني. فالميلاد الثاني يعطي البراءة ومسامحة الخطية، ولكن تجديد الروح القدس يزيد الحكمة والقوة لنحتفظ ونقوِّم هذه البراءة ومسامحة الخطايا حتى الكمال. وبهذا تظهر أهمية التثبيت بالنسبة للمعمَّد وأن لا غنى عنه. وبهذا تأتي القناعة الحتمية بوحدة سر المعمودية وسر التثبيت. وبعد سر التثبيت ليس للإنسان أن ينتظر من عطايا الله سوى التناول من جسد الرب ودمه الكريم، وبعدها الموت الذي يُنهي على المخاطر والحروب، وتبقى النعمة هدية الله العظمى للإنسان.

٦ ـ لبس الحلّة البيضاء

بعد خروج المعمَّد من الماء يلبس فوراً الحُلَّة البيضاء، وتأتي مباشرة قبل مسحة الميرون أي قبل إجراء سر التثبيت. ولكن يذكرها ق. كيرلس الأُورشليمي بعد التثبيت. وهي تعبير عن خلع الإنسان العتيق ولبس الإنسان الجديد (كو ٣:٩و١٠) فيصبح المعمَّدون رعية المسيح البيضاء.

ـ وبالليديوس في كتابه عن: "حياة ذهبي الفم" يذكرها خاصة إذ يقول إنه عندما عمَّد كهنة ذهبي الفم أثناء منفاه ثلاثة آلاف معمَّد في عيد واحد، أرسل الإمبراطور أركاديوس عساكره لتفريقهم "**وهم لابسون ثيابهم البيضاء**"(١٠٠).

وكانت هذه الثياب تسمَّى بحلة المسيح والحلّة المستيكية.

ـ والمؤرِّخ سوزومين حينما تكلّم عن نكتاريوس أسقف القسطنطينية قال إنه بعد معموديته

(99) Eusebius Emissenus (?), *Hom. de Pentecost.* (Bingham, pp. 229-231).
(100) Palladius, *Life of St. John Chrysostom,* 9; (Bingham, p. 235).

نال الرسامة بينما كان لا يزال لابساً ثوب المعمودية الأبيض، لأنه رُسم أسقفاً بعد معموديته مباشرة(١٠١).

- والقديس جيروم يكتب لفابيولا في أسلوب سرِّي:

+ [إننا نغتسل الآن بوصايا الله، وحينما نصير معدِّين لثوب المسيح سنخلع عنّا ثيابنا التي من جلد (أي أجسادنا الأرضية) ونلبس الحلّة البيضاء الكتانية التي ليس فيها موت، بل كلها بيضاء خرجت من مياه المعمودية، فنمنطق أحقاءنا بالحق ونغطّي نجاسات صدورنا.](١٠٢)

طقس لبس الثوب الأبيض بالصلاة:

وكانت هذه الحلل البيضاء تُسلّم للمعمَّدين الجدد الخارجين من مياه المعمودية بدعاء مقدَّس، كما هو مكتوب في كتاب الأسرار لغريغوريوس الكبير:

+ [اقبل هذه الحلّة البيضاء الطاهرة، ليتك تقدّمها غير مدنّسة أمام منبر الرب يسوع المسيح لكي تقبل الحياة الأبدية. آمين.](١٠٣)

وهذه الحلّة البيضاء كانت تُلبس لثمانية أيام ثمَّ تُستودع مخازن الكنيسة للحفظ. والقديس أوغسطينوس يتكلّم عن يوم الأحد بعد أحد القيامة باعتباره الوقت المحدَّد لتسليم هذه الحلّة البيضاء وذلك في نهاية عيد القيامة. وكان هذا اليوم الأحد يسمَّى Dominica in Albis أي الأحد الأبيض بسبب هذه العادة(١٠٤).

٧ - متعلّقات طقس المعمودية

(أ) الاحتفال بالأنوار:

وبالإضافة إلى الاحتفال بلبس الحلّة البيضاء، كان هناك احتفال بحمل الأنوار، وهي عبارة عن شموع مضاءة في أيديهم، وهي مذكورة عند ق. غريغوريوس النزينزي في عظة بعد المعمودية:

---

(101) Sozomen, *H.E.*, VII, 8, NPNF, 2nd ser., vol. II, p. 381.

(102) *EP. 64 to Fabiola;* (Bingham, p. 235).

(103) *De Bapt. Infant.* (ap. Pamelii Liturgica); (Bingham, p. 236).

(104) *Hom. 86 de Divers. in Octav. Pasch.;* (Bingham, p. 236).

+ [إن وقوفك بعد المعمودية مباشرة أمام الهيكل العظيم هو مثال سابق للمجد العتيد. وتسبحة الأبصلمودية التي تُستقبل بها هي سبق تذوُّق تسابيح وأغاني الحياة الفُضلى الآتية. والمصابيح التي ستوقدها هي صورة سرائرية لمصابيح الإيمان التي ستحمل النفوس العذارى المضيئة ببهاء سماوي التي ستتقدَّم بها لمقابلة العريس.](١٠٥)

+ «فليضيء نوركم هكذا قدَّام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجِّدوا أباكم الذي في السموات.» (مت ٥:١٦)

- وفي عماد الشخصيات الكبيرة كان القوم كلهم يلبسون الملابس البيضاء ويحملون الأنوار والمصابيح المضاءة، كالذي حدث في عماد ثيئودوسيوس الصغير:

+ [كان الاحتفال من الكنيسة حتى القصر فخماً إلى أقصى حد، حيث كان قوَّاد الشعب والحكومة مدثَّرين بالثياب البيضاء وكأن الثلج يغطيهم، وكل السيناتور وعلياء القوم والجنود بكل رتبهم يحملون المصابيح المضاءة وكأن النجوم نزلت على الأرض.](١٠٦)

(ب) اللبن والعسل:

وقد اعتادت الكنيسة أيضاً أن تذيق المولودين الجدد بالروح قليلاً من اللبن والعسل. والقديس جيروم يقول إن السبب في ذلك أن المعمَّد صار طفلاً على مستوى الروح وقد اختير ليدخل عائلة الله. وترتليان يقول إنها عادة الكنيسة الجامعة الرسولية وقد أخذها الهراطقة. والقديس بطرس يقول: «وكأطفال مولودين الآن اشتهوا اللبن العقلي (الكلمة) العديم الغش» (١بط ٢:٢)، لأن اللبن يشير إلى براءة الطفل. والقديس كليمندس الإسكندري يقول:

+ [حالما نولد يعطوننا لبناً الذي هو غذاء الرب (الطبيعي)، وعندما نولد ثانية نُكرَّم برجاء الراحة بوعد أورشليم العليا التي يُقال عنها إنها تفيض لبناً وعسلاً. وبهذه الأشياء المادية يتثبَّت رجاؤنا في الطعام الفائق.](١٠٧)

- ومن المجمع الثالث لقرطاجنة نعلم أن هذا اللبن والعسل لهما تكريس خاص غير الإفخارستيا:

+ [إنه يقدَّم على المذبح في اليوم العظيم (يوم السبت الكبير قبل القيامة وهو زمن مقدَّس جداً للتعميد) وتُقال عليه

(105) *Oration 40, On Holy Baptism*, 46; NPNF, 2nd ser., vol. VII, p. 377.
(106) *Epistle of Marcus Gazenzis*, published by Baronius, An. 401. (Bingham, p. 239).
(107) *Paedagogus*, I, 6, ANF, vol. II, p. 220.

بركة خاصة بسر المولودين الجدد وهي غير ما يُقال في سر جسد الرب ودمه.][(١٠٨)]

(ج) صلاة أبانا الذي:

بعدها تُقال صلاة يا أبانا الذي (يا أبا الآب) لأن بالمعمودية والتثبيت يتقرَّر المولود أنه قد صار ابناً لله وأحد أفراد أسرة الله، وقد صار فيه الروح يصرخ يا أبا الآب. ويصرَّح له أن ينادي الله «يا أبانا» بالصيغة التي أملاها الرب. وكاتب المراسيم الرسولية يقول:

+ [فليقف (المعمَّد) بعد ذلك وليقل الصلاة التي علَّمنا إياها الرب. ومن الواجب أن الذي قام (مع الرب) يقف مستقيماً وهو يصلِّي، فهو قد مات مع المسيح وقام معه، إذن فليقف مستقيماً. وليصلِّي متجهاً نحو الشرق ... ثمَّ يقول الصلاة التالية: "يا الله الآب ضابط الكل أبا مسيحك ابنك الوحيد، أعطني جسداً غير دنس وقلباً نقياً وعقلاً صاحياً ومعرفة غير مخطئة وحلول روحك القدوس، حتى أحصل على الحق وعلى يقين الحق في مسيحك الذي به لك المجد في الروح القدس إلى الأبد. آمين."][(١٠٩)]

ـ والقديس يوحنا ذهبي الفم أيضاً يذكر تلاوة صلاة أبانا بعد الصعود من ماء المعمودية[(١١٠)]. ويكون المعمَّدون الجدد واقفين بانتصاب كمشتركين في جسد المسيح الجالس في أعلى السموات. وهذه هي المرَّة الأُولى التي يُسمح لهم بتلاوة هذه الصلاة في الكنيسة لأنهم قد صاروا أولاد الله بالتبني والاختيار، مع أنهم يكونون قد حفظوها منذ زمن بعيد. ولكن لا يُسمح لهم أن يقولوها جهاراً في الكنيسة إلاَّ بعد المعمودية.

(د) حفل استقبال المعمَّدين:

ـ القديس غريغوريوس النزينزي يذكر كيفية استقبالهم بالأبصلمودية (التسبيح) إذ يقول مخاطباً الموعوظ الذي سينال المعمودية: [والتسابيح التي ستُستقبل بها هي سبق مذاق التسابيح التي ستقال في الحياة الأبدية.][(١١١)] ربما المزمور (١١٨) الذي فيه الكلمات «هذا هو اليوم الذي صنعه الرب فلنفرح ونبتهج فيه» لأن القديس أوغسطينوس عندما يذكر عيد القيامة يشير إلى هذا المزمور وهذا العدد منه بالذات:

+ [هذا هو اليوم ـ يا أحبائي ـ الذي صنعه الرب وهو أعلى من كل الأيام وأبهى منها جميعاً، الذي فيه اقتنى

(١٠٨) القانون ٢٤ لمجمع قرطاجنة الثالث (Bingham, p. 242).
(109) *Apostolic Constitutions*, VII, 44-45; ANF, vol. VII, p. 477.
(110) *Homily 6 on Colossians*, NPNF, 1st ser., vol. XIII, p. 287.
(111) *Oration 40, on Holy Baptism*, 46; NPNF, 2nd ser., vol. VII, p. 377.

لنفسه شعباً جديداً بروح الخليقة الثانية الجديدة وملأ عقولنا بالفرح والابتهاج.»[112]

وباولينوس يقول إنهم ينشدون هلليلويا في هذه المناسبة.

الإفخارستيا:

بعد أن تنتهي خدمات المعمودية كلها، كان يتقدَّم المعمَّدون الجدد ليشتركوا في مائدة الرب، باعتبار أنها τὸ τέλειον أي الكمال، أي منتهى الكمال المسيحي. ويعتبرونها الإحسان الإلهي المباشر بعد المعمودية، وهي نفسها تُعطى لكبار السن والأطفال.

(112) *Serm. 163. de Temp.*, (Bingham, p. 244).

الفصل الرابع

الجزء الوعظي

عظات الآباء الأساقفة العظام على المعمودية

الفصل الرابع

الجزء الوعظي

عظات الآباء الأساقفة العظام على المعمودية

١ ـ عظات القديس يوحنا ذهبي الفم للمعمَّدين

للقديس يوحنا ذهبي الفم اثنتا عشرة عظة عن المعمودية ألقى بعضها على الموعوظين والبعض الآخر على المعمَّدين الجدد. وقد تُرجمت جميعاً إلى الإنجليزية[١] ومن ضمنها ثمان عظات (رقم ١-٨) اكتُشفت حديثاً (سنة ١٩٥٥) بواسطة الأب العالِم أنطوان ونجر Wenger في مخطوط في جبل آثوس. وقد نشرها بعد اكتشافها بقليل[٢]. وتُسمَّى مجموعة ونجر. وأول هذه العظات الثمانية أُلقيت في بداية موسم تعليم الموعوظين أي في بداية الصوم الكبير بعد أن قدَّم الراغبون منهم في المعمودية أسماءهم للكنيسة. والعظة الثانية أُلقيت أيضاً على الموعوظين في نهاية فترة تعليمهم أي في أواخر الصوم الكبير. والعظة الثالثة أُلقيت في ليلة عيد القيامة على المعمَّدين الجدد بعد أن اقتبلوا المعمودية في هذه الليلة. وأمَّا الخمس عظات الباقية (رقم ٤ إلى ٨) فقد ألقاها في الخمسة أيام التالية أي في الأسبوع الذي يلي عيد القيامة، وهي موجَّهة أيضاً للمعمَّدين الجدد. والغرض منها هو إعطاء "المستنيرين" (أي الذين استناروا بالمعمودية) تعليماً روحياً وأخلاقياً مركَّزاً يتناسب مع وضعهم الجديد.

وبخلاف هذه العظات الثمانية المكتشفة حديثاً (رقم ١ ـ٨) هناك أربع عظات أخرى (رقم ٩ ـ١٢)؛ اثنتان منهما تمَّ نشرهما منذ القرن الثامن عشر بواسطة العالِم Montfaucon[٣]، والاثنتان الأخريتان تمَّ نشرهما لأول مرَّة في روسيا في بداية القرن العشرين. والاتجاه الأخلاقي على العموم يسود جميع العظات كاشفاً فكر القديس يوحنا ذهبي الفم وأسلوبه في الوعظ والتعليم. وهو يركِّز على ضرورة تطهير عيون النفس الداخلية وتنقيتها لاستقبال الاستنارة الإلهية، أي على ضرورة استقامة القلب وتقويم السلوك لاستقبال نعمة المعمودية.

---

(1) St John Chrysostom, *Baptismal Instructions,* Ancient Christian Writers, vol. 31, New York, 1963.

(2) Jean Chrysostome, *Huit catéchèses baptismales inédites,* Sources chrétiennes 50, Paris, 1957.

(٣) وقد صدرت لهما ترجمة إنجليزية منذ القرن الماضي في مجموعة: NPNF, 1st series, vol. IX, pp. 159-171

ويظهر ذهبي الفم في هذه العظات كلها مضيئاً كقائد أخلاقي ومعلّم روحاني قدير. ومع أن العظات قد تكون غير مباشرة للمعمودية نفسها ولكن قيمتها عالية جدًّا وتعتبر من بين أقوى إنجازاته في الوعظ! وذلك راجع بالدرجة الأُولى إلى مسئوليته الضخمة التي أخذها على نفسه، وهي قيادة عمليات تنصير الداخلين إلى المسيحية من أعاظم القوم، سواء من جهة الحُكّام اليونانيين أو اللاتين أو أهل البلاد الأصليين أو القوم الغازين من القوطيين. وكان كثيرون منهم من أصحاب الرتب العالية والمقام السامي في المجتمع مع الباقين.

وكان ذهبي الفم بليغ العبارة قوي المنطق، قوي التعبير، فرفع من مستوى الموعوظين والداخلين إلى المعمودية إلى أعلى مستوى الإدراك الكنسي واللاهوتي والكتابي على وجه العموم. وقد انتهز هذه المهمَّة العظمى ليبني المسيحية على أُسسها الأصلية، فجاءت عظات ذهبي الفم هذه لتكشف لنا عن عظمة سر المعمودية في القرن الثالث والرابع، ومبلغ الاستنارة ومعرفة الأصول الأُولى والدقيقة لإجراءات هذا السر الكنسي العالي القيمة.

وقد أُلقيت هذه العظات في أنطاكية وهي تغص بالشعب الآتي من البلاد المجاورة الذي يتكلّم باللغة السريانية. وكان زمن إلقاء هذه العظات ما بين سنة ٣٨٦م حين بدأ عظاته حتى سنة ٣٩٨ عندما ترك أنطاكية واتجه إلى القسطنطينية.

العظة الأُولى(٤)
للقادمين إلى المعمودية

مقدِّمة:

يقدِّم ناشر هذه العظات هذه الملاحظة الهامة:

هذه العظة هي أطول عظات ذهبي الفم عن المعمودية، وقد أُلقيت على القادمين للمعمودية في بداية الصوم الكبير، وقد سجَّلوا أسماءهم ليتقبَّلوا المعمودية في عيد القيامة. وفي هذا التعليم ينظر ذهبي الفم لهؤلاء الذين سجَّلوا أسماءهم كأنهم سجَّلوها في جيش المسيح، وهو يخاطبهم ليعطيهم شرحاً عن المعمودية بمقارنتها بالزواج الروحي، الأمر الذي يعطيه فرصة لتقديم مختصر مشروح للإيمان والعقيدة، وليحض الموعوظين على ممارسة المسيحية كطريق للحياة.

والزواج الروحي له عقد "كونتراتو" يتكوَّن من شقين: شق جحد الشيطان وشق الدخول في خدمة المسيح، وهذا لا يُفهم ولا يُرى إلاَّ بعين الإيمان. والإيمان هو قاعدة التقوى. وفي قانون الإيمان سيعترفون بالآب والابن والروح القدس ثلاثة أقانيم، ولكن كرامة واحدة ومجد واحد. على أنهم يلزمهم أن يجحدوا الأباطيل التي في العالم من غنى وملابس فاخرة وحلي الذهب. والتجميلات التي يتجمَّل بها السيدات لا تزيدهنَّ جمالاً بل عدم رضا أو قناعة بما أعطاه الله لخلقته. وكل أعمال الخرافات والمسارح ومعارض الألعاب كلها ألاعيب شيطانية لضلالة النفس. فعليهم أن يمتنعوا عنها جميعاً حتى يستحقوا أن يحملوا اسم المسيح.

وذهبي الفم يقارن المعمودية بزواج روحي أي عرس روحي بين النفس والرب، على أن نظرته للمعمودية هي سرائرية Sacramental أكثر منها مستيكية Mystical أي تختص بالاختبار الروحي الباطني. وعروس المسيح هي الكنيسة التي تكوَّنت من جنب المسيح. وعلى المستوى الشخصي فكل نفس تصير عروساً للمسيح بالمعمودية، هذا هو الذي يجعلها عضواً في الكنيسة وشريكةً في كل أمجادها. هذا التشبيه بين علاقة المعمَّد بالمسيح وعلاقة العريس بالعروس لا نجده إلاَّ في عظات الموعوظين، وذهبي الفم ينتقل فيها بسرعة وبسهولة من الفرد إلى الكنيسة. والعادة في الزواج

(4) St. John Chrysostom, *Baptismal Instructions,* Ancient Christion Writers, vol. 31, pp. 23ff.

البشري أن يأتي العريس إلى العروس ليطلبها. وليس في ذلك تنازل من جهته إذ أن الاثنين من طبيعة ترابية، ولكن في وضع المسيح والكنيسة العجيب حقًّا أنه بالرغم من المسافة الشاهقة بين طبيعة الخالق وطبيعة المخلوق، تنازل وجاء إلينا فترك بيت أبيه في السماء وأخذ لنفسه جسداً ـ ثمَّ أسرع نحو عروسه. وذهبي الفم يجمع بين الكنيسة وطبيعة الإنسان، والإنسان الفرد في منظور واحد!

وهو يوعِّي الفكر الروحي أن العروس التي خطبها المسيح لنفسه كانت هي ابنته في الحقيقة كالمزمور: «اسمعي يا ابنتي» (مز ٤٥: ١٠) وقد ولدها بالمعمودية قبل أن تليق له كعروس كما سنرى.

العظة:

الزواج الروحي:

١ ـ إنه وقت للمسرَّة وفرح الروح، إنه وقت نرنو فيه إلى الحياة لأن أيام الزواج الروحي قد دنت، فإن قلنا إن ما يحصل الآن أمامنا هو زواج روحي لا يكون افتئات. ونحن لا نقول فقط إنه زواج روحي بل هو بآن واحد ما هو أعجب. فهو نوع من التجنيد الحربي الفريد من نوعه، وليس أي تعارض بين الزواج الروحي والتجنيد الحربي. وفي هذا نستمع إلى القديس بولس الرسول معلِّم المسكونة الذي استخدم كلاًّ من الاصطلاحين. ففي موضع يقول: «لأني خطبتكم لرجل واحد لأقدِّم عذراء عفيفة للمسيح» (٢كو ١١: ٢). وفي موضع آخر كمن يُعِدُّ (كتيبة) للحرب: «البسوا سلاح الله الكامل لكي تقدروا أن تثبتوا ضدَّ مكايد إبليس» (أف ٦: ١١). انظر كيف يضع القديس بولس الإنسان المسيحي في موضع الخطبة لزواج روحي وبآن واحد يعدُّه إلى حرب قادمة مع العدو؟

٢ ـ حقًّا إن اليوم فرح في السماء وعلى الأرض، لأنه إن وُجِدَ فرح مثل هذا بسبب خاطئ واحد يتوب فكيف لا يكون بالأكثر فرح الملائكة ورؤساء الملائكة أيضاً وكل القوات السمائية مع كل مَنْ على الأرض حينما ينظرون هذه المجموعة المندفعة الخارجة من مصائد وشِباك الشيطان، طالبين بلهفة تسجيل أسمائهم في رعيَّة المسيح.

٣ ـ تعالوا إذاً أتكلَّم معكم كما أتكلَّم مع عروس مُعدَّة لتدخل حجالها المقدَّس لأعطيكم نظرة عن عريس فائق الغنى، فائق العطف والحنو من نحو عروسه: دعوني أُظهر لها ماضيها المتعفِّن الخارجة منه، وأُبيِّن لها المستقبل الفاخر المجيد المزمع أن تلقاه وتتنعَّم به. وإذا رغبتم فلنخلع عنها سترها ونتأمَّل حالها الذي انتهت إليه. وبالرغم من مأزقها هذا نجد عريسها لا يزال يطلبها إليه.

هنا تتكشَّف لنا إحساناته الفائقة، فياهذا السيد العجيب! إنه لم يطلبها لجمالها وحسن قوامها ورشاقتها، بل

بالعكس، فالعروس التي يطلبها لتدخل إلى خدره الإلهي مشوّهة قبيحة المنظر منجّسة كلياً وبلا حياء، مبتلعة في طين حمأتها وخطاياها.

٤ ـ ولكن لا يجدنّ أحد ممن يسمع كلامي هذا، فيسقط في مفهوم الشرح المادي السمج والفظّ ـ فأنا أتكلّم عن النفس وليس الجسد، وعن خلاصها المزمع أن يكون. فحينما يقول بولس الرسول: «فإني أغار عليكم غيرة الله ـ لأني خطبتكم لرجل واحد لأُقدّم عذراء عفيفة للمسيح» (٢كو ١١:٢)، فهو يقصد أن يقول إنه خطب للمسيح ليقدّم له عذراء عفيفة، تلك النفوس فقط التي تقدّمت نحو التقوى.

٥ ـ فالآن يكون لنا إدراك دقيق واضح عن هذا الذي نقوله. فعلينا أن نؤكّد بوضوح أن العروس المتقدّمة هي أصلاً كانت مشوّهة والآن تتعجّب من حنو العريس. ماذا يكون أكثر قبحاً من النفس التي هجرت كرامتها الموهوبة لها من الله وتغاضت عن مولدها النبيل من الأعالي وقاطعت العبادة وذهبت وراء الأصنام الحجر والخشب والبهائم المصوّرة وكل ما هو عديم العقل والكرامة. النفس التي زادت من قبحها بذبائح الأصنام وحرق الشحم ونجاسة الدم. ناهيك عن الملاعب والحفلات والخلاعة والسكر والانحلال وكل أعمال عدم الكرامة التي تسر قلب الشيطان الذي يخدمونه.

٦ ـ ولكن عندما رأى السيد الصالح عروسه في هذه المحنة التي انحدرت إليها من القبح والفساد، أعلن عن رحمته الفائقة وقبلها لتدخل إلى حضرته. هذا هو الموقف الفاخر الذي وقفه حينما قال بفم النبي: «اسمعي يا ابنتي وانظري وأميلي أذنك وانسي شعبك وبيت أبيكِ، لأن الملك قد اشتهى حسنك.» (مز ٤٥: ١٠و١١ سبعينية)

٧ ـ انظروا كيف من الأول يُظهر رحمته وصلاحه، وكم هو جليل في دعوته باسم «يا ابنتي»، لواحدة ثائرة متمرّدة أسلمت نفسها للنجاسة والشياطين، ليس فقط هذا بل كيف لا يطالب بحساب الماضي وفجوره، ولا هو أظهر قضاءه ودينونته على ما سبق! ولكن يُعزي ويُشير ويُشجّع حتى تسمع وتقبل نداءه ودعوته وتنسى ماضيها!

٨ ـ أتنظرون رحمته غير المعقولة وعنايته الكريمة الثمينة؟ فحينما تكلّم داود بهذه الكلمات في المزمور (٤٥) خاطب به كل العالم وهو في صميم محنته، والآن فرحتنا أن نادي بهذه الكلمات هؤلاء الذين يتوقون إلى نير المسيح. وقد تسابقوا نحو هذا الهدف الروحي وسجّلوا أسماءهم فيه. فالآن هو وقت مناسب أن أرفع صوتي لكل واحد منكم وأقول: اسمعوا أنتم أيها الجنود الجدد ليسوع المسيح، انسوا الماضي، تناسوا طرقكم الرديئة، أميلوا آذانكم واسمعوا واقبلوا أفضل التوعية. فإن كان داود قد قال: «اسمعي

يا ابنتي وانظري وأميلي أذنك وانسي شعبك وبيت أبيكِ» فالقول لكم.

٩ ـ إن اليوم تُعطى لجماعتكم المحبوبة نفس الدعوة والتشجيع، الأمر الذي قدَّمه داود للعالم فيما مضى، لأن في قوله: «انسي شعبك» هو يحض على نسيان الأوثان وأعمالها والأخطاء والخطايا المحيطة بها وعبادة الشياطين. وفي قوله: «وبيت أبيكِ» إنما يقصد طبائعكم السابقة التي قادتكم إلى هذه المحن وهذا العار. انسوا هذه كلها وأبعدوا عن تفكيركم كل ما يشدّكم إلى الماضي، لأنه إن عملتم هذا وابتعدتم عن شعوبكم وبيوت آبائكم، أي الفساد الذي استشرى فيكم والفساد والشر الذي قضى على عمركم وشبابكم، فإن الملك السمائي يطلبكم ويشتهي مجيئكم.

١٠ ـ انظروا يا أحبائي إن حديثي معكم يخص النفس، لأن قبح الجسد يستحيل أن يتحوَّل إلى جمال. فالسيد صنع هذه الطبيعة على أنها لا تتحوَّل ولا تتغيَّر، ولكن فيما يخص النفس فإن التغيير فيها سهل وفي غاية البساطة. فلماذا صنعها هكذا ولماذا التغيير سهل. ذلك لأن فيما يخص النفس هو أمر يخص حرية الاختيار وليس هو أمر الطبيعة الواقعة تحت الضرورة والالتزام. لذلك فإن كان هناك نفس قد فسدت وتشوَّهت وصارت إلى قبح ذميم ورغبت أن تتغيَّر، ففي إمكانها أن تغيِّر نفسها وترتفع إلى قمة العلا في الجمال وتصبح حسنة وذات نعمة. فإن هي عادت إلى إهمالها يمكن أن تعود إلى قبحها وأكثر. لذلك يقول الملك إنه اشتهى حسنها الذي ستتغيَّر إليه، هذا إذا نسيت الماضي ونسيت شعبها ـ كما يقول النبي صاحب المزمور ـ وبيت أبيها.

الزواج الروحي سر عظيم:

١١ ـ أرأيتم كم أن الرب صالح؟ ليس إذن من فراغ أو بلا أي سبب أنني بدأت الحديث معكم بوصفي الذي يحدث معكم الآن أنه زواج روحي. في حالة الزيجة الأرضية التي تُرى بالعين البشرية لا يمكن أن تتحد العروس بعريسها. إذا لم تترك آباءها وأقرباءها وتعطي كل مشيئتها لزوجها. لذلك يقول بولس الرسول عن الزواج إنه "سر"، لأنه بعد أن قال: هذا يترك الرجل أباه وأُمه ويلتصق بامرأته ويصير الاثنان جسداً واحداً، يعود ويصف هذا الرباط ويصرخ مندهشاً: هذا السر عظيم!!

١٢ ـ نعم هو بالحقيقة سر عظيم. فأي فكر بشري يستطيع أن يدرك طبيعة السر الذي يجري في الزواج؟ حينما يضع الإنسان أمامه زوجة صغيرة تكون قد عاشت في حضن أمها وتغذَّت من لبنها وتعب يديها وعاشت في بيت أبيها طفولتها، وشبَّت على أمانتها لأُمها وأبيها. وفجأة وفي لحظة تدخل في ساعة الزواج وتنسى أُمها وتعبها وتعلُّقاتها وهمومها وعناية بيتها لها وعلاقات محبة الأبوين والإخوة،

وتترك كل شيء في لحظة لتُسلِّم حياتها و كل متعلّقاتها لزوجها الذي لم تكن قد رأته من قبل؟ إنها نقلة كبرى في حياتها حيث يصبح رجلها هو كل ما لها، ليكون هو أباها وأُمها وزوجها، فلا تعود تذكر كل مَنْ اعتنوا بها وخدموها وأحبُّوها كل عمرها السابق. هذا هو الرباط الذي يربط بينهما أنهما لم يعودا اثنين بل واحداً.

١٣ ــ آدم أول إنسان خُلق رأى ذلك بعيني نبوَّته فقال: «هذه تُدعى امرأة لأنها من امرءٍ أُخذت، لذلك يترك الرجل آباه وأُمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً» (تك ٢: ٢٣و٢٤). هذا الشيء نفسه يُقال للزوج، فما حدث للزوجة حدث للزوج، لذلك كان الرباط بينهما حتمياً. على أن الكتاب لا يقول يتحد بامرأته بل: «يلتصق»، مبيِّناً شدة هذا الاتحاد. ويكمِّل الكتاب «ويكونان الاثنان جسداً واحداً». من أجل هذا أضاف المسيح شهادته قائلاً: «من أجل هذا يترك الرجل أباه وأُمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً. إذاً ليسا بعد اثنين بل جسد واحد» (مت ١٩: ٥و٦). وهكذا صار الالتصاق بينهما حتى يصيرا جسداً واحداً. فأخبروني الآن مَنْ يستطيع أن يقيس ويدرك ويكتشف هذا؟ أي قوة عقلية يمكنها أن تدرك ما يحدث هنا؟ أليس هذا معلِّم المسكونة بولس على حق في أن يقول إن «هذا السرُّ عظيم»!! وهو لم يقل عنه فقط إنه "سر" بل: «سرٌّ عظيم» (أف ٥: ٣٢).

١٤ ــ فإذا كان في عالم الحسيَّات هو سر بل سرٌّ عظيم، فماذا يكون الالتصاق عن حق بالنسبة للزيجة الروحية؟ وحيث إن كل شيء هنا يرتقي إلى المستوى الروحي، فلاحظ جيداً أن كل الأمور هنا تجري بعكس النظام الحسِّي. ففي الزيجة التي تُرى بعين الجسد لا يمكن لرجل أن يأخذ امرأة زوجة قبل أن يعرف ويتأكَّد ليس فقط عن جمالها ورشاقتها الجسدية ولكن بالأكثر جداً غناها وحالها السابق.

١٥ ــ أمَّا في الزواج الروحي فلا شيء مثل هذا. لماذا؟ لأن هذا الطقس يتبع النظام الروحي، حيث يندفع العريس برحمته وإحسانه ويُسرع لإنقاذ نفوسنا حتى ولو كان منَّا من هو قبيح أو محجوج العين أو فقير أقصى ما يكون الفقر، أو مجرَّد عبد خادم أو طريد مطرود خارج السياجات، أو مشوَّه الخلقة وذميم، أو مثقَّل بخطايا وأوزار ثقيلة. فالعريس لا يسأل ولا ينظر ولا يفتِّش في قبائح الواردين عليه، بل وعلى العكس هو محمِّل بهدايا وعطايا ونِعَم. لا يطلب إلاَّ شيئاً واحداً: هو أن ننسى الماضي ونُظهر الإرادة الحسنة نحو المستقبل!

عقد أملاك الزواج الروحي وهدايا الإكليل:

١٦ ــ أرأيتم كم هو مُنعم وما أعظم نعمته؟ أرأيتم لطف ورحمة العريس نحو الذين يستجيبون لدعوته

ويلتصقون به؟ ولكن ليتنا أيضاً نتأمَّل معاً إن أردتم، في معنى هذا الزواج الروحي: فكما أن في حالة الزواج الذي على المستوى الجسدي، تُعقد وثيقة وتُعطى هدايا، كما يعطي الرجل عطايا وأبو العريس يعطي الدوطا (مؤخر الصداق)، هكذا في الزواج الروحي يحدث شيء مثل هذا، لأن الفكر يجب أن يتدرَّج من الجسديات إلى الروحيات ومنها إلى الله. فما هو الذي يطلبه العريس الروحي إلاَّ الطاعة والموافقة معه؟ وما هي الهدايا التي يعطيها العريس قبل الزواج؟ اسمع ما يقوله بولس المبارك: «أيها الرجال، أحبُّوا نساءَكُم كما أحبَّ المسيح أيضاً الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها، لكي يقدِّسها، مطهِّراً إيَّاها بغسلِ الماءِ بالكلمةِ، لكي يُحضِرها لنفسه كنيسةً مجيدةً، لا دنَسَ فيها ولا غضنَ أو شيءٌ من مثل ذلك، بل تكون مقدَّسةً وبلا عيبٍ.» (أف ٥: ٢٥–٢٧)

١٧ – أرأيتم ضخامة عطاياه؟ وعِظم محبته التي لا يُنطق بها؟ «كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها». لا يوجد أي إنسان قط استطاع أو يستطيع أن يعمل هذا. بمعنى أن يسفك دمه من أجل امرأة ستكون زوجة له. ولكن السيد اللطيف يتمثَّل صلاحه وطيبة نفسه في أنه قَبِلَ هذه التضحية العظيمة والعجيبة، ذلك بسبب شدَّة اهتمامه بعروسه! حتى أنه بدمه يقدِّسها، حتى إن طهَّرها بحميم الميلاد الثاني الذي للمعمودية يستطيع أن يقدِّمها إلى نفسه كنيسة في كل مجدها. لهذه الغاية سفك دمه واحتمل الصليب لكي بهذا يمكنه أن يقدِّسنا مجَّاناً أيضاً، ولكي يطهِّرنا بذات حميم الميلاد الثاني (المعمودية)، ولكي "يُحضر لنفسه" أُولئك الذين كانوا سابقاً بلا كرامة، غير قادرين أن يتكلَّموا بدالة، والآن قد صاروا هم في مجد، «بلا دنس ولا غضن أو شيء من مثل هذا»!

الإيمان بالآب والابن والروح القدس:

١٩ – وأنتم تعلمون جيداً أي أُناس كنتم وأي محنة كنتم تعانونها والسيد وجدكم عندما سمح أن تقتربوا إليه – فلا هو يبحث عن خطاياكم، ولا يُجري حكماً وعدلاً على اقترافاتكم. فعليكم أن تعملوا ما عليكم وتقدِّموا اعترافاً قوياً بإيمانكم به – ليس فقط بشفاهكم ولكن بكل إدراككم وفهمكم. لأنه يقول: «القلب يؤمن به للبر والفم يُعترف به للخلاص» (رو ١٠: ١٠). لأن الإدراك والفهم في هذا ينبغي أن يكون قوياً مرتبطاً بإيمان تقي واللسان يكون مستعداً بالاعتراف بعقل صاحٍ متمسِّكٍ وعنيد.

٢٠ – والإيمان هو أساس التقوى. دعوني أتكلَّم معكم باختصار عن هذا الإيمان حتى نؤسِّس أساساً غير قابل للهدم حتى نبني البناء كله بناءً مؤمَّناً. إنه من الواجب جداً أن أُولئك الذين كتبوا أسماءهم في هذه (الكتيبة) الحربية الروحية أن يؤمنوا بالله إله الكون كله، أبي ربنا يسوع المسيح أصل وأساس كل شيء، غير المحدود، غير المدرَك، الذي لا يمكن النطق به شرحاً لا بالكلمة ولا بالفهم، الذي

برحمته وصلاحه خلق كل شيء.

٢١ ـ وأن يؤمنوا بيسوع المسيح ابنه الوحيد ربنا الذي هو في كل شيء مساوٍ للآب ومثله وغير متغيّر في مساواته للآب وواحد مع الآب في الجوهر، ولكنه معروف بذاته مولود من الآب بطريقة غير منطوقة، الذي كان قبل أن تكون الأزمنة الأزلية. وكان خالقاً لكل الدهور. والذي في الأيام الأخيرة من أجل خلاصنا أخذ شكل العبد وصار إنساناً وسكن بيننا في طبيعة بشرية وصُلب وقام في ثالث يوم.

٢٢ ـ وعليكم أن تقتنوا هذه المعرفة التي للإيمان بدقة، وتثبّتوها في عقولكم حتى لا يسهل أن يُطغى عليكم بغش الشيطان (...) واعلموا أن الابن من طبيعة الآب، والابن نفسه هو الذي قال: «لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويُحيي كذلك الابن أيضاً يُحيي مَنْ يشاء» (يو ٥:٢١). وفي كل شيء أظهر الابن أنه مساوٍ للآب في القوة وكل شيء (...) عالمين أن الآب والابن والروح القدس كل منهم يبقى في ذاته ولكن كل منهم له نفس القوة بالتساوي.

٢٣ ـ وعليكم أن تحفظوا هذه الحقيقة بتأكيد ووثوق، تحفظونها في عقولكم: أن الروح القدس له نفس الكرامة والمجد الذي للآب والابن. ويسوع المسيح قال لتلاميذه: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس.» (مت ٢٨:١٩)

٢٤ ـ أرأيتم كيف أعطى المسيح أصول الاعتراف بهذه الحقيقة أي الآب والابن والروح القدس، وأن تعليمه في هذا غير مخفي بل واضح كل الوضوح؟ لا تجعلوا أحداً بعد ذلك يقلقكم بإرباك عقولكم في أبحاثه الخاصة وبغير عقائد الكنيسة حتى يربك الإيمان الصحيح. تجنّبوا صداقة مثل هؤلاء الناس، كما تتجنّبون السموم التي يمكن أن تقتلكم، لأن مثل هؤلاء الناس خطرون أكثر من السموم. فالسموم تفسد الجسد فقط، أمّا هؤلاء فيفسدون الخلاص ويقتلون النفس. لذلك من المناسب جدًّا منذ البداية أن تتجنّبوا المحادثات والمقاومات مع هؤلاء القوم إلى أن تكملوا في لبس أسلحة الروح والدراية بشهادات الأسفار المقدّسة.

احملوا نير المسيح:

٢٥ ـ الذي قلناه ينبغي أن تلتزموا به بدقة لأنه عقيدة الكنيسة، والمطلوب منكم أن تحتفظوا بها بقوة وثبات في عقولكم. وأيضاً من المناسب أن الذين يعترفون بهذا الإيمان يؤكّدونه بسلوكهم الصالح. ولذلك يلزم أن أُعلّمكم عن هذه الأمور، أنتم الذين ستتقبّلون العطية الملكية حتى تكونوا قادرين أن تدركوا أنه ليس خطية يصعب على سخاء عطية الله وقدرته التغلّب عليها. حتى ولو كان أحد زانياً أو فاسقاً

أو عاهراً أو لصًّا أو سكّيراً أو عابد وثن، فإن محبة الرب الإله وقوة عطيته قادرة أن تلاشي هذه الموبقات والخطايا من سيرتكم وتمحوها محواً فتختفي جميعاً من سجل حياتكم، وتجعل الخاطئ يضيء أكثر من الشمس إن هو أعطى تصميماً صالحاً بإيمان لا يتزعزع.

٢٦ ـ فاعتبروا جدًّا عظمة هذه العطية الفائقة التي لله الصالح في رحمته علينا، واجعلوا أنفسكم على استعداد أن تمتنعوا عن الأعمال الشريرة وأن تكونوا صالحين، كما يحضّنا النبي بقوله: «حيدوا عن الشر وافعلوا الخير» (مز ٣٧:٢٧). والرب يسوع نفسه يقول: «تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم. احملوا نيري عليكم وتعلّموا مني لأني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم.» (مت ١١: ٢٨و٢٩)

٢٧ ـ أرأيتم كثرة صلاح الرب، وسخاء دعوته: «تعالوا إليَّ» يقول الرب «يا جميع المتعبين وثقيلي الأحمال وأنا أريحكم». دعوته هي نوع من الرحمة الفاخرة وصلاحه فوق الوصف، تعالوا يا جميع: ليس فقط الحكّام بل والمهانين، ليس فقط الأغنياء بل والمساكين، ليس فقط الأحرار بل والعبيد، ليس فقط الرجال بل والنساء، ليس الصغار فقط، بل والشيوخ، ليس الأصحاء بل والمشوّهين أيضاً والعسم والعرج وذوي العاهات. إنه يقول تعالوا جميعكم! لأن عطية السيد فائقة ومتسعة للغاية وليس عنده تمييز. تعالوا جميعكم يا ثقيلي الأحمال.

٢٨ ـ فانظروا مَنْ هم الذين يدعوهم، أولئك الذين استهلكوا قوتهم في الخروج عن كل القوانين، المثقّلين بخطاياهم، الذين لا يستطيعون بعد أن يرفعوا رؤوسهم، الذين ملأوا حياتهم عاراً. ولماذا يدعوهم؟ لا لكي يُحاكم أو يراجع أو يوبّخ. ولكن لماذا؟ ليخفّف عنهم أحمالهم الثقيلة التي عجزوا عن حملها فصارت آلامهم فوق احتمالهم، بل ليحمل عنهم أحمالهم الثقيلة. وأي حمل أثقل من الخطية؟ حتى ولو حاولنا إخفاءها عن عيوننا أو عيون الناس والعالم كله، فثقل الخطية يحارب ضمائرنا ويوقظها من رقادها لتنازع راحتنا وسلامنا، فتصبح ضمائرنا قاضياً لا يُرتشى! وفي نزاعها ومقاضاتنا تقف ضدنا ولا ترتخي أبداً، فهي شوكة مغروسة في عمق إحساسنا، تؤلم وألمها لا يتوقّف وتذيقنا طعم فظاعة الخطية التي نتهرّب منها. وكأن الرب يقول: سأفرج عن ضمائركم أنتم الذين تثقّلتم وضمائركم بالخطية حتى انحنت ظهوركم تحت أحمال وأثقال خطاياكم، سأرفع ظهوركم وأرفع أحمالكم وأغفر خطاياكم.

فقط تعالوا إليَّ! فمن الذي يتقسّى قلبه حتى يسد أذنيه عن حنان مثل هذه الدعوة؟!

٢٩ ـ ولكي يعلّمنا كيف سيعطينا راحة أكمل القول: «احملوا نيري عليكم»! أي تعالوا تحت نيري، ولكن

لا تخافوا عندما تسمعون كلمة "نير" لأن نيري لا يأكل القفا ولا يحني رقابكم ورؤوسكم، ولكن نيري يعلمكم كيف تتفكّرون في الأمور الصالحة، ويعلّمكم كيف تتبعون الحكمة. احملوا نيري عليكم وتعلّموا. فقط تعالوا تحت نيري حتى تتعلّموا، و"تتعلّموا" تعني أعطوني آذانكم حتى يصلكم تعليمي، فأنا لا أطلب منكم أي شيء ثقيل، فقط تمثّلوا بي وأنتم تراب ورماد، تمثّلوا بي أنا المعلّم خالق السماء والأرض وخالقكم. تعلّموا مني يقول الرب لأني وديع ومتواضع القلب.

"شكل العبد" وديع ومتواضع القلب:

٣٠ ـ أرأيتم كيف أتى إلينا المعلّم من السماء، أرأيتم لطفه وإحسانه الذي بغير حدود؟ لم يضع ثقلاً على أحدٍ ولم يطلب مطالب ثقيلة منّا أو علينا. فلم يقل تعلّموا مني كيف صنعت معجزات وكيف أقمت الموتى وأظهرت عجائب وأعمالاً مذهلة بالأمور التي تخصّه هو وتخص قوته. ولكن ماذا قال؟ «تعلّموا مني لأني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم». أرأيتم كيف أن نيره هدية ذات منافع؟ لذلك فكل مَنْ كان مستحقاً أن يأتي تحت هذا النير وأن يتعلّم من المعلّم كيف يكون وديعاً ومتواضع القلب، فهذا هو الذي سيجد راحة كاملة لنفسه. لأن هذه هي خُلاصة خلاصنا والذي يحصل على هذه الفضيلة حتى ولو كان لا يزال مقيّداً بالجسد فسوف يحيا بقوى روحية ويتحرّر من كل قيود هذه الحياة.

٣١ ـ فكل مَنْ يتمثّل بوداعة المعلّم الإله فلن يفقد سيطرته على أخلاقه بعد، ولن يقوم ثائراً على قريبه قط، حتى ولو تعدّى عليه آخر سيقول: «إن كنت قد تكلّمت رديًّا فاشهد على الردي وإن حسناً فلماذا تضربني» (يو ١٨ :٢٣) كما قال المعلّم الوديع المتواضع القلب ليعرّفنا كيف يكون النير وكيف تكون الحياة معه. فإن ادّعى عليه مدّعٍ وقال إنك بك شيطان سيجيب: «أنا ليس بي شيطان» (يو ٨ :٤٩)، وكل الاتهامات التي انهالت عليه لن تُخرجه عن سلامه قط. فمثل هذا الذي يتمثّل بالمعلّم الوديع المتواضع حاملاً نيره، سوف يحتقر كل مجد للحياة الحاضرة، ولن يوجد شيء في هذا العالم المنظور يستطيع أن يميله عن القصد، لأنه سيرى كل الأمور بعيني ذلك المعلّم الوديع المتواضع القلب. فوديع القلب ومتواضعه لن يحسد قريبه ولا ممتلكات قريبه، ولن يسرق، ولن يقترف إثماً، ولن ينهزم وراء الغنى، بل بكل حنانه نحو قريبه سيكون قادراً أن يترك غناه لمن يريده، ولن يشتهي امرأة آخر لأنه جاء تحت نير المسيح وتعلّم أن يكون وديعاً ومتواضع القلب ويسير وراء خطوات ذلك المعلّم البديع، مظهراً كل فضيلة في كل طريق.

٣٢ ـ إذن، فلنأتِ تحت هذا النير الصالح لنحمل حمله الخفيف حتى نجد راحة لأنفسنا. فالذي دخل تحت هذا النير عليه أن ينسى طريقه العتيق في الحياة ويضع لعينيه حارساً، لأن المعلّم يقول: «إن كل مَنْ

ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه» (مت ٥:٢٨). لذلك علينا أن نضع حارساً على أعيننا، حتى لا يدخل إلينا الموت منها، فلنحرس ليس أعيننا فقط ولكن لساننا أيضاً، لأنه مكتوب «كثيرون سقطوا بحد السيف، لكنهم ليسوا كالساقطين بحد اللسان» (سيراخ ٢٨:٢٢). كذلك أول ما تتولّد فينا الشهوات الأخرى فلنقطعها عنا ونجعل فكرنا هادئاً، ونُقصي عنا الغضب والشهوات والحقد والعداوة والمكر والشهوات الشريرة والانحلالات الأخرى، وكل أعمال الجسد التي هي بحسب قول بولس الرسول: الزنا والعهارة والنجاسة وعبادة الأوثان والسحر والعداوة والخصام والغيرة والسخط والتحزُّب والشقاق والبدعة والحسد والقتل والسكر والبطر (غل ٥: ١٩و٢٠).

٣٣ – إنه واجب لذلك أن نُبعد عن أنفسنا كل هذه الشرور ونشتاق أن نحصل على ثمر الروح: فهو محبة، فرح، سلام، إيمان، وداعة، تعفُّف. فإن طهَّرنا عقولنا بالقناعة وبالهذيذ في دروس التقوى (أي في الأسفار المقدَّسة) سنكون قادرين أن نعد نفوسنا لنكون مستحقين أن ننال عطيته وهي عظيمة حقاً، وأن نحرس الصلاح الذي حصلنا عليه.

زينة النساء الحقيقية:

٣٤ – لا يكن فيما بعد اهتمام بالتزيُّن الخارجي والثياب الغالية، ولكن لتكن غيرتكم متجهة نحو تجميل نفوسكم حتى تضيء بجمال الروح الفائق. لا تهتموا بالألبسة الحريرية ولا أعمال الذهب لأن (بولس) معلِّم المسكونة الذي يعلم تماماً ضعف المرأة الطبيعي وعدم استقرار رأي النساء لم يتوان عن إعطاء أوامر في هذه الأمور. فلماذا أقول إنه لم يمتنع عن أن يُعطي تعليماً في هذه الأمور؟ عندما أَعطي مشورات لكنَّ أيتها النساء بخصوص زينتكنَّ، ألم يُفصح القول: «وكذلك أن النساء يزيِّنَّ ذواتهنَّ بلباس الحشمة مع ورع وتعقُّل، لا بضفائر أو ذهب أو لآلئ أو ملابس كثيرة الثمن» (١تي ٢:٩). أليس ذلك توجيهاً لكنَّ إزاء رغبتكن لتزيين أنفسكن لتكسبن المديح من الذين يرونكن؟ ليس الناموس بل رب الكل هو الذي ينبغي أن يمدحكم ويوقِّركم.

٣٦ – علينا إذاً أن نسمع الكلمات الصائبة التي لبولس الرسول: «بل كما يليق بنساء متعاهدات بتقوى الله بأعمال صالحة» (١تي ٢:١٠) ... فماذا يعني بالأعمال الصالحة؟ كل أعمال الفضيلة: احتقار العالم، الاشتياق لأمور العالم الآتي، الازدراء بالغنى، السخاء في التوزيع للفقراء، التواضع، الوداعة، اتباع الحكمة، تقويم أنفسنا للسلام، الهدوء، عدم الجري وراء أمجاد العالم الحاضر بل الاحتفاظ برؤيتنا دائماً إلى فوق حتى نكون دائماً مشتاقين لأخبار الروح والسماء وانتظار أمجاد الدهر الآتي.

٣٧ ــ ولأنني أتكلّم الآن عن النساء، أريد أن أُقدّم لهنّ بعض النصائح الأخرى: إني أود لا أن تمتنعْن من الأمور الضارة فقط بل وعن العادات الخاصة بصبغ وجوهكنّ وإضافة زيادات على خلقتكنّ وكأنها ناقصة، لأنكن بعملكن هذا تهينون الخالق. لأن استخدامكنّ للروج وتكحيل أعينكنّ لا يمكن أن يضيف جمالاً ثابتاً أو يغيرّ من سحنتكنّ. هذه الأمور لا تضيف شيئاً بل تختزل أشياءً وأشياءً لأنها تغيرّ وتفسد نفوسكنّ وجمالها الإلهي ... هذا بالإضافة إلى محاولة إثارة الشباب وزيادة ثورة عواطفهم وجذب عيونهم نحوكنّ فتزداد خطيتهم بسببكنّ.

٣٨ ــ إنه مناسب جدًّا ونافع لكنّ أن تمتنعن كليَّةً عن هذه الأمور وبالأخص في بيوت الله أثناء العبادة. وإلاَّ فلماذا تزيّنّ أنفسكنّ وأنتنّ ذاهبات إلى بيت الله للعبادة؟ فهل أنتنّ قادمات للصلاة والعبادة والاعتراف بخطاياكن لسؤال الغفران وراحة الضمير؟ ألا تعلمن أن الله يبحث عن الزينة الداخلية للنفس وعن الأعمال الفاضلة، فهو يشتهي أعمال البر والعطف على الفقراء والتعفُّف والوقار والإيمان الوطيد ... إذن، فاطرحن عنكنّ باقتناع كل هذه الأعمال بالنهاية.

العظة الثانية(١)

استمرار التعليم للذين سيتقدَّمون للمعمودية

وشرح لما سيحدث لهم في المعمودية المقدَّسة

مقدِّمة:

يقدِّم ناشر الكتاب في بدء هذه العظة الملاحظات التالية:

يستمر ذهبي الفم في تعليم المتقدِّمين إلى المعمودية المسيحية. فالعظة الأُولى أُلقيت في بداية الصوم الكبير ـ ربما في اليوم العاشر ـ أمَّا هذا الحديث فزمنه في آخر كل التعاليم عن المعمودية، قبل المعمودية بقليل.

وفي هذه العظة يوضِّح ذهبي الفم صلاح الله حتى وفي تعامله مع آدم وبعد سقوطه ـ ثمَّ يشرح طقس الأكسورسزم ثمَّ جحد الشيطان، وعمل العهد مع المسيح، والمسحة قبل المعمودية وطقس التجديد للميلاد الثاني، معطياً في كل خطوة منها الصيغة السرائرية Sacramental المستخدمة في أنطاكية، ويخبرنا أن المعمَّدين الجدد حينما يخرجون من الماء يشتركون في مائدة الرب بتناول الجسد والدم. ولكن لم يذكر هنا مسحة ما بعد المعمودية (الميرون).

العظة:

١ ـ مرَّة أخرى أخاطب الذين كتبوا أسماءهم في (كتيبة) المسيح. فأُظهر لهم قوة السلاح الذي هم عتيدون أن يتقلَّدوه ومقدار الصلاح غير المنطوق به الذي يظهره الله بإحسانه على جنس البشر، حتى يأتوا بإيمان واثق وثقة كاملة ويتمتَّعوا بالكرامة التي يسكبها بغزارة.

ومن البداية اعتبروا يا أحبائي ما أعظم صلاح الله وإحسانه من نحونا حتى أنه يعتبر الذين لم يتعبوا قط والذين لم يظهروا أي صلاح يعتبرهم مستحقين لهذه العطية، فقد غفر كل الخطايا التي اقترفوها في كل ماضيهم، لذلك إزاء النعمة العظمى التي يعطيها يلزم أن تقوِّموا قلوبكم وتقدِّموا نصيبكم من الطاعة. فإن فعلتم ذلك فما أعظم المكافأة التي تنالونها من الله محب البشر؟

(1) St. John Chrysostom, *Baptismal Instructions,* Ancient Christian Writers, vol. 31, pp. 43 ff.

٢ ـ لم يَرَ أحدٌ مثل هذا التعامل بين البشر، فما أكثر الذين تعبوا لينالوا العوض ولكنهم عادوا إلى بيوتهم فارغي اليدين. لماذا؟ لأنه قد يكون الذين نترجّى منهم العطية غير حافظين للجميل بالرغم من أتعابنا ...

انظروا بعين الإيمان:

٩ ـ وأنتم كلكم الذين استحققتم أن تُسجَّل أسماؤكم في الكتاب السمائي قدّموا إيمانكم بفكر واثق، لأن الذي يتم هنا يحتاج إلى الإيمان وعين النفس المفتوحة لكي تدركوا ليس فقط ما يُجرى أمامكم منظوراً، بل وتدركوا أيضاً غير المنظور من وراء ما تنظرون، الذي لا تدركه إلاّ عين الإيمان ... لأن الإيمان هو رؤية غير المنظور وكأنه منظور، كما يقول القديس بولس الرسول: «وأمّا الإيمان فهو الثقة بما يُرجى والإيقان بأمور لا تُرى.» (عب ١١: ١)

١٠ ـ فما هذا الذي أقوله؟ ولماذا أطلب أن لا تنتبهوا للمنظور بل أن تكون لكم أعين الروح؟ حتى لا يتراءى لكم الماء أنه ماء عادي ولا اليد الموضوعة عليكم أنها يد عادية، فليس هو الإنسان الذي يُجري السر بل هي نعمة الروح القدس. فإنها هي التي تقدّس طبيعة الماء وهي التي تلمس رؤوسكم مع يد الأسقف. ألا ترون معي أن هذه الأمور تتطلّب عين الروح التي ترى ما لا يُرى فنحن بها نؤمن بغير المنظور وبها نلحظ ما تراه عين الجسد؟

١١ ـ المعمودية هي دفن حقيقي وقيامة حقيقية، لأن الإنسان العتيق بها يُدفن بخطيته، وبها يقوم الإنسان الجديد «الذي يتجدّد للمعرفة حسب صورة خالقه» (كو ٣: ١٠). لقد خلعنا الملابس العتيقة التي تعبّر عن خطايا الماضي ولبسنا الثياب الجديدة تعبيراً عن جدة حياة تخلو من الخطية. وماذا أقول؟ قد لبسنا المسيح نفسه لأن «كلكم الذين اعتمدتم في المسيح قد لبستم المسيح.» (غل ٣: ٢٧)

الغرض من الإكسورسزم ومعناه (الدهن بزيت طرد الأرواح النجسة):

١٢ ـ تقفون الآن على العتبة، وعن قليل ستنعمون بالعطايا الوافرة. دعوني أُعلّمكم على قدر ما أستطيع معنى هذه الطقوس حتى لا تخرجوا من هنا إلاّ وعندكم إدراك يقيني بما يتم فيها. ينبغي أن تفهموا لماذا تُتلى عليكم كل يوم بعد العظة كلمات الأكسورسزم (طرد الأرواح النجسة)، ذلك لأنكم عتيدون أن تستقبلوا في حياتكم ملك السموات ليسكن فيكم ويكون معكم. فما سمعتموه من صلوات طرد الأرواح الشريرة هو بمثابة إعداد المسكن الملكي للآتي. فهم يُطهّرون أفكاركم ويطردون كل مكيدة للشرير يكون قد باشرها فيكم، ويجعلون قلوبكم مهيّأة للحضرة الملكية. ومهما كان الشيطان شرساً لكنه يضطر للهروب سريعاً أمام استدعاء المعلّم الإلهي الذي يهيّئ في النفس

حالة من التقوى ويقودها إلى مشاعر التوبة.

١٣ – إنه أمر عجيب وفوق المعتاد أن هذا الطقس لا يفرّق بين مراتب ودرجات البشر ومقاديرهم، إذ الكل يخلع ملابسه ويقف عرياناً حتى ولو كان المتقدّم يحظى بمقام عالٍ في المجتمع وقد أضاء غناه من حوله وكان ذا مجد، فإنه يقف جنباً إلى جنب مع شحاذ مُعدم أو أعمى أو أعرج ولا يتململ من هذا، عالماً أن هذه الفروق لا توجد في عالم الروح حيث لا يُنظر من الإنسان إلاّ نفسه فقط وهي التي تأخذ المقام الذي لها.

١٤ – انظروا أية منفعة لهذه الدُعاءات والاستدعاءات المهيبة(٢) والأجسام والأرجل العارية والأيدي المرفوعة فإنها تعني الكثير لنا ...

جحد الشيطان والالتصاق بالمسيح:

١٧ – والآن دعوني أحدّثكم عن الأسرار وعن العقد الذي سيُبرم بينكم وبين المعلّم الإلهي. في أمور العالم أي ارتباط يوثّق بعقد مكتوب، أما حينما يستأمنكم المعلّم على الأمور السمائية التي هي للحياة الأبدية، فالعقد هنا يُدعى "الإيمان" حيث لا ينص أو يخص شيئاً منظوراً، ولكن كل ما لا يُرى إلاّ فقط بعيني الروح والإيمان. والإيمان اتفاق بين المتعاقدين، لا يُكتب باليد، فالمتعاقد الأعظم هو الله وأسفاره المقدّسة المكتوبة بالروح القدس. أمّا الكلمات التي ينطقها الشخص فهي في الحال تُسجّل في السماء، والاتفاق الذي يبرمه بالفم يستلمه المعلّم ويحفظه إلى الأبد.

١٨ – أمّا حالة المأسورين الخارجية، فالكاهن يحضركم ويأمركم بالصلاة وأنتم راكعون (متجهون للغرب) وأذرعكم مرفوعة نحو السماء، وتُذكِّرون أنفسكم عن أحوالكم السابقة في الخطية وأي شرٍّ تُنقذون منه الآن وأي صلاح تكرّسون أنفسكم له. ويأتي إليكم الكاهن واحداً واحداً سائلاً عن اعترافكم

(٢) نص الدعاء والاستدعاء الذي يُقال في صلاة طقس الإكسورسزم بحسب الخولاجي البربريني:

(F.C. Conybeare and A.J. Maclean, *Rituale Armenorum,* Oxford, 1905, pp. 392-393).

[الله القدوس الذي نعتبره برعدة ونرفعه في مقامه وتوقيره الأعلى غير المدرك في جميع أعماله وقوته، قد سبق وعيّنك أيها الشيطان للغضب والعقاب الأبدي وهو يأمرك بواسطتنا أنتَ وأعوانكَ وكل قدرة تعمل معك أن تبتعد بعيداً عن الذين قبلوا علامة الصليب باسم الرب يسوع المسيح إلهنا الحقيقي. وأنا آمرك أيها الكلي الشر النجس والكذّاب، الروح المعادي، آمرك بقوة يسوع المسيح الذي له كل السلطان مما في السماء وعلى الأرض، اترك واذهب بعيداً عن الذين استعدوا لنوال حميم العماد المقدّس. آمرك بآلام مخلّصنا الرب يسوع المسيح وبثمن جسده ودمه وبحق مجيئه المخوف لأنه سيأتي على السحاب ويدين الأرض ويدينك أنت وكل قوة تعمل معك إلى جهنم النار وإلى الظلمة الخارجية حيث الدود الذي لا يموت والنار التي لا تُطفأ].

وتعهّدكم ويُعدّكم للنطق بالكلمات الرهيبة [أنا أجحدك أيها الشيطان].

١٩ ـ (يقول ذهبي الفم): الدموع والغصّة تكتنفني الآن وأنا أذكر كيف نطقت أنا أيضاً بهذه الكلمات، كيف كوّمت على نفسي كومة من الخطايا ثقيلة منذ ذلك اليوم حتى هذا اليوم، فأي خجل وعار وضعته على نفسي بإهمالي. أتوسّل إلى جود إحسانكم أن تذكروني لدى الملك العتيد أن تتقابلوا معه، الذي هو على شوق أن يستقبلكم ليضع عليكم ثوبه الملكي ويحمّلكم بالهدايا قدر ما تريدون وأكثر، ذلك في الأمور الروحية التي ينبغي أن نطلبها. اسألوه عني أن لا يحاسبني على ما فات مني ويمنحني سماحه ويجعلني مستحقاً للطفه. أنا لا أشك أنكم ستفعلون، لأنكم تحفظون وداً كثيراً لمن يعطونكم المعرفة.

٢٠ ـ وبعد ذلك سيجعلكم الكاهن تقولون: "أنا أجحدك أيها الشيطان، مع تعظُّماتك وأتباعك وأعمالك". كلمات قليلة ولكن مفعولها قوي. فالملائكة المرافقون وكل القوات الغير المنظورة تفرح بتوبتكم ورجوعكم وترفع أقوالكم إلى المعلّم لتُكتب في سجلات السماء.

٢١ ـ وبعد جحد الشرير وكل متعلّقاته (تعودون إلى الشرق) وتقولون: "أدخل إلى خدمتك أيها المسيح". انظروا إلى تعطُّفاته الجزيلة. لأنه إزاء هذه الكلمات يستأمنكم على مخازن كنوزه، متناسياً كل جحودكم السابق وعدم رضاكم، ولا يذكر لكم أعمالكم التي سلفت مكتفياً بمحبتكم وبهذه الكلمات القليلة.

المسحة بزيت الإكسورسزم والمعمودية:

٢٢ ـ بعد فكاك رباط الشيطان وتوثيق عقد الإيمان بالاعتراف بسيادة المسيح وسلطانه، حيث بعهدكم تكونون قد ارتبطتم بالمسيح، وكأنكم محاربون قد اخترتم للعراك، يبدأ الكاهن يمسحكم على الجبهة بزيت الأكسورسزم وعلامة الصليب قائلاً: (فلان) يُمسح باسم الآب والابن والروح القدس.

٢٤ ـ وبعدها يكمل تعرية الجسد ويمسحه كله بالزيت، في وسط ظلام الليل، ويدهن كل الأعضاء للتقوى في مواجهة ضربات العدو.

٢٥ ـ بعد هذه المسحة تنزلون إلى مياه المعمودية المقدّسة لتدفنوا الإنسان العتيق ليقوم الجديد الذي يتجدّد على صورة خالقه، حيث ينزل الروح القدس ليقوم الإنسان الجديد وقد اغتسل من كل نجاساته وخطاياه، وإن كان قد خلع رداء النجاسة فقد لبس لباس البر الملكي.

٢٦ ـ ولكي تتعلّموا أيضاً من هذا أن جوهر الآب والابن والروح القدس هو واحد، تتم المعمودية الواحدة

بالطريقة التالية: يقول الكاهن إن فلاناً يتعمَّد باسم الآب والابن والروح القدس، ويُغطِّس رأسكم في الماء وذلك على ثلاث مرَّات، رافعاً إيَّاها من الماء وذلك ليهيِّئكم بهذه الحركة السرية لتستلموا الروح القدس النازل، لأنه ليس الكاهن هو الذي يلمس الرأس بل هي يد المسيح اليمنى. وهذا واضح لأن الكاهن لا يقول فلان أُعمِّده، بل فلان يتعمَّد لأنه ليس هو الكاهن الذي يُعمِّد بل المسيح. وأمَّا الكاهن فليس هو إلاَّ خادم للنعمة مقدِّماً يده لأنه قد رُسم لهذا العمل بالروح.

وحقيقة إن من يتمِّم هذا السر هو الآب والابن والروح القدس الثالوث غير المنقسم، لأن الإيمان بالثالوث هو الذي يعطي نعمة غفران الخطية، والاعتراف بهذا الإيمان هو الذي يهبنا هبة البنوَّة.

٢٧ ــ وفي حال خروجهم من جرن المعمودية من الماء المقدَّس، يقبِّلهم كل الحاضرين ويفرحون معهم ويهنِّئونهم لأنهم بعد أن كانوا أسرى وعبيداً صاروا فجأة أحراراً وأبناءً مدعوين للمائدة الملكية. لأنهم بعد خروجهم من الماء يتقدَّمون إلى المائدة ... كملائكة على الأرض مضيئين كالشمس.

ختام العظة: دعوات وصلوات:

٢٨ ــ ليس عبثاً ولا كأنه بلا غرض، كوني سبقت وشرحت لكم ما سيحدث، وعرَّفتكم بكل هذه الأمور، بل لكي تسيروا بعد ذلك محمولين على أجنحة الرجاء وتستمتعون بمسرة الحياة الجديدة. وكما دعا بولس الرسول: «اهتموا بما فوق» (كو ٣:٢)، غيِّروا أفكاركم مما على الأرض لتكون لما هو في السماء، من المنظورات إلى غير المنظورات. فعين الروح أقوى من عين الجسد.

٢٩ ــ وبما أنكم واقفون الآن على عتبة القصر الملكي، وعلى وشك أن تقربوا العرش حيث يجلس الملك وعنده الهدايا فاطلبوا طلبات كبيرة بكل ثقة، ولكن قط لا تسألوا شيئاً دنيوياً أو بشرياً. اجعلوا سؤالاتكم لائقة بالذي يعطي العطايا. وإذ خرجتم من الماء على مثال قيامتكم اطلبوا منه أن ينصركم حتى تكونوا على مأمن بخصوص هداياه التي أعطاها لكم وحتى لا تُهزموا بخبث الشرير. توسَّلوا إليه من أجل السلام بين الكنائس، وتضرَّعوا من أجل الذين ضلُّوا، واسجدوا سؤالاً من أجل الخطاة حتى نُحسب أن نكون أهلاً لرحمته فإنه أعطاكم ثقة كبرى، فقد سجَّل أسماءكم لتكونوا في مقدِّمة أصدقائه وقبلكم للتبني بعد أن كنتم عبيداً وأسرى ولا حقَّ لكم في الكلام معه، فهو لن يرفض صلواتكم بل بدافع من صلاحه سيعطيكم كل ما طلبتم.

٣٠ ــ فإن رآكم الرب ذوي عطف على إخوتكم وخلاص الآخرين يأذن لكم بأن تتكلَّموا أمامه بثبات. فلا شيء يُسرّه قدر مشاعرنا الطيبة من نحو الذين هم أعضاء جسده، فإظهار عواطفنا من جهة إخوتنا

وانشغالنا بخلاص الآخرين يُسرّ قلبه.

٣١ ـ في هذه المعرفة يا أحبائي اجعلوا أنفسكم مستعدين لتقبُّل نعمته بسرور وفرح الروح حتى تستحقوا مواهبه. ليتنا جميعاً معاً نجعل سلوكنا مستحقاً لنعمته لنكون مستحقين أن نقبل عطاياه الأبدية بنعمة ومحبة يسوع المسيح ربنا الذي له مع الآب والروح القدس المجد والقوة والكرامة الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور. آمين.

العظة الثالثة[١]

عظة أُلقيت على المعمَّدين الجدد

مقدِّمة:

يقول الناشر تعليقاً على هذه العظة:

إن هذه العظة أُلقيت في صباح عيد القيامة بعد أن اقتبل طالبو المعمودية معموديتهم ونالوا إفخارستيتهم. هنا ذهبي الفم يهنّئهم باعتبارهم المستنيرين الجدد، ويحثّهم أن يكونوا محاربين روحانيين. فالمسيح معهم، وفيهم، في حال دخولهم معمعة المصادرة (مع العدو). فالمسيح لم يعطهم السلاح فقط ولكن أطعمهم من جسده ودمه. وذهبي الفم يوضِّح لهم قوة دم المسيح بالمقارنة مع قوة الدم الذي جاء على مثاله (قديماً) وهو دم خروف الفصح الذي نحّى الملاك المُهلك عن بني إسرائيل. إذ أن دم المسيح الذي صبغ شفاه المستنيرين الجدد نحّى ووضع في الخزي عدو نفوسهم! وقوة دم المسيح تأتي من مصدره، إذ لمّا طعن قائد المائة جسد المسيح على الصليب - وقد مات - خرج منه دم وماء، فخروج الماء يعطي المعمودية سرَّها والدم يعطي الإفخارستيا سرّها. وكما أن حواء تكوَّنت خلقتها من جنب آدم وكان نائماً، هكذا الكنيسة تكوَّنت خلقتها من جنب المسيح وهو نائم في موته على الصليب. فالمسيح يطعمنا من ذاته كالأم التي تُطعم طفلها من ذاتها. فياليت المستنيرين الجدد يتحفَّظون على أمانتهم وعلى عهدهم في خدمة المسيح وتعتريهم المخافة حتى لا يسقطوا في خطاياهم إذ ليس هناك ميلاد آخر بعد الميلاد الثاني.

فالإنسان المسيحي أفضل من موسى، فله المسيح والمذبح مصادر البركات غير المنتهية.

العظة:

يقارن المولودين الجدد بنجوم سمائية:

١ - مبارك الله! توجد نجوم هنا أيضاً على الأرض تضيء أكثر من نجوم السماء، ذلك بسبب شمس البر الذي جاء من السماء ورؤى على الأرض. وليس فقط نجوم على الأرض بل والعجيبة الأخرى أن النجوم تضيء في نور النهار، والتي تضيء بالنهار أقوى من التي تضيء بالليل، لأن نجوم السماء تختص

(1) *Ibid.*, pp 56 ff.

نفسها بعيداً عن ضوء إشراق الشمس، ولكن حينما تضيء شمس البر تبرق هذه النجوم النهارية بلمعان أكثر. فهل رأيتم قط نجوماً تضيء في وسط نور الشمس؟!.

٢ – نعم فنجوم الليل تختفي في نهاية الليل، ونجوم النهار هذه تضيء بلمعان أكثر من ساعة الذروة. وعن نجوم الليل يقول الكتاب: «وتسقط النجوم من السماء كورق يتساقط من الكرم» (مت ٢٤:٢٩ مع إش ٣٤:٤ و١٣:١٠)، أمّا عن نجوم النهار فيقول: «حينئذ يضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم.» (مت ١٣:٤٣)

٣ – لماذا يسقطون كورق الكرم؟ هكذا تسقط نجوم السماء، لأن الكرم طالما يمد قطوف العنب بالغذاء يحتاج العنب إلى تظليل وحماية الأوراق. وبعدما تعطي كل ثمرها حينئذ تُسقط ورقها أيضاً. وهكذا أيضاً طالما كان العالم يحوي جنس الإنسان تحتفظ السموات بنجومها كالكرم الذي يحتفظ بأوراقه. فإذا كفّ الليل أن يكون فلن تكون حاجة إلى نجوم.

٤ – طبيعة النجوم نارية في السماء، هكذا نجوم الأرض أيضاً نارية، ولكن نار نجوم السماء تُرى بالعين الجسدية في حين أن هذه النار الأخرى لا تُرى إلاّ بعين النفس. يقول القديس متى: «هو سيعمّدكم بالروح القدس ونار» (مت ٣:١١). فهل تريدون أن تتعرّفوا على أسماء هاتين الفئتين من النجوم؟ أمّا نجوم السماء فهي أوريون وأركتوروس ونجم المساء ونجم الصبح، أمّا النجوم التي بيننا فليس فيها نجم مساء بل كلها نجوم صباحية.

نعم المعمودية المتكاثرة:

٥ – نقول مرّة أخرى: «مبارك الله ... الصانع العجائب وحده!» (مز ٧٢:١٨)، الذي يصنع كل شيء ويغيّر كل شيء. بالأمس كنتم أسرى والآن أنتم أحرار ومواطنون كنسيون. فيما سبق كنتم تعيشون في خزي خطاياكم، والآن تحيون في ملء الحرية والبر. لستم أحراراً فقط بل وقديسون، ولستم قديسين فقط بل وأبرار. ولستم أبراراً فقط بل وأبناء، ولستم أبناء فقط بل وورثة، ولستم ورثةً فقط بل وإخوة للمسيح. ولستم إخوة للمسيح فقط ولكن شركاء ميراث، ولستم شركاء ميراث فقط ولكن أعضاء، ولستم أعضاء فقط بل وهيكل، ولستم هيكلاً فقط بل وأدوات للروح القدس!

٦ – فمبارك الله الصانع العجائب وحده! قد رأيتم ما أكثر عطايا المعمودية، بالرغم من أن كثيرين يظنون أن عطيتها الوحيدة هي غفران الخطايا. أمّا نحن فعدّدنا كراماتها إلى عدد عشرة ولهذا السبب نفسه نعمّد حتى الأطفال ولو أنهم بلا خطية ولكن لكيما ينالوا بقية العطايا من تقديس وبرّ واختيار للتبني،

والميراث حتى يشبّوا إخوة وأعضاءً للمسيح ويصيروا هيكلاً للروح.

٧ – إخوتي الأحباء جدًّا، إن كنت أدعوكم إخوة فهذا حق لأني أقتسم معكم نفس الميلاد، وبسبب محبتي الأخوية الكبيرة لكم إني أحمِّسكم لكي تُظهروا غيرة عظيمة تتناسب مع الكرامة العليا التي أُسبغت عليكم.

مع العدو:

٨ – إلى الآن كنتم في مدرسة التمرين والتدريب حيث كل سقوط يُغتفر. ولكن من اليوم تنفتح أمامكم حلبة العراك، والمقارعة قريبة، وقد جلس المتفرِّجون من كل جانب، وليس فقط الناس يراقبون الملحمة ولكن خوارس الملائكة أيضاً، كما يقول القديس بولس في رسالته إلى أهل كورنثوس: «صرنا منظراً للعالم للملائكة والناس» (١كو ٤:٩). فإن كان الملائكة ينظرون، فرب الملائكة واقف فوق المتلاطمين كقاضٍ وحكم. وهذا ليس فقط تكريماً لنا بل وتأكيداً لسلامتنا. أما يكون تكريماً لنا بل وتأكيداً لسلامتنا أن القاضي الذي يراقب التصادم هو الذي وضع نفسه وحياته من أجلنا؟!

٩ – وفي المصارعات الأُوليمبية يقف القاضي وحده عالياً فوق المتصارعين لا يحابي أحداً هنا أو هناك. ولكن ينتظر الضربة القاضية، يقف في الوسط لأن حكمه ليس متحيِّزاً. ولكن في مصادمتنا مع الشيطان لا يقف المسيح عالياً بل ملتحماً في صفنا. ولكي تعرفوا ما أصدق هذا القول إنه لا يقف عالياً بل ملتحماً ومنحازاً لنا، اعتبروا أنه هو الذي مسحنا ووضع الختم على جباهنا قبل أن ندخل المعركة، بل ولكنه ربط العدو. إنه مسحنا بزيت البهجة بل ولكنه كبَّل الشيطان بقيود لا يمكن كسرها حتى يجعله مشبوك اليد والرجل أثناء المعركة. أمَّا إن حدث وزلقت قدمي فإنه يمد يده ويرفعني من أن أسقط ويوقفني على قدميَّ، لأن الكتاب يقول: «تدوسون الحيَّات والعقارب وكل قوة العدو.» (لو ١٠:١٩)

١٠ – وبعد أن تتم النصرة يُحدر الشيطان في جهنم، وإن غَلَبْتُ أنا أنال الإكليل، أمَّا إن هو غلب فإنه يُعاقب. ولكي تعلموا أنه يعاني مشقة ومهانة أكثر إن هو غلب وانتصر، سأوضِّح لكم الأمر مما حدث قديماً: لقد أسقط العدو آدم وطغى عليه فماذا كانت مكافأته التي كافأه بها الرب من أجل نصرته؟ كانت اللعن: «على بطنكِ تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتكِ» (تك ٣:١٤). فإن كان الله قد عاقب الحيَّة المنظورة بهذه الشدَّة فبأي عقاب وإهانة يعاقب الحية التي لا تُرى إلاَّ بعين النفس. وإن كانت هذه العقوبة قد خرجت على الأداة التي استخدمها المحتال فواضح أن العقاب الذي يكون من نصيب المحتال نفسه أشد. والمسيح لن يكتفي بأن يعاقب الشيطان بل وسيحطِّم سلاحه.

١١ – فياليتنا نتشجَّع ونتسلَّح للملاطمة فقد سلَّحنا المسيح بسلاح أكثر لمعاناً من الذهب وأصلب من

الصلب، محرق أكثر من النار وأخف من الهواء. فحمل هذا السلاح لا يُشكّل حملاً ولا هو يثني ركبنا بل يعطي أجنحة لأحقّائنا ويرفعنا. فإن أردتم الطيران نحو السماء فلن يعوق طيرانكم! إنه سلاح جديد لأن المعركة هي أيضاً جديدة. فمع أني إنسان ولكن عليّ أن أكيل اللطمات للشيطان، ومع أني لحم ودم، لكن معركتي ليست مع لحم ودم، من أجل هذا صنع الله لي درعاً لا من معدن بل من البر، وقد هيّأ لي ترساً ليس من برونز بل من إيمان، وعندي سيف حاد هو نفسه كلمة الروح. فالشيطان يطلق سهامه نحوي ولكن سيفي دائماً معي، فأنا جندي مسلّح بسلاح ثقيل. ليتكم تعلمون أن تحرّكاته وسهامه دائماً يطلقها من بعد، فهو لا يجسر أن يقترب منّا!

قوة دم المسيح:

١٢ – ولكن ليس أن الله فقط أعدّ لنا سلاحاً، بل أعدّ لنا طعاماً أقوى من السلاح حتى لا نخور في معمعتنا مع الشيطان، وحتى نغتذي به فنكسب موقفنا مع العدو الشرير. فإن رآكم العدو عائدين من مائدة المعلّم يهرب مسرعاً أسرع من الريح وكأنه صادف أسداً ينفث ناراً من فمه ... فإن رأى فمك ممسوحاً بالدم سيفر كوحش جبان.

١٣ – فإن أردت أن تعرف القوة المذخرة في هذا الدم ارجع إلى قصة الخروج من مصر ... فالمصريون كانوا قد احتجزوا بني إسرائيل. فماذا فعل الرب لكي لا يهلك شعبه مع المصريين؟

١٤ – لقد صنع موسى فصحاً آخذاً حَمَلاً وذبيحة وأوصى أن تُمسح بالدم أبواب بني إسرائيل. فهل دم حيوان غير عاقل يقدر أن يخلّص إنساناً عاقلاً؟ نعم، لا لأنه دم حيوان غير عاقل، بل لأنه يصوّر مسبقاً دم المعلّم. (فإن كان مجرّد رمز لدم المسيح صنع خلاصاً، فكم يكون دم المسيح؟!).

١٥ – في ذلك اليوم في مصر رأى الملاك المهلك (ملاك شر) مجرّد مسحة دم خروف الفصح فلم يجرؤ أن يدخل ويقتل، أمّا اليوم فالشيطان لن يختبر نفسه مرّة أخرى، إذ يرى لا شبه الدم بل الدم نفسه ممسوحاً على شفاه المؤمنين وقد صارت أبواباً لهيكل فيه المسيح! فإن كان الملاك المهلك وقف بلا حراك لمّا رأى مسحة دم الفصح على الأبواب فكم بالحري حينما يرى الحق ذاته.

الكنيسة تكوّنت من جنب المسيح:

١٦ – وإن كنت تريد أن تدرك قوة الدم من مصدر آخر، انظر من أين خرج أولاً وأين كان منبعه، إنه فاض من على الصليب من جنب المعلّم. هكذا يقول القديس يوحنا إنه عندما مات المسيح وهو على الصليب جاء أحد قوّاد المائة وطعنه في جنبه بالحربة وفي الحال خرج ماء ودم: الماء كان رمزاً

للمعمودية والدم للإفخارستيا. لذلك قال خرج دم وماء، ولكن اليهود ذبحوا الذبيحة ولكني أنا الذي حصدت الجائزة – أخذت الدم – الذي للخلاص الذي تحصّلنا عليه من الذبيحة.

١٧ – وخرج من جنبه ماء ودم. يا أحبائي لا تدعوا هذه الحقيقة السريّة دون تفكُّر لأني لا أزال أحتفظ بسر آخر، قلت إنه كان في هذا رمز للمعمودية والإفخارستيا في هذا الماء والدم، ومن هذين السرّين قامت الكنيسة "بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس" (تي ٣:٥)، من خلال المعمودية والإفخارستيا. بهذا يكون المسيح هو الذي كوّن الكنيسة من جنبه تماماً كما صنع الله حواء من جنب آدم وهو نائم.

١٨ – وهكذا أيضاً موسى في وصفه للإنسان الأول يخبرنا أن آدم قال: «هذه عظم من عظامي ولحم من لحمي» (تك ٢:٢٣) مشيراً بذلك بالنبوّة إلى جنب المسيح. فكما أن الله في ذلك الوقت أخذ ضلع آدم ومنه صنع المرأة، هكذا المسيح أعطانا الدم والماء من جنبه وصنع الكنيسة. وكما أخذ الضلع من آدم وهو مثقّل بالنوم، هكذا أعطانا الدم والماء من بعد موته، أولاً الماء ثمّ الدم. فما كان عند آدم النوم العميق أصبح هنا عند المسيح الموت على الصليب.

١٩ – أرأيتم كيف وحّد المسيح نفسه بعروسه، وكيف بطعام جسده ودمه أعطانا غذاءنا تماماً كالأم التي بعد أن تُخرج وليدها تطعمه من دمها ولبنها، هكذا المسيح يطعمنا نحن الذين ولدهم...

٢١ – احرصوا لئلاّ نرجع ونصير مديونين مرّة أخرى للصك القديم. فالمسيح جاء مرّة واحدة ووجد شهادة أسلافنا تحت المديونية التي كتبها آدم وأمضاها. آدم أمضى الدين فيما يخص الخطية ووضعنا نحن المزيد عليه ديوناً. وبهذا الصك القديم كانت اللعنة وكانت الخطية وكان الحكم بالموت (الروحي) وإدانة الناموس. ولكن لمّا جاء المسيح فقد رفع هذه جميعاً وسامح بها، والقديس بولس يصرخ: «وكتاب يد خطايانا (ديوننا) الذي كان ضداً لنا رفعه من الوسط (بين الله وبيننا) مسمّراً إيّاه على الصليب» (كو ٢:١٤ حسب النص). لم يقل إنه محا الصك ولا قال ألغاه بل سمّره على الصليب حتى لا يعود له أثر باقٍ، هذا هو السبب في كونه لم يكتفِ بأن يمحوه بل مزّقه على الصليب تمزيقاً، بالمسامير تمزّق الصك وأماته تماماً، حتى لا يعود يصلح مرّة أخرى.

٢٢ – هو لم يمزّق الصك المكتوب عن خطايانا في ركن سرّي ولكن جهاراً على مرأى من كل العالم ومن أعلى الصليب، لكي تراه الملائكة ورؤساء الملائكة والقوات العليا، وأيضاً المناكيد الأشرار الشياطين يرونه، هؤلاء الذين جعلونا مديونين للديّان بديوننا، ولكن الآن مُزّق الصك حتى لا يكون لهم علينا سيادة بعد.

المعمودية مقابل الخروج من مصر:

٢٣ ـ ولأنه قد مُزِّق صك خطايانا القديم فليتنا نكون صاحين منتبهين حتى لا يُكتب علينا صك آخر، لأنه لا يوجد لنا صليب آخر ولا غفران خطايا مـرّة أخرى أو تجديد. أنا أحذِّركم حتى لا تركنوا إلى الإهمال. أنتم خرجتم من مصر فلا تطلبوا مصر مرّة ثانية ولا شرورها ولا طينها وطوبها، فإن أمور الحياة أيضاً هي طين وطوب، فالذهب نفسه قبل أن يصير ذهباً كان طيناً.

٢٤ ـ اليهود رأوا المعجزات وأنتم سترون أكثر وأشد بريقاً من تلك التي رآها اليهود في خروجهم من مصر. أنتم لم تروا فرعون ولا جيوشه الغارقة ولكن رأيتم غرق الشيطان وجيوشه في بحر المعمودية. اليهود عبروا البحر وأنتم عبرتم الموت، هم أُنقذوا من يد المصريين وأنتم أُنقذتم من يد الشيطان، هم ألقوا عبوديتهم للبرابرة وأنتم ألقيتم عنكم عبوديتكم للخطية.

٢٥ ـ أتريدون أن تعرفوا طريقاً آخر قُضي لكم فيه بأعاجيب أكثر: في أيامهم لم يكن اليهود يستطيعون أن يروا وجه موسى لأنه كان متجلّياً مع أنه كان زميلاً لهم في العبودية وقريباً منهم، وأمّا أنتم فرأيتم وجه المسيح في مجده. والقديس بولس يقول: «نحن جميعا ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف» (٢كو ٣:١٨). واليهود بعد مصر دخلوا القفر، أمّا أنتم فبعد الخروج من عبودية الشيطان تأتون إلى السماء. كان موسى قائداً ممتازاً أمّا نحن فقائدنا هو الله.

٢٦ ـ موسى كان حليماً أكثر من كل الناس على الأرض (عد ١٢:٣)، ونحن لنا موسى الجديد "المعلّم" الذي له أكثر من منتهى الوداعة فهو متواضع القلب أيضاً. موسى في ذلك الزمان رفعَ يده نحو السماء فنزل المن (خبز الملائكة)، والآخر هنا رفع عينيه نحو السماء فأحضر لنا طعام الحق للحياة الأبدية. موسى ضرب الصخرة وجعل أنهار ماء تفيض، وهذا موسى الآخر يمس المائدة فتنزل من السماء ينابيع الروح، تفيض على الجميع يلتفُّون حولها من كل جانب ويتلقون ماء الخلاص.

٢٧ ـ وإذ لنا مثل هذا الينبوع وحياتنا الآن هكذا، ومائدتنا تنوء تحت ثقل بركات الروح تفيض من كل جانب، ليتنا نتقدَّم بقلوب مخلصة وضمائر مطهَّرة حتى نستقبل نعمته وإحسانه لملء عوزنا بالنعمة ومحبة البشر التي للابن الوحيد ربنا ومخلِّصنا يسوع المسيح الذي به ومعه للآب والروح القدس المحيي المجد والكرامة والقوة الآن وكل أوان ودهر الدهور. آمين.

العظة الرابعة[1]

مخاطبة المعمَّدين الجدد على قول بولس الرسول

«إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة» (٢كو ٥:١٧)

مقدِّمة:

يقدِّم ناشر الكتاب ملاحظته على هذه العظة فيقول:

إن التعييد الذي يعيِّدونه للمولودين جديداً كان في أنطاكية يستمر سبعة أيام من بعد معموديتهم، أي من يوم عيد القيامة إلى الأحد الذي يليه. كما يُصنع لعرس الزواج في الحياة المدنية. وكان في كل يوم يجتمع المعمَّدون الجدد للصلاة. وعلى مدى أسبوع القيامة كان القديس يوحنا ذهبي الفم يخاطبهم بسلسلة من العظات تشبه مجموعة الخمس عظات التي تبدأ بالعظة الحالية (عظات رقم ٤ إلى ٨).

هذه العظات التوجيهية ليست مثل التي لكيرلس الأُورشليمي التي أُلقيت أيضاً إلى المولودين الجدد أثناء أسبوع القيامة، فذهبي الفم في هذه العظات لا يعود يشرح الأسرار وطقوسها، ولكنه يعلِّم ما هي الأخلاق اللائقة بالحياة الروحية. وكان يدفعه إلى ذلك هذا الموسم الروحي الجديد (الخمسين المقدَّسة) الذي يلي الصوم، إذ كان يعتبر أن الطبيعة البشرية لا تكون ضعيفة في أي وقت مثلما تكون في وقت الراحة، ومن ناحية أخرى فإن عدو النفوس يثور علينا بالأكثر حينما يرى الإنسان حاصلاً على عطايا روحية فائقة فيزيد من تجاربه.

وذهبي الفم لا يتعب ولا يمل من الحث على الزهد والتعفُّف الروحي (تلك الفضائل التي كانت الحياة الرهبانية مثالاً أعلى لها) في احتقار أباطيل الحياة والتأمُّل في بركات السماء ومشتهياتها. وكانت عظاته دائماً ترمي إلى تحاشي شر الفتور والاستهتار بالروحيات، اللذان هما الفرصة والسبب لكل سقطة، وأيضاً ترمي إلى تقويم النفوس في الاتزان والتحكُّم والسهر الروحي. والتعاليم الأخلاقية التي يقدِّمها هنا ذات قيمة روحية عالية، فهذه توجيهات ثمينة من الله للاحتفاظ بما أعطانا من نعم فائقة.

(1) *Ibid.*, pp 66 ff..

العظة:

المعمَّدين الجدد هُم فرحة الكنيسة:

١ - أرى اجتماعكم اليوم أكثر إشراقاً من باقي الأيام، والكنيسة فرحة من أجل أولادها. فالكنيسة تنظر أولادها فرحة مسرورة حينما ترى نفسها أُمّاً مخصبة كحقل مزدهر. فاعتبروا أيها الأحباء فرحة الكنيسة حينما ترى كم من البنين حولها(٢)، أخرجتهم إلى الوجود كأم روحية وفي ليلة واحدة. ولكن لا نندهش لأن الحمل بالأولاد الروحانيين الجدد لا يحتاج إلى زمن ولا تعب(٣).

٢ - فليتنا نفرح مع الكنيسة لنشاركها فرحتها، لأنه إن كان هناك فرح في السماء عندما يتوب خاطئ واحد فكم يكون الفرح بالنسبة لنا حينما نمجِّد الله على إحسانه وعلى نعمته هذه التي تفوق الوصف! لأن نعمة الله حقاً كبيرة ولا يُنطق بها. فما هي قدرة الإدراك التي تستطيع أن تتابع إحسانات الله وهداياه التي بلا حصر التي يغدقها على جنس البشر؟!

٣ - كانوا أمس وما قبل يوم أمس عبيداً للخطية، واليوم قُبلوا في مرتبة البنين، خلعوا حمل خطاياهم ولبسوا الثوب الملكي، يعيشون في منافسة بهاء السماء ذاتها، نراهم يضيئون أكثر من النجوم بل يضيئون وجوه من يتطلّع إليهم. والنجوم تضيء فقط بالليل ولا تظهر أبداً في نور النهار، أمّا هؤلاء فيضيئون بالليل والنهار سواء. لأنهم نجوم روحية تفوق الشمس. والمسيح معلّمنا استخدم صورة الشمس ليعبِّر عن ضياء الأبرار في الدهر الآتي كعلامة عندما قال إن الأبرار يضيئون كالشمس. هكذا يُقارن البار

(٢) تعبير القديس يوحنا ذهبي الفم عن الكنيسة أنها "أُم" تعبير محبَّب إليه في كل تعاليم المعمودية. والمعمَّدون ليلة عيد القيامة يُعَيِّدون بالمئات وفي المدن الكبرى بالآلاف. وفي سنة ٤٠٤م في القسطنطينية كان المُعمَّدون في العيد ثلاثة آلاف نفس كما ذكر بالليديوس (Dialogus 9, PG. 47, 33,34). وفي أنطاكية ليس أقل من ذلك حيث كان تعداد الأرثوذكس فقط ١٠٠,٠٠٠ نسمة. والكنيسة هي أُمنا لأنها هي التي أحضرتنا إلى العالم الروحي والمسيح هو والدنا.

(٣) من أقوال القديس يوحنا ذهبي الفم بخصوص أن الميلاد الروحي بلا ألم:

+ [من إحسانات هبة الله أنها تضع رجالاً بلا عرق] (العظة التاسعة للمعمَّدين: ١٩ ACW, vol. 31, pp. 137,138).

وأيضاً:

+ [يا للطلقات الطاهرة التي للولادة الروحية! يا للميلاد الروحاني الصانع أولاداً جدداً! هنا حمل بلا رحم وولادة بلا بطن وحمل أطفال بلا لحم، فحمل أطفال الروح هو بنعمة الله وإحسانه. والميلاد الروحي ملؤه الفرح والتهليل. أمّا الميلاد من الجسد فيبدأ بالدموع وينتهي بالصراخ، والدخول إلى الحياة في العالم من خلال الدموع وكأن الطبيعة تتنبّأ بما هو آتٍ. قبل الخطية والسقوط قال الله: «أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض»، ولكن بعد الخطية: «تكثيراً أُكثر أتعاب حبلك بالوجع تلدين أولاداً» (تك ٣:١٦)، فكان الحمل والولادة عقاباً. دموع في الميلاد ودموع في الممات. وقماط في الميلاد وقماط في الممات. أمّا ميلاد الروح فيولد مسلّحاً للعراك مع العدو حرّ اليدين والرجلين. لا دموع بل تهنئة وترحيب.] (*In prin. act.* 3, cited in ACW, vol. 31, p. 245).

بضياء نور الشمس، ليس فقط لأن ضياءهم هكذا شديد ولكن لأنه لا يوجد شيء آخر في عالم الماديات أكثر ضياءً من الشمس.

٤ ـ في هذا اليوم أحتفل بهؤلاء الذين يضارعون الشمس في ضيائها، وأنا لا أحتضنهم بذراعيَّ الجسديتين ولكن أُظهر محبتي لهم بهذا التعليم الروحي. وأوصيهم بأن يقدِّموا مقدار السخاء الفائق الذي أسبغه علينا المعلِّم ونور الثوب الذي استحقوا أن يلبسوه. والقديس بولس الرسول يقول: «لأن كُلَّكُم الذين اعتمدتُم بالمسيح قد لبستُم المسيح» (غل ٣:٢٧). لذلك فأنا أُنبِّهكم أن تعملوا كل ما تعملون على أساس أنكم فعلاً لابسون المسيح الخالق كل الأشياء ومعلِّم طبيعتنا لأنه ساكن فيكم. وحينما أقول المسيح أعني أيضاً الآب والروح القدس، لأن هذا ما قاله المسيح نفسه لنا ووعدنا به عندما قال: «إن أحبني أحد يحفظ كلامي ويحبه أبي وإليه نأتي وعنده نصنع منزلاً.» (يو ١٤:٢٣)

٥ ـ فمثل هذا الإنسان (الحامل المسيح في قلبه) وإن كان يسير على الأرض لكنه يكون كمن يحيا في السماء. لأنه يحفظ فكره وتصوُّرات قلبه في الأشياء التي فوق ولن يخاف بعد مؤامرة الشياطين الأردياء، لأن الشيطان لا يحتمل ضياء بهاء مثل هؤلاء الناس.

٦ ـ أنتم جنود المسيح الجدد الذين تسجَّلت أسماؤكم اليوم كمواطنين سمائيين، وقد دُعيتم إلى هذه المائدة الروحانية لتتمتعوا بأطايب المائدة الملوكية (ربما تكون هذه العظة قد قيلت في ليلة العيد) فأظهروا غيرتكم التي تستحق هداياه وعطاياه حتى تربحوا نعمة أكثر من فوق. إن معلِّمنا محسن، وحينما يرى إمتنانكم على ما أعطي محتفظين به فإنه يفيض من نعمه أكثر، حتى ولو كان ما نقدِّمه نحن قليلاً لكنه هو يزيد من عطاياه.

القديس بولس المَثَل الأعلى للمعمَّدين الجدد:

٧ ـ لنا مَثَل في القديس بولس معلِّم المسكونة كلها، فقد كان مضطهِداً للكنيسة، في كل مكان يذهب إليه يجر رجالاً ونساءً ويلقيهم في السجن، خالق المصاعب والمتاعب للمسيحيين كإنسان فقد عقله. ولكن بعد أن نال خيرات حب المعلِّم له واعتمد واستنار بنور الروح القدس، ترك الظلمة التي كان يضل فيها وبها واقتيد إلى الحق، لم يؤخِّر التوبة ولكنه في الحال اعتمد غاسلاً خطاياه. والذي كان أداة في يد اليهود، عاد فأربكهم في دمشق إذ أخذ ينادي بالمسيح المصلوب أنه ابن الله.

٨ ـ أترون أمانة قلب القديس بولس مبرهناً لنا بهذه الحوادث أنه كان يعمل أعماله السابقة عن جهل، وأنه مستحق كل رحمة من فوق وأن يقاد إلى طريق الحق؟ فالله حينما يرى بجوده أن نفساً تسير في الضلال بجهالة لا يرذل هذه النفس أو يسلِّمها لتخريب حياتها، ولكنه يُظهر لها صلاحه لخلاصنا. على أنه ينبغي

أن نوجد مستحقين لأن نحصد بركات نعمته الآتية من فوق كما صنع بولس الرسول.

٩ ـ ما صنعه شاول كان عن جهل وعدم إيمان، كما يعترف هو أن غيرته كانت بحسب الناموس، ولكنه تسبَّب في متاعب وإرباك للجميع. ولكن لمَّا تعلَّم من رب الناموس نفسه أنه على خطأ[٤]، أدرك سهوه وخطأه في الحال بلا تأخير، وبعد أن تعمَّد واستنار انطلق يشهد بقوة.

١٠ ـ وبعد أن كان ثائراً كالأسد مقتحماً البيوت، انظر إليه الآن بعد أن تغيَّر كحمل وديع ... أتنظرون مدى التغيير، وكم هو صار مختلفاً عمَّا كان ... وكيف أضاف إلى نعمة الله التي أعطاها له ما قدَّمه هو أيضاً في الخدمة من غيرة، من حرارة، من إيمان، من شجاعة، من صبر بعقل متسامٍ وإرادة لا تمل. لذلك كان مستحقاً لمعونة أكبر أتته من فوق.

١١ ـ أنا أشجِّعكم أن تتمثَّلوا ببولس، فقد صرتم مستحقين أن تخضعوا تحت نير المسيح، وقبلتم عهد التبني، والآن عليكم أن تُظهروا من البدء مباشرة حرارة إيمان في المسيح حتى تنالوا نعمة أكثر من الأعالي، فتضيء حُلتكم البيضاء أكثر وتقبلوا عطف ومحبة المعلِّم. فبالرغم من كل ما كان عليكم إلاَّ أنه نظر إلى صلاحه هو وحكم أن تكونوا مستحقين للعطايا الكبرى. لأنه لم يخلِّصكم فقط من خطاياكم وأعطاكم البر بنعمته، ولكنه جعلكم أيضاً قديسين وأبناءً بالتبني والاختيار. فإنه هو الذي أخذ المبادرة في إعطاء هذه كلها. وإن أظهرتم غيرة إزاء عطاياه الجزيلة، وقدَّمتم ما يجب من طرفكم وحافظتم على ما أعطاه لكم، فكيف لا يحسبكم مستحقين لعطايا أعظم من الأُولى؟

الإيمان بالمسيح والمعمودية خليقة جديدة:

١٢ ـ القديس بولس المطوَّب الذي قاد الكنيسة كعروس إلى المسيح كعريس، يقول في رسالته إلى أهل كورنثوس: «إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة» (٢كو ٥:١٧)، إنه يقطع علينا أن لا نظن أنه يتكلَّم عن الخليقة المنظورة بقوله: «إن كان أحد في المسيح»، وبذلك يعلِّمنا أنه إن كان أحد قد

(٤) ذهبي الفم يعتبر القديس بولس نموذجاً للمعمَّدين جميعاً، وذهبي الفم يبجِّل ق. بولس ويحبه كرسول للأُمم بدرجة لا يمكن مقارنتها بين جميع آباء الكنيسة. وقوله: [أنا أحب جميع القديسين أمَّا بولس فهو فوق الجميع، الإناء المختار البوق السمائي الذي قاد الكنيسة كعروس لعريسها] (في شرحه للرسالة الثانية لأهل كورنثوس ١١:١). لذلك يعتبر ق. بولس نموذجاً للموعوظين والمعمَّدين: [كونوا مثل بولس الذي بجهاده وغيرته وشوقه تاجر في مواهبه التي أُعطيت له وربح] (في مقدِّمة أعمال الرسل)، [فور خروجه من ماء المعمودية انطلق في الحال يجاهد ويقود المعركة] (عظة في قيامة الرب). [بولس ـة الخامسة للمعمَّدين). ومن محبته لبولس

انضمّ إلى الذين يؤمنون بالمسيح فهو نموذج للخليقة الجديدة.

خبّروني إن رأينا سماواتٍ جديدة وأجزاءً أخرى من خليقته فهل يوجد في ذلك فائدة أو ربح بالقدر الذي نرى فيه أحداً قد تحوّل من الشر إلى الفضيلة والحق، وانتقل من صف الخطأ إلى جانب الحق؟ هذا هو الذي يريد بولس الطوباني أن يقول عنه إنه خليقة جديدة. وللتو يقول: «الأشياء العتيقة قد مضت. هوذا الكل قد صار جديداً». وبهذا هو يعلن باختصار أن الذين بإيمانهم في المسيح قد خلعوا ـ كما يخلعون عباءة قديمة ـ حمل خطاياهم، هؤلاء هم الذين صاروا أحراراً من أخطائهم. واستناروا بنور البر ولبسوا هذا الثوب الأبيض المضيء، الثوب الملكي. من أجل هذا يقول: «إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت. هوذا الكل قد صار جديداً».

١٣ ـ ألا يكون شيئاً جديداً وغير مصدَّق، حينما يتغيَّر إنسان كان بالأمس وأول من أمس يضيِّع وقته في الدعارة والأطعمة الحنجرانية ثمَّ فجأة يعيش حياة ضبط الذات والبساطة؟ ماذا يكون هذا الشيء إلاَّ أنه جديدٌ وغير مصدَّق، إن تغيَّر إنسان كان في ماضيه غير قنوع واستُنفذَ في المسرَّات التي لهذه الحياة وفجأة يرتفع فوق شهواته وكأنه لا يلبس جسداً بعد، ويحيا حياة القناعة والكفاف والعفَّة!؟

١٤ ـ أرأيت كيف أن خليقة جديدة قد صارت بالفعل؟ هي النعمة حينما تدخل النفوس وتشكّلها من جديد مختلفة عمَّا كانت. إنها لا تُغيِّر جوهرهم بل تغيِّر مشيئاتهم، لا تسمح لعيون عقولهم أن تتمتَّع بشيء خاطئ، ولكن تكشف الغمامة التي تعمي العين العقلية. ونعمة الله تجعلهم يرون حقيقة القبح والتشوُّه الكائن في الشر، وتجعل الحق في نظرهم يضيء بجمال حقيقته.

١٧ ـ أترون كيف أن المعلّم يخلق كل يوم خليقة جديدة؟ وإلاَّ فمن هو هذا الإنسان الذي أقنع ذلك الذي عاش في نقع شهواته التي لهذا العالم وعَبَد الحجر والخشب معتقداً أنها آلهة، حتى يقوم فجأة ويرتفع إلى أعلى الحق ويعود يحتقر ويرذل كل هذه المسرَّات ويرى أن الحجر حجرٌ والخشب خشب ويعود يعبد خالق كل شيء واضعاً إيمانه فيه فوق كل ما في هذه الحياة؟

١٦ ـ أرأيتم لماذا الإيمان في المسيح والعودة إلى الحق تُدعى خليقة جديدة؟ أنا أنصحكم أنتم الذين استُنرتم وانفتحتم على الطريق، والذين لتوّهم ذاقوا خيرية المعلّم أن نسمع كلنا لنصيحة الرسول: «الأشياء العتيقة قد مضت هوذا الكل قد صار جديداً».

ليتنا ننسى كل الماضي، وكمواطنين في عالم جديد ليتنا نعيد تشكيل حياتنا ونعتبر كل كلمة وكل عمل هو مجد ذلك الذي يحيا فينا.

من العظة السادسة(٥)

المعمَّدون الجدد ينبغي أن يبقوا جدداً كل الحياة:

٢١ ـ أقصد بالمعمَّدين الجدد كل الذين تعمَّدوا حتى منذ سنة أو أكثر، الذيـن استحقوا العطيـة أي الروح القدس. لأن لقب "المعتمد" هو عنوان يظل جديداً بطبيعته، وعلينا أن نستمتع بهذا اللقب مدى الحياة، لأن جدَّة الحياة التي دُعينا إليها لا تعرف القدم ولا تخضع للقدم، لا تعرف اليأس أو القنوط، أو يمكن للزمان أن يخفيها أو يطغي عليها المرض. فالمعمودية جديدة ولا تستسلم لشيء ولا تُقهر إلاَّ بالخطيئة، فالخطية إذا مسَّتها جعلتها تحس بثقل السنين.

٢٢ ـ الخطية هي أثقل كافة الأحمال: اسمعوا إلى النبي الذي يقول: «لأن آثامي قد طمت فوق رأسي كحمل ثقيل أثقل مما أحتمل» (مز ٣٨:٤)، وليست الخطية حملاً ثقيلاً فقط ولكنها فاسدة الرائحة جداً!. اسمع باقي ما يقوله المزمور: «لقد أنتنت قاحت حبر ضربي من جهة حماقتي» (مز ٣٨:٥). هذه هي الخطية ليست حملاً ثقيلاً فقط بل رائحتها نتنة لا تُطاق! ثمَّ اسمع السبب والمنبع «من جهة حماقتي»، فالحماقة هي إذن أصل للخطايا والشرور. ويمكن لرجل شاخ وشاخت أيامه بحسب الجسد أن يكون شاباً ومولوداً جديداً، بحسب الروح وبجمال النعمة التي عليه. كذلك قد يكون شابٌ قليل الأيام ولكنه شاخ والحنى تحت ثقل الآثام. وهكذا حيثما وَجدت الخطية منفذاً فإنها تجلب العار والقبح.

٢٣ ـ من أجل هذا أنا أعظ المولودين حديثاً والمولودين قديماً. فالذين قدمت معموديتهم أنا أشجِّعهم أن يغسلوا ما ألمَّ بهم بالدموع والاعتراف والتوبة سيِّدة العودة، ليتخلَّصوا من الفساد الذي ألمَّ بهم. أمَّا المعمدون حديثاً فأنا أشجِّعهم أن يحتفظوا بلمعان حياتهم ويتحفَّظوا على جمالهم الروحي حتى لا تلحقهم لطخة تجعلهم في مستوى عدم الطهارة. انظروا إنساناً لابساً حُلَّة جديدة أنيقة كيف يمشي محترساً لئلاَّ يلحقها من السوق ما يُتلف جمالها مع أن هذا لا يُسيء إلى نفسه. لأن الحُلَّة تتغيَّر إن لم يكن بالعث فبالزمن، فإذا اتَّسخت تُغسل، أمَّا النفس إذا اتَّسخت إن كان من اللسان أو الفكر، حينئذ تكون مرفوضة ويثقل حملها مرَّة أخرى.

---

(5) *Ibid.*, pp 101 ff.

٢٤ ـ لهذا احتفظوا بثوب زيجتكم بأصالته وجماله حتى تدخلوا به الزيجة الروحية العليا، حتى تبقى وتدوم وليمتكم بأسرارها لتحيوا ساهرين إلى مدى الزمان، حافظين ثوب عرسكم مشعاً بلا فساد.

٢٥ ـ بهذا تجعلون العريس يقبلكم بكل المحبة وتضيئون على مدى الزمان، لأن النعمة تزداد بالسهر والمحبة والعمل الصالح. فلنتحفّظ على ما أخذنا لنستحق حب المحسن إلينا بنعمة ومحبة ابنه الوحيد ربنا يسوع المسيح الذي له مع الآب والروح القدس المجد والقوة والكرامة الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين.

من العظة التاسعة[1]

للذين يتقدَّمون للمعمودية

لماذا تُسمَّى المعمودية غسل الميلاد الثاني وليس غسل مغفرة الخطايا؟

١ ـ كم أحببت واشتقت إلى إخوتي الجُدد، وأنا أقول إخوتي منذ الآن من قبل وقت ميلادكم الجديد. وأنا أفرح بعلاقة القربى بيننا وحتى قبل أن تولدوا، لأنني أعلم إلى أي درجة من الكرامة وإلى أي آفاق ستدخلون، فلن تدخلوا إلى مستوى فقير بل إلى الملكوت، ملكوت السموات! لذلك فأنا أتوسَّل إليكم أن تذكروني حينما تأتون إلى الملكوت.

٢ ـ وكما قال يوسف لرئيس سُقاة فرعون: اذكرني عندما تسير الأمور حسنة معك. هكذا أقول لكم. فإني جئت لأشرح لكم أمور السماء وأحضر لكم أخباراً سعيدة عن تلك البركات: ما لم تسمع به أذن أو تراه عين ولا خطر على قلب بشر، هذه هي الأمور التي أعدَّها الله للذين يحبونه (١كو ٢:٩). وها أنا أقول لكم: بعد ثلاثين يوماً يدعوكم الملك إلى موطنكم الحقيقي، إلى أُورشليم الحرَّة، إلى المدينة السماوية، حيث يُعطي الملك نفسه في أيديكم الكأس المهولة المملوءة قوة والأثمن من كل خليقة.

٣ ـ الذين نالوا العماد يدركون مدى قوة هذه الكأس، وستعرفون أنتم أيضاً بعد قليل عندما تلبسون الحلة الملكية وتدثَّرون بالقرمز الذي انغمس في دم المعلِّم، وتضعون على رؤوسكم الإكليل الذي يضيء من كل ناحية أكثر من الشمس، هذه هي هدايا العريس أكثر مما نستحق ولكنها مناسبة لجوده.

المعمودية غسل الميلاد الثاني:

١٢ ـ دعوني أخبركم أولاً بأسماء الغسيل السرِّي لأنه ليس له اسم واحد ولكن له أسماء بطرق متنوعة. هذا الحميم يُسمَّى: "غسل الميلاد الثاني Παλιγγενεσίας = **Regeneration**". لقد خلَّصنا كقول القديس بولس: «لا بأعمال في برٍّ عملناها نحن بل بمقتضى رحمته خلَّصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس» (تي ٣:٥). وتسمَّى أيضاً: "استنارة": «تذكَّروا الأيام السالفة التي فيها بعدما أُنرتم صبرتم على مجاهدة آلام كثيرة»، وأيضاً «لأن الذين استُنيروا مرَّة وذاقوا الموهبة السماوية

(1) *Ibid.*, p 131.

وصاروا شركاء الروح القدس وذاقوا كلمة الله الصالحة وقوّات الدهر الآتي وسقطوا لا يمكن تجديدهم أيضاً للتوبة» (عب ٦: ٤-٦)، وتُدعى أيضاً "معمودية": «لأن كُلّكُم الذين اعتمدتُم بالمسيح قد لبستُم المسيح» (غل ٣:٢٧). وسُمّيت "دفناً": «لأنكم دُفنتم معه بالمعمودية للموت». وتُدعى أيضاً "ختاناً": «وبه أيضاً ختنتم ختاناً غير مصنوع بيد، بخلع جسم خطايا البشرية، بختان المسيح» (كو ٢:١١). وسُمّيت صليباً: «عالمين هذا أن إنساننا العتيق قد صُلب معه ليبطل جسد الخطية، كي لا نعود نُستعبد أيضاً للخطية.» (رو ٦:٦)

من العظة العاشرة(٢)

زمن المعمودية(٣):

٥ ــ لماذا اختار آباؤنا القديسين هذا الزمن بالذات ــ زمن الفصح والقيامة ــ لم يكن السبب في ذلك أمراً بسيطاً مع أن النعمة هي النعمة وهي لا تتأثّر بالزمن، لأن النعمة من الله. ولكن ملاحظة الزمن المناسب له علاقة بمعنى سر العماد. فلماذا إذاً كرّس آباؤنا هذا العيد للعماد في هذا الوقت؟ لأن ملكنا الآن انتصر وغلب في حربه ضد الأعداء وكل الشياطين. والآن قد ألغى الخطية ومحا الموت وأخضع الشيطان وأخذ أسراه.

٦ ــ لهذا كان هذا اليوم: فنحن نحتفل اليوم بنصرة الملك، ولهذا السبب قرّر آباؤنا أن توزّع هدايا الملك في عيد نصرته، لأن هذه هي عادة الملوك أن يوزّعوا الكرامات في يوم انتصارهم.

٧ ــ لهذا حرص آباؤنا أن يحتفلوا بالمعمودية في هذا اليوم لكي يذكّروكم بالمعلّم في يوم نصرته، ولكي يتزيّن الاحتفال بالعيد بمن لبسوا الثوب الأبيض اللامع وقد صاروا شركاء المعلّم، لأن القديس بولس يقول: إنه صُلب على خشبة فنحن نُصلب معه في المعمودية، لأن المعلّم قال إن المعمودية هي صليب وهي موت.

---

(2) *Ibid.*, pp. 149 f.

(٣) ما أن دخلت الكنيسة القرن الثالث حتى صار ميعاد المعمودية في جميع كنائس العالم في أيام أسبوع الآلام الأخيرة وتكمل في ليلة عيد القيامة. وذلك في زمن تكاثر فيه عدد الموعوظين بدرجة عالية. وقد وجد الآباء مناسبة رمزية كبيرة في زمن القيامة. فهو زمن نصرة المسيح وغلبته على الخطية والموت والشيطان. وأسبوع الآلام هو زمن تسليم هذه المواهب التي اكتسبها المسيح وأهمها الصلب والموت والقيامة. فكان أنسب زمن موافق لمعنى المعمودية وقيمتها وهدفها، التي أهم ما فيها خلع العتيق ولبس الجديد ليقوم الإنسان الجديد مع المسيح. علماً بأن العقيدة اللاهوتية للمعمودية هي الموت مع المسيح والقيامة مع المسيح، فصارت القيامة هي الزمن المستقر في الشرق والغرب (*Ibid.*, p. 306, n.20).

المعمودية صليب وموت وقيامة:

٨ – يقول القديس بولس الرسول: «أم تجهلون أننا كل مَنْ اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته. فدفنّا معه في بالمعمودية للموت» (رو ٦: ٣و٤)، وأيضاً: «إنساننا العتيق قد صُلب معه ليبطل جسد الخطية، كي لا نعود نُستعبد أيضاً للخطية» (رو ٦: ٦). إذن، ينبغي أن لا نفزع حين نسمع عن الموت والصليب لأن الصليب هو موت الخطية.

٩ – أرأيتم كيف أن المعمودية هي صليب، حتى أن المسيح نفسه دعا المعمودية صليباً(٤): «لي معمودية اعتمد بها» (لو ١٢: ٥٠). وما دليلنا أنه يقصد بالمعمودية الصليب؟ ذلك لأنه لمّا جاوب على سؤال التلميذين وأمهما أن يجلس الواحد عن يمينه والآخر عن يساره قال: «لستما تعلمان ما تطلبان. أتستطيعان أن تشربا الكأس التي أشربها أنا وأن تصطبغا (تعتمدا) بالصبغة (المعمودية) التي أصطبغ (أعتمد) بها أنا» (مر ١٠: ٣٨و٣٩). أترى كيف أنه يدعو الصليب معمودية، والآلام يدعوها كأساً؟

١٠ – قال ذلك لأن دمه المتفجِّر على الصليب كان عتيداً أن يغسل ويصبغ العالم كله، لذلك يقول ق. بولس إننا اتحدنا معه بشبه موته في المعمودية. ولم يقل موته ولكن بشبه موته، لأن الموتين ليسا لشيء واحد، فموته هو موت الجسد وموتنا نحن هو موت الخطية.

١١ – ولكن شركتنا في موته ليست لأجل الحزن، فبعد قليل ستشتركون أنتم أيضاً في عطاياه وبركاته (فموته وصليبه كان ألماً وحزناً أمّا شركتنا في صليبه وموته فهي خلاص وفرح وسلام). والقديس بولس يقول: «إن كنّا قد متنا مع المسيح نؤمن أننا سنحيا أيضاً معه» (رو ٦: ٨). لأن في معموديتنا يوجد موت ودفن وقيامة في آن واحد، والذي يعتمد يخلع إنسانه العتيق ويلبس إنسانه الجديد ويقوم «كما قام المسيح بمجد الله الآب» (رو ٦: ٤). أرأيت كيف يدعو القديس بولس المعمودية قيامة أيضاً؟!

---

(٤) يشرح القديس يوحنا ذهبي الفم المعنى في موضع آخر (العظة العاشرة في شرح رسالة رومية، NPNF, 1st ser., vol. XI, p. 405):

[ماذا يعني بولس أننا اعتمدنا لموته؟ يعني أننا نموت (في المعمودية) تماماً كما مات هو، لأن المعمودية هي صليب، لأن المعمودية هي بالنسبة لنا تماماً كالصليب والموت بالنسبة له. هو مات ودُفن بالنسبة للجسد ونحن نموت ونُدفن، إنما كلاهما موت ولكن ليس للشيء نفسه. فموت المسيح كان موت الجسد وموتنا نحن هو موت الخطية].

٢ – من عظات القديس كيرلس الأورشليمي للمعمَّدين

عظة للذين سيستنيرون (سيُعمَّدون) في أورشليم(٥)

قراءة من سفر إشعياء:

+ «اغتسلوا تنقّوا. اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني. كفوا عن فعل الشر.» (إش ١:١٦)

١ – يا تلاميذ الرب شركاء أسرار المسيح – إلى الآن بالدعوة فقط وبعد قليل بالنعمة أيضاً – اصنعوا لأنفسكم قلباً جديداً وروحاً جديدة (حز ١٨:٣١)، حتى يكون فرح في السماء. لأنه إن كان بتوبة خاطئ واحد يكون فرح في السماء بحسب الإنجيل، فكم يكون إن كان خلاص لنفوس هذا عددها فإنها تحرّك قلوب سكان السماء. فكما دخلتم الطريق الصالح والمجيد، فأسرعوا المسير بوقار في ميدان الصلاح، لأن الوحيد ابن الله موجود مستعد أن يقودكم، فهو ينادي: «تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم» (مت ١١:٢٨). أنتم الذين ارتديتم تعدياتكم كثوب منسوج بخطاياكم استمعوا لصوت إشعياء، لأنه صوت المسيح ينادي: «اغتسلوا وتنقوا واعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني. كفوا عن فعل الشر» حتى تتهلّل الملائكة بخوارسها فرحة بكم: «طوباهم الذين غُفرت خطاياهم وسُترت آثامهم» (مز ٣٢:١). أنتم أضاتم شعلة الإيمان. أمسكوها بوعي والتفتوا إليها حتى لا تنطفئ. لأن الذي وهو على الجلجثة المقدَّسة فتح باب الفردوس للص بسبب إيمانه، هو يجعلكم تنشدون نشيد العرس.

٢ – إن كان هنا عبد للخطية، فليُسرع ويعد نفسه للإيمان لينال الميلاد الجديد لينطلق في الحرية والتبني، إذ عندما يخلع عنه نير عبودية الخطية الثقيل، يلبس عوضاً عنه عبودية النعمة وبركة الرب حتى يُعدّ مستحقاً لملكوت السموات. اخلعوا "بالاعتراف" الإنسان العتيق مع أعماله والبسوا الجديد الذي يتجدَّد للمعرفة حسب صورة خالقه (كو ٣: ٩و١٠). خذوا لأنفسكم عربون الروح بالإيمان حتى تستطيعوا أن تُستقبلوا في المظال الأبدية. تعالوا للختم السرّي حتى تكونوا معروفين لدى المعلّم، وتكونوا من عداد الخراف الروحية التي للمسيح لتقفوا عن يمينه مع المختارين، وترثوا الحياة المعدَّة لكم.

الميلاد الذي أتكلّم عنه هو الميلاد الروحي الجديد للنفس، لأن أجسادنا وُلدت بواسطة آبائنا المنظورين، ولكن نفوسنا تولد جديداً بالإيمان، حتى إذا وُجدتم مستحقين تسمعون: نعما أيها العبد الأمين.

---

(5) *Catech.* 1; NPNF, 2nd ser.., vol VII, pp6ff.

٣ ـ احفظوا أنفسكم من الرياء، فالله فاحص الكلى والقلوب، فالرب الذي يسجّل أسماءنا يعرف نفوسنا ويمتحن أغراضنا. فإن كان في أحد رياء خفّي يرفضه الرب لأنه لا يكون لائقاً لخدمته، ولكن إن وجد واحداً مستحقاً يمنحه نعمته. لأنه لا يُعطى القدس للكلاب، لكن حيث الضمير الصالح يُعطي ختم الخلاص.

هذا الختم عجيب ترتعب منه الشياطين وتدركه الملائكة فتلتف حول صاحبه إن هو دخل ضيقة. فالذين يقبلون هذا الختم الروحي الخلاصي يجب أن يكونوا دائماً في الوضع الموافق له، لأنه كما أن قلم البوص يحتاج إلى يد تكتب به، هكذا النعمة تحتاج إلى قلوب مؤمنة تعمل بها.

٤ ـ وأنتم ستتسلّمون درعاً لا يفنى هو درع روحي باقٍ طالما بقيت اليد الروحية التي ترفعه. أنتم ستزرعون في فردوس الله غير المنظور وتتقبّلون اسماً جديداً لم يكن لكم سابقاً. كنتم تُسمّون بالموعوظين ولكن حال عمادكم تُسمون مؤمنين. نعم ستزرعون بين غروس الزيتون الجديدة لأنكم تُطعّمون من زيتونة بريَّة إلى أصل الزيتونة الطيبة وتنتقلون من خطية إلى بر، من تلوّث إلى طهارة، وتصيرون شركاء في الكرمة المقدّسة، فإذا ثبتم في الكرمة تصيرون غصوناً مثمرة ولا تأكلكم النار. فانتبهوا لأن ثمار كم هي التي تبقى لكم. وليكن لسان حالنا «أمّا أنا فمثل زيتونة خضراء في بيت الله توكّلت على رحمة الله إلى الدهر والأبد» (مز ٥٢: ٨). ولكننا زيتونة لا تُرى بالعين أو الحواس بل تُعقل وتنير في الداخل، وحينئذ هو يرعاها ويسقيها حتى تثمر. هو الله الذي يعطي نعمة وأنتم تُستقبلون وتُحفظون وتُرعون. لا تحتقروا النعمة لأنها تُعطَى مجّاناً وتُكنَز بالتقوى.

٥ ـ إنه الآن زمان الاعتراف، اعترفوا بما اقترفتم بالكلمة والفعل، ليلاً ونهاراً. اعترفوا وليكن اعترافكم في وقت مقبول وليوم خلاص حتى تنالوا الكنوز السماوية. قدّسوا زمانكم واجتهدوا في طرد أرواح الشر بطقس الأكسورسزم. وواظبوا على تعليم الموعوظين، وتذكّروا كل ما تسمعونه لأنه لا يُقال لتسمعه آذانكم فقط ولكن لتقبلوه بالإيمان وتختم عليه النعمة في الذاكرة. امسحوا من ذاكرتكم كل اهتمامات الأرض لأنكم الآن تسعون لما هو للنفس. وعليكم أن تهجروا تماماً كل أمور العالم، لأن كل ما تتركونه هو قليل وتافه إذا قيس بالذي أُعدّ لكم لتأخذوه من قبل الرب. انسوا الحاضر وثقوا بالآتيات. أبعدما صرفتم كل هذه السنين الكثيرة في السعي باطلاً فيما يخص العالم تستكثرون أن تقضوا في الصلاة أربعين يوماً من أجل خلاص نفوسكم؟ «اهدأوا واعلموا أنـي أنا الله» (مز ٤٦: ١٠) يقول الكتاب. امتنعوا عن الكلام التافه ولا تمسكوا سيرة أحد. ولا تعطوا آذانكم للمغتابين ولكن أسرعوا دائماً للصلاة. وبأعمال النسك اجعلوا قلبكم صاحياً. وطهّروا أواني نفوسكم لتتأهّلوا أن تغترفوا من النعمة حتى الملء.

على أن غفران خطاياكم يُعطى بالتساوي لجميعكم. أمَّا شركة الروح القدس فتُعطى على قياس إيمان كل واحد.

٦ – وإن كان عليك شيء لأخيك سامحه. اصفح عن كل إساءات الآخرين لتقبل غفران خطاياك بلا مانع، وإلاَّ بأي وجه تقول لله اغفر لي؟

وعليك أن تواظب باهتمام على اجتماعات الكنيسة ليس فقط الآن إذ يطالبك بذلك المسئولون في الكنيسة، ولكن بالحري أيضاً بعد أن تكون استلمت النعمة. جاهد من أجل نفسك، ونمِّي نفسك بالقراءة المقدَّسة، لأن الرب أعدَّ لك مائدة روحية لتقول مع داود: «الرب راعيَّ فلا يعوزني شيء، في مراعٍ خضر يربضني، إلى مياه الراحة يوردني، يرد نفسي» (مز ٢٣: ١-٣). حتى تفرح بك الملائكة ويقدِّمك المسيح إلى الآب قائلاً: هأنذا والأولاد الذين أعطيتهم لي (عب ٢:١٣).

ليجعلكم الله حسب مسرَّة نفسه الذي له المجد والقوة إلى نهاية الدهور الأبدية آمين.

٣ ـ من عظات القديس غريغوريوس النزينزي للمعمَّدين

العظة رقم "٤٠" على المعمودية(٦)

٣ ـ والآن لنتكلَّم عن الميلاد الثاني الذي هو لازم وضروري لنا. والذي يُعطي اسمه "الاستنارة" لعيد الأنوار (عيد الغطاس). فالاستنارة هي مجد النفس وتحوُّل الحياة، وهي معين ضعفنا، وإنكار اللحم واتباع الروح، وشركة الكلمة، وتجدُّد الخليقة، وسحق الخطية، وشركة النور، وانحلال الظلمة. هي الانطلاق نحو الله، وهي الموت مع المسيح، وكمال العقل، وقوة الإيمان، ومفتاح الملكوت، وتغيير الحياة وإلغاء العبودية، وفكاك السلاسل، وإعادة صياغة الإنسان. ولماذا أزيد على ذلك؟ فالاستنارة هي أعظم وأمجد عطايا الله. وكما نقول "قدس الأقداس" و"نشيد الأنشاد" لنعبِّر عن أعظم قدس وأعظم نشيد، فهكذا الاستنارة باعتبارها أكثر قداسة من أي إنارة.

٤ ـ أسماء المعمودية: كما أن المسيح وهو معطيها يُدعى بأسماء كثيرة، هكذا أيضاً هذه العطية سواءً بسواء من شدة البهجة التي في طبيعتها، وبسبب كثرة مفاعيلها. فنحن نسمِّيها العطية، والنعمة والمعمودية، والمسحة، والاستنارة، وغلق باب الموت، وحميم الميلاد الثاني، والختم. فهي العطية لأنها تُعطَى لنا مقابل لا شيء من جهتنا، وتُدعى النعمة لأنها تُعطى حتى للمديونين، وتُدعى معمودية لأنها تدفن الموت والخطية في الماء، وتُدعى المسحة بسبب صفتها الكهنوتية والملكية لأن هذه هي صفة الذين يُمسحون، وتُدعى استنارة لأنها فائقة في معرفتها، والغطاء لأنها تُخفي عارنا، والحميم لأنها تغسلنا، والختم لأنها تحفظنا ولأنها علامة السيادة. إن السموات تفرح بها، والملائكة يمجِّدونها من أجل عظم بهائها، وهي صورة لمنتهى السعادة السماوية، ونحن دائماً نشتهي أن نتغنَّى بمدائحها ولكننا غير مستحقين لذلك!

٨ ـ ولأننا مخلوقون من جسد ونفس، الأول منظور والثاني غير منظور. هكذا جاء الغسيل في المعمودية أيضاً على عمل منظور وعمل غير منظور بالماء والروح. عمل الماء يستقبله الجسد بحسب المنظور وعمل الروح يشترك معه بطريقة غير منظورة بعيداً عن الجسد. الماء حقيقة ملموسة والروح حق لا يُرى. ويغسل إلى الأعماق. هذا هو الذي يأتي به لنا الميلاد ويجعلنا جدداً عوض العتيق. وهكذا يجدِّدنا

(٦) قيلت في القسطنطينية مساء يوم "عيد الأنوار" ٦ يناير ٣٨١م NPNF, 2nd ser., vol. VII, pp. 360ff

الله دون أن يكسرنا. والمعمودية نعرف أنها عهد مع الله لحياة ثانية أكثر نقاءً وطُهراً. وبالحقيقة ما يجب أن نخافه جدًّا ونحترس به من جهة أنفسنا، كل واحد منّا بكل اهتمام، هو أن لا نصير كذّابين من جهة هذا التعهُّد. لأنه إن كنا نستشهد بالله على أي تعهُّد يُقام بين البشر وبعضهم، فكم يكون الخطر إن وُجدنا متعدِّين على العهد الذي صنعناه مع الله نفسه. فإن وُجِدنا مدانين أمام الحق الإلهي حيث لن يوجد بعد ذلك ميلاد آخر أو إصلاح من أي نوع أو خلقة أخرى لإعادتنا إلى وضعنا السابق ... إذن فلنمسك بالواقع الذي أخذناه مجاناً والكل سواء، أخذناه سهلاً كما نستنشق الهواء وكانسكاب النور ... هذه الفرحة العُظمى التي نشترك فيها جميعاً.

١٠ – ... الآن المعمودية هي الحماية بمائها وروحها التي تطفئ كل سهام الشرير الملتهبة (أف ٦:١٦)، إنه الروح الذي يمزّق الجبال (١مل ١٩:١١)، والماء التي تطفئ سعير النار. حصِّنوا أنفسكم بكلمة الحياة الخبز الحي النازل من السماء معطي الحياة للعالم.

١١ – نعتمد لننال النصرة إذ نشترك في ماء التطهير الأكثر تطهيراً من الزوفا، أطهر من دم ذبيحة العجول، وأكثر قداسة من رماد عجلة، نحن نعتمد اليوم حتى لا نعاني الشدّة في الغد (أي في الدهر الآتي).

الفصل الخامس

الجزء اللاهوتي

المعاني اللاهوتية لنصوص المعمودية
عند القديس بولس الرسول

الفصل الخامس

الجزء اللاهوتي

المعاني اللاهوتية لنصوص المعمودية

عند القديس بولس الرسول[١]

مقدِّمة تفسيرية من الكاتب:

لكي نفهم لاهوت القديس بولس الرسول في جرأته عن العلاقة بالمسيح بل وعن الحق الإلهي، يلزمنا أن نعرف أن المسيح هو الذي تسبَّب في هذه الجرأة وهذه الشجاعة اللاهوتية الفريدة. **فأولاً:** المسيح بدأ المسيرة مع الإنسان بأن تنازل بصورة فريدة وجريئة وأخذ لنفسه جسدنا البشري ليحيا فيه ويموت به وهو في ملء لاهوته، لأن لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولاطرفة عين، وأيضاً قام به ـ أخذ جسدنا ولكن بحالة طهارة وقداسة لأنه لم يكن من اتصال رجل بامرأة بل اتصال الروح القدس، لذلك دُعي في الحال أنه القدوس ابن الله وتحدَّدت رسالته أنه يخلِّص شعبه من خطاياهم. فلم نكن نحن المتجرِّئين عليه بل هو المتنازل والمتواضع ليأخذنا لنفسه دون خطية، ولو أنه حملها في الآخر لمَّا وضعوها عليه ومات شريكاً للخطاة ليموت بها ويقوم بجسدنا بلا خطية، أي خليقة جديدة لإنسان جديد. فلمَّا تألَّم وصُلب ومات بالجسد تعني تألَّم وصُلب ومات بنا. ولمَّا قام في مجد أبيه قمنا معه بالضرورة الحتمية التي خطَّط لها الآب ونفَّذها الابن بالتجسُّد!

فعندما يقول ق. بولس متنا معه أو صُلبنا معه أو قمنا معه فهذا حق كامل خطَّط له الآب ونفَّذه الابن، ولسنا مجترئين على لاهوته بل هو الذي أدخل لاهوته في عملية التجسُّد والخلاص هذه، حتى ننال فيه نصيباً في اللاهوت مع الجسد كان من المستحيل أن نناله بدون هذا التدبير. وأهم درجة من درجات الخلاص هذا هي القيامة، لأن المسيح لمَّا قام بعدما أمات الموت والخطية وظفر بصاحب الموت والخطية، فأخذنا نحن بالتالي وبالضرورة كحق مكتسب نصيبنا في هذه القيامة المجيدة، لأنها قيامة جسدنا الذي استعاره منَّا ليصنع به هذا الفداء العظيم، ويسلِّمه لنا بمحضر الآب لنكون أبراراً قديسين أمام الآب في المسيح، خليقة جديدة وإنسان جديد له حق في المسيح أن يحيا مع الله إلى

---

(١) استعنت في هذا الجزء بالكتاب التالي:

R. Schnackenburg, *Baptism in the Thought of St. Paul,* 1964.

الأبد في شركة حقيقية وصادقة نفتخر بها، لا كعبيد للخطية بعد بل كأبناء الله وإخوة المسيح رأس جنسنا. البكر من الأموات. هلليلويا.

١ - المعمودية غسيل:

مقدِّمة:

غسل الخطايا بالمعمودية اصطلاح فيه استهانة كبيرة بل مريعة بالخطية في قوتها وسطوتها وعداوتها وسلطانها المستمد من الشيطان مبدع الخطية ومؤسِّسها وحارسها والمروِّج لها.

ولكن المعمودية مصرَّة بأن ماءها يغسل الخطايا، لأن ماءها يعمل بقوة الكلمة الحية الباقية إلى الأبد، كقول القديس بطرس. وقوة الكلمة نبعت علينا من دم الصليب القوة الغالبة للشيطان وكل قواته والخطايا وسلطانها. فكما محى الصليب الخطايا بدم المصلوب ومزَّق صك خطايانا المكتوب علينا وسمَّره على الصليب في لحظة، فلم يعد للخطايا وجود، هكذا أخذ ماء المعمودية قوة الكلمة الحية الباقية إلى الأبد بدمها النابع من الصليب، واستطاع أن يغسل الخطايا بمعنى يمحوها من الوجود، ومكانها يبيض أكثر من الثلج.

أ - (١كو ٦:١١):

+ «**وهكذا كان أُناس منكم. لكن اغتسلتم بل تقدَّستم بل تبرَّرتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا**».

في هذه الآية يستخدم القديس بولس صلة المعمودية مع مادة المعمودية "الماء". والغسيل أو التنقية هي الصفة البدائية لاستخدام الماء. ولكن في استخدام كلمة الغسيل في سفر الأعمال (٢٢:١٦): «قم واعتمد واغسل خطاياك»، يكشف عن معنى صوري للغسل، فرفع الخطية عن حياة الإنسان أصبح يساوي غسلها بالماء، هذا تصوير ولكنه تصوير ذو قيمة ومعنى عالٍ. وهذا يشرح عمل الإنسان المنظور تنفيذاً لعمل الله غير المنظور.

وعمل الغسيل يسبقه تلويث بالخطية، وهذا هو معنى الخلاص، وفعله الإيجابي يقع في العمل الإلهي. وواضح أن فكر ق. بولس هو في المعمودية التي فيها يُدعى باسم المسيح ويُعطَى الروح القدس. واسم المسيح وروح الله لا يعملان من ذاتهما بفعل سحري، ولكن حياة المسيحي الجديدة تكشف أنه صار من خاصة المسيح بالدعاء باسمه والروح القدس المُعطى كهبة: «**لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المُعطَى لنا**» (رو ٥:٥). وفي نفس الوقت يفعل فينا التقديس والتبرير.

وهكذا نرى أن الغسيل في الآية (١كو ٦:١١) يصف في الحقيقة الفعل الخلاصي للمعمودية، وهو إذ يستخدم هذا الفكر البدائي للمعمودية كغسيل يهيِّئ الذهن لمعاني آتية أعمق.

ب – (أف ٥:٢٦):

+ «لكي يقدِّسها مطهِّراً إيَّاها بغسل الماء بالكلمة».

هنا لا يذكر المعمودية بوضوح، ولكن يكشفها بقوله بغسل الماء. هنا الماء من فم بولس الرسول يكشف أمام أعين الناس مشيئة المسيح أن يتألَّم من أجل الكنيسة. وبعدها يستخدم صورة الزواج لعلاقة المسيح بالكنيسة. فالمعمودية هي حمَّام التطهير الذي أعدَّه المسيح للكنيسة. فالرب يرغب أن يجعلها مقدَّسة "بلا لوم ولا تجعُّد ولا لطخة ولا أي شيء مثل هذا". فهل هذا كله بتأثير غسل الماء؟ طبعاً لا. فالوصف يمتد إلى الأمام: بلا تجعُّد السنين الذي هو رمز العجز والشيخوخة، وهذا العمل بعد الغسل يعود لأول الآية «لكي يقدِّسها» ويقدِّسها بما أتى قبلها أي «أسلم نفسه لأجلها "للموت"» آية (٢٥). وهذا هو الذي يضمن لها نضارة وتجدُّد الحياة بلا تجعُّد ولا لطخ ولا أي شيء مثل هذا. فهذا هو عمل الفداء. والقديس بولس استخدم الغسيل بعد أن أكمل واستوفى عمل الفداء، الأمر الذي تمَّ وانتهى. أمَّا الغسيل فهو عمل السنين القائم أصلاً على عمل الفداء. وعلى العموم فالقديس بولس لا يعتمد كثيراً على الصورة ولكن على ما تتضمَّنه الصورة – ولكن لا يفوتنا أن الغسيل هنا واقع في صميم العمل السابق: "أسلم نفسه لأجلها" الذي يعبِّر به القديس بولس عن موت الفداء، أي غسل دم المسيح للخطية الذي أكمله المسيح على الصليب:

+ **«لأنه إن كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته نصير أيضاً بقيامته.»** (رو ٦:٥)

+ **«الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شيء.»** (رو ٨:٣٢)

+ **«مع المسيح صُلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ.»** (غل ٢:٢٠)

+ **«كما أحبنا المسيح أيضاً وأسلم نفسه لأجلنا قرباناً وذبيحة لله.»** (أف ٥:٢)

وباستمرار تأتي صورة المعمودية ومعها حقائق الخلاص: لكي يقدِّسها، كنيسة مجيدة لا دنس فيها، تكون مقدَّسة وبلا عيب.

واستخدام ق. بولس "**الكلمة**": بغسل الماء "**بالكلمة**" فهنا الرفع اللاهوتي لصورة الماء ليأخذ واقعه وحقيقته الإلهية.

وغسل الماء **بالكلمة** تفتح أذهاننا لنفهم في ماء المعمودية ما يقصده المسيح من الكلمة في (يو ١٧:١٧): «**قدِّسهم في حقِّك. كلمتك (الترجمة الصحيحة) هي حق**».

كما يجعلنا ق. بولس نفهم أن في ماء المعمودية قوة الكلمة على النقاء، وذلك حسب قول الرب يسوع: «**أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي كلَّمتكم به.**» (يو ١٥:٣)

كما يُلاحظ القارئ أن ق. بولس لم يذكر الغسل بالماء فقط، فغسل الماء ليس له عمل ولا تأثير، ولكن الماء بالكلمة يعطي الماء قوة الغسيل للتطهير والتقديس المنبعث من قوة الكلمة. «**الروح هو الذي يحيي. أمَّا الجسد فلا يفيد شيئاً. الكلام الذي أُكلِّمكم به هو روح وحياة**» (يو ٦:٦٣). **وهكذا "بالكلمة"** = بالمسيح، يصبح للماء في المعمودية قوة الروح والحياة.

ويُلاحَظ في قواعد اللغة اليونانية أن الكلمة موصولة بالغسل وبالماء:

τῷ λουτρῷ, τοῦ ὕδατος ἐν ῥήματι

فالمعنى يفيد حالة صلة أو ارتفاق معاً "الكلمة بالماء" والغسيل ليكون لها التأثير المذكور.

ولكن الأمر الجديد وغير العادي أن الكنيسة تقبل الغسيل ككل (والحقيقة أنها صورة للمسيحية كلها من بُعد). ولكن في رسالة أفسس (٤:٤و٥): «**جسدٌ واحِدٌ، وروحٌ واحِدٌ، كما دعيتم أيضاً في رجاء دعوتكم الواحد ربٌّ واحِدٌ، إيمانٌ واحِدٌ، معموديةٌ واحِدةٌ**» يرى القديس بولس هنا أن المعمودية هي التي تؤمِّن الوحدة للكنيسة: «**لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد ... وجميعنا سُقينا روحاً واحداً.**» (١كو ١٢:١٣)

فالكنيسة استلمت معمودية واحدة تبعاً لموت المسيح الذبائحي ومبنياً عليه، وهذا يوضِّح اهتمام المسيح العميق من نحو الكنيسة. وفي نص رسالة أفسس الذي نشرحه تأخذ المعمودية اعتباراً أقوى، فليس تطهيراً فقط ولكن ينبوع مجد إلهي. ليس كوسيلة في متناول اليد بل عمل المسيح نفسه.

ولكن نسأل من أين جاء أصل التعبير: "الغسيل" في المعمودية؟

أول ذكر لها جاء على لسان حنانيا: «**والآن لماذا تتوانى قم واعتمد واغسل خطاياك داعياً باسم الرب**» (أع ٢٢:١٦). هذه سمعها شاول المدعو بولس بنفسه وبنى عليها معرفته المسيحية. فمغفرة الخطايا تتحقَّق بواسطة الغسل باسم الرب. وبالرغم من أن الغسل يصيب الجسد فالغسيل له تأثير عميق في الداخل في نفس الإنسان.

فالمعمودية بكل عمقها الإلهي التجديدي تحتاج إلى ماء: «**فقال الخصي هوذا ماء. ماذا يمنع أن أعتمد.**» (أع ٨:٣٦)

ولكن غسيل الخطايا لا يستلزم في البدء أن يكون الإنسان مسيحياً، فقبول الروح يتحتّم أن يوجد: «**فقال لهم بطرس (لليهود) توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس**» (أع ٢:٣٨). فقبول المعمودية والروح القدس باسم الرب يسوع (أع ٨:١٦، ١٠:٤٨، ١٩:٥). وكلها توضّح الفرق الهائل بين الطقس المسيحي الانفتاحي في المعمودية مع طقس عماد الداخل لليهود حديثاً والمربوط بالختان أيضاً. حيث في المسيحية الإيمان بالمسيح كرب يؤهِّله للمعمودية حيث يُمنح عطية الروح القدس كهبة إلهية، ليكون هو تأكيداً للحياة الجديدة والخلاص. وهنا نلاحظ صلة بين ق. بولس ووعظ الرسل في البداية بخصوص الخلاص. لأن في تعليم القديس بولس يوجد قبول المعمودية باسم المسيح: «**هل انقسم المسيح؟ ألعلَّ بولس صُلب لأجلكم؟ أم باسم بولس اعتمدتم؟**» (١كو ١:١٣)، وعمل الروح القدس: «**وهكذا كان أُناس منكم لكن اغتسلتم بل تقدّستم بل تبرَّرتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا**» (١كو ٦:١١)، وأيضاً: «**لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد ... وجميعنا سُقينا روحاً واحداً.**» (١كو ١٢:١٣)

رؤية الكنيسة للمعمودية تستمدها من المسيح نفسه:

فأول امتداد لمعنى الغسيل في الكنيسة بدأ من ق. بطرس: «الذي مثاله (الفلك) يخلِّصنا نحن الآن أي المعمودية، لا لإزالة وسخ الجسد بل (الأصل الآبائي: «**الاعتراف لله بضمير صالح بقيامة يسوع المسيح**») = **سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع المسيح**» (١بط ٣:٢١). فالمعمودية المسيحية لا تغسل وساخة الجسد ولكن تنشئ ضميراً صالحاً. إنها الوسيلة العُظمى للنجاة (الخلاص)، وبالتالي المقابل لمياه الطوفان المهلكة - وربما أساسها أمر المسيح للأعمى: «**وقال له اذهب واغتسل في بركة سلوام الذي تفسيره مُرسل. فمضى واغتسل وأتى بصيراً**». وما علاقة الغسل بالبصر والبصيرة؟ أليس هو الذي تأتيه المعمودية للإنسان الخارج عن الإيمان أي الفاقد البصر والبصيرة والرؤيا حينما تعمِّده فيصير مستنيراً؟ إذن هناك علاقة سريَّة في قلب المسيح وفكره بين الاغتسال والرؤيا أي الانفتاح والبصيرة أي النور والاستنارة.

٢ ـ المعمودية ولادة ثانية:

مقدِّمة تفسيرية للكاتب:

الميلاد الثاني أو الخليقة الجديدة تأخذ حقيقتها ومعناها وأصولها من عملية القيامة التي قام بها المسيح بالجسد، الذي هو جسدنا، بعد أن رفع عنه الخطية والموت ووهبه روح القيامة فأصبح جسداً جديداً للبشرية، أو هو في حقيقته خليقة جديدة روحية للبشرية قامت بقيامة المسيح ودخلت الحياة الأبدية باستعداد الاستعلان الأخير يوم القيامة. فالخليقة الجديدة أو الميلاد الثاني للإنسان الذي أشار إليه المسيح لنيقوديموس هو حال الإنسان بالقيامة من الأموات كجنس للبشرية جديد، رأسه هو المسيح (آدم الثاني) الرب المحيي. بمعنى أنه يستحيل أن يدخل الإنسان العادي ملكوت الله إلاَّ بعد أن يقبل الموت والقيامة لحياة جديدة، والمسيح نفسه تمجَّد اسمه هو الذي وضع لنا كيف يصير ذلك بالمعمودية من الماء والروح الذي دعاه ميلاداً من فوق.

وصف المعمودية أنها غسيل موجود أيضاً في رسالة تيطس: «لا بأعمال في برٍّ عملناها نحن، بل بمقتضى رحمته خلَّصنا بغُسْل الميلاد الثاني παλιγγενεσίας وتجديد ἀνακαινώσεως الروح القدس» (تي ٣:٥). وبذكره اصطلاح «وتجديد الروح القدس» فهو بلا شك لكي يوصِّل مفهوم الخلاص الذي يحدث أثناء الميلاد الثاني ولا يقصد أبداً أن يجعله عملاً آخر.

لأن الكنيسة الأُولى تعرف المعمودية فقط كوسيلة أكيدة للخلاص.

+ «**فقال لهم بطرس: توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس.**» (أع ٢:٣٨)
+ «**فقالا: آمن بالرب يسوع المسيح فتخلص أنت وأهل بيتك. وكلَّماه وجميع مَنْ في بيته بكلمة الرب ... واعتمد في الحال هو والذين له أجمعون.**» (أع ١٦: ٣١-٣٣)
+ «**أجاب يسوع الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله.**» (يو ٣:٥)
+ «**الذي مثاله يخلِّصنا نحن الآن، أي المعمودية، لا إزالة وسخ الجسد بل سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع المسيح.**» (١بط ٣:٢١)
+ «**مَنْ آمن واعتمد خَلَص. ومَنْ لم يؤمن يُدن.**» (مر ١٦:١٦)

ولغوياً باليونانية الولادة الثانية ترادف تجديد الروح القدس. ولينتبه القارئ: فكلمة: παλιγγενεσίας مكوَّنة من: πάλιν وهي تفيد "أيضاً" أو "ثانياً" ومن كلمة:

γενεσία أي: "الميلاد". ومثلها تماماً كلمة: ἀνακαινώσεως مكوَّنة من مقطع: ἀνα بمعنى: "من فوق أو من جديد" وكلمة: καίνωσις والأخيرة من أصل: καινόω = "يجدِّد"، والكلمة بمعنى: "يُنشئ" أو "يخلق جديداً". وهذا المعنى واضح جدًّا في (٢كو ٤: ١٦): «لذلك لا نفشل بل وإن كان إنساننا الخارج **يفنى** فالداخل **يتجدَّد** ἀνακαινοῦται يوماً فيوماً». لذلك فهي تصبح تكميلاً أو تتميماً مناسباً جدًّا لكلمة παλιγγενεσία. لأن الروح القدس ولو أنه ينسكب لأول مرَّة في غسيل المعمودية، فكلمة ἀνα تعني: "تغييراً" أو "تحويلاً" مثلما جاءت في (رو ١٢: ٢): «**بل تغيَّروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم** ...». حيث كلمة "تغيَّروا بتجديد = ἀνακαινωσις" تعني الأمر نفسه الذي يعمله الروح القدس. والمعروف أن الروح القدس لا يعمل خارج المعمودية.

ويُلاحَظ أن كلمة παλιγγενεσία التي تُترجم عادة بـ"الميلاد الثاني"، تُرجمت بكلمة: "التجديد" في إنجيل القديس متى (١٩: ٢٨): «**فقال لهم يسوع: الحق أقول لكم: إنكم أنتم الذين تبعتموني، في التجديد** παλιγγενεσία ...» في المفهوم المسكوني الأخروي. فبعد أن اعتمد المسيح وحلَّ عليه الروح القدس واختار تلاميذه مباشرة انطلق يخدم التجديد (الملكوت الآتي) بمعناه الكلِّي أي الخليقة الجديدة للعالم.

فاستخدام هذه الكلمة في تجديد المفديين أفراداً يأتي في (تي ٣: ٥): «**لا بأعمال في برٍّ عملناها نحن، بل بمقتضى رحمته خلَّصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس**». ولنبحث عن المثيل في (يو ٣: ٣و٥): «**إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله ... إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله**». هنا الولادة من فوق أو التي تبدأ من المنطقة السماوية الإلهية الفائقة، هي في مقابل الولادة الجسدية الأرضية والعامل الفعَّال فيها هو "**الروح**".

ويقول القديس بطرس في رسالته الأُولى (١: ٣): «**الذي حسب رحمته الكثيرة ولدنا ثانيةً لرجاءٍ حيٍّ، بقيامة يسوع المسيح مِنَ الأمواتِ**»، حيث كلمة: "**ولدنا ثانية** = ἀναγεννήσας". هنا الميلاد الثاني في هذه الآية ظهر للوجود بقيامة يسوع المسيح من الأموات. فالمسيحيون «مولودون ثانية ἀναγεγεννημενοι» (١بط ١: ٢٣) ليس من بذرة فاسدة بل من بذرة غير فاسدة بواسطة كلمة الله الحيَّة الثابتة. هنا فكرة الميلاد الجديد ذات تأثير أقوى إذا قورنت بالميلاد الطبيعي. والعامل الفائق للطبيعة الذي يعمل في ذلك هو كلمة الله المملوءة روحاً كما كُتبت في (أف ٥: ٢٦): «**لكي يقدِّسها، مطهِّراً إيَّاها بغسلِ الماءِ بالكلمةِ**». والفرق بين الميلادين يذكره القديس يوستين الشهيد بالمقارنة التالية:

[الفرق بين الولادة الأُولى والولادة الثانية هي الفرق بين ولادة اضطرارية وولادة بالاختيار الحر، حادث خارج عن الوعي وتكميل بكل الفهم، ميلاد لحياة الشر وسلوك سيئ وميلاد لغفران الخطايا وتغيير الفكر. والتدرُّج في هذه المقابلات نحو الكمال.](٢)

فاذا تدرَّجنا في المعاني الواردة في (تي ٣:٥) نستطيع أن نقول إن وراء الاصطلاح الفريد عن الميلاد الثاني παλιγγενεσίας يوجد تجديد الروح القدس ἀνακαινώσει فإذا كان التجديد بالروح القدس هو شرح للميلاد الثاني إذن فهو المسئول عن خلقة الإنسان الجديدة καίνος والميلاد من فوق -ἀνα، ولكان الميلاد الثاني هو الحدث الذي فعله الروح القدس. وهذا الحدث الفائق يتأكَّد داخل غسيل المعمودية: «**بغسل** الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس λουτροῦ».

وعامل الماء في المعمودية يظهر الآن في الوجود ولكن بحال أن الروح القدس يظهر كعامل فعَّال، وهكذا ينجمع معاً العنصران المكوِّنان للمعمودية الماء والروح كما هما في (يو ٣:٥)، مع التأكيد على الروح في (يو ٣: ٦-٨). وكلمة: παλιγγενεσίας في مقارنتها مع ἄνωθεν في (يو ٣:٣) تُلزمنا أن نفهم الميلاد الثاني بالروح أنه ميلاد من نوع جديد فائق للطبيعة، وهذا المعنى يتكرَّر في آيات أخرى ولكن بصورة ليست ظاهرة كما وصفها ق. بطرس في رسالته الأُولى (١بط ١:٢٣) ولكنها مجرَّدة، كما تجيء في (١كو ٦:١١): «**وهكذا كان أُناس منكم. لكن اغتسلتم بل تقدَّستم بل تبرَّرتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا**».

فكر بولس الرسول هو في الحقيقة فكر العهد الجديد ككل، إذ يمتاز بالحقيقة أنه لا يعني بالأفكار السطحية المستمدَّة من المعمودية في رمز الماء. فالقديس بولس يمسك بتعاليم روحية واضحة ثمَّ يربطها بالرموز والحوادث ذات المدلول الرمزي حينما تسنح له الفرصة. ولكن مع القديس بولس يظل المضمون التعليمي هو الأساس، ففي (تي ٣:٥) نجد أن الله بمقتضى رحمته خلَّصنا، وهنا نجد الحدث الأعظم الذي به أُنقذ العالم من الهلاك من جهة المبدأ هو الأساس، هذا الخلاص أو الإنقاذ يصير فعَّالاً للمؤمن الفرد في غسل المعمودية. فإذا اعتبر ماء المعمودية أنه ماء حيّ فهو تصوُّر غير مُختلَق بالفكر أو منمَّق بالتخيلات الفانتازيا، ولكن بالأكثر هو المعنى اللاهوتي الذي يأتي في الحال أمامنا، بمعنى أن التحوُّل قد حدث بالروح القدس لكي يُظهر أثر هذا المبدأ الإلهي في ملئه. والعدد التالي (تي ٣:٦) يصف كيف أن الله قد سكب الروح القدس بغنى على المسيحيين. فالكنيسة

(2) Justin, *Apology* I, 61, ANF., vol. I, p. 183.

الأُولى بالتالي كانت متأثّرة للغاية بخبرتها في استقبالها للروح القدس بالحقيقة والفعل المنظور والمُدرك وليس بالرمز. فالقديس بولس في رسالة تيطس (٣:٦) يكشف عن درايته الأصيلة للكريجما الرسولية الأُولى أي مفهوم وشرح مبادئ الإنجيل والخلاص عند الرسل.

الإنسان الجديد والخليقة الجديدة:

في (٢كو ٥:١٧): «**إذاً إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت هوذا الكل قد صار جديداً**»،

وفي (غل ٦:١٥): «**لأنه في المسيح يسوع ليس الختان ينفعُ شيئاً ولا الغرلة، بل الخليقة الجديدة**».

نحن هنا أمام الاصطلاح الجديد: خليقة جديدة، وإنسان جديد.

يتحتّم أن نعتقد ونؤمن أن انسكاب الروح القدس كعطية مرتبط بلا استثناء بالمعمودية كعناية إلهية بالروح الإلهي في المعمودية ومن المعمودية.

فالمعمودية المسيحية بالروح القدس حدث إلهي للانفتاح حيث المعمودية المسيحية هي ميلاد ثاني حتى الملء.

٣ ـ المعمودية في اسم المسيح:

في التعاريف المختلفة للمعمودية يقف التعبير "يعتمد لاسم أو في اسم المسيح = βαπτιζειν τό ὄνομα τοῦ χριστοῦ" يأتي بالمعمَّد في علاقة مباشرة بالمسيح نفسه. وإن كان هذا الاصطلاح لا يأتي بمعناه مباشرة، ولكن لمّا أنكر بولس أن أحداً اعتمد باسمه فهو بذلك يجعل المعمودية لأهل كورنثوس أنها كانت في اسم المسيح وحده فقط:

+ «**هل انقسم المسيح؟ ألعلَّ بولس صُلب لأجلكم؟ أم باسم بولس اعتمدتم؟**» (١كو ١:١٣)

لأن الخلاص والمسيحية كلها مرتبطة بهذا العماد في اسم المسيح، وهي قلب لاهوت ق. بولس. فإذا عدنا للنص نفسه لأنه لا يوجد غيره: «**هل انقسم المسيح؟ ألعلَّ بولس صُلب لأجلكم أم باسم بولس اعتمدتم؟ ... حتى لا يقول أحد إني عمَّدت باسمي**» (١كو ١: ١٣و١٥). فبعد المعمودية التي اعتمد الكل بها في اسم المسيح، أيمكن أن تنقسم الجماعة بعد ذلك بين مَنْ منهم لبولس ومَنْ منهم لأبولّس ومن منهم لبطرس. السؤال هنا استنكاري شديد: «**هل انقسم المسيح؟**» فبما أن المعمودية واحدة وهي باسم واحد: اسم المسيح، أصبح الكل للمسيح أتباعاً، ولا يحق بعد ذلك أن يتشايعوا لبولس ولأبولّس ولبطرس. ثمَّ سؤال استنكاري ليضع الأصول في مكانها: «**ألعلَّ**

بولس صُلب لأجلكم؟» إذن فهم للمسيح الواحد في المعمودية لأنه هو الوحيد الذي صُلب والذي قامت المعمودية على أساس صليبه. إلى هنا يؤكِّد القديس بولس أنه يستحيل الانقسام بعد أن يكون المسيح قد صُلب من أجل الجميع والمعمودية في اسمه كمصلوب للخلاص.

والانقسامات ظهرت في كنيسة كورنثوس أربعة أقسام وقد أرجعها القديس بولس إلى المعمودية، لأن المعمودية أساس وحدة الكنيسة التي جعلت الجميع "للمسيح" أي أتباع للمسيح. فكيف تقول جماعة منهم أنا لبولس وأنا لأبولُّس وأنا لصفا وأنا للمسيح؟ هنا يستنكر ق. بولس ذلك لأن أهم أساس في المسيحية نشأ من معموديتهم على أساس إيمانهم بما تمَّ في المعمودية أن الكل واحد للمسيح.

ولكن كما جاء في (أف ٤:١٤): **«كي لا نكونَ في ما بعد أطفالاً مضطربينَ ومحمولينَ بكلِّ ريحِ تعليم، بحيلةِ الناسِ، بمَكرٍ إلى مكيدةِ الضلال»**، أو كما في (كو ٢:٨): **«انظروا أن لا يكون أحدٌ يسبيكُم بالفلسفةِ وبغرورٍ باطل حسب تقليد الناس حسب أركان العالم وليس حسب المسيح»**. فالقديس بولس يرى في تصرُّف الكورنثيين نوع من الاستخفاف وإهانة لمجد المسيح، وكان يود أن يكون سلوكهم كما شرحه لهم في (١كو ١:١٠):

+ **«ولكنني أطلب إليكم أيها الإخوة، باسم ربنا يسوع المسيح، أن تقولوا جميعكم قولاً واحداً، ولا يكون بينكم انشقاقاتٌ، بل كونوا كاملين في فكرٍ واحدٍ ورأيٍ واحدٍ»**.

لأن الكل يمثِّل المسيح والمسيح لا ينقسم. وهنا عودة إلى اللاهوت لأن الكل يمثِّل المسيح يعني جسد المسيح، وجسد المسيح لا ينقسم. ومعنى الكل للمسيح يعني الكل لجسد المسيح وذلك واضح جدًّا في (١كو ١٢: ١٢و١٣):

+ **«لأنه كما أن الجسد هو واحد وله أعضاء كثيرة وكل أعضاء الجسد الواحد إذا كانت كثيرة هي جسد واحد، كذلك المسيح أيضاً. لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد ... وجميعنا سقينا روحاً واحداً»**.

والقديس بولس يؤاخذ المتشيِّعين ويؤاخذ الأشخاص الذين تشيَّعوا لهم، فقد أخذوا لشخص الإنسان المجد الذي هو للمسيح وحده. ويضع نفسه مثالاً بالنسبة للأشخاص الآخرين: «هل صُلب بولس لأجلكم؟»، ألم يمت المسيح على الصليب لكي يشتريكم لنفسه؟ «أم **لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم الذي لكم من الله وأنكم لستم لأنفسكم لأنكم**

قد اشتريتم بثمن، فمجِّدوا الله في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي لله.» (١كو ٦: ١٩و٢٠)

على أن المعمودية في اسم المسيح تجعلهم من المستحيل أن يشعروا أنهم مرتبطون بآخر غير المسيح، فالاسم (المسيح) الذي دُعي به عليهم هو للرب الذي له وحده يتبعون منذ المعمودية. وقد شرحت إحدى البرديات معنى في اسم المسيح أو لاسم المسيح أنه "على حساب"، وعلى حساب تعني في البيع والشراء – "ونحن قد اشترانا المسيح بدمه من الهلاك والموت" – أن شاري الشيء يعطيه الحق رسمياً بأن يمتلك هذا الشيء ولا ينازعه فيه أحد!

والقديس بولس يشرحها «**وأمَّا أنتم فللمسيح والمسيح لله**» (١كو ٣:٢٣). وليس هنا أي تعبير سرِّي أو مستيكي، فهو اصطلاح قضائي يقصده ق. بولس قصداً.

كما لا يُستفاد إطلاقاً من الآية (١كو ١:١٧): «**لأن المسيح لم يرسلني لأُعمِّد بل لأُبشِّر**» أنه يقلِّل من قيمة المعمودية. فالمعمودية في نظر ق. بولس تقف بالتساوي مع الصليب في قيمتها في حياة وخلاص الإنسان، والكل في كورنثوس قد تعمَّد في المسيح، وعلى هذا الأساس ق. بولس يخدم ويبشِّر باعتبار أنهم قد صاروا جسد المسيح «لأن كلكم الذين اعتمدتم للمسيح قد لبستم المسيح» (غل ٣:٢٧)، وهذا كل لاهوته في الكنيسة، فهو لم يبعد المعمودية من لاهوته أو يحصرها في غرفة كما هي في الكنيسة، ولكنه يجتهد ليجعلها حجر أساس في عقيدة المسيح والخلاص.

ووقوعها على خط الخلاص يجيء في (رو ٦: ١–١١) ومطلعها: «**كل مَنْ اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته، فدفنا معه بالمعمودية للموت**». وتنتهي: «**كذلك أنتم أيضاً احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية** (من واقع المعمودية على أساس الموت مع المسيح) **ولكن أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا** (**الذين قمتم في المعمودية معه**)». حيث قياس المعمودية كنسياً كأساس وحدة الكنيسة المسيحية وكل الكنائس معاً. وهذا المبدأ يبلغ قمَّته في (أف ٤:٥): «**ربٌّ واحِدٌ، إيمانٌ واحِدٌ، معموديةٌ واحِدةٌ**». حيث المعمودية تقع كأساس وحدة الكنيسة في حياة إيمان برب واحد إيمان واحد بمعمودية واحدة.

٤ – اعتمدتم للمسيح:

+ «**لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح.**» (غل ٣:٢٧)

βαπτιζειν εἰς Χριστόν

الخلاف حول اصطلاح "اعتمدتم بالمسيح":

هناك شرحان لهذا الاصطلاح ومثيله في (رو ٦: ٣ أ): «**كل مَنْ اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته**». الحل الأول يجعل εἰς تعطي علاقة خارجية مثل εἰς τὸ ὄνομα "في اسم".

والحل الآخر يعطي مضموناً خاصاً ليحصل على معنى وواقع سرِّي مستيكي عظيم ـ وهذا الحل أو الشرح قد اكتسح مجال الفكر اللاهوتي. وفي هذا يقول القديس يوحنا ذهبي الفم عن (رو ٦: ٣):

[**«كل مَنْ اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته» يعني نحن اعتمدنا في موته. فنحن أيضاً نموت كما مات هو لأن الصليب هو المعمودية. وكما كان الصليب والقبر للمسيح فالمعمودية لنا.**](٣)

لا يوجد شك أن (غل ٣: ٢٧ ب): «**قد لبستم المسيح**» تتعمَّق في أصول العلاقة مع المسيح. ونسأل هل في قول الجزء الأول من الآية: «**كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح**» تعني الغطس السرِّي **في المسيح**؟ هنا يكون السؤال الأساسي حول هذه النقطة؟ نعم هذا الاصطلاح الرمزي السرائري يعني بالضرورة لغوياً شكل «**اعتمدنا للمسيح**». إن كان كذلك كان حتماً يلزم أن نسلِّم بما جاء في (رو ٦: ٣): «**كل مَنْ اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته**».

وهذا يُحسب حلاً قاطعاً لهذا الموضوع.

في هذا يقول العالِم ف. برات مؤكِّداً أنه من خلال المعمودية للمسيح (εἰς Χριστόν) فإن المعمَّد لا يكون فقط مستهدفاً ليكون كالعبد لصاحبه أو الأجير لمستأجره، ولكن بالأكثر متحداً فيه، مغموراً فيه، صائراً جزءاً فيه = أنا آخر (ثانٍ second self)(٤). وكل اللاهوتيين مولعين في فهم المعمودية أنها غطس أي انغمار في المسيح εἰς Χριστόν ، كما تتم بالانغمار تحت سطح الماء التي تبدو من (مر ١: ٩): «**وفي تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الجليل واعتمد من يوحنا في الأردن** = εἰν τὸν Ἰορδάνην» التي تفيد الغطس. لذلك نحن الأرثوذكس الأقباط نسميه عيد الغطاس أي عيد عماد ربنا يسوع.

+ **«وقال له اذهب اغتسل في بركة سلوام. الذي تفسيره مُرسل، فمضى واغتسل وأتى بصيراً.»** (يو ٩: ٧)

(3) *In Rom.* Hom. X-Mont.
(4) *Theol. d.* s. Part. II. p. 265 f.

حيث مفهوم اغتسل بمعنى استحمَّ أي نزل وانغمر في الماء، على أن يكون الانغمار (الغطس) في المعمودية يأخذ مفهوم وواقع الانغمار والغطس في موت المسيح. من جهة المسيح كان موته على الصليب هو حقًّا معمودية رآها قبل أن تكون، صبغة لابد أن تكون وهو مستعد لها. على هذا الأساس تكون معموديتنا هي شركة إيمانية حيَّة بالمعمودية في موت أو معمودية المسيح بالصلب.

من هذا يصبح لبستم المسيح بشركة الموت وشركة القيامة تصويراً إيمانياً صادقاً.

٥ ــ الاتحاد بجسد المسيح:

مقدِّمة تفسيرية للكاتب:

اتحاد المعمَّد بالمسيح في موته وفي قيامته الذي يحمله اصطلاح المعمودية "مع المسيح" هو اتحاد إيمان وتصديق حق لما حدث على الصليب والقبر والقيامة.

كما يُلاحَظ أن الرب الذي نتحد به في المعمودية هو "الرب الروح" الذي لا يقبل إلاَّ الاتحاد بالروح أي اتحاد الحق. لهذا هنا يدخل عامل الروح القدس كوسيط اتحاد على مستوى الروح(٥) الذي يعمل بعد ذلك، أي بعد الاتحاد، في إعانة النفس الروحية لتقوى وتغلب كل مشاغبات الجسد العتيق الذي تحت حكم الموت «**إن كنتم بالروح تُميتون أعمال الجسد فستحيون**» (رو ٨:١٣) الذي هو النتيجة العليا للمعمودية، أي نتحوَّل من جسد إلى روح لنبلغ فعلاً وحقًّا إلى الميلاد من فوق والحياة مع الله ــ لذلك كان القانون الآتي: «**مَنْ آمن واعتمد خلص**».

(١كو ١٢:١٣):

+ «لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد، يهوداً كنَّا أم يونانيين، عبيداً أم أحراراً، وجميعنا سقينا روحاً واحداً».

هنا نجد «**اعتمدنا إلى**» ــ «**اعتمدنا إلى جسد واحد**» إنما بروح واحد، هي نفس القوة ونفس التأثير للمعمودية لتنطلق إلى «**ليس يهودي ولا يوناني. ليس عبد ولا حر. ليس ذكر وأنثى لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع**» (غل ٣:٢٨). وأيضاً في (١كو ١٢:١٣) حيث فكر الجسد الواحد يبرز إلى الوجود، وللمقارنة نقول: «**لأنه كما أن الجسد هو واحد وله أعضاء كثيرة وكل أعضاء الجسد الواحد إذا كانت كثيرة هي جسد واحد، كذلك المسيح أيضاً**» (١كو ١٢:١٢). حتى

(٥) والاتحاد بالمسيح بدأ لما صمَّم الآب أن يلبس ابنه (يحمل) خطايانا على الصليب، لكي نلبس نحن بالقيامة بر المسيح [هو أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له] ففتح الطريق إلى التقابل والاتحاد، فالاتحاد قائم في الصليب والقيامة!!

أن المعمَّدين يصيرون جسداً واحداً، جسد المسيح «وأمَّا أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفراداً» (١كو ١٢: ٢٧)، وكأنه كائن قائم بذاته كالجسد الطبيعي. فهل جسد المسيح هو قائم بذاته والمعمَّدون اتحدوا به وصاروا أعضاءً له، أو أن المعمَّدين في المسيح صاروا مع المسيح جسداً واحداً؟ حيث كلمة "εἰς" في «اعتمدوا للمسيح» أصبح لها هذا التأثير والنتيجة. ولكن الشرح الذي ساد الآن هو أن جسد المسيح كائن قبل المعمودية والمعمَّدون يتحدون به: هو جسد الصليب والجالس في السماء عن يمين الآب. حيث معنى الانغمار (الغطس) في المعمودية له نفس معنى "يعتمد لـ". ولذلك يكون معنى يعتمد لجسد المسيح (١كو ١٢: ١٣) هو الأساس والغاية من المعمودية ذاتها. وفي هذه الحالة يمكن شرح الموضوع كالآتي: نحن جميعنا اعتمدنا لجسد واحد لذلك نحن نتبعه واتحدنا به، وبواسطة الروح القدس دخلنا في جسد واحد أي جسد المسيح. هذا يشرح عمل الروح الواحد والوحدة الكاملة التي يُدعى إليها المعمَّدون.

والقديس بولس يقول بتوزيع المواهب "الخارزماتا" كما يشاء الروح، لأن المعمودية ـ في اتحادها بجسد المسيح ـ قائمة على عمل الروح الواحد: «**لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد ... وجميعنا سقينا روحاً واحداً**» على أن الرب (يسوع) يعمل من خلال الروح. وتوزيع المواهب لأنها في الجسد الواحد، فالمطلوب أنها تعمل على أساس الاتحاد حتى لا يظهر الجسد كأنه منقسم على نفسه، على أساس أن العامل في المواهب جميعاً هو روح واحد.

ففي المعمودية يدخل عامل الروح باعتباره أنه هو المسئول عن إضافة أعضاء جديدة في جسد المسيح على أساس الصليب والقيامة، وهكذا هو المسئول عن بناء الجسد الواحد أي الكنيسة. على أن الروح ينطلق من جسد القيامة: "**وآدم الأخير (المسيح) روحاً محيياً**" (١كو ١٥: ٤٥)، «**وأمَّا الرب فهو الروح**» (٢كو ٣: ١٧). **وهكذا يستمر المسيح الرب الروح بعد القيامة في قيادة وتوحيد النفوس لبناء الجسد الواحد، الكنيسة** ـ فالروح والمسيح القائم هما "القوة الإلهية" الفعَّالة في الكنيسة لإحياء وبناء الجسد بواسطة المعمَّدين. وهذا الذي قيل في (غل ٣: ٢٧): «**لأن كُلَّكُم الذين اعتمدتُم بالمسيح قد لبستُم المسيح**»، هو على أساس أن المسيح هو الروح «**الرب الروح**»، **ولِبْس المسيح هنا هو لبس روح القيامة، لبس البر والتبني** «**إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة**» (٢كو ٥: ١٧) أي خليقة روحانية، حيث تأتي هذه الآية:

+ «**وهكذا كان أُناس منكم (قبل المعمودية) لكن اغتسلتم (تعمَّدتم) بل تقدَّستم (بالروح القدس)، بل تبرَّرتم (بروح القيامة) باسم الرب يسوع (المعمودية باسم يسوع) وبروح**

إلهنا.» (١كو ٦: ١١)

هنا الاتحاد في جسد المسيح «**بروح إلهنا**» هو الذي به نحصل على لبس المسيح، حيث نحصل على التبرير والقوة الإلهية المحيية.

٦ ـ المعمودية فعل خلاص:

مقدِّمة تفسيرية للكاتب:

لماذا يتحتَّم أن تكون المعمودية فعل خلاص؟ لأنها تقوم على الإيمان بالقلب والفم. أمَّا الإيمان فيظل المعمَّد يتعلَّم كيف يؤمن وبماذا يؤمن حتى يصل إلى درجة القبول على يدي الأسقف، أمَّا القلب والفم بمعنى الداخل والخارج، ففي المعمودية يمارس بقلبه الإيمان بالموت والقيامة مع المسيح، والمعمودية تكون عملية علنية في وسط الكنيسة كلها، وهنا يتوفَّر عامل الشهادة واعتراف الفم.

والقديس بولس أخذ فكره عن المعمودية من ممارسة الكنيسة الأُولى، وبالأخص غسل الخطايا، التي رنَّ سماعها في أذنه كأول مفهوم عن الخلاص من فم حنانيا وهو يضع يديه على رأسه، عندما قال له لماذا تتوانى قم واعتمد واغسل خطاياك لتمتلئ من الروح القدس. ثمَّ ابتدأ ق. بولس يتدرَّج من المعمودية إلى العلاقة مع المسيح والدخول إلى أعماق المفهوم اللاهوتي لهذه العلاقة. وابتدأت المعمودية تكون عنده ذات قيمة لاهوتية عالية في الكنيسة، وفهم منها خبرة الخلاص وكيف صنعت الوحدة مع المسيح، وابتدأ مفهوم «جسد المسيح» واعتبر المعمودية نقطة انطلاق منظورة من الداخل لعمل الخلاص. وابتدأ يضع لها مفهومها اللاهوتي ليشرحها: كزواج روحي، المسيح والكنيسة أو المسيح والمسيحية، من واقع عمل المعمودية في النفس، ورفعه إلى المفهوم اللاهوتي. وانتهى إلى أن المعمودية فعل خلاص له ارتباط وثيق بشخص المسيح في المعمودية. ورأى أن المعمودية موت وقيامة مع المسيح σὺν Χριστῷ ومن هذه النقطة ننطلق إلى قلب لاهوت المعمودية والخلاص.

البدء في الانطلاق:

(رو ٦: ١-١١):

ابتدأ القديس بولس في الانطلاق من فكرة هل نبقى في الخطية لتكثر النعمة؟

+ «**أم تجهلون أننا كل مَنْ اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته، فدُفنا معه بالمعمودية للموت، حتى كما أُقيم المسيح من الأموات، بمجد الآب، هكذا نسلك نحن أيضاً في جدة الحياة. لأنه إن كنَّا قد صرنا متحدين معه بشبه موته، نصير أيضاً بقيامته. عالمين هذا: أن إنساننا**

العتيق قد صُلب معه ليُبطَل جسد الخطية، كي لا نعود نُستعبد أيضاً للخطية. لأن الذي مات قد تبرَّأ من الخطية. فإن كُنَّا قد مُتنا مع المسيح، نؤمن أننا سنحيا أيضاً معه. عالمين أن المسيح بعدما أُقيم من الأموات لا يموت أيضاً. لا يسود عليه الموت بعد. لأن الموت الذي ماته قد ماته للخطية مرَّة واحدة، والحياة التي يحياها فيحياها لله. كذلك أنتم أيضاً احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية، ولكن أحياءً لله بالمسيح يسوع ربنا».

ثمَّ ابتدأ يشرح ذلك في (رو ٣:٢١ إلخ): «**وأمَّا الآن فقد ظهر بر الله ... بالإيمان بيسوع المسيح إلى كل وعلى كل الذين يؤمنون لا فرق**» كطريق للخروج من الخطية، متبررين بالفداء الذي قدَّمه الله كفَّارة من أجل الصفح عن الخطايا السالفة، للجميع يهود وأُمم، بالنعمة لأن الإيمان هو أصلاً من إبراهيم أب جميعنا «**جعلتك أباً لأُمم كثيرة**». فالكل به يتبرَّرون بالإيمان. وهو آمن وهو في الغرلة فقد عمَّم الإيمان على الذين في الغرلة، فإذ قد تبرَّرنا بالإيمان لنا سلام مع الله لأننا نؤمن بالذي أقام المسيح من الأموات، كما آمن إبراهيم وأُعطي نسلاً بعد موات له وموات سارة. المسيح الذي أُسلم من أجل خطايانا وأُقيم من أجل تبريرنا، ونحن بعد خطاة مات المسيح من أجلنا وبرَّرنا وهذا هو لإظهار محبته لنا، فإذ قد تبرَّرنا بدمه نخلص بحياته ـ وكما بخطية إنسان واحد صار الكل خطاةً، فببر واحد (الإنسان البار يسوع المسيح) يصير الكل أبراراً. وكما ملكت الخطية في الموت هكذا تملك النعمة بالبر للحياة الأبدية.

ولكن الخطية لا تزال واقفة بالمرصاد. فهل يمكن أن نبقى في الخطية وفي نعمة البر؟ وهكذا أدخل القديس بولس المعمودية كواسطة لرفع الخطية، لكي تملك النعمة بالبر: أم تجهلون تأثير المعمودية؟

+ **«كل مَنْ اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته، فدفنا معه بالمعمودية للموت، حتى كما أُقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضاً في جدة الحياة».**

+ **«عالمين هذا أن إنساننا العتيق قد صُلب معه ليبطل جسد الخطية كي لا نعود نُستعبد أيضاً للخطية. لأن الذي مات قد تبرَّأ من الخطية (أي دفع ثمنها المحكوم به عليه)».**

قانون المعمودية:

+ **«فإن كنا قد متنا مع المسيح نؤمن أننا سنحيا أيضاً معه».**

+ **«كذلك أنتم أيضاً احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية، ولكن أحياءً لله بالمسيح يسوع ربنا. إذاً لا تملكن الخطية في جسدكم المائت ... فإن الخطية لن تسودكم لأنكم لستم**

تحت الناموس بل تحت النعمة (نعمة المسيح).» (رو ٦: ١١-١٤)

ثمَّ عامل آخر قوى: أنكم كنتم عبيداً للخطية (قبل المعمودية) ولكنكم أطعتم من القلب صورة التعليم التي تسلَّمتموها (المعمودية) فصرتم عبيداً للبر، عبيداً لله وثمركم للقداسة والنهاية حياة أبدية بالمسيح يسوع.

ثمَّ عاد القديس بولس يتصارع مع الخطية كناموس الطبيعة القديمة، ثمَّ انتهى انتهاءً بديعاً عجيباً، وهو أن المسيح رفع دينونة الخطية عن الجسد لأن الجسد المسئول عن الخطية مات، إذ أصبحنا بالإيمان والمعمودية خليقة روحانية جديدة خارجة عن الدينونة: **«وأمَّا أنتم فلستم في الجسد بل في الروح إن كان روح الله ساكناً فيكم (بحسب المعمودية)»** (رو ٨: ٩)، وإن كان المسيح ساكناً فيكم، وهذا حق بالمعمودية، فالجسد يكون ميتاً لأن الخطية قد أنهى عليها المسيح أي ميِّتة. وأصبح لنا قوة إلهية من قبل الروح، فأصبح لنا بالروح قوة أن نُميت أعمال الجسد، وهو روح التبني الذي به ندعو الله يا أبانا، الواهب الخضوع والطاعة لأوامر الآب.

على أنه في بداية الأصحاح (٦) قد وضع النتيجة (نتيجة المعمودية) قبل البحث: **«نحن الذين متنا عن الخطية»**، عاد إليها في العدد (١١) **«احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية»** هذا بعد عمل المعمودية. ولكن بالأكثر هو يوضِّح الموت للخطية الذي حدث بالمعمودية بسؤاله الاستنكاري **«أم تجهلون أننا كل مَنْ اعتمد ...»**. أمَّا الجمع بين المعمودية وموت المسيح فهذا هنا يوضِّح الرمزية للمعمودية، على أنه ولابد معلوم لقرَّائه. وبتوضيح موتنا مع المسيح وقيامتنا مع المسيح يضع خطوط شرح المعمودية لاهوتياً حسب تسليم الكنيسة بالنسبة لموت المسيح الفدائي للخلاص، باعتبار أن المعمودية تحمل نفس المضمون.

وتشديد القديس بولس على **«دُفنا معه συνετάφημεν» يعلن بها اتصالنا الداخلي بموت المسيح وبالتالي قيامته**، أي من أعماق موته - كنا فيه - إلى قمة قيامته - كنا معه - والتأكيد هنا على قيامته والحياة الجديدة. ثمَّ هو في هذا التعبير يجاوز الشكل الخارجي في حادثة موت المسيح بالصليب، فهو يتكلَّم عن موتنا في المعمودية على شكل موته (الترجمة العربية ضعيفة إذ تقول: "**بشبه موته**" وكأنه ليس مثله مع أن "**على شكل**" توضِّح دقة التشابه)، بمعنى موت الخطية الكفَّاري حتى جعل هذا أيضاً بالنسبة لقيامته أي بشكل قيامته الممجَّد والمنتصر.

فمن خلال المعمودية نحن اتحدنا بأقرب شكل بموت المسيح ودفنه وبهذا بلغنا موت الخطية -

الذي بلغه المسيح. ويأتي العدد (٦) «**إنساننا العتيق قد "صُلب معه συνεσταυρώθη**"، **أي متنا معه ἀπεθάνομεν**"». فبموتنا بشكل موت المسيح الكفّاري نكون قد متنا إلى الأبد لقوة الخطية.

ويعود ويؤكّد هذه الحقيقة لاهوتياً «**كي لا نعود نُستعبد أيضاً للخطية**» لأنه ليس موت وحسب بل وقيامة (٦). لأن الموت الذي ماته ثمناً وكفّارة للخطية ماته مرّة واحدة ἐφάπαξ (once for all). هكذا نحن! تحرّرنا منها إلى الأبد. فبالنسبة لقوة الخطية (المؤدّية إلى الهلاك والموت الأبدي) قد صرنا لها بالحقيقة أمواتاً νεκροι أي لا تؤثّر فينا. بل وأحياء لله نستمد قوة ضدّها!

وهكذا استطاع الطقس في المعمودية أن يهبنا سرائرياً sacramentaly بواسطة هذا السر "**حياة جديدة**"، لأننا قمنا مع المسيح بعد أن متنا معه في هذه المعمودية سرائرياً sacramentaly. مؤكّداً أننا بالمعمودية نكون أحياء لله في المسيح يسوع. ولكن في موت وحياة المعمودية يكون **الموت مع المسيح للخطية** أمّا الحياة فلله بالمسيح. لذلك فبولس الرسول باستعمال كلمة «**مع المسيح σῦν**» في الموت والقيامة يعطي المضمون السرائري أي مضمون المعمودية إضافة إلى تكميل المسيح هذا الموت العملي على الصليب والقيامة الفعلية من القبر.

والبعض من اللاهوتيين الكبار يتحفّظون خطأ على القول: «**ليبطل جسد الخطية**» و«**إنساننا العتيق قد صُلب معه**» و«**أن الذي مات قد تبرّأ من الخطية**». والرد على ذلك **أن المقصود بالخطية هي الخطية ذات القوة وسلطان الموت الأبدي، وهذا غير الخطية التي يعود إليها الإنسان بعد المعمودية فهي فاقدة قوة وجبرؤوت خطية آدم التي لبسها الشيطان**. ففرق بين خطية الخطأ في المعرفة وخطية الخطأ المقصود والمعروف في الله ومهاجمته. فالخطأ الأول يؤدّب كما يؤدّب التلميذ والثاني هو شيطان الهلاك بحد ذاته ليس له تأديب بل هلاك. **والمطلوب التفريق بين الخطية وقوة الخطية المدمِّرة للهلاك الأبدي. فالذي يفعل الخطية عن جهل ليس كالذي يخدم عن معرفة قوة** الخطية المدمرة للهلاك الأبدي. ويعبِّر عنها القديس بولس: «**الذي مات قد تبرّأ من الخطية**» **البراءة هنا هي من حكم الموت الأبدي الذي حصل عليه آدم**. فالذي مات بإرادته (سواء على الصليب بالإيمان أو في المعمودية مع المسيح **هو موت إرادي تنفيذاً لعقوبة آدم فهو براءة من الخطية**. لأنه معنى أننا متنا مع المسيح في المعمودية هو أننا آمنا أننا صلبنا معه. لذلك فموت المعمودية مع المسيح هو المدخل الرسمي للحياة الأبدية بعد ذلك.

وفي قول ق. بولس «**نؤمن أننا سنحيا أيضاً معه**» (٨) فهذه الحياة هي حياة المعمودية السرائرية كعطية. وهذه الحياة هي بعينها عنصر الخلاص الأبدي الثابت الذي لا يفقد. وهذا غاية ما يريد بولس الرسول الوصول إليه من إدخال الموت والقيامة والحياة مع المسيح في المعمودية حياة امتلاك الأبدية. ويضعها ق. بولس هكذا لتُماثل المسيح:«**عالمين أن المسيح بعدما أُقيم من الأموات لا يموت أيضاً. لا يسود عليه الموت بعد**» (٩). يقول ق. بولس هذا **لنأخذه لأنفسنا بالشبه والمثال.** فالحياة التي نحياها هي حياة الله ونحن شركاء هذه الحياة «**أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا**» (١١).

وينتهي ق. بولس إلى القول: «**كذلك أنتم أيضاً (بالمعمودية) احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية ولكن أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا**».

ـ ويقول أحد اللاهوتيين (Casel) إن المعمودية والفعل الخلاصي الذي تمَّ على الصليب ليسا عملين[٦] بل هما عمل واحد.

٧ ـ مع المسيح صُلبت:

مقدِّمة تفسيرية للكاتب:

ليس هذا فرضاً ولا إرادة أو شهوة من طرف الإنسان، بل هو عرض قدَّمه المسيح على الصليب وقدَّمه قبل الصليب: «إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني» (مت ١٦:٢٤)، ثمَّ جعله أمراً: «اتبعني حاملاً الصليب!» (مر ١٠:٢١). لذلك فقول بولس الرسول إن بصليب المسيح قد صُلب العالم له وصُلب هو للعالم، ذلك لأنه **اعتبر نفسه أنه صُلب لحظة أن صُلب المسيح كونه صُلب بنا ومن أجلنا** ـ لذلك شعر ق. بولس أن المسيح أحبَّه وأسلم نفسه لأجله.

فالصليب فوق أن يكون إرادة فهو محبة. فمن يرفض أن يقبل المحبة؟ بهذا إن كانت المعمودية تعطيني فرصة أن أُمارس الصليب مع المسيح حقًّا وأقوم معه بعد ذلك حقًّا! تكون أعظم مكسب بل وفرحتي الوحيدة لأمتلك الحياة الأبدية بل والمسيح، فهي ثمرة المسيحية التي تُعطَى مجَّاناً وفيها المسيح بكل مواهبه وعطاياه التي نالها بالصليب! فالمعمودية إنجيل معاش ومحقَّق!

---

(6) O. Cosel, *Glaube, Gnosis, Mysterium*, p. 116, Cited by R. Schnackenburg, *op. cit.*, p. 49.

مع المسيح صُلبت:

(غلاطية ٢:١٩، ٥:٢٤، ٦:١٤):

+ (غل ٢:١٩):

«لأني مت بالناموس للناموس لأحيا لله».

المعمودية هنا غير مذكورة ولكنها موضوعة في الأساس بصورة حتمية، ولكي نوضِّح هذه الآية نقارنها مع (رو ٦:١٠):

(رو ٦:١٠)	(غل ٢:١٩)
«لأن الموت الذي ماته قد ماته للخطية مرَّة واحدة والحياة التي يحياها فيحياها لله».	**«لأني مت بالناموس للناموس لأحيا لله».**

كما نجد في رسالة رومية (٦:٦) آية تعتبر الوصلة بين رسالة رومية ورسالة غلاطية:

(رو ٦:٦): **«عالمين هذا أن إنساننا العتيق قد صُلب معه ليُبطل جسد الخطية، كي لا نعود نُستعبد أيضاً للخطية».**

(غل ٢:٢٠): **«مع المسيح صُلِبتُ، فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فيَّ. فما أحياهُ الآن في الجسد، فإنما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله، الذي أحبني وأسلَمَ نفسه لأجلي».**

ولكن قول «**صُلبت مع المسيح**» لا تحدِّد نقطة زمنية معيَّنة ـ لأن القديس بولس قد أخفى المعمودية التي اعتمدها من يد حنانيا ولم يذكرها. ولكن «**متّ بالناموس**» تحدِّد حتماً نقطة زمنية. متى؟ وحياة ق. بولس كلها معروفة عندنا ونقطة التحوُّل العظمى الوحيدة في حياته كانت المعمودية من تحت الناموس إلى مسيحي. إذن المعمودية هي النقطة الزمنية المحدَّدة الموقَّعة على زمن الصليب. فبمقارنة (رو ٦:١٠) مع (غل ٢:١٩) المذكورة أعلاه ينكشف الموت والحياة في الاثنين. فالقديس بولس مات في المعمودية بالناموس للناموس، ومعنى بالناموس للناموس استلفها من موت المسيح. فالمسيح مات بالناموس بحكم السنهدرين ومات للناموس لكي يلغيه كما قيل إنه مات للخطية.

لذلك ومن هذا المنطلق رأى نفسه مصلوباً مع المصلوب لمَّا مات في المعمودية موت سيده على الصليب، فقال: «مع المسيح صُلبت». فالذي عاينه في المعمودية هو بعينه الذي عاينه المسيح على الصليب: «**المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا، لأنه مكتوب ملعون كل مَنْ عُلِّق على خشبة.**» (غل ٣:١٣)

ولكن حينما يقول ق. بولس «مع المسيح صُلبت» فهذا التعبير بحد ذاته يكشف عن فعل زمني تمَّ بشكل ما وهو المعمودية التي نالها تحت يد حنانيا، التي فيها اعتبر نفسه صُلب مع المسيح بالناموس الذي صَلب المسيح وللناموس الذي أدخل الخطية إلى الوجود. ومع المعمودية كان الإيمان بالمسيح «**إيمان يسوع المسيح**.» (غل ٢:١٦)

وهكذا صارت المعمودية في لاهوت بولس الرسول قوة للخلاص بالاتحاد بالمسيح والصليب.

وبرجوعنا إلى تعبيرين هامين في رسالة رومية بالنسبة للناموس يتضح فعل المعمودية بقوة:

(رو ٧:٤)	رو ٧:٦)
«إذاً يا إخوتي أنتم أيضاً **قد مُتّم للناموس** بجسد المسيح لكي تصيروا لآخر للذي **قد أُقيم من الأموات**».	«وأمَّا الآن فقد تحرَّرنا من الناموس. إذ مات الذي كنَّا ممسكين فيه (الجسد العتيق) **حتى نعبد بجدة الروح** لا بعتق الحرف».

هنا في وقت ما قد مُتّم للناموس! إنها لحظة المعمودية الموقَّعة على لحظة الصليب، لذلك يحسبوا أنهم عاينوا موت المسيح وقيامته، أي لحظة الخلاص التي تمَّت على الصليب بصورتها المسكونية العامة، وأُعيدت للذين آمنوا وطلبوا المسيح في المعمودية.

وكأن موت المسيح وقيامته هي التي تحرِّك فكر بولس الرسول حول المعمودية.

وأيضاً:

(رو ٦:٦)	(غل ٢:٢٠)
«عالمين هذا أن إنساننا العتيق قد صُلب معه ليبطل جسد الخطية كي لا نعود نُستعبد أيضاً للخطية».	**«مع المسيح صُلِبتُ، فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فيَّ. فما أحياهُ الآن في الجسد، فإنما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله، الذي أحبني وأسلَمَ نفسه لأجلي».**
هنا واضح الخلاص	هنا الخلاص معبَّر عنه بالحياة في الإيمان فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ: قد حلَّ المسيح في مركز حياته عوض "أنا".

ويقول ق. بولس مع المسيح صُلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ، كل هذا بكل تأكيد قد تمَّ

بواسطة المعمودية التي فيها ليس فقط يكون مع المسيح بل صُلب معه. **وبهذا جعل عمل المعمودية ملاصقاً لعمل الجلجثة، وبالتالي حياة المؤمن المعمَّد هي حياة دائمة متحدة في المسيح المصلوب.** وبهذا يضعنا ق. بولس في وضع متقدِّم من المعمودية "فمع المسيح صُلبت في المعمودية" هو شرح لحياة البر بعد المعمودية.

المعمودية و"مع المسيح صُلبت":

بدأ الفكر عند ق. بولس من واقع العماد، وذلك بعد إيمانه بالمسيح ابن الله، فشاول اليهودي لَمَّا آمن واعتمد سقط عنه الناموس، بل مات الناموس إذ صار مسيحياً. وكان تعبير ق. بولس الأول في (رو ٧:٤): «**إذاً يا إخوتي أنتم أيضاً قد مُتُّم للناموس بجسد المسيح لكي تصيروا لآخر، للذي قد أُقيم من الأموات**». وبتعبير آخر يقول في (رو ٧:٦): «**وأمَّا الآن فقد تحرَّرنا من الناموس إذ مات الذي كُنَّا مُمْسَكين فيه حتى نعبد بجدَّة الروح لا بعتق الحرف**». وفي غلاطية ظهرت بوضوح أكثر: «**لأني مت بالناموس للناموس لأحيا لله.**» (غل ٢:١٩)

وكان هذا التعبير من واقع موت المسيح على الصليب، فقد مات بالناموس أي قتله رؤساء الكهنة بحكم الناموس عليه، فمات المسيح على الصليب بالناموس ولكي يرفع الناموس عنا، فاستخدم ق. بولس هذا التعبير. ولكن موت المسيح كان صلباً، فاستخدم ق. بولس هذا التعبير لنفسه فقال تعبيراً عن أنه مات في المعمودية «مع المسيح صُلبت». وهكذا دخل هذا التعبير في المعمودية. ثمَّ عاد ق. بولس ليجعل هذا الاصطلاح عاماً للجميع، يهوداً وغير يهود، لأنه من واقع الجلجثة، والجلجثة للجميع بقوله في (رو ٦:١٤): «**فإن الخطية لن تسودكم لأنكم لستم تحت الناموس بل تحت النعمة**». أي أن الجميع تحرَّروا من الناموس مع أنه لم يوضع عليهم في السابق. وهكذا جاز أن يقول الكل «مع المسيح صُلبت» لأن المسيح مات بالناموس **ومات لكي يرفع الناموس. لأنه إن لم يكن ناموس فليس خطية، فالناموس هو الذي أوجد الخطية، فالمسيح لكي ينهي على الخطية أنهى أيضاً على الناموس.**

ومعروف أن رسالة غلاطية مشحونة بالصليب:

+ «وأمَّا أنا أيها الإخوة فإن كنتُ بعدُ أكرزُ بالختانِ، فلماذا أُضطهَدُ بعدُ؟ **إذاً عثرةُ الصليبِ قد بَطَلَتْ**» (غل ٥:١١)

+ «جميع الذين يريدون أن يعملوا منظراً حسناً في الجسد، هؤلاء يُلزِمُونكم أن تختَتِنوا، **لئلاَّ يُضطهدوا لأجل صليبِ المسيح** فقط» (غل ٦:١٢)

+ «وأمَّا من جهتي، فحاشا لي أن أفتخرَ إلاَّ **بصليبِ ربِّنا يسوع المسيح**، الذي به قد صُلِبَ العالَمُ لي وأنا للعالم» (غل ٦ :١٤)
+ «ولكن الذين **هم للمسيح قد صلبوا الجسد** مع الأهواءِ والشهواتِ» (غل ٥ :٢٤)

صُلب، أَصلِب، قد صلبوا:

إن ابتداء تحوُّل «مع المسيح صُلبت» كعمل سلبي مبني للمجهول "صُلبتُ" إلى عمل إيجابي "أَصلِب"، هنا ليس كفعل مباشر من المعمودية ولكن كفعل **نسكي «أصلب الجسد مع الأهواء والشهوات»، ولو أنه يُحسب** كنتيجة تحصيل حاصل، فالجسد المصلوب مع المسيح في المعمودية يبقى مصلوباً بعد المعمودية، ولكن يضعها ق. بولس كعمل موازٍ لعمل المسيح على أساس الحقيقة: «عالمين هذا أن إنساننا العتيق قد صُلب معه ليُبطل جسد الخطية، كي لا نعود نُستعبد أيضاً للخطية» (رو ٦ :٦). حيث هذه تُحسب عملاً مجَّانياً كفعل من أفعال الخلاص كعمل الله المباشر. **"فصلب الجسد العتيق" في المعمودية فعل أخلاقي مجَّاني موهوب للإنسان، على أن يمارسه ويكمِّله بعد تحوُّله إلى المسيح، أي بصيرورته مسيحياً، حيث العمل البشري هنا هو استجابة حرَّة إرادية لعمل النعمة المجاني في المعمودية.**

حيث يصبح فعل "صلب مع المسيح" الذي ينتهي باستجابة **عملية من طرف الإنسان، تُحسب أنه فعل أخلاقي، لأن المسيحي الذي يُصلب مع المسيح في المعمودية، عليه بالضرورة في ذات الوقت أن يَصلب هو الجسد بأهوائه وشهواته** التي تبرز من الخطية، كشهوات شريرة، التي كانت تستخدمها الخطية كمعين لها كما هو في (رو ٦ :١٢): «**إذن لا تملكنَّ الخطية في جسدكم المائت** (الذي مات بالنعمة) لكي تطيعوها في شهواتها»، وأيضاً في (غل ٥ :٢٤): «ولكن الذين هُم للمسيح قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات».

وتعليل بولس الرسول لهذا يقوله في الآية اللاحقة (غل ٥ :٢٥) «إن كنَّا نعيش بالروح، فلنسلك أيضاً بحسب الروح». **بمعنى أنه يخاطب إنساناً مسيحياً ماسكاً بالحياة الأبدية غير منعطف ناحية الجسد.**

والقديس بولس يقصد من عبارة «**صُلب** مع المسيح» ـ كفعل ماضٍ ـ يعني فعلاً فردياً سرائرياً إيمانياً يتم في المعمودية لكل واحد بمفرده، فهو يموت للخطية ليحيا مع الله، وبعد المعمودية يعيش في قانون **«قد صلبت مع المسيح» حتى يلتزم بالحياة فعلاً مع المسيح، بإيمان حار ينبع من كلمة «صلبت مع المسيح»، ومن حقيقة ذلك على الجلجثة، وذلك من أجل الحياة مع الله وحده، يشمل كل كيانه وله تأثير دائم في أعماقه.**

٨ ــ وبه أيضاً ختنتم:

(كو ٢: ١١-١٣): **«وبه أيضاً ختنتم ختاناً غير مصنوع بيد بخلع جسم خطايا البشرية بختان المسيح».**
«مدفونين معه في المعمودية التي فيها أُقمتم أيضاً معه بإيمان عمل الله الذي أقامه من الأموات».
«وإذ كنتم أمواتاً في الخطايا وغلف جسدكم أحياكم معه مسامحاً بجميع الخطايا».

(كو ٣: ١-٤): **«فإن كنتم قد قمتم مع المسيح فاطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله».**
«اهتموا بما فوق لا بما على الأرض».
«لأنكم قد متم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله».
«متى أُظهر المسيح حياتنا فحينئذ تظهرون أنتم أيضاً معه في المجد».

إن المعمودية هي فعل خلاص «مع المسيح σῦν Χριστῷ» تأخذ موضعها ويشرحها ق. بولس بالمضمون الرسمي في (رو ٦: ٣-١١) ولكن أيضاً وبكل وضوح في (كو ٢: ١١-١٣).

وبمقارنة ما جاء في رسالة رومية بما جاء في كولوسي نحصل على مثل أوضح للوصول إلى فهم ورؤية أفضل للمعمودية كموت وقيامة مع المسيح.

هنا ق. بولس يحتج بشدَّة على فهم المعمودية أنها أعمال تتم فيها وبها، وكأن الغطس هو الموت والخروج من الماء هو القيامة. لذلك يضع أسئلة استنكارية ليرفع من فكر الكنيسة إلى حقيقة ما يحدث في المعمودية لاهوتياً.

والسؤال (استنكاري) إن كان نفس الشكل الذي يمثِّل المعمودية في (رو ٦) هل يظهر حقًّا كقبر فيه دُفن فعلاً إنسان الخطية العتيق؟ أو أن الانغمار (الغطس) Submergence والخروج من الغطس emergence هل يُعتبر حقًّا كرمز الموت والقيامة مع المسيح؟ فإذا كانت عبارة «وبه أيضاً ختنتم» تعود في الحال لفعل المعمودية وليس لكلمة "المسيح" التي جاءت في نهاية الآية[٧]، يكون

(٧) كلمة "المسيح" موقعها يظهر أكثر في آية (٨) إذ يقول: «انظروا أن لا يكون أحد يسبيكم بالفلسفة وبغرور باطل حسب تقليد الناس حسب أركان العالم وليس حسب "المسيح"».

الخروج من ماء المعمودية تصوُّراً مسبقاً مساوياً للقيامة، وننتهي إلى "متنا مع المسيح وقمنا مع المسيح". وقد قلنا إن خروجنا من الماء بطقس المعمودية بحد ذاته يرمز إلى القيامة.

وإذا قارنا بين (آية ١٠): «**وأنتم مملوؤون فيه الذي هو رأس كل رياسة وسلطان**»، والآية (١١) التي تبدأ: «**وبه أيضاً ختنتم ختاناً غير مصنوع بيد بخلع جسم خطايا البشرية بختان المسيح**». وأيضاً بالتالي الآية (١٢): «**مدفونين معه في المعمودية التي فيها أُقمتم أيضاً معه بإيمان عمل ا لله الذي أقامه من الأموات**»، نخرج بالآتي:

الحقيقة أن مجيء "ختنتم" مباشرة بعد "وبه" توضِّح أن المسيح هو المصدر وليس الماء. كما أن طبيعة الختان الروحي – تظهر في «غير مصنوع بيد» – التي تأتي بعدها مباشرة "بخلع جسم خطايا البشرية" على مثال قطع الغرلة من العضو ورميها، التي تعبِّر عنها ما جاء في (رو ٦:٦): «لِيُبطَل جسد الخطية». بهذا كله يؤكِّد ق. بولس:

أن في "**ختانة المسيح**" يلزم أن **نفهم أنها روحية، فهي الموت على الصليب** = (رو ٦:٦) «**لِيُبطَل جسد الخطية** (الموت على الصليب)» – ولكن هنا في المعمودية جعله على مستوى الدفن مع المسيح في القبر، حيث مات واختفى جسد الخطية كموت واختفاء الغرلة، ولكن هنا في الدفن الختانة روحية وليست في اللحم، وفي جسم الخطية كله وليس في جزء منه. بالروح وليس باللحم. وينطبق على المسيح فقط وحده.

ولكن المسيح بعد دفن الجسد في القبر لثلاثة أيام قام، قام المسيح من الموت فنحن جميعاً الذين دُفنا معه قمنا أيضاً معه، وذلك بعامل الإيمان بقوة الله = «**لأنك إن اعترفت بفمك بالرب يسوع وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خلصت.**» (رو ١٠:٩)

وبقول القديس بولس: «**قمنا معه**» لا يزال يفكِّر وهو متمسِّك بالمعمودية – ولكن لا يتكلَّم هنا عن القيامة على أن المعمودية هي السبب في القيامة، بل أدخل في المعمودية عنصر الإيمان «**التي فيها أُقمتم أيضاً معه بإيمان عمل الله الذي أقامه من الأموات**». لأن الإيمان هو الذي يجمع الموت والقيامة معاً في حادث واحد غير منفصل، ويُفهم الاثنان كعمل خلاص واحد، الإيمان با لله وقوته وسلطانه الذي بلا حد، القادر أن يدعو الميت إلى الحياة:

+ «**كما هو مكتوب إني قد جعلتك أباً لأُمم كثيرة، أمام الله الذي آمن به الذي يحيي الموتى ويدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة.**» (رو ٤:١٧)

+ **«وما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين، حسب عمل شدة قوته الذي عمله في المسيح، إذ أقامه من الأموات وأجلسه عن يمينه في السماويات.»** (أف ١: ١٩و٢٠)

والإيمان الذي يثق بما عمله الله في المسيح يثق أيضاً بما عمل الله في الذين دُفنوا مع المسيح في المعمودية، باعتبارهم أنهم قاموا في المسيح مع المسيح.

ولهذا نرى أن ق. بولس يحاجج هنا أنه من الإيمان أي من الاعتراف أن المسيح مات ودُفن ورُفع في مجد، وليس من طقس المعمودية ولا من رمزها، تستمد المعمودية فعلها السرائري.

ويرى البعض أنه لا يصح للقديس بولس أن يضع اصطلاح **«أحياكم معه»** في الآية (١٣) مع **«مسامحاً لكم»** في نفس الآية. **ولكن لأن «أحياكم معه» هو عمل المعمودية** (رو ٦: ٤)، ولأن المعمَّدين ملتصقون في الدفن: **«مدفونين معه»، تكون الحياة معه حتماً على هذا المستوى.** فالقيامة تعني الحياة (كو ٢: ١٣). والقديس بولس يتكلَّم عن أُولئك الذين كانوا سائرين في الخطية **«فإذ كنتم أمواتاً في الخطايا»** (كو ٢: ١٣)، وعند قبولهم الحياة مع المسيح **«أحياكم معه»**، باعتبارها عمل قوة الله ونعمته، ولكن كونها تأتي قبل **«مسامحاً لكم»** فإنه يفيد: متى تمَّ ذلك، فذلك لأنه تمَّ عموماً قبله.

وبمقارنة (كو ٢: ١١و١٢) مع (رو ٦: ٤و٦) في أمر المعمودية:

آية	(كو ٢: ١١و١٢)	(رو ٦: ٤و٦)
(١٢)	**«مدفونين معه في المعمودية التي فيه أُقمتم أيضاً معه بإيمان عمل الله الذي أقامه من الأموات».**	**«فدُفِنَّا معه بالمعمودية للموت حتى كما أُقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضاً في جدة الحياة».**
(١١)	**«وبه أيضاً خُتنتم ختاناً غير مصنوع بيد بخلع جسم خطايا البشرية بختان المسيح».**	**«عالمين هذا أن إنساننا العتيق قد صُلب معه ليُبطل جسد الخطية كي لا نعود نُستعبد أيضاً للخطية».**

يفيد هذه النتائج:

١ ـ تعاليم المعمودية في (رو ٦) مشروحة جيداً ومثبَّتة ومفهومة في (كو ٢)، وماء المعمودية يعتبر قبر الدفن بواسطة الغطس حتى يختفي الجسد كما في القبر، ولكن بالإيمان نعلم أن

المسيح قام بقوة الله لحياة جديدة (ليس بالمعمودية) ـ ولكن في المعمودية لأن التحام المعمَّد بالمسيح هو في الماء كما في القبر، لا يبقى في الماء ولكن يقوم مع المسيح الذي قام بقوة الله من القبر الحقيقي. إذن (كو ٢) ملخّص جيد لـ (رو ٦).

٢ ـ القديس بولس يستخدم الختان في (كو ٢) لتصوير موت الإنسان العتيق في الدفن مع المسيح، حيث يُخلع الإنسان العتيق كما تُخلع الغرلة. هنا شركة في موت المسيح وخلع الإنسان العتيق بدون استخدام شركة الموت والحياة. والمعمودية تستخدم الاثنين الغمر تحت الماء للموت ثمَّ القيامة، والدفن لخلع الجسد العتيق ثمَّ القيامة مع المسيح.

٣ ـ الخلاص التي تصوِّره (كو ٢) بالمعمودية متعدِّد الأوجه إمَّا بالموت والقيامة مع المسيح في المعمودية، أو بقطع الإنسان العتيق في الدفن والتخلُّص منه مع المسامحة بغفران الخطايا أي الخلاص (بالختان) بالمعمودية، حيث تكون القيامة مع المسيح ليس بالخروج من الدفن تحت الماء ولكن بالإيمان بأن الله قد أقامه من الأموات بقوة عمله.

لذلك نقول: **إن الإيمان هو عامل الربط بين الموت والقيامة** في (كو ٢)، ولكن في (رو ٦) = **هو الغطس والخروج من الماء.**

«**مع المسيح**»:

أمَّا في (**كو ٣: ١-٤**) وعلاقتها بالمعمودية في الاصطلاح «**مع المسيح**»، فهو هنا يستخدم القيامة كحياة جديدة في المسيح بأن يكون هدف الحياة فيها في السماء حيث المسيح جالس، الذي يشجِّعنا على طلب ما هو ما فوق. ويعبر هنا سريعاً على حياة القيامة التي نحياها الآن في المسيح أنها مستترة مع المسيح بمقتضى قانون المعمودية، قمتم «مع المسيح»، ونهايتها «**في الله**»، متى أُظهر المسيح في المجد حينئذ ستظهر حياتنا الجديدة بظهوره بحسب القانون نفسه «**مع المسيح**».

ويعرِّج على لبس الأبيض ـ الإنسان الجديد ـ في المعمودية: لبس المسيح روحياً في (كو ٣: ١٠)، معتبراً أن تجديد الحياة الجديدة أي تنشيطها لخدمة السماء «**ما فوق**» إنما هو تجديد معرفة ودراسة وفهم، ليصير مطابقاً لأوصاف صورة المسيح الذي خلقه والذي يلبسه روحياً «**وأمَّا نحن فلنا فكر المسيح.**» (١كو ٢: ١٦)

ومروراً **بلبس** أحشاء رأفات ولطف وتواضع ووداعة وطول أناة الذي هو لباس القديسين المختارين.
ومروراً **بلبس** المحبة ـ رباط الكمال الذي يحزِّم الوسط ويحفظ الحلَّة البيضاء.

٩ - «أحيانا مع المسيح»:

(أف ٢: ٤-٦): **«الله الذي هو غنيٌّ في الرحمة، من أجل محبته الكثيرة التي أحبنا بها، ونحن أمواتٌ بالخطايا أحيانا مع المسيح - بالنعمة أنتم مخلَّصون - وأقامنا معه، وأجلسنا معه في السماويات في المسيح يسوع».**

كان اصطلاح «**مع المسيح** σὺν Χριστῷ» وهو اصطلاح معمودية بالدرجة الأُولى، مستولياً على فكر ق. بولس الرسول في رسالته إلى رومية (٦: ١-١١)، وإلى كولوسي (٢:١٢ إلخ) باعتباره أنه حدث خلاصي يجمع المؤمنين بالمسيح في المسيح مع المسيح. والآن نجيء إلى مجموعة أخرى من «**مع المسيح**» وهي «**أحيانا مع المسيح**» وهي مذكورة سابقاً، و«**أقامنا مع المسيح**» وهي مذكورة سابقاً أيضاً، ولكن الجديد هي «**أجلسنا معه** συν εκάθισεν».

وفكرة صعودنا هكذا إلى عرش السماء مع المسيح تأتي من بعيد من ذكره لما حصلنا عليه بالمعمودية، ولكي يزداد هذا التعبير وثوقاً نقارنه بما جاء في (كو ٢:١٣):

+ **«وإذ كنتم أمواتاً في الخطايا وغلف جسدكم أحياكم معه مسامحاً لكم بجميع الخطايا (بالمعمودية)».**

ونضع أمامها (أف ٢:٥):

+ **«ونحن أموات بالخطايا أحيانا مع المسيح - بالنعمة أنتم مخلَّصون».**

ومن هذا نرى أن «**أحيانا مع المسيح**» **تعود إلى حدث قيامة المسيح مرَّة واحدة وإلى الأبد**، ولكن يرافقها قيامة سرائرية sacramentally أي في المعمودية (رو ٦:٤)، **والمعمَّدون متحدون بهذه القيامة** (رو ٦:٥) = أولاد المعمودية.

ويذكر في (أف ٢: ١-٣) مسيرة الخطية سابقاً تحت سلطان الشيطان (٢): «**حسب رئيس سلطان الهواء الروح الذي يعمل الآن في أبناء المعصية**». وهكذا ومرَّة واحدة - بالمعمودية - نالوا الخلاص برحمة الله المجَّانية «**أحيانا مع المسيح**»، و«**أقامنا معه**» و«**أجلسنا معه**». هكذا ربط هذا الخلاص بـ «مع المسيح». هذا كله تمَّ في المعمودية (أف ٤:٤): «**جسدٌ واحِدٌ، وروحٌ واحِدٌ، كما دعيتم أيضاً في رجاءِ دعوتكم الواحد**»، (أف ٥:٢٦): «**لكي يقدِّسها، مطهِّراً إيَّاها بغسلِ الماءِ بالكلمةِ**».

وإليك التوافق الشديد بين (أف ٢: ٤و٥)، (كو ٢:١٣):

(أف ٢: ٤و٥)	(كو ٢:١٣)
«الله الذي هو غنيٌّ في الرحمةِ، مِنْ أجل محبته الكثيرةِ التي أحبَّنا بهـا، ونحن أموات بالخطايا أحيانا مع المسيح ـ بالنعمة أنتم مخلَّصون».	«وإذ كنتم أمواتاً في الخطايا وغلف جسدكم أحياكم معه مسامحاً لكم بجميع الخطايا»

وواضح هنا أن نفس حدث الخلاص واحد وهو المعمودية بلا شك.

وهنا فات على كثيرين أن ما حدث لنا هنا من خلاص جماعي هو من صنع المعمودية بالإضافة إلى وضعه العام اللاهوتي الذي نشأ من صلب وموت المسيح وقيامته.

وواضح عمل الله في قيامة المسيح وقيامتنا هكذا، وأن إقامة الله للمسيح هي من أجلنا أصلاً:

(أف ١: ١٩و٢٠)	(أف ٢: ٥و٦)
«وما هي عظمةُ قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين، حسب عمل شدَّةِ قوَّته الذي عمله في المسيح، إذ أقامه من الأموات، وأجلسه عن يمينه في السماويَّات».	«ونحن أموات بالخطايا أحيانا مع المسيح ـ بالنعمة أنتم مخلَّصون ـ وأقامنا معه، وأجلسنا معه في السماويَّات في المسيح يسوع».

واضح أن كل عمل للمسيح تحوَّل لنا نحن المسيحيين على أن نكون «مع المسيح» (المعمودية).
والذي زاد علينا هنا ما جاء في رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس وقوله من جهة **صعودنا وجلوسنا معه:**

(أ) فبعد أن كنَّا في قبضة رئيس سلطانِ الهواءِ، الروح الذي يعمل الآن في أبناءِ المعصيةِ (أف ٢:٢).

(ب) وبعد أن كانت مصارعتنا ليست مع دمٍ ولحمٍ، بل مع الرؤساءِ، مع السلاطينِ، مع ولاةِ العالمِ، على ظلمة هذا الدهرِ، مع أجناد الشرِّ الروحية في السماويات (أف ٦:١٢).

(ج) رَفَع الله المسيح في كرامة وأجلسه عن يمينه ووضع كل رئاسات الشيطان تحت قدميه (أف ١:٢١): فوق كل رياسة وسلطان وقوة وسيادة وكل اسم يُسمَّى. ورفعنا معه بالضرورة = «لأجل جسده الذي هو الكنيسة».

(د) وهذه النصرة معلنة في (أف ٤:٨): «**لذلك يقول: إذ صَعِدَ إلى العلاءِ سبى سبياً وأعطى الناس عطايا**».

كل هذا من واقع ما وُهبنا في المعمودية. **لأن معنى «أحيانا معه» تفيد كل ما اكتسبه المسيح من النصرة والسيادة والسلطان، لأننا قمنا مع المسيح وحياتنا مستترة مع المسيح، حتى السماء والجلوس عن يمينه.**

١٠ ـ الخلاص في المعمودية في لاهوت القديس بولس:

كانت المعمودية في الكنيسة الأُولى هي مصدر انسكاب الخارزما (المواهب):

+ **«لأن يوحنا عمَّد بالماء وأمَّا أنتم فستتعمَّدون بالروح القدس ليس بعد هذه الأيام بكثير.»** (أع ١:٥)

ولمَّا بدأت المعمودية وحلول الروح القدس، عُرفت بواسطة الرسل أنها للفداء الآتي (الخلاص) الموعود به بكل بركاته التي للخلاص:

+ **«ويكون كل مَنْ يدعو باسم الرب يخلص.»** (أع ٢:٢١)
+ **«وكان الرب كل يوم يضم إلى الكنيسة الذين يخلصون.»** (أع ٢:٤٧)
+ **«وهو يكلِّمك كلاماً به تخلص أنت وكل بيتك.»** (أع ١١:١٤)
+ **«أيها الرجال الإخوة بني جنس إبراهيم والذين بينكم يتَّقون الله، إليكم أُرسلت كلمة هذا الخلاص.»** (أع ١٣:٢٦)
+ **«توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا (الخلاص) فتقبلوا عطية الروح القدس.»** (أع ٢:٣٨)

وهكذا تجمَّعت الآيات التي تشير إلى الخلاص: فابتدأ ق. بولس على نفس النمط بالاستلام التقليدي:

+ **«لكن اغتسلتم بل تقدَّستم بل تبرَّرتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا.»** (١كو ٦:١١)

ثمَّ يوضِّح ق. بولس في (١كو ١٢: ١٣-١٨) أن المعمودية باسم المسيح تربطنا بالرب الذي صُلب من أجلنا وينقذنا من الهلاك المزمع أن يكون:

+ **«لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد يهوداً كنا أم يونانيين، عبيداً أم أحراراً وجميعنا سُقينا روحاً واحداً ...»** (١كو ١٢:١٣)
+ **«لأن كُلَّكُم الذين اعتمدتُم بالمسيح قد لبستُم المسيح.»** (غل ٣:٢٧)

وهكذا جئنا إلى الاتحاد به فأصبحنا شركاء في البركات الموعودة لإبراهيم:

+ **«فإن كنتم للمسيح، فأنتم إذاً نسلُ إبراهيمَ، وحسب الموعدِ ورثَةٌ.»** (غل ٣:٢٩)

وفي (رو ٦: ٤و٨)، (كو ٢:١٢) نُدفن مع المسيح ونقوم معه للحياة:

+ **«لأنكم قد متُّم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله، متى أُظهر المسيحُ، حياتُنا، فحينئذ تُظهرون أنتم أيضاً معه في المجد.»** (كو ٣: ٣و٤)

أي حياة ينتظرها ملء المجد الإلهي تظهر في النهاية.

وفي رسالة تيطس (٣:٥) تظهر معمودية الميلاد الثاني التي تمنح البر في النعمة وحق الميراث لملكوت الله حسب وعد الحياة الأبدية.

هذه كلها تعاريف بولس الرسول وهي تماثل التي عند بطرس الرسول (١بط ٣:٢١) كون المعمودية هي الطريق الأساسي للخلاص في العهد الجديد:

+ **«الذي مثاله يخلِّصنا نحن الآن، أي المعمودية. لا إزالة وسخ الجسد، بل سؤال (صحتها: اعتراف) ضمير صالح عن الله، بقيامة يسوع المسيح.»** (١بط ٣:٢١)

وإنه كما يوجد رب واحد توجد معمودية واحدة وإيمان واحد.

+ **«ربٌّ واحِدٌ، إيمانٌ واحِدٌ، معموديةٌ واحِدةٌ»** (أف ٤:٥)

إن الخلاص الذي يتأتّى من المعمودية هو ممنوح من الله وحده فقط، مع أن المعمودية تُصور عمل الإنسان مشتركاً مع عمل الله من أجل الخلاص الممنوح من الله، والعمل والفعل الحاسم يأتي من الله فقط ونحن نتلقّى الفعل:

+ **«لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد ... وجميعنا سُقينا روحاً واحداً.»** (١كو ١٢:١٣)
+ **«كل مَنْ اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته.»** (رو ٦:٣)
+ **«لأن كُلّكُم الذين اعتمدتُم بالمسيح قد لبستُم المسيح.»** (غل ٣:٢٧)

هكذا في كل أعمال الخلاص في المعمودية يعطي ق. بولس لله الأولوية والعمل والفعل. فالله وحده هو الذي يُفدي ويحيي:

+ **«وإذ كنتم أمواتاً في الخطايا وغلف جسدكم أحياكم (الله) معه مسامحاً لكم بجميع الخطايا. إذ محا الصك الذي علينا ...»** (كو ٢: ١٣و١٤)
+ **«ونحن أموات بالخطايا أحيانا (الله) مع المسيح.»** (أف ٢:٥)
+ **«لا بأعمال في برٍّ عملناها نحن بل بمقتضى رحمته (الله) خلَّصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد**

الروح القدس.» (تي ٣:٥)

فالله خلّصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس، هذه الآية تكشف عن موقع المعمودية بين خلاص الله واستجابة عمل الإنسان.

كما يظهر في الآيات التالية اصطلاحات عمل الخلاص ومواهب الخلاص الممنوحة في المعمودية، ومغفرة الخطايا وموهبة الروح القدس:

+ **«توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس.»** (أع ٢:٣٨)
+ **«والآن لماذا تتوانى. قم واعتمد واغسل خطاياك داعياً باسم الرب.»** (أع ٢٢:١٦)

وغسل الخطايا والتقديس والتبرير:

+ **«وهكذا كان أُناس منكم. لكن اغتسلتم بل تقدَّستم بل تبرَّرتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا.»** (١كو ٦:١١)

وغسيل المعمودية بفعله الدائم الوحيد الفريد وأثره الأبدي بصورته الأبدية:

+ **«لنتقدَّم بقلبٍ صادقٍ في يقين الإيمان، مرشوشةً قلوبنا من ضميرٍ شريرٍ، ومُغتَسِلةً أجسادنا بماء نقيٍّ.»** (عب ١٠:٢٢)
+ **«لأن الذين استنيروا مرَّة وذاقوا الموهبة السماوية وصاروا شركاء الروح القدس.»** (عب ٦:٤)

والروح القدس في المعمودية موهبة الله العظمى بقوتها الإلهية وحلولها على المعمَّدين في كل سفر الأعمال وفي بقية آيات بولس الرسول، له عمله مع الرب المرتفع وهو وسيط التبرير والتقديس:

+ **«لكن اغتسلتم بل تقدَّستم بل تبرَّرتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا.»** (١كو ٦:١١)

والمعمودية تحمل معها إعطاء موهبة الروح القدس ونسمعه في رسالة تيطس:

+ **«لا بأعمال في برٍّ عملناها نحن بل بمقتضى رحمته خلَّصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس.»** (تي ٣:٥)

والقديس بولس يعتبر الروح القدس عطية الله:

+ **«لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المُعطَى لنا.»** (رو ٥:٥)

+ «إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف بل أخذتم روح التبني الذي به نصرخ يا أبا الآب.» (رو ٨:١٥)
+ «ثم بما أنكم أبناءٌ أرسل ا لله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً: يا أبَا الآبُ.» (غل ٤:٦)

كما يعتقد أن المسيح الممجَّد يعمل بالروح القدس في المعمودية:
+ «لكن اغتسلتم بل تقدَّستم بل تبرَّرتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا.» (١كو ٦:١١)

وهو الذي يقوم بعمل الاتحاد في جسم المسيح المُقام:
+ «لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد ... وجميعنا سُقينا روحاً واحداً.» (١كو ١٢:١٣)

أي أن المسيح سقانا من روحه القدوس في المعمودية، وهو الذي يجمع المؤمنين معاً برباط المسيح.

ويعتبر القديس بولس أن عملية الموت مع المسيح والقيامة مع المسيح هي بواسطة الروح القدس في المعمودية كفعل خلاص. فهو الذي جمع وربط الثلاثة آلاف:
+ «فقبلوا كلامه بفرح واعتمدوا وانضم في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف نفس.» (أع ٢:٤١)
+ «وكانوا كل يوم يواظبون في الهيكل بنفسٍ واحدة. وإذ هُم يكسرون الخبز في البيوت كانوا يتناولون الطعام بابتهاج وبساطة قلبٍ. مسبِّحين الله ولهم نعمة لدى جميع الشعب، وكان الرب كل يوم يضم إلى الكنيسة الذين يخلصون.» (أع ٢: ٤٦و٤٧)
+ «والله العارف القلوب شهد لهم معطياً لهم الروح القدس كما لنا أيضاً ... لكن بنعمة الرب يسوع المسيح نؤمن أن نخلص كما أُولئك أيضاً.» (أع ١٥: ٨-١١)

وكانت المعمودية هي القرار القضائي المنتهي الذي يُعطِي للمعمَّد حق الانضمام إلى جماعة المخلَّصين رسمياً، كما أن فيها يأخذ المعمَّد الروح القدس الفاعل المباشر لاتحاد المعمَّد بجسد المسيح، روح واحد يُعمِّد الجميع وبالروح الواحد يتحدون بالمعمودية بالجسد الواحد بالإيمان الواحد:
+ «لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد، يهوداً كنا أم يونانيين، عبيداً أم أحرار، وجميعنا سقينا روحاً واحداً ... وأمَّا أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفراداً.» (١كو ١٢: ١٣و٢٧)

بمعنى أن الروح يبني الجسد روحياً أي الكنيسة هيكل الله:
+ «لأننا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه.» (أف ٥:٣٠)

ويمكن أن نلمح بسهولة المجهود الضخم الذي قام بـه بولس الرسول لكشف العلاقة الداخلية للمعمودية باسم المسيح - لأن لاهوت ق. بولس في المعمودية ربطه بعقيدة الكنيسة في أن المعمودية هي باسم المسيح وله:

+ «**لأنه لم يكن قد حلَّ بعد على أحد منهم. غير أنهم كانوا معتمدين باسم الرب يسوع.**» (أع ٨:١٦)
+ «**فلمَّا سمعوا اعتمدوا باسم الرب يسوع.**» (أع ١٩:٥)
+ «**فقال لهم بطرس توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح.**» (أع ٢:٣٨)
+ «**وأمر أن يعتمدوا باسم الرب.**» (أع ١٠:٤٨)

واستخدمها ق. بولس في (١كو ٦:١١): «**اغتسلتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا**». وهذا هو القطب الجاذب الذي جذب لاهوت المعمودية نحو صحتها الإلهية. وأصبحت وسيلة الخلاص باسم المسيح المخلِّص الوحيد. وقد استخدم ق. بولس التعبير المختصر ليُعلن قوة المعمودية هكذا:

+ «**لأن كُلَّكُم الذين اعتمدتُم بالمسيح قد لبستُم المسيح.**» (غل ٣:٢٧)

وكانت أنشودة المعمَّدين الجدد في زفة عيد القيامة.

+ «**كل مَنْ اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته.**» (رو ٦:٣)

الأمر الذي جعل الاتحاد بموته ممكناً، بل وسهَّل بولس قوله نلبس المسيح. فالمدخل الوحيد أن نصبح شركاء المسيح هو أن المعمودية للمسيح، فالمسيح قائم فيها مهيَّأ لقبول المعمَّدين، وذلك بدخول المعمودية باسم المسيح، المعمودية التي دخلها المسيح كسابق من أجلنا ليستقبلنا فيها! ويوحِّدنا بصليبه وموته ويعطينا روحه للقيامة والحياة لله.

+ «**وإن كان روح الذي أقام يسوع من الأموات ساكناً فيكم، فالذي أقام المسيح من الأموات سيحيي أجسادكم المائتة أيضاً بروحه الساكن فيكم.**» (رو ٨:١١)

الأجساد العتيقة التي ماتت سيحييها أجساداً جديدة.

وهكذا رأينا أن لاهوت ق. بولس الرسول المُلهم يكون دائماً أقوى وأكثر امتداداً حينما يلتزم بالمعمودية مع المسيح!

١١ - عمل المسيح الخلاصي العام كأساس لعمل الخلاص في المعمودية:

القديس بولس يقدِّم في (رو ٦) وضع المعمودية العام من داخل إطار التدبير الإلهي للخلاص.

واصطلاح (رو ٦:٦): «**إنساننا العتيق قد صُلب معه** συνεσταυρώθη» يوضّح كيف أن القديس بولس يضع قاعدة المعمودية على قاعدة الخلاص العام الذي قام به يسوع ولن يُفقد له فعل، بمعنى أن فعل الصليب وجد دوامه الأبدي في المعمودية، وهو بهذا يقدِّم رؤيته العميقة للخلاص وإدراكه للمعمودية بأنها منبعٌ دائم للخلاص في صليب ربنا يسوع المسيح. وهو لا يُعلِّم بمعجزة تحدث برسم الصليب بعيداً عن فعل الصليب للخلاص على الجلجثة، معتبراً المعمودية تدخُّل حاسم في تاريخ الإنسان للتحوُّل من الخراب إلى الفداء.

المسيح مات وقام ممثِّلاً وحالاً محل الإنسان الميت المفدى كفعل خلاص، هكذا نموت معه في المعمودية ونقوم معه أيضاً:

+ «**مدفونين معه في المعمودية التي فيها أُقمتم أيضاً معه بإيمان عمل الله الذي أقامه من الأموات.**» (كو ٢:١٢)

وحالما نؤسِّس بالإيمان والمعمودية الاتحاد بالمسيح كالخالق الروحي للإنسان الجديد وذلك بنوالنا نصيباً في الذي صنعه، صار موته موتنا وقيامته قيامتنا.

والمسيح يبقى في كل ذلك الأول والبداية:

+ «**ولكن الآن قد قام المسيح من الأموات وصار باكورة الراقدين ... المسيح باكورة ثمَّ الذين للمسيح في مجيئه.**» (١كو ١٥: ٢٠و٢٣)

بمعنى أنه باقٍ كما هو قائد للخلاص ويضم إلى نفسه الذين يتبعونه ويُدخلهم في فدائه، وأخيراً إلى قيامة الأجساد (الروحانية) ليكمِّل شكلهم المتواضع ليكون على شكل مجده:

+ «**لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعيَّنهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه ليكون هو بكراً بين إخوة كثيرين.**» (رو ٨:٢٩)

+ «**وكما لبسنا صورة الترابي سنلبس أيضاً صورة السماوي.**» (١كو ١٥:٤٩)

فالذي حدث على الصليب مرَّة واحدة وإلى الأبد سيبقى كما هو لا يتغيَّر ويبقى عمله بالمعمَّدين في المعمودية. لهذا نموت مع المسيح في المعمودية، ولكن لا يمكن أن يكون العكس ،لأن العكس حدث مرَّة وهو قائم كما هو، وعلى أساس قيامته التي قامها سنقوم من خلال قيامته وفيه ومعه. أمَّا الفارق الزمني، وتكرار المعمودية للذين يأتون ويعتمدون لا دخل لها في السباق، **فكل الذين يتحدون بالمسيح بالمعمودية خلواً عن الزمن إنما يُؤخذون في الحال إلى الحدث الأول ــ الصليب**

والقيامة – والثابت وفيه هو القائم كما هو. قام كأنه مذبوح أي مصلوب.

وفي هذا الاتصال يقع التركيز على الخصوص على بشرية المسيح:

+ «**ولكن ليس كالخطية هكذا أيضاً الهبة. لأنه إن كان بخطية واحدٍ مات الكثيرون، فبالأولى كثيراً نعمة الله، والعطية بالنعمة التي بالإنسان الواحد يسوع المسيح، قد ازدادت للكثيرين.**» (رو ٥:١٥)
+ «**فإنه إذ الموت بإنسان، بإنسان أيضاً قيامة الأموات.**» (١كو ١٥:٢١)
+ «**الإنسان الأول من الأرض ترابي. الإنسان الثاني الرب من السماء.**» (١كو ١٥:٤٧)

والمسيح صار ممثّلاً لجنس الإنسان بالتجسُّد (غل ٤:٤)، وبهذا الميلاد أصبح هو الذي أوجد الإنسانية الجديدة التي خُلقت بعد ذلك على صورة الله:

+ «**ولبستم الجديد الذي يتجدَّد للمعرفة حسب صورة خالقه**» (كو ٣:١٠)

والقديس بولس يفرِّق بين القديم الأرضي القابل للفناء والإنسانية الجديدة الممجَّدة بالروح بالقيامة:

+ «**صار آدم الإنسان الأول نفساً حيَّة وآدم الأخير روحاً محيياً ... الإنسان الأول من الأرض ترابي. الإنسان الثاني الرب من السماء.**» (١كو ١٥: ٤٥و٤٧)

والإنسان الأول كان فقط نفساً حيَّة، والثاني الأخير روحاً خالقاً محيياً. الإنسان الأول أُخذ من تراب الأرض، والثاني جاء من السماء. بهذا جاهد ق. بولس لكي يضع أمامنا صورة المسيح المخلّص لأن المسيح قد أعطى غنىً فائقاً من نعمته على الآخرين لأنه جاء وسيطاً.

+ «**إذن محبة المسيح تحصرنا إذ نحن نحسب هذا أنه إن كان واحد قد مات لأجل الجميع فالجميع إذاً ماتوا.**» (٢كو ٥:١٤)

هنا يظهر جوهر الخلاص عند ق. بولس بكل قوته وكل ملئه، حيث يضع الإحلال في وضع جميل: واحد مات من أجل الجميع! وبالتالي يكون الجميع قد ماتوا!

هذا مبدأ الاتحاد والتماسك الأمر الذي يجعل موت المسيح موتنا أو حياة المسيح حياتنا! ولكن ليس بالعكس. فالمسيح وحده هو الذي يأخذ مكان الجميع. وهكذا يظهر أن مبدأ التمثيل يرجع إلى أن المسيح هو رأس البشرية الجديدة. هذه الشمولية الفريدة في الخلاص عند ق. بولس ستظهر أكثر فيما بعد. **والتي فيها يأخذ المسيح كل جنس البشر متحداً فيه** – نحن يستحيل أن نموت على

الصليب من أجل واحد. **موت المسيح حقًّا كان هو موت كل واحد منا** ولكن نموت نحن "معه" في المعمودية. ولكن المسيح مات على الصليب فقط لأنه يمثّلنا، ونحن رعيته التي تحتاج إلى موته للخلاص، نُظهر هذا بدخولنا ماء المعمودية لنموت معه! هو أكمل الخلاص على الصليب وفي القبر، أمَّا نحن فعلينا أن ننتفع بموته وصليبه بأن نموت ونُصلب معه في المعمودية.

+ **«وهو مات لأجل الجميع كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم بل للذي مات لأجلهم وقام.»** (٢كو ٥:١٥)

وهنا ق. بولس يضع "كي ἵνα" لكي يكون تمثيل المسيح كقاعدة، لكي نفهم كيف أن الله يقدر أن يوسِّع الخلاص لكل مَنْ يريد أن يأخذ الخلاص، حتى نصير أبراراً لله في المسيح. وهنا المعمودية تقف شاهدة - والقديس بولس في هذه الآية يربط بحكمة وفهم وإلهام بين الحياة والموت. فالمسيح مات من أجل الجميع حتى لا يعيش الأحياء لأنفسهم فيما بعد. بل للذي مات وقام ليعيشوا ويحيوا معه.

وباختصار، المسيح مات ليخلِّص حياتهم «إن محبة المسيح تحصرنا». فالمسيح صنع هذا كله لنا لكي نضع حياتنا له.

١٢ - الإيمان والمعمودية:

المعمودية امتلاك للخلاص بالإيمان:

«لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع. لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح» (غل ٣: ٢٦و٢٧). كان ق. بولس يمسك بالاثنين معاً وللاثنين نفس الأهمية، معتبراً في هذه الآية أن المؤمن أولاً **يحصل على شركة مع المسيح بالإيمان وبعد ذلك وبنفس الأهمية يعتمد ويُختم**. فالإيمان حاجته عظمى ليحرِّر الإنسان ويهبه البركة، لأن وضع الإيمان في الحقيقة يقف في مقابل الناموس. لذلك يقود ق. بولس الفكر عامة ليصل بسهولة إلى المعمودية. لأنه إذ يصل إلى هذه المرحلة يستطيع أكثر أن يتكلَّم عن الشركة مع المسيح التي فيها نصير ونحس بأننا أبناء الله وورثة للمواعيد العظمى والثمينة.

وسهولة الانتقال من الإيمان إلى المعمودية تحدث من خلال **"في المسيح"** التي تقف كمفتاح الوضع في نهاية الآية (٢٦): **«لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع»**. هنا في الحقيقة الشعور بأنهم "أبناء الله" أشد فاعلية وأشد دفعاً من الإيمان وحده فقط. فشركة المسيح من خلال المعمودية تصير شركة مبنية ومفهومة على أساس أننا أبناء الله: **«ثم بما أنكم أبناءٌ أرسل الله روح**

ابنه إلى **قلوبكم صارخاً: يا أبَا الآبُ»** (غل ٤:٦) وذلك بواسطة الروح القدس الذي يكمِّل لنا الاختيار أو التبني لله.

والصلة بين الإيمان والمعمودية موجود في (كو ٢:١٢): «**مدفونين معه في المعمودية التي فيها أُقمتم أيضاً بإيمان عمل الله الذي أقامه من الأموات**». هنا تبرز **المعمودية في الأول** بهيئة ختان روحي بغير يد ختان المسيح. ولكن بمجرَّد أن دخل ق. بولس **في القيامة أبرز الإيمان، لأن قوة الله لإقامة الميت تفترض الإيمان**، حينئذ تكلَّم عن الإيمان. وهكذا يُبرز المعمودية أو يُبرز الإيمان تبعاً للرؤية السائدة.

وعند القديس بولس تقف المعمودية حتماً ضرورية لإنسان يريد أن يكون مسيحياً، فإن جاء إنسان يعرف الإيمان بالمسيح كطريق للبر تصير المعمودية في الحال سبيل الخلاص. والمعمودية عند ق. بولس توصل إلى الروح:

+ **«وهكذا كان أُناس منكم لكن اغتسلتم بل تقدَّستم بل تبرَّرتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا.»** (١كو ٦:١١)
+ **«لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد ... وجميعنا سُقينا روحاً واحداً.»** (١كو ١٢:١٣)

الروح يقدس يُبرِّر ويجعل المعمَّد يجوز الدفن والقيامة مع المسيح. فالمعمودية في ظاهرها كأنها اعتراف وفي داخلها إيمان: «لأنك إن اعترفت بفمك بالرب يسوع وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خلصت» (رو ١٠:٩). والمعمودية عند القديس بولس بها **وبداخلها فعل خلاص وظاهرها** يُعد بمجرَّد اعتراف فقط.

فالإيمان الكامل الصحيح يقود بالضرورة إلى المعمودية، لأن الإيمان الصحيح هو طاعة لكلمة الله، كما صنع ق. بولس نفسه تحت يد حنانيا. والمعمودية هي تبرير عند ق. بولس ("بل تبرَّرتم"). وهي إعلان إيمان أمام الكنيسة، والكنيسة لا تعترف بشركة الإنسان في المسيح وهو ليس عضواً فيها. ونحن لا يمكن أن نتبع المسيح بدون إيمان ومعمودية. **والإيمان يتكمَّل بالمعمودية لأنه ينفتح على المسيح والكنيسة. وهذا الإيمان هو الذي يخلِّص!**

١٣ ـ المعمودية "سرّ" ـ فعل سرائري:

المظهر الخارجي، العنصر المنظور، العلامة، الرمز بالنسبة لفعل الخلاص في المعمودية:

إن نظرة ق. بولس من نحو المعمودية أخذها كما هي بالتسليم الأمين الدقيق، لم يزد أو يحذف

شيئاً مما استلم، بل شرح ووضَّح ورفع إلى المستوى الحق واللاهـوت، فـأدخل المعمودية في لاهـوت الكنيسة وبالتالي في لاهوت الخلاص برؤيته الملهمة المتسعة الدقيقة.

نناقشها على درجات:

١ ـ القديس بولس قيَّم العنصر المنظور في المعمودية "**أي الماء**" واستخدامه منذ فجر اليهودية (المعمودية اليهودية ومعمودية يوحنا) ـ فرآها غسيلاً للخطايا:

+ «**لكن اغتسلتم بل تقدَّستم بل تبرَّرتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا.**» (١كو ٦:١١)
+ «**لكي يقدِّسها، مطهِّراً إيَّاها بغسلِ الماءِ بالكلمةِ**» (أف ٥:٢٦)

كما رأى بكل احترام ووقار عشاء الرب بكل رموزه وعوايده:

+ «**لأنني تسلَّمت من الرب ما سلَّمتكم أيضاً إن الرب يسوع في الليلة التي أُسلم فيها أخذ خبزاً ...**» (١كو ١١:٢٣)

كما رأى طقس وضع اليد وأعطاه كرامته وأهميته التي أعطاها المسيح والكنيسة الأُولى:

+ «**لا تهمل الموهبة التي فيك المعطاة لك بالنبوَّة مع وضع أيدي المشيخة.**» (١تي ٤:١٤)
+ «**لا تضع يداً على أحد بالعجلة.**» (١تي ٥:٢٢)
+ «**أُذكِّرك أن تضرم أيضاً موهبة الله التي فيك بوضع يديَّ.**» (٢تي ١:٦)
+ «**الذين أقاموهم أمام الرسل (السبعة شمامسة) فصلُّوا ووضعوا عليهم الأيادي.**» (أع ٦:٦)
+ «**فصاموا حينئذ وصلوا ووضعوا عليهما الأيادي ثمَّ أطلقوهما.**» (أع ١٣:٣)

٢ ـ والقديس بولس رأى بقياس خاص أن يمتد بالتقليد الرمزي للمعمودية ويعمِّقه. ففي (أف ٥:٢٦) هناك امتداد ونمو للصورة الأصلية لحمَّام الغسيل، لأن من خلال غسيل الماء غَسَل المسيح الكنيسة من كل أدناسها وجعلها مجيدة. فإذا قارنا معمودية يوحنا التي فيها اغتسل قوم اليهود استعداداً لعصر المسيَّا، فعند يوحنا المعمدان نجد معمودية استعداد للمسيَّا، أمَّا مع ق. بولس فغسيل المعمودية "بدم المسيح". والقديس بولس يرى بالروح الكنيسة والمسيح كعلاقة عروس بعريسها (كآدم وحواء بالروح). وفي (أف ٥:٢٦) يكشف ق. بولس عن الصورة الممتعة للكنيسة حيث المعمودية عنده ليست هلباً يخلِّص فرداً، ولكن تكوين جماعة الخلاص على صورة فاخرة يشابهها فلك نوح وفيه الناجين من الهلاك. والقديس بولس في (تي ٣:٥): «**لا بأعمال في برٍّ عملناها نحن بل بمقتضى رحمته خلَّصنا**

بغسل الميلاد الثاني» أمسك بصورة عملية ـ للميلاد الثاني ـ هدفها في قوله "خلَّصنا".

٣ ـ والقديس بولس أيضاً أعطى للمعمودية معنى فريداً بتصويره تصويراً جديداً لطقس المعمودية، وشرح المعمودية بالتغطيس الذي كان هو أصل وقوة واعتماد المعمودية، فأعطاه تصويراً حيًّا جديداً «**مدفونين مع المسيح**» حتى يعطي الفرصة «**للقيامة معه**» لا يمكن أن نعبر عليها ببساطة، فهي أصبحت قوة المعمودية التي لا نجد لها أي أثر قبل ق. بولس في الكنيسة. حيث وضع العلاقة اللاهوتية الأُولى والأساسية للمعمودية بالنسبة لموت المسيح وقيامته. حيث "**الدفن مع المسيح**" يُعلن صحة عقيدته ورؤيته للعماد بالتغطيس التي قام عليها طقس العماد منذ البدء.

وبحسب (غل ٣:٢٧) أصبح المعمَّد من خلال غطسه في ماء المعمودية "يلبس المسيح". هذا تصوير جديد وبديع يشهد لقدرة ق. بولس الإلهامية لتصوير أفكاره لتلبس الحقائق، واصطلاح ختانة المسيح في (كو ٢:١١) يؤكِّد قصد ق. بولس الاستعاري متخذاً من قطع الغلفة النجسة عند اليهود مثالاً يستخدمه ق. بولس ليجعلها «خلع جسد الخطية» بجملته، ولكي يحكم وضعها مع الدفن في المعمودية مع الموت الجديد يقول إنها «بغير يد» فدخل الاصطلاح في المفهوم الروحي اللاهوتي، هذا لم يكن لغرام ق. بولس بالاستعارة ولكن لأن عينه كانت على قوة الإقناع! **أمَّا اعتماده الأساسي فكان على الاستعلان.**

٤ ـ القديس بولس كان متحفِّظاً تجاه لغة الليتورجيا وخاصة الرموز، بل كان يحدّ نفسه بالطقس الرئيسي. فإذا قارنا ق. بولس بالآباء المتخصِّصين في الليتورجيا ومواعظهم للمعمَّدين الجدد مثل ق. كيرلس أسقف أُورشليم وأمبروسيوس أسقف ميلان، لظهر تحفُّظ ق. بولس واضحاً في كل ما يختص بالليتورجيا ومصطلاحاتها وأشكالها، فالقديس بولس لغته في الليتورجيا غزيرة وتصويرية في توضيح كل الأفكار اللاهوتية ولكن بتحفُّظ تقليدي عقائدي كبير من جهة رموز الليتورجيا.

٥ ـ والقديس بولس كان يتجه بقوة نحو مفهوماته اللاهوتية أكثر من طقوس الليتورجيا، واهتمامه بالمعمودية ليس في التمادي بأوصاف علاماتها ولكن اهتمامه اقتصر على فعل الخلاص من داخل المعمودية، ويتمادى في ذلك لاقتناص معاني جديدة في هذا الخلاص. فهو لم يتمادى في استجلاء غوامض عمل الماء في المعمودية مثل ترتليان، فكون المعمَّد

يغتسل لِيُطهَّر في المسيح ويتقدَّس أو يموت ويقوم مع المسيح فهذا هو ما يشكِّل بؤرة اهتمام ق. بولس في المفهوم المسيحي. وأعظم اهتمامه بالمعمودية هو الخلاص، فالتزم بالموت والقيامة مع المسيح وسكب الروح القدس الذي يثبت ويؤكِّد المعمودية، باعتبارها الأصول الأُولى للمسيحية:

+ **«أما من جهتي فحاشا لي أن أفتخر إلاَّ بصليب ربنا يسوع المسيح الذي به قد صلب العالم لي وأنا للعالم.»** (غل ٦:١٤)

+ **«لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المُعطَى لنا.»** (رو ٥:٥)

وباختصار فإن الكلام عن الروح ووجوده فهو عند ق. بولس مرتبط بقيامة المسيح:

+ **«وتعيَّن ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات.»** (رو ١:٤)
+ **«وبالإجماع عظيم هو سر التقوى: الله ظهر في الجسد، تبرَّر في الروح، تراءى لملائكة، كُرِزَ به بين الأُمم، أومِنَ به في العالم، رُفِع في المجد.»** (١تي ٣:١٦)

وهو يأتي بنا من خلال الروح في وجوده:

+ **«آدم الأخير روحاً محيياً.»** (١كو ١٥:٤٥)
+ **«وأمَّا أنتم فلستم في الجسد بل في الروح إن كان روح الله ساكناً فيكم.»** (رو ٨:٩)

على أن الروح الساكن فينا هو روح المسيح! لذلك فالشركة مع المسيح وامتلاك الروح هما مترادفان بالأساس:

+ **«وأمَّا مَنْ التصق بالرب فهو روح واحد.»** (١كو ٦:١٧)

وأكبر دليل على أن ق. بولس ليس ليتورجياً قوله بصراحة: «لأن المسيح لم يرسلني لأُعمِّد بل لأُبشِّر» (١كو ١:١٧)، **«أشكر الله أني لم أُعمِّد أحداً منكم إلاَّ كريسبس وغايس»** (١كو ١:١٤). هذا هو الاتجاه السائد في تعليمه حتى ولو تكلَّم عن المعمودية فهي فعل خاص! مستيكي ولكنه يدخل في الطقس وأدائه ليستعلنه لاهوتياً.

فعند ق. بولس، الفكر القاطع لا يأتي على الطقس أو الليتورجيا ولا أصول الرمز وأسراره، ولكن الذي يستهويه للغاية هي الأفكار العميقة وعلاقة المسيح بعقيدة الخلاص. لذلك نجده يقف بقوة وثبات في تقليد الكنيسة الأُولى.

١٤ ـ الموت مع المسيح والقيامة مع المسيح من داخل ما عمله المسيح:

حقيقة "**الموت مع المسيح**" و"**القيامة مع المسيح**" تحقِّق الإدراك الأساسي أن المعمَّد يحصل شخصياً وعملياً على الخلاص الذي اكتسبه له المسيح. والخلاص يحصل عليه بالشركة مع المسيح، وفي قلب هذه الشركة مع المسيح تقع المعمودية بإيمانها. هذا المستوى ندركه من رسالة رومية الأصحاح (٦) لأنها تعطي المفتاح لمعرفة إعلانات ق. بولس عن المعمودية، حيث حركة الفكر عنده تأتي إلى (٦: ١١): «**كذلك أنتم أيضاً احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية ولكن أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا**». بمعنى أننا أحياء لله في المسيح يسوع[٨]. والكلام بعده يقود إلى كيفية أن يكون لنا شركة مع المسيح وهو موضوع إلهامه، إذ تصف كيف تكون هذه الحياة في المسيح يسوع هي الهدف. فالمعمودية هي الانفتاح الحقيقي للشركة مع المسيح، وفي الحال يصف ق. بولس أثر المعمودية التي هي موضوع اهتمامه وبالذات الحياة الجديدة في المسيح. وق. بولس لا يحسب المعمودية عملاً خارجياً للدخول في شركة المسيح، ولكن ينظر إليها من الداخل باعتبارها تحوي الذي حصل للمسيح ذاته. فهي ليست فقط النتيجة التي تخص المسيح: "**الوجود مع المسيح**"، بل إنها ـ أي المعمودية ـ هي ممارسة تحمل معنى ما حدث "**في المسيح**".

والقديس بولس غير مهتم أن يكشف ما في المعمودية من أعمال طقسية التي فيها نحصل على اتحاد بالمسيح، ولكنه بالأكثر يرغب في الامتداد بمفهوم الموت والحياة في المسيحية في هذا الموضوع. والموت مع المسيح الذي هو الصلب مع المسيح في المعمودية يطبع كل الوجود المسيحي كوجود ميت للخطية وقائم مع المسيح بآنٍ واحد. الذي يعني الحياة مع المسيح والذي سننال منتهى تتميمه في قيامة الأجساد.

والذي يحدث في المعمودية إنما يأتي بالمسيحي إلى علاقة وثيقة مع المسيح المصلوب والقائم = اتحاد. وهكذا يتشكَّل طريقه بحسب المسيح. ومن الموت والقيامة في المعمودية تنمو تلمذة وتوافق ووحدة على شبه المسيح الذي دخل إلى مجد الله بطريق الصليب. أمَّا أن نكون على شبه المسيح ومتحدين به **فهو مركز التقوى عند ق. بولس كهدف** نتابعه. بهذا يُفهم أن ق. بولس في أماكن كثيرة يصف حدث الخلاص في المعمودية باصطلاح "**لبس المسيح**" (غل ٣: ٢٧)، ويدعو المعمودية ذاتها أنها "**ختانة المسيح**" (كو ٢: ١١). فإن كان هذا أصبح واضحاً، فمن السهل أن نرى أن **الموت مع**

---

(٨) «في المسيح يسوع ربنا» بحسب الأصل اليوناني ἐν Χριστῷ Ἰησοῦ.

المسيح في المعمودية والقيامة مع المسيح في المعمودية هي ببساطة طريق ضمن طرق أخرى **تمثّل بداية شركتنا مع المسيح**، وهي في حقيقتها أهم هذه الطرق، وتعتبر لاهوتياً الطريق الأكثر خصوبة وقوة.

وبآن واحد هذا لا يجعلنا أن نقلّل من أهمية هذه الحقيقة اللاهوتية في ذاتها، وهي الموت والقيامة مع المسيح في المعمودية، ولكن نمتد بها لتأخذ كامل معناها الواقعي. ولكن ما هو "الموت مع المسيح" أو "الدفن مع المسيح" الذي يحدث للمعمَّد، وكيف نشرحه ونحن نرى الرب قد تألَّم حتى الدم ليبلغ الموت على الجلجثة هناك في الزمان السابق البعيد ومرَّة واحدة وليس لها تكرار؟ أمَّا من جهة المسيح فليس هناك صعوبة، لأن الرب الذي صعد وارتفع هو هو مسيح التاريخ، وإدراكنا أنه صار هو «الرب الروح» يسهِّل الانتقال من أن المسيح الرب الروح هو ذاته ما حقَّقه منذ زمان. ولكن بالنسبة للمعمَّد يكون السؤال كيف يأتي إلى حدث تمَّ وانتهى نهائياً على الجلجثة؟ الحل هو لأنه يدخل إلى **اتحاد روحي حقيقي مع الرب الروح الحي والموجود الآن الذي اعتمد باسمه**. وأيضاً بالنسبة لدخوله في شركة مع المسيح فإنها تحقَّق على نفس مستوى **"يموت مع المسيح"**.

هذا المسار الفكري مربوط بمسار آخر يبدأ من الرب المصلوب والقائم باعتباره آدم الجديد: فنحن في المسيح المحسوب أنه منشئ الجنس البشري الجديد، أُنقذنا من سيادة الخطية والموت وأُدخلنا مجال الحياة الأبدية. هذا العمل الجبَّار تمَّ بالموت والقيامة:

«**الذي أُسلم من أجل خطايانا وأُقيم لأجل تبريرنا**» (رو ٤:٢٥) فرداً فرداً، «**أحبني وأسلم نفسه من أجلي**». **والإنسان الفرد بالتالي يلزم أن يموت ويقوم معه** «**يحمل صليبه ويتبعني**»، **الأمر الذي يتم في المعمودية**، ثمَّ بالسلوك. والفكرة التي تصل بينهما واضحة: **أن الذي حدث** "للواحد" **الذي هو منشئ الجنس الجديد للبشر المولود فيه يلزم أن يحدث للكل**، أي الذين ارتبطوا به وأتوا فيه وقاموا فيه المؤمنين باسمه، **أي التابعين له. فعليهم أن يختبروا الذي اختبره المسيح وأيضاً معه، هذا يكون أولاً في المعمودية وثانياً في الحياة الأخلاقية وأخيراً "في الاسخاتولوجيا" أي التكميل في المستقبل.**

والذي يميِّز القديس بولس في لاهوته ليست الليتورجيات والطقوس بقدر الحيوية والعمق الفكري وبالأخص حقيقة الخلاص **كما يراها ويحياها** عن ممارسة وكرسالة. فالقديس بولس في حقيقته التي استعلنت لنا، له روح خلاّق للحقائق والمفهومات اللاهوتية. فهو صاحب التركيبات الروحية المتقنة والمبادئ اللاهوتية الرائدة وتراكيب العقيدة بالنسبة للكنيسة ولتسابيح الليتورجيا كما نسمعها في (١تي ٣:١٦): «**وبالإجماع عظيم هو سر التقوى: الله ظهر في الجسد، تبرَّر في الروح، تراءى لملائكة، كُرِزَ به بين الأُمم، أُومِنَ به في العالم، رُفع في المجد**».

والفكرة اللاهوتية التي قادت ق. بولس لأن يتكلَّم عن المعمودية في (رو ٦) بدأت بالتقابل بين آدم والمسيح في (رو ٥) التي منها نبعت فكرة أن المسيح ممثِّل البشرية الجديدة رأس الكنيسة. هذا الفكر يلزم توضيحه حتى نفهم قول ق. بولس الشخصي: **"مدفونين مع المسيح" و"نقوم مع المسيح" و"صُلبنا مع المسيح" و"نحيا مع المسيح"**. لأن الذي حدث للمسيح رأس جنسنا الجديد نموذج يحدث للمسيحيين: لأن الموت مع المسيح والقيامة مع المسيح أصبحت قاعدة الحياة المسيحية، وقد وضعها ق. بولس على أساس أن المسيح هو رأس الجنس البشري الجديد كآدم الأول بالنسبة للجنس البشري القديم. وكما أخطأ آدم فأدخل الخطية والموت على جميع ذريته، هكذا وبالمثل مات المسيح عن الجميع ليرفع خطية الجميع (رو ٥: ١٢–٢١) وبآن واحد، يقول: «**إن كان واحد قد مات لأجل الجميع فالجميع إذاً ماتوا**» (٢كو ٥:١٤). **هنا شركة بالتبعية في الموت وبالتالي في القيامة والحياة وأصلاً لرفع الخطية**. وهنا جاءت (رو ٦:٤): «**فدُفنّا معه بالمعمودية للموت، حتى كما أُقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضاً في جدة الحياة**». وإن كان هذا على مستوى المعمودية فهو سار أيضاً على الجميع في الأخلاق والأخرويات. لذلك لمَّا قالها «**في المعمودية**» قالها في الماضي [وأيضاً في: (كو ٢:١٢)]، ولكن وضعها في المضارع في (٢كو ٤:١٠):

+ «**حاملين في الجسد كل حين إماتة الرب يسوع لكي تُظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا**».

والصيغة الرائدة هي (رو ٦:٥):

+ «**لأنه إن كنّا قد صرنا متحدين معه بشبه موته نصير أيضاً بقيامته**».

ومثلها:

+ «**فإن كنّا قد متنا مع المسيح نؤمن أننا سنحيا أيضاً معه.**» (رو ٦:٨)
+ «**فإن كنتم قد قُمتم مع المسيح فاطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله ... لأنكم قد مُتّم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله.**» (كو ٣: ١و٣)

وبعدها مباشرة تأتي صيغة الأمر:

+ «**إذن لا تَملكنَّ الخطية في جسدكم المائت لكي تطيعوها في شهواته.**» (رو ٦:١٢)
+ «**فأميتوا أعضاءكم التي على الأرض: الزنى النجاسة الهوى الشهوة الرديَّة الطمع الذي هو عبادة الأوثان.**» (كو ٣:٥)

ثمَّ تأتي صيغة جزئياً في الحاضر: "نموت مع المسيح" وجزئياً في الاسخاتولوجي (المستقبل) "نقوم مع المسيح":

+ «**فإن كنا قد متنا مع المسيح نؤمن أننا سنحيا أيضاً معه.**» (رو ٦:٨)
+ «**فإن كنّا أولاداً فإننا ورثة أيضاً. ورثة الله ووارثون مع المسيح. إن كنّا نتألّم معه لكي نتمجّد أيضاً معه.**» (رو ٨:١٧)
+ «**لأعرفه، وقوّةَ قيامته، وشركة آلامه، متشبِّهاً بموته، لعلّي أبلغ إلى قيامة الأموات ... ولكني أسعى لعلّي أُدركُ الذي لأجله أدركني أيضاً المسيح يسوع.**» (في ٣: ١٠-١٢)
+ «**لأنكم قد متم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله. متى أُظهر المسيح حياتنا فحينئذ تُظهرون أنتم أيضاً معه في المجد.**» (كو ٣: ٣و٤)
+ «**لأنه إن كنا نؤمن أن يسوع مات وقام فكذلك الراقدون بيسوع سيحضرهم الله أيضاً معه.**» (١تس ٤:١٤)
+ «**الذي مات لأجلنا حتى إذا سهرنا أو نمنا نحيا جميعاً معه.**» (١تس ٥:١٠)
+ «**صادقة هي الكلمة أنه إن كنّا قد مُتنا معه فسنحيا أيضاً معه.**» (٢تي ٢:١١)

وهكذا فإن ق. بولس قادر أن يعطي لفكره أشكالاً مختلفة وذلك فيما يخص أمراً منظوراً قد حدث وهو أمر مطلوب، ولكن تبقى القاعدة التي ينطلق منها هي كما هي، وهي الحدث الذي عمله المسيح الذي يشمل الموت والدفن والقيامة والمجد (رو ٨:١٧) والجلوس عن يمين الآب (أف ٢:٦) وإلى المجد (٢تي ٢:١٢، رو ٥:١٧). ينظر إليها كفعل تمَّ سابقاً **وقد تعيَّن على كل الذين يتبعون مؤسِّس البشرية الجديدة أن يتمِّموه فيه!**

على أن الموت الذي ماته المسيح ماته من أجل الخطية وقوتها مرَّة واحدة. وهذه الحقيقة تصبح في الحال ذات اتصال مباشر وفعَّال للذين ماتوا مع المسيح في المعمودية، وهنا نعود بالراجع إلى المسيح.

الشبه – الشكل (μορφή):

«**لأعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه متشبِّهاً بموته. لعلّي أبلغ إلى قيامة الأموات**» (في ٣: ١٠و١١). هذه الآية مرتبطة بالموت والقيامة مع المسيح. فالقديس بولس يأمل أنه كلما تشبَّه أو نما في شبه حياته συμμορφιζόμενος مع موت المسيح يبلغ إلى قيامة الأموات. وبعدها يقول: «**الذي سيغيِّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده بحسب عمل استطاعته أن يُخضع لنفسه كل شيء.**» (في ٣:٢١)

ونفس الكلمة يستخدمها في (رو ٨:٢٩): «**لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعيَّنهم ليكونوا مشابهين**

صورة ابنه، ليكون هو بكراً بين إخوة كثيرين». «مشابهين صورة ابنه» يقصد صورة المجد للرب المقام.

وفي (٢كو ٣:١٨): «**ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآة نتغيَّر إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح**». هنا التغيير يكون إلى شكل المسيح بعد المعمودية لتكون مطابقتنا للمسيح **عملية مستيكية مستمرَّة**. فنحن نتغيَّر إلى تلك الصورة عينها التي للمسيح من مجد إلى مجد.

وهذه الآيات توضِّح مدى اهتمام ق. بولس لأن يقود المسيحيين بعمق أكثر في حقيقة المسيح. والذين يعيبون في تصوُّر ق. بولس أنه يقدِّم عملية وهمية، عليهم أن يضعوا في الميزان أن النظر هنا والتأمُّل والتأجُّج هو في شخص المسيح الذي لا يرد السائل أو المتشبِّه حبًّا به وفيه دون أن يعكس عليه نور حبّه وبهاء مجده. ألم يحدث هذا لموسى؟ وماذا كان لمعان وجه موسى؟ أليس هو انعكاس صورة خالقه عليه؟ التي تكشف لنا سر ما في قلب وفكر وباطن موسى من نحو الله؟

من الموت إلى القيامة:

والتتابع من الموت إلى الحياة:

(رو ٦: ٥و٨): **«لأنه إن كنَّا قد صرنا متحدين معه بشبه موته نصير أيضاً بقيامته»، «فإن كنا قد متنا مع المسيح نؤمن أننا سنحيا أيضاً معه».**

(٢تي ٢:١١): **«صادقة هي الكلمة أنه إن كنَّا قد متنا معه فسنحيا أيضاً معه».**

(رو ٦:٤): **«فدُفنَّا معه بالمعمودية للموت حتى كما أُقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضاً في جدَّة الحياة».**

(٢كو ٤:١٠و١١): **«حاملين في الجسد كل حين إماتة الرب يسوع لكي تُظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا»، «لأننا نحن الأحياء نُسلَّم دائماً للموت من أجل يسوع لكي تُظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا المائت».**

(غل ٢:١٩): **«لأني مت بالناموس للناموس لأحيا لله».**

(٢كو ١٣:٤): «لأنه وإن كان قد صُلب مِن ضعف لكنه حيّ بقوة الله».

ولكن الفكر يحمل تعابير متعدِّدة:

(كو ٢:١٢): «مدفونين معه في المعمودية التي فيها أُقمتم أيضاً معه بإيمان عمل الله الذي أقامه من الأموات».

(كو ٢:٢٠): «إذاً إن كنتم قد مُتّم مع المسيح عن أركان العالم فلماذا كأنكم عائشون في العالم ...».

(كو ٣:٤): «متى أُظهر المسيح حياتنا فحينئذ تُظهرون أنتم أيضاً معه في المجد».

(أف ٢: ١و٥-٧): «وأنتم إذ كنتم أمواتاً بالذنوب والخطايا ... ونحن أموات بالخطايا أحيانا مع المسيح ... وأقامنا معه وأجلسنا معه في السماويات في المسيح يسوع ليُظهر في الدهور الآتية غنى نعمته ...».

أو يعطي فكراً عميقاً مستيكياً:

(غل ٢: ١٩و٢٠): «لأني مُتُّ بالناموس للناموس لأحيا لله. مع المسيح صُلِبتُ، فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فيَّ. فما أحياهُ الآن في الجسد، فإنما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله، الذي أحبني وأسلَمَ نفسه لأجلي».

(١كو ١٥:٣١و٣٢): «أموت كل يوم ... إن كان الأموات لا يقومون فلنأكل ونشرب لأننا غداً نموت».

ويرى العالِم برات الألماني أن لاهوت بولس الرسول كله يتمركز حول الحقيقة التالية:
[المسيح الفادي يوحِّد كل مؤمن بموته وبحياته](٩).

(9) F. Prat, La Thèologie de S. Paul, II, p. 23, cited by R. Schnackenburg, *op. cit.*, p. 159.

١٥ ـ الموت مع المسيح والقيامة مع المسيح كاتحاد في "الرب الروح":

هي قدرة القديس بولس أن يرى معاً المسيح كشخص تاريخي وروح حاضرة، كمسيًّا الذي مات وقام وهو الرب الروح الحيّ إلى الأبد. هذا على قاعدة أنه يعرف أن الرب مرَّ وعبر إلى حالة الوجود الروحي بعد قيامته كحقيقة يؤكِّدها تجسُّده وقيامته. ولأن الرب هو الروح: **«وأمَّا الرب فهو الروح»** (٢كو ١٧:٣) **فهو قادر دون أن يفقد طبيعته الثابتة والتاريخية كشخص وإله أن يدخل في شركة وثيقة مع أحد المؤمنين به، وينمو معه إلى اتحاد يفوق التصوُّر وثيق للغاية دون أن يناقض شيئاً من طبيعته الخاصة ودون أن يفقد المؤمن طبيعته الشخصية. وإلى هذا الحد يلزم للمؤمن أن يحصل على نصيبه في الوجود الروحي أولاً حتى يتسنّى للرب وله أن يتّحدا.**

لذلك فحقيقة الروح "**كموضع لتقابل المسيح معنا**" وللحصول على "**خلاصنا الشخصي**" **هو من أهم الأساسيات في المعمودية.**

لذلك يلزم أن يمتلئ الشخص بالروح في المعمودية، لأن حدوث الخلاص في المعمودية يكون باتحاد المعمَّد بالمسيح، **ويكون هذا الاتحاد موصوفاً بأنه ثابت ودائم بشركة داخلية:**

+ **«مع المسيح صُلِبتُ (مُتُّ)، فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فيَّ. فما أحياهُ الآن في الجسد، فإنما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله، الذي أحبني وأسلَمَ نفسه لأجلي.»** (غل ٢٠:٢)
فالمعمَّد لمَّا مات حقًّا عاش المسيح فيه لمَّا سكب فيه حياته.

ومعروف لنا أن ق. بولس **يربط بين إعطاء الروح مع فعل الخلاص في المعمودية** كما في رومية (٦) وأن المعمودية تهب الروح القدس: **«لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسدٍ واحد ... وجميعنا سقينا روحاً واحداً»** (١كو ١٣:١٢). **«إن عطش أحد فليأتِ ويشرب»** هنا سقي الروح هو سقي المسيح، فالمسيح هو ماء الحياة وروح الحياة.

ولكن السؤال: لماذا لا نجد الروح متداخلاً في قوله **«دُفنَّا معه»**؟

أولاً حينما نعتبر (١كو ١٣:١٢) يلزم أن نلاحظ أن ذكر الروح في هذا النص له معنى خاص لا نجده في رومية (٦)، وأيضاً وجود الروح في عملية المعمودية يمكن أن نلحظها بطريقة أخرى وبالذات في ذكر الحياة، وكلمة "يحيا" المتكرِّرة في رومية (٦). فكل ثقل ما جاء في رومية (٦) واقع على مسيرة الحياة أخلاقياً، وهذا له صلة بالاتجاه العملي في رومية (٦) وبالأخص (٥:٦) **«لأنه إن كنّا قد صرنا متحدين معه بشبه موته نصير أيضاً بقيامته».**

التحوُّل هنا من الموت إلى الحياة، حياة القيامة، "**الروح**" هنا عامل أساسي. وكلمة «**الحياة**» المتكرِّرة في رومية (٦) ليست حياة أرضية بل حياة بالروح التي سوف تصل بعد ذلك إلى ... في المجد:

+ «**لأنكم قد مُتُّم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله. متى أُظهر المسيح حياتنا حينئذ تُظهرون أنتم أيضاً معه في المجد.**» (كو ٣: ٣و٤)

مجيء الحياة هنا بعد الموت يعني تدخُّل الروح لحياة قيامة أبدية.

هذا معناه **أن حصولنا على الروح للحياة هو أمر مخفي غير ظاهر لحياة المسيح بعد القيامة**، لا يراه إلاَّ أخصَّاؤه، **فهي حياة مستترة وموجودة في الله**. هكذا نصير معه بالقيامة في المعمودية.

وفي: (رو ٨: ١٢–١٤): «**فإذاً أيُّها الإخوة نحن مديونون ليس للجسد لنعيش حسب الجسد. لأنه إن عشتم حسب الجسد فستموتون، ولكن إن كنتم بالروح تميتون أعمال الجسد فستحيون. لأن كل الذين ينقادون بروح الله، فأولئك هم أبناء الله**».

دخول الروح هنا كقائد للحياة يعني سيادته، يعني أننا أحياء بالروح، يعني أننا أولاد الله.

هنا الصلة بين الحياة والروح حقيقة ثابتة. فالمسيحيون حقًّا يحيون دائماً لله وفي المسيح بالروح وبكل الحس، ذلك إن كانوا حقًّا بالروح يميتون أعمال الجسد أول بأول (١٣). لأنه إن كنا نعيش حسب الجسد فهذه ليست حياة، لأن الحياة حسب الجسد تعبر إلى الفناء وتنتهي بالموت. ولكن الروح الذي يعيش في المؤمن المسيحي (١١) يقوده سرًّا وعملياً (١٤) ويحثّه أن يسير بالروح، ليحيى بالروح وإلى الأبد.

(غل ٥: ١٦–١٨): «**وإنما أقول: اسلكوا بالروح فلا تكمِّلوا شهوةَ الجسدِ. لأن الجسد يشتهي ضدَّ الروح والروح ضد الجسد، وهذان يقاومُ أحدهُما الآخرَ، حتى تفعلونَ ما لا تُريدونَ. ولكن إذا انقدتُم بالروحِ فلستم تحتَ الناموس**».

وهذا توضيح ما بعده توضيح لعمل الروح في الإنسان المسيحي المعمَّد.

وعند القديس بولس أيضاً: «**السلوك بالروح في جدَّة الحياة**» (رو ٦: ٤) و«**السلوك حسب الروح**» (غل ٦: ١٦) هي مترادفات. والاتجاه الأخلاقي مبني على حصول المسيحي على حياة حسب الروح. ولكن في (رو ٦) يتكلَّم ق. بولس عن الحياة بدل الروح لأن ذلك مطلوب بشدَّة

لأنه مناسب للقيامة، في حين في (غل ٥) هو مشغول بمقاومة السير بحسب الجسد فأعطى المقابل "الحياة حسب الروح".

ولأن في رومية (٦) تظهر الحياة كشرط أو عنصر للخلاص، فالحياة يأتي ذكرها بالضرورة للتعبير عن قوة الروح وذكر الحياة في (٦:١١): «**كذلك أنتم أيضاً احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية ولكن أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا**»، فإن أراد أن يضع كلمة الروح هنا تكون كما جاءت في (رو ٨:٩): «**وأمّا أنتم فلستم في الجسد بل في الروح إن كان روح الله ساكناً فيكم**».

والآن نتدارس السؤال بخصوص العمل الذي يعمله الروح في عملية الموت مع المسيح والحياة مع المسيح:

فلأن الروح والحياة يمتّان إلى بعضهما بوفاق، يلزم أن نستخلص من ذلك أن الشخص المعمَّد **يحصل أولاً على الروح عندما يقبل الحياة من المسيح، بأن يقبل القيامة مع المسيح**. ومن ناحية أخرى فإن عملية الموت مع المسيح على مستوى تدخُّل الروح، وهو روح الرب الذي يستقبل الإنسان المعمَّد بعد أن يجوز به الموت، لأنه لولا وجود الروح والإنسان يعبر الموت ما قام منه.

كذلك: في (كو ٢:١٢): «**مدفونين معه** συνταφέντες αὐτῷ **في المعمودية التي (فيه) أُقمتم أيضاً معه** συνηγέρθητε».

لأن الروح الذي أقام المسيح أقامنا فيه ومعه.

(أف ٢:٦): «**وأقامنا معه** συνήγειρεν **وأجلسنا معه** συνεκάθισεν **في السماويات في المسيح يسوع**».

لاحظ هنا فيه أولاً ومعه ثانياً.

هنا σὺν χριστῷ تصف عمل المعمودية السرائري للخلاص.

أهمية "في المسيح":

ἐν χριστῷ تفيد الشركة الدائمة مع المسيح. «**أنتم فيَّ وأنا فيكم**».

ولكن في (كو ٢:١٢) مكتوب: «**مدفونين معه في المعمودية التي فيها أُقمتم أيضاً معه ...**» الترجمة هنا خطأ وصحتها: **فيه** ἐν ᾧ أي: «**في المسيح**»

وعبارة «**فيه أُقمتم أيضاً معه**»: تلعب دوراً قائداً في كل الأصحاح، فكلمة: "فيه" تعني: كل ملء اللاهوت الذي يسكن فيه: «**فإنه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً وأنتم مملوؤون فيه ...**» (كو ٢: ٩و١٠)، «**فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس.**» (يو ١:٤)

فالمسيحيون حصلوا على كل الملء من ملئه الذي فيه (١٠)، وفيه قبلوا الختان (١١)، وفيه قاموا من الأموات (١٢). والمسيح هو محيط أو دائرة أو مستوى فيه أمكن حدوث كل هذا حتى «**دُفنتم معه**» (١٢) **وأُقمنا أيضاً معه.**

ويبدو أنه ينبغي أن نكون أولاً "**فيه**" لنكون بعد ذلك "**معه**".

+ «**فكما قبلتم المسيح يسوع الرب اسلكوا "فيه"، متأصِّلين ومبنيين "فيه"، وموطَّدين في الإيمان كما عُلِّمتم متفاضلين فيه بالشكر.**» (كو ٢: ٦و٧)

كما قالها المسيح نفسه:

+ «**اثبتوا فيَّ وأنا فيكم.**» (يو ١٥:٤)

+ «**الذي لنا فيه الفداء بدمه.**» (كو ١:١٤)

«الروح»:

كل عملية الموت مع المسيح والقيامة مع المسيح إنما تتم في دائرة الروح. فالمسيح دُفن وقام مع المعمَّدين ويعيش حقًّا في المجد الأسنى "**كالرب الروح**":

+ «**لأن الموت الذي ماته قد ماته للخطية مرّة واحدة والحياة التي يحياها فيحياها لله.**» (رو ٦:١٠)

كذلك فإن المسيح الروح يقبل المعمَّدين في ذاته ويعطي من روحه لهم. لذلك فعملية الموت مع المسيح، لأنها تأخذ حالة القيامة مع المسيح من قِبَل الله، يدخل المعمَّد إلى علاقة مع «الرب الروح»، فإن العملية كلها توصف بأنها عملية روحية pneumatic «مولوداً من الروح». ولكن في المعنى الضيق فإن نتيجة هذه العملية التي تتم في المعمودية هي حصول المعمَّد على الروح أو أن الروح هو نفسه يملك المعمَّد «هلمَّ تفضل وحل فينا». على أنه لا يُفهم من ذلك أن الروح يُعطى أولاً ثمَّ يحدث الموت مع المسيح ـ لأن العملية هي عطية الخلاص فهي موازية لعطية الروح. ولكن في كل منهما يُنظر إلى المعمودية من وجهة نظر معيَّنة مع أنها واحدة، **لأن الموت مع المسيح ممكن فقط على أساس أن المسيح نفسه «روح محيي»** (١كو ١٥:٤٥): «**هكذا مكتوب أيضاً صار آدم**

الإنسان الأول نفساً حيَّة وآدم الأخير روحاً محيياً». وهكذا يوحِّد المعمَّد بنفسه إذ **يعطيه حياته.**

والموت مع المسيح وعطاء الروح يلزم أن يُدرك كفعل واحد. وق. بولس يعتبر أن عمليـه الموت والقيامة عملية واحدة ككل غير قابل للانقسام، لأن الحياة حسب الجسد ليست حياة كما يراها ق. بولس. فالحياة هي حياة من ملء الحياة الأبدية.

وأيضاً نجد أن الاتحاد بجسد المسيح إنما يتم بواسطة الروح: «**لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد ... وجميعنا سقينا روحاً واحدا**» (١كو ١٢ :١٣). ولكن من جهة أخرى يعتبر الروح أنه عطية:

+ «**بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس الذي سكبه بغنى علينا بيسوع المسيح مخلِّصنا.**» (تي ٣: ٥و٦)
+ «**والرجاء لا يخزى لأن محبة ا لله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المُعطَى لنا.**» (رو ٥:٥)

أو كعربون:

+ «**بروح الموعد القدوس الذي هو عربون ميراثنا لفداء المقتنى لمدح مجده.**» (أف ١ :١٣و١٤)
+ «**الذي ختمنا أيضاً وأعطى عربون الروح في قلوبنا.**» (٢ كو ١ :٢٢)
+ «**ولكن الذي صنعنا لهذا عينه هو الله الذي أعطانا أيضاً عربون الروح.**» (٢كو ٥:٥)

ولكي ندرك العلاقة بين الموت مع المسيح وعطية الروح يلزم أولاً أن ندرك العلاقة بين القيامة وامتلاك الروح. فإن الرب المرتفع نفسه هو الرب الروح، أي كيان روحي، ذلك بعد القيامة:

+ «**وتعيَّن ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات.**» (رو ١ :٤)
+ «**وبالإجماع عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد، تبرَّر في الروح، تراءى لملائكة، كُرز به بين الأُمم، أومن به في العالم، رُفع في المجد.**» (١تي ٣ :١٦)

وهو في هذا الحال (رُفع في مجد) يعطي الروح إلى الآخرين مع القيامة. وإنه من الأهمية أن ندرك أن كل الذين يؤمنون بالمسيح يبلغون أيضاً القيامة ذلك بأن نضعهم في حيازة الروح! روح القيامة.

هذه هي الحياة في المسيح «**أمَّا أنتم فلستم في الجسد بل في الروح إن كان روح الله ساكناً فيكم**» (رو ٨ :٩)، ولكن ليس في حال المجد بعد الذي يملكه الرب ـ لأن المسيحيين في الحاضر لا يزالون في الوجود الأرضي: «**فما أحياه الآن في الجسد فإنما أحياه "في الإيمان". إيمان (قيامة) ابن ا لله الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي**» (غل ٢ :٢٠)، ولكن من خلال الروح الساكن فينا سنبلغ

إلى قيامة الأجساد في النهاية (رو ٨:١١) ونُعطى أن نشارك المسيح الممجَّد.

+ **«لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعيَّنهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه. ليكون هو بكراً بين إخوة كثيرين.»** (رو ٨:٢٩)

+ **«وكما لبسنا صورة الترابي سنلبس أيضاً صورة السماوي.»** (١كو ١٥:٤٩)

+ **«الذي سيغيِّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده بحسب عمل استطاعته أن يُخضع لنفسه كل شيء.»** (في ٣:٢١)

١٦ – الموت مع المسيح في المعمودية هو عمل الله للإنسان:

إنه في غاية الأهمية أن ندرك أن في الموت مع المسيح والقيامة مع المسيح، العمليات التي تجرى في المعمودية، يكون الله هو العامل فيها جميعاً:

(أ) الموت مع المسيح في صيغة المبني للمجهول. حيث الفاعل هو الله:

(رو ٦:٤):	**«دُفنا معه»**	συνετάφημεν
(رو ٦:٥):	**«متحدين معه بشبه موته»**	σύμφυτοι γεγόναμεν
(كو ٢:١٢ أ):	**«مدفونين معه»**	συνταφέντες
(كو ٢:١٢ ب):	**«أُقمتم معه»**	συνηγέρθητε
(كو ٣:١):	**«قُمتم مع المسيح»**	συνηγέρθητε

وأيضاً بدون معمودية:

(غل ٢:٢٠):	**«صُلبت مع»**	.συνεσταύρωμαι
(غل ٦:١٤):	**«صُلِب»**	.έσταύρωται
(في ٣:١٠):	**«متشبِّهاً بموته»**	.συμμορφιζόμενος

(ب) الله فاعل بصورة ظاهرية رسمية (بفعل مبني للمعلوم):

(أف ٢:٥):	**«أحيانا مع المسيح»**	συνεζωοποίησεν
(أف ٢:٦):	**«وأقامنا معه»**	συνήγειρεν
	«وأجلسنا معه»	συνεκάθισεν
(كو ٢:١٣):	**«أحياكم معه»**	συνεζωοποίησεν

اصطلاحات محايدة العامل فيها جميعاً هو الله:

(رو ٦:٨): «متنا مع المسيح» ἀπεθάνομεν σὺν Χριστῷ
(رو ٦:١١): «أمواتاً عن الخطية» νεκροὺς μὲν τῇ ἁμαρτίᾳ
(كو ٢:٢٠): «متّم مع المسيح» ἀπεθάνετε σὺν Χριστῷ
(كو ٣:٣): «متّم» ἀπεθάνετε

نستخلص من هذا أن الموت في المعمودية وبقية الأفعال الأخرى: دُفن، صُلب «مع المسيح» تأتي كلها كعمل الله يقبلها الإنسان عليه أي تُعمل لنفسه، بمعنى أن الله هو الذي يُجري عليه فعل الموت!

ويمكن أن نأخذ خطوة إلى الخلف لنجد أن ذات الفعل أُجري مع المسيح في الموت على الصليب بمشيئة الآب. وفي رسائل القديس بولس يصف القيامة أنها فعل الآب. ففي رومية (٦:٤) «**حتى كما أُقيم المسيح من الأموات بمجد الآب ...**». فالقديس بولس يصف هنا قوة ومجد الآب التي استعلنت في قيامة المسيح. فهذا العمل القوي لله يستمر فعله علينا في عمل خلاصنا داخل المعمودية، حتى أن فعل المسيح وعمل المعمودية تشترك جميعاً داخل إطار عمل الآب. وفي (كو ٢:١٢) يقول صراحة: «**فيه أُقمتم أيضاً معه بإيمان عمل الله الذي أقامه من الأموات**»، وحتى قول: "**في المسيح**" لنصير على شكل المسيح تعود أيضاً لعمل الآب نفسه.

فهذا العمل الإعجازي والنعمة التي فيه يلزم أن يُفهم أنه عمل الله ولذلك لا يُفهم إلاَّ بالإيمان، والقصد من هذا الإيمان هو قبول عمل الله من أجل خلاصنا في المسيح. وفي قيامة المسيح أظهر الله قوته منظورة بأن جعل الميت يقوم ويحيا (رو ٤:١٧)، وجعل القيامة تملك وتسود وتنتشر من أجل حياتنا: «**بل من أجلنا نحن أيضاً الذين سيُحسب لنا الذين نؤمن بمَنْ أقام يسوع ربنا من الأموات**» (رو ٤:٢٤). ويوضِّح ق. بولس هذه الحقيقة بصورة كبيرة ودقيقة ومرتَّبة هكذا:

+ «**ما هي عظمةُ قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين، حسب عمل شدَّةِ قوَّته الذي عمله في المسيح، إذ أقامه من الأموات، وأجلسه عن يمينه في السماويَّات، فوق كل رياسةٍ وسلطانٍ وقوَّةٍ وسيادةٍ، وكل اسمٍ يُسمَّى ليس في هذا الدهر فقط بل في المستقبل أيضاً، وأخضعَ كل شيء تحت قدميه، وإيَّاه جعل رأساً فوق كل شيءٍ للكنيسةِ، التي هي جسده، ملءُ الذي يملأُ الكلَّ في الكلِّ.**» (أف ١: ١٩-٢٣)

هكذا كل ما عمله الله في المسيح يؤول إلينا:

+ «**الله الذي هو غنيٌّ في الرحمةِ، مِنْ أجلِ محبته الكثيرةِ التي أحبَّنا بها، ونحن أموات بالخطايا**

أحيانا مع المسيح – بالنعمة أنتم مخلّصون – وأقامنا معه، وأجلسنا معه في السماويّات في المسيح يسوع، ليُظهِرَ في الدهورِ الآتيةِ غنَى نعمته الفائقَ، باللطفِ علينا في المسيح يسوع. لأنكم بالنعمة مخلّصونَ، بالإيمانِ، وذلك ليس منكم. هو عطيةُ اللهِ.» (أف ٢: ٤–٨)

في هذه الآية الجامعة كشف بولس الرسول بوضوح وتأكيد عن أن الله هو العامل فيَّ:

«**أحيانا مع المسيح**» و«**أقامنا معه**» و«**أجلسنا معه**» في السماويات في المسيح يسوع. بحسب أفعال الخلاص التي أكملها المسيح في موته وقيامته وصعوده وجلوسه في السموات، التي هي الأفعال الأُولى الأساسية التي أخذتها الكنيسة لتعطيها لأولادها في المعمودية، حيث الله هو العامل في الأول وفي الآخر.

١٧ – نظرة عامة على المعمودية في لاهوت بولس الرسول:

تأخذ المعمودية عند بولس الرسول مكانة ثابتة ودائمة، فلم تكن عنده موضوعاً مجهداً يحتاج إلى دراسة ومراجع ليجمع ويربط فكره بحقيقة المعمودية في وصفها المستيكي. كذلك لم يعتبرها ركناً مبهماً عليه أن يُدخلها في رسالة الخلاص التي أُرسل ليخدمها بين الأُمم. ولكن باستعراضنا لكل أفكاره ودراساته وجدناها جزءاً مكمِّلاً قائماً بذاته مهيَّأً ليدخل في بنائه اللاهوتي العام. ووجدنا أن المناداة الرسولية بحقيقة المسيح وعمله العظيم المسلَّم من الكنيسة يقوم أساسه على أن المسيح يسوع قد مات ودُفن وقام بحسب الكتب (١كو ١٥: ٣ إلخ).

أمَّا أساس هذه المناداة عند بولس الرسول بمفهومه لعمق المسيحية في وجود المسيح السابق كابن الله، وكيف أنه أخلى نفسه من شكل الألوهة ووضع ذاته وأطاع أباه حتى الموت موت الصليب، ولكن بسبب هذا النزول والاتضاع والطاعة حتى الموت رفَّعه الله وكالرب الحيّ جلس على عرشه على يمين الله أبيه (في ٢: ٤–١١). وسيأتي يوماً كالرب الممجَّد والغالب لقوَّات العدو، وأخيراً يسلّم السلطان إلى الآب (١كو ١٥: ٢٤–٢٨). وهنا يرى ق. بولس أن الخلاص مرتبط أساساً بالمسيح وأعماله، وبهذا النزول والصعود للابن الوحيد الأبدي والأزلي حدث الخلاص للإنسان من الهلاك الأبدي (رو ٨: ٣٢).

ولكن كان اهتمام ق. بولس الشديد متركِّزاً على الصليب ومعناه العميق في خطة الله الكلّي الحكمة، الهادف لتحرير الإنسان من الهلاك الأبدي الذي أحدثته الخطية والموت، ومن الناموس الذي سهَّل عملهما وأتقنه، ومن العميل الذي كان يعمل مع الخطية ولحسابهما "الجسد" الذي غرق في الخطية والموت.

ففي نور القيامة قام منتصراً بعد أن ذاق موت العار بعد أن كمَّل أسباب الخلاص على مستوى المسكونة والعالم كله! وهذا الخلاص يلزم أن يمارسه كل فرد في وجوده المحدود. فكما أن آدم أنشأ البشرية الجسدية، فالمسيح كرأس البشرية روحياً فدى البشرية، وكان في نظر الله واعتباره أن الذي حدث للمسيح لكل من يمثّلهم أي كل البشرية فكان المسيح بكر لكل الآتين بعده.

والآن السؤال من قلب عقيدة الخلاص: كيف يحصل الفرد على الخلاص الذي اكتسبه المسيح له؟ أو بالتالي كيف يخطو الإنسان ليدخل حالة الشركة مع المسيح الذي عاش ومات ليمثّله شخصياً حتى فيه يكسب الحياة الأبدية، ويشترك في مجد هذه الحياة التي وفّرها له المسيح بدمه؟

ويجيب ق. بولس الرسول على هذا السؤال: "بالإيمان" و"بالمعمودية". لأن الإيمان عند بولس الرسول بالنسبة ليسوع المسيح هو المصطلح الأعظم مقابل التبرير بالناموس الذي فشل. والقديس بولس أول ما فتح عينيه في المسيحية فتحها من داخل المعمودية، التي فيها وبها مات الناموس له وصار مسيحياً. أي أن المعمودية كانت مؤسَّسة رسولياً بتوجيه المسيح قبل أن يدخل هو المسيحية وينادي بها! فكان موقف ق. بولس اللاهوتي عن اقتناع إيماني واقعي مدروس بالنسبة للمعمودية أنها حقيقة ثابتة له أيضاً بشكلها ومضمونها.

من هنا بدأ العنصر اللاهوتي ينمو في فكر ق. بولس وضميره على أسس ثابتة ومتينة ليرفع المعمودية ويعرضها مع مناداته بالخلاص كقوة للخلاص، ذاقها في واقعها وقبل فيها الروح القدس، كما ذاق فيها الاتحاد بالمسيح. وكان أول ما دقَّ أذنه عن المعمودية هو قول حنانيا له: «لماذا تتوانى قُم واعتمد واغسل خطاياك» لتمتلئ من الروح القدس. فغسل الخطايا هو أول عمل للمعمودية (١كو ٦:١١)، ولكن كان هذا هو الرمز الجاري في الكنيسة الأُولى كما سمعه من حنانيا وعاشه هو نفسه.

بعدها عمَّق بولس الرسول من هذا الفكر لاهوتياً حيث وجَّهه للكنيسة كلها لكي تأخذ غسيلها من الرب (أف ٥:٢٦)، وفي (تي ٣:٥) يدعوها ق. بولس: «**غسل الميلاد الثاني**». وهكذا ظلَّ ق. بولس أميناً على وضع المعمودية في المفهوم اللاهوتي والواقع العملي للمسيح الروح. وقد امتدَّ ق. بولس في لاهوت المعمودية ليضعها كوسيلة للاتحاد بالمسيح. وفي تأكيد أن تكون المعمودية باسم المسيح (١كو ١:١٣) فهو يتمسَّك بتقليد الكنيسة السابق عليه (أع ١٩:٥). وأعطى ق. بولس تعبيره المميَّز لقبول المعمَّد في شعب المسيح بقوله إن المعمودية «**ختانة في المسيح**» (كو ٢:١١)، ولكن لا يقصد فقط التبعية الخارجية للمسيحية ولكن بالاتحاد الشخصي مع المسيح الذي

يوجِّه كل كيانه ويؤثِّر فيه، وأكملها بقوله إن بالمعمودية "**نلبس المسيح**" (غل ٣:٢٧).

والقديس بولس يبلغ قمة لاهوت المعمودية المسيحية حينما وضع اصطلاح "**يموت مع المسيح**" و"**يقوم مع المسيح**" (رو ٦: ١-١١)، (كو ٣:١). ففي المعمودية يدخل المؤمن بالمسيح في عمل المسيح دخولاً ذاتياً فيرافق الرب في موته حتى قيامته مبتدأ بأن "يُدفن معه"، ويجعل القيامة مع المسيح لحياة جديدة إلهية، وبالتالي مسيرة حياة لله. وعمق هذا الفكر واقع في كونه "مع المسيح" الذي كان قد صُلب من أجلنا وقام أيضاً. فهذه ليست مسألة مُماثلة أو أن يصير مثله ولكن بالأكثر والأقوى اتحاد بصليب المسيح وبقيامته حتى إلى أن كل ما عبره المسيح من أجل خلاصنا يحدث للمعمَّد وبذلك يجني ثمرة موت المسيح.

هذه الحقائق لا يشرحها ق. بولس من خلال فكر وقول مستيكي تصوُّفي، ولكنها تقوم على أساس ما أتمَّه رأس جنسنا الجديد في نفسه وهو بحال اتصال واتحاد بنا، وعمله ممثلاً لنا ونائباً عنا ليهبه بالنهاية بكل نتائجه لكل مَنْ يؤمن به، ليشاركوه في كل شيء حتى النهاية. فالمعمودية هي المكان حيث يتحد المؤمنون بالمسيح، الذين آمنوا برأس جنسنا الجديد لينالوا الجِدَّة فيه، بأن يموتوا معه بعمل نعمته الفائق! وبآن واحد يكون المعمَّد قد انضم انضمام الاتحاد في الجماعة الذين هم للمسيح أي الكنيسة. والكنيسة عند ق. بولس هي جسد المسيح تشكَّلت وبُنيت بالروح القدس ليتحد بها الأعضاء الجدد في المعمودية (١كو ١٢: ١٣و٢٧).

هذه النظرة الكنسية هي ذات النظرة اللاهوتية المحصورة في المعمودية والموقوفة عليها كجزء من خلاصها اللاهوتي، كما توضِّح أهمية المعمودية وصلتها بالإيمان. فالإيمان القلبي الداخلي، والاعتراف الخارجي، والاشتراك الشخصي مع المسيح، والاتحاد في جسد المسيح، هذه كلها تتبع بعضها بلا انفصال. والوجود الجديد الذي يحوزه المعمَّد المؤمن بالمسيح هو حياة في الكنيسة ككل مع الجماعة الجديدة الذي لا يوجد فيها أدنى تمايز في الجنس أو اللون أو المجتمع أو أي مميزات أخرى (غل ٣:٢٨، ١كو ١٢:١٣، كو ٣:١١).

وبناءً على ذلك يكون بولس الرسول قد اعتبر المعمودية كفعل خلاص داخل إطار فعل المسيح الخلاصي، وأنها مرتكزة في واقعية المسيح لاهوتياً. وقد أعطى المعمودية أعمق وأخص التعبيرات اللاهوتية، وهي الموت والقيامة مع المسيح. كما أن المعمودية قادت فكر ق. بولس ليطرق مسالك الأخلاق والنسك وضبط الفكر والأعضاء والجسد والحواس لحساب الحياة الحاضرة والأخرى،

وذلك اعتماداً على النعمة وعمل الله القوي، عابرين الحياة بالصبر والاحتمال والرجاء والشكر والصلاة والتسبيح، وكأن الإنسان لم يخرج من معموديته بل باقٍ فيها وينمو ممسكاً بها ناظراً إلى فوق وممتداً بالرجاء. يعيش موته مع المسيح ويحيا رجاءه في قيامته - عالماً أن روح المسيح الذي اعتمد له وسكن فيه يقوده. فالمنقادون بروح الله هؤلاء هم أبناء الله لأنه لا يمكن للمعمَّد أن ينسى أنه قَبِلَ الخلاص من المسيح ليعيش له.

الفصل السادس

جزء الهندسة الأثرية

للمعموديات في الكنيسة الأولى

أولاً: مبنى المعمودية

ثانياً: جرن المعمودية

ثالثاً: القاعات أو الحجرات ذات الاتصال بالمعمودية

رابعاً: الزخرفة والتزيين

الفصل السادس

الهندسة الأثرية للمعموديات في الكنيسة الأُولى

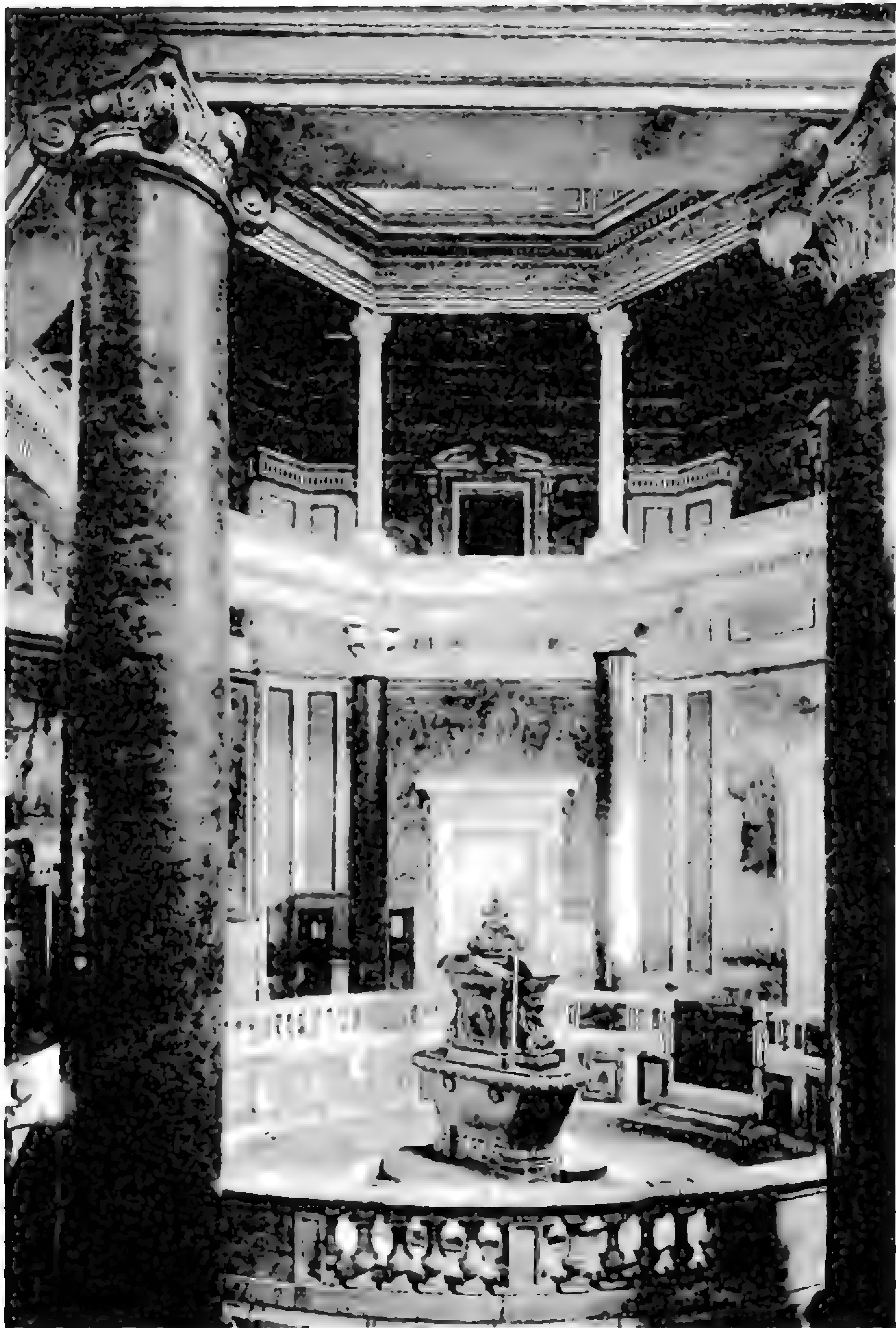
رد الفعل الفوري إزاء الذين سمعوا الكرازة بإنجيل يسوع المسيح هو طرح هذا السؤال: «ماذا نصنع أيها الرجال الإخوة؟ ... فقال لهم بطرس: توبوا و ليعتمد كل واحد منكم» (أع ٢:٣٧-٣٨). فمنذ بدء الكنيسة احتلّت المعمودية المكانة العظمى، فكانت أمراً مستقراً في خلفية الحياة المسيحية، ذات زخم وافر المعاني ألبسها رداءً ميَّزها عن كل التطهيرات والغسلات التي تفرضها الأديان والمذاهب الأخرى. بواسطتها كان الدخول إلى شعب إسرائيل الجديد، إسرائيل الله؛ وهي الميلاد الثاني من الماء والروح فيتم التبنّي في بيت الله؛ وهي أيضاً الاستنارة وتدشين الخليقة الجديدة بالموت والقيامة مع المسيح فتغفر الخطايا وتنشأ الشركة مع الروح القدس.

وقد بدأت ملامح المعموديات في الظهور خلال القرن الثالث الميلادي. ولاشك أنه قد وُجدت معموديات قبل ذلك لكن تعوزها الأسانيد المكتوبة، كما أن الحفريات الأثرية لم تسعفنا بشيء من هذا القبيل. ففي العصر الرسولي كانت المعمودية تجري في الأنهار والبحيرات بل وحتى في البحار المكشوفة[1]، في الوقت الذي كانت الاجتماعات الكنسية تتم في البيوت والمباني الخاصة. ومع امتداد المسيحية وانتشارها تكاثر عدد المؤمنين مما اقتضى تخصيص مباني للعبادة تستوعب العدد المتزايد من المنضمين إلى المسيحية، وبالتالي تحتم تخصيص أماكن للتعميد. وتطوُّر العبادة العامة إلى طقوس وممارسات ليتورجية اقتضى أن يرافقه تطوُّر مماثل لطقس المعمودية بتخصيص مبنى مستقل لإجرائها. فابتداءً من القرن الثالث حتى السابع أصبح لدينا ما يقرب من ٤٠٠ مبنى مخصص للمعمودية أمكن اكتشافها وتحديد أزمانها[2]. ومن خلال الشواهد المنحوتة والحجرية، ثم زخرفتها وتزيينها بالفرسكات والموزاييك، تعرَّفنا على مقدار أهمية هذا السر، الذي هو باب الدخول إلى المسيحية، بطريقة تجعلنا أكثر إدراكاً ووعياً لأسلوب ممارسته؛ ليس فقط في المدن الكبرى مثل روما وأنطاكيه وأورشليم، بل وإلى أعماق البلاد والكور البعيدة في مصر وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى واليونان وإيطاليا وشمال أفريقيا.

وقبل الدخول في التفاصيل المعمارية، نقدم وصفاً موجزاً لمبنى المعمودية في قصر اللاتيران بالفاتيكان الذي أقامه الإمبراطور قسطنطين الكبير (شكل ١): فهو مثمَّن الشكل، قطره حوالي ٢٠م، وتتوسَّطه ٨ أعمدة من الرخام السماقي porphery (الأبيض المائل إلى زرقة السماء)، حاملة

(1) Justin, *Apol. I,61*

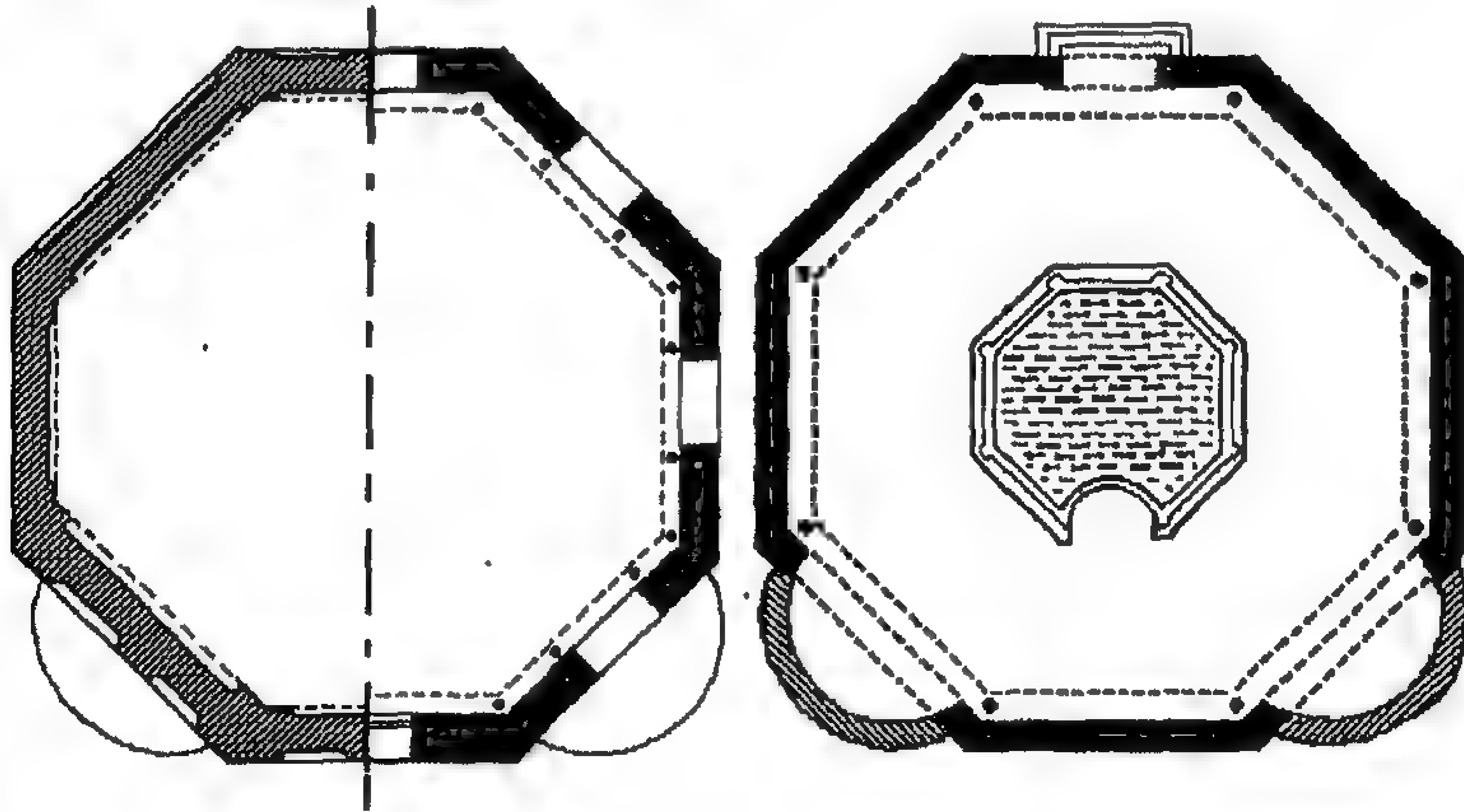
(٢) ملخَّصة بإيجاز عن: J. D. Davies; *The Architectural Setting of Baptism*.



(شكل ١) معمودية القديس يوحنا بروما

تيجان أقدم، وتعلو أعتابها أعمدة أصغر حجماً يستند عليها السقف. والدخول إليه خلال رواق متسع يمثل المدخل الذي كان الموعوظون يجحدون فيه الشيطان ويرددون قانون الإيمان، كما جاء في عظات ق. كيرلس الأورشليمي. ويؤكد الأثريون أن تكسية حوائط المبنى والرواق تحمل طابع عصر قسطنطين. ويحفل "كتاب الأحبار *Lib. Pontif.*"(٣) بتفاصيل وافية عن فخامة التحف التي كانت تزينه، مثل: تغطية الحوائط بالرخام السماقي porphery، عمق الجرن ١,٥٠م ومغشًّى برقائق الفضة وتفيض مياهه من ٧ تماثيل فضِّية للإيَّل، وتمثال ثامن من الذهب للحَمَل الإلهي، وعلى يمين الحَمَل صورة فضية ارتفاعها ١,٥م للمخلص وعلى يسارها صورة ثانية للقديس يوحنا المعمدان من نفس الحجم والمعدن، ويتوسط المشهد أعمدة من الرخام البرفيري حاملة اسطوانة من الذهب الخالص تزن أكثر من ٢٠ كجم كان عليها قنديل الفصح(٤).

على أنه لا توجد أية مباني للمعمودية باقية بحالتها إلى وقتنا الراهن سوى الملحقة بكاتدرائية رافِنّا والمشهورة باسم "يوحنا المعمدان"؛ والتي تم بناؤها، أو على الأقل تجديدها، في عهد رئيس أساقفتها "نيون Neon" بين سنتي ٤٢٥-٤٣٠م. والمظهر العام لزخارفها يشهد أن العمل كله تم تحت إشراف الأسقف نيون، وإن كان قد امتد حتى منتصف القرن السادس. وتخطيطها العام ثُماني الأضلاع فيه حنيتان apses في ضِلعيْن منه، وقطره ١٢م. ويقع الجرن في مركز المضلع، ويتميز بوجود مكان مخصص لوقوف الكاهن الذي يمارس السر (شكل ٢).



(شكل ٢) التخطيط العام لمبنى المعمودية في رافِنّا

(٣) هو كتاب يشرح الطقوس التي كانت من اختصاص الأساقفة ومن ضمنها المعمودية والميرون في الكنيسة الأولى.

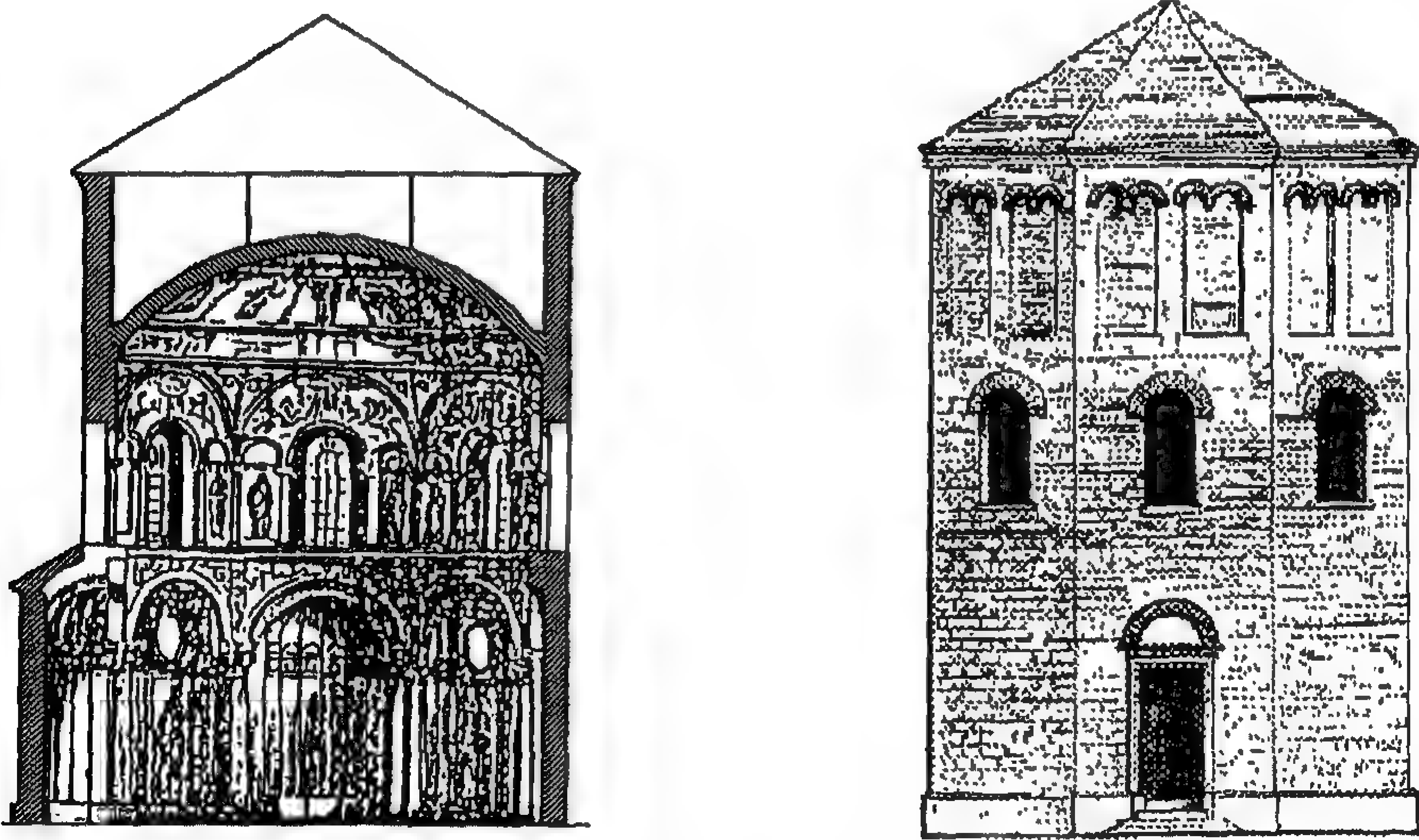
(٤) عن: W. Smith; Cheetham: *Dict. of Christ. Antiq.* vol.I pp.171-178.



(شكل ٣) معمودية أرثوذكسية في راڤِنّا

ويعتبر فن تزيين هذا المبنى من أجمل الأمثلة القائمة في أوروبا (شكل ٣). فالأعمدة وما تحمله من بواكي نصف دائرية، والجزء المنخفض من الحوائط مغطي ببلاطات رخامية من نفس النوع تعلوها ألواح الرخام المطعَّمة بقطع ملونة، ثم الصف العلوي من الأعمدة تتخلله حنيات صغيرة كانت تحوي تماثيل للقديسين من الجبس المصبوب stucco مع القبة المزينة بالفسيفساء، ثم يتوسط المشهد كله صورة للمخلص وهو يعتمد وتحيط به صور الاثنى عشر تلميذاً (شكل ٤).

ومنذ عصور قديمة كان طقس المعمودية تنحصر ممارسته في الكنيسة الرئيسية في الإيبارشية؛ ولا زال هذا التقليد سائراً حتى الآن في فلورنسا وبيزا وأماكن أخرى في إيطاليا. وجاء في "كتاب الأحبار *Lib. Pontif.*" أن البابا مارسللوس (٣٠٤-٣٠٩م) عيَّن ٢٥ كنيسة في روما لتكون بمثابة كنائس رئيسية لإجراء طقس المعمودية. وكما يتكرر في هذا الكتاب أن مباني المعمودية كانت ملحقة بالعديد من الكنائس الصغيرة؛ مما يدفع إلى الاعتقاد أن كل كنيسة مخصصة لإحدى إيبارشيات أحياء روما كان يُلحَق بها مبنى للمعمودية. وقيام عدة مباني للتعميد في مدينة واحدة كان على مايبدو يختص بروما وحدها.



شكل (٤) مبنى المعمودية في رافنّا

أما ميعاد إجرائه فكان في عشية عيد الفصح وأحد العنصرة وأحياناً في عيد الإبيفانيا. فيوم سبت النور الذي قُبض فيه على ق. يوحنا ذهبيّ الفم بطريرك القسطنطينية (٣٩٨-٤٠٨م) لنفيه، كان قد

أتمَّ تعميد ثلاثة آلاف شخص وأكثر من هذا العدد كانوا ينتظرون دورهم إلا أنهم ولُّوا هاربين(٥).

إذن قد تحتَّم توفير مكان يتسع للآلاف المنتظرين معموديتهم.

ويمكننا تبويب كمَّ المعلومات التي تمدنا به الهندسة الأثرية للمعموديات تحت أربعة فصول:

١- مبنى المعمودية، أي القاعة المقام فيها جرن التعميد: Baptistarium Βαπτιστήριον.

٢- جرن المعمودية: κολυμβήθρα, piscine.

٣- صالات وحجرات متصلة بطقس المعمودية.

٤- الزخارف وعناصر التزيين.

أولاً - مبنى المعمودية:

المعلومات التي توافرت لدينا من الأقطار المطلة على حوض البحر الأبيض أجمعت على أن الشكل الرباعي لهذا المبنى هو السائد في مصر واليونان وفلسطين وسوريا حتى القرن السابع.

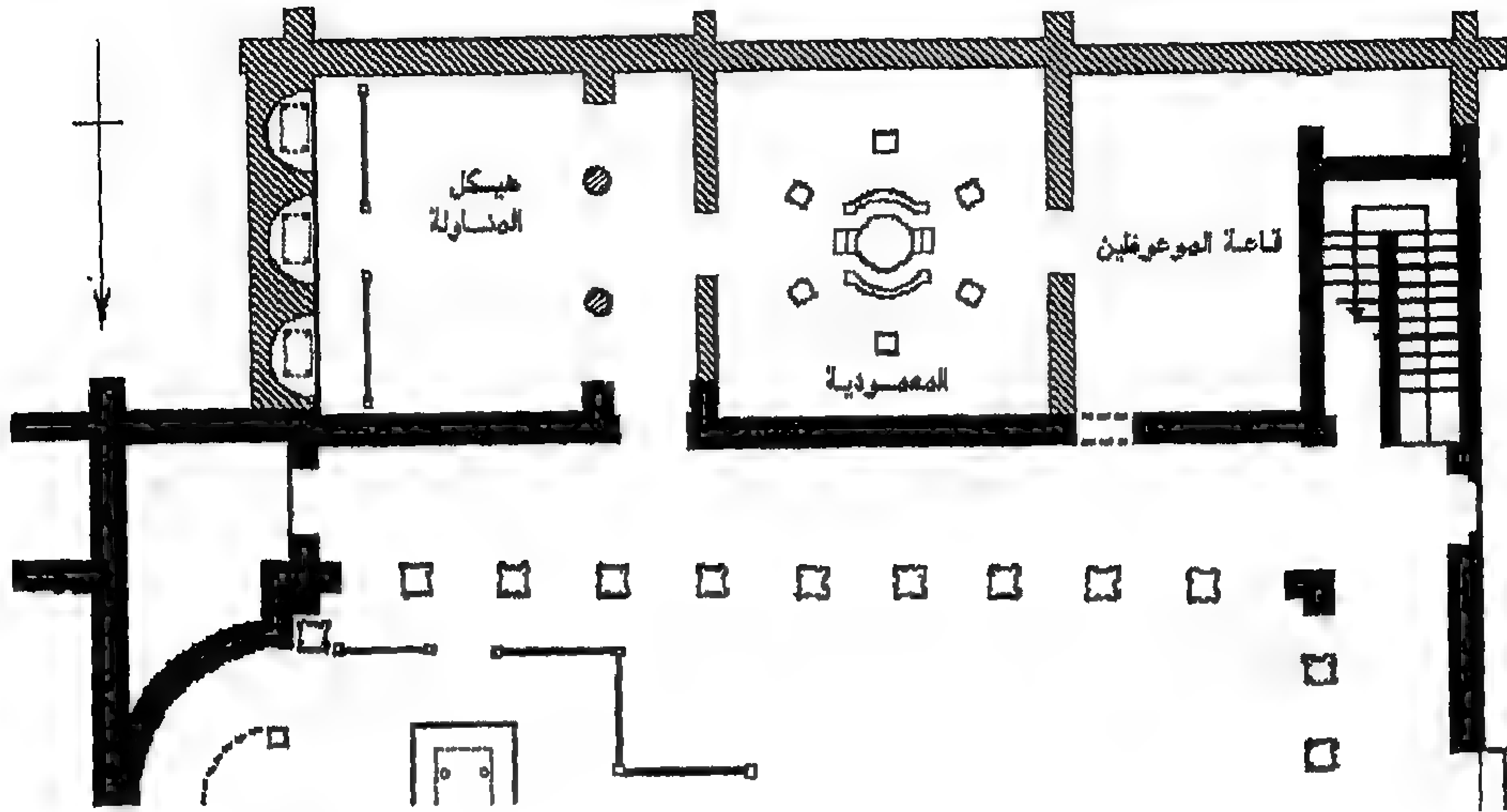
وتتميز مباني المعمودية في مصر أنها دائماً جزءٌ ملتحم بالكنيسة؛ وغالباً ما تكون ذات علاقة بالهيكل والمذبح أو قريبة منهما. ففي دير ق. مار مينا بصحراء مريوط اكتشفت ثلاث كنائس في كل منها معمودية(٦). ففي الكنيسة الرئيسية المعروفة بإسم "البازيليكا الكبرى"- التي يرجع تاريخ إنشاءها إلى الإمبراطور أركاديوس في أوائل القرن الرابع - نجد صالة التعميد بملحقاتها ملتصقة بالجانب الغربي لكنيسة الشهيد، وكانت تتكون من حجرتين رئيسيتين، الكبرى منهما كانت مثمَّنة الشكل وتغطيها قبة. وفي كل منهما كان جرن التعميد الذي يمكن النزول إليه من الجانبين بواسطة عدَّة درجات. والهدف من الحجرتين هو إمكانية تعميد النساء بعيداً عن الرجال. وأسفل الجرن اكتشفت مجاري تغذيته بالمياه من خزان تجميع مياه الأمطار. وفي منتصف القرن السادس تطورت مجموعة المباني إلى قاعة واحدة متوسطة تحتوي على الجرن والحجرات الملحقة لشرح قانون الإيمان وتسليمه، وخلع الملابس ... الخ.

وإذا انتقلنا إلى البازيليكا الشمالية، وهي من نفس عصر البازيليكا الكبرى، نرى جناحاً كاملاً للمعمودية ملتصقاً بالجانب القبلي للبازيليكا. ويقع جرن التعميد في القاعة الوسطى، يحيط به ستة أعمدة حاملة البلدكان ciborium، ثم قاعة شرقية بها ثلاثة مذابح لتناول المعمَّدين الجدد، وقاعة

(5) Palladius; *Vita Chrysostom c. 9* & Chrysostom; *Epist. ad Innocent.*

(6) Peter Grossman; *Abu Mina, A Guide to the Ancient Pilgrimage Center.*

ثالثة غربية ليسمع فيها الموعوظون شرح قانون الإيمان وتسليمه لهم قبل دخولهم للتعميد (شكل ٥).



(شكل ٥) دير مار مينا: جناح المعمودية في البازيليكا الشمالية

وفي دير ق. أنبا شنوده بسوهاج، الدير الأبيض، يقع مبنى المعمودية في المدخل؛ ويتكون من كنيسة صغيرة مُلحق بها من الغرب حجرة ثم صالة التعميد التي تحوي جرناً متسعاً يمكن الصعود إليه بعدة درجات. وبعد المعمودية يتوجه المعمَّدون إلى الكنيسة الصغيرة للتناول. ويرجع تاريخ هذا الدير إلى القرن الرابع.

والدير الوحيد من أديرة وادي النطرون الذي لازالت فيه معمودية هو دير الأنبا بيشوي خلف هيكل كنيسة الشهيد أبسخيرون(٧). ولكن كان في دير السريان حوض مغطس واسع في حجرة مقببة تدعي "الجو"، كان يستعمل في عيد الإبيفانيا وليس للتعميد.

وبينما نرى استمرار الشكل الرباعي في كنائس مصر، حدث تطوّر في الغرب، في فرنسا وألمانيا وإيطاليا والبلاد الواقعة تحت تأثيرها، من الشكل الرباعي إلى الدائري أو الثُماني ابتداء من منتصف القرن الخامس، الأمر الذي يوحي لنا بالتساؤلات التالية:

(٧) مرقس سميكة باشا؛ دليل المتحف القبطي جـ٢ ص٨٩.

أ – لماذا كان الشكل الرباعي؟

ب – ولماذا ساد في المناطق المتباعدة مثل اليونان وسوريا وفلسطين؟

جـ – وما علّة تطوره إلى الشكل الدائري أو الثماني أو السداسي في بلاد إيطاليا وفرنسا؟

(أ) **بخصوص التساؤل الأول،** اختيار الشكل الرباعي الذي شاع في كل أقطار البحر الأبيض يرجع لعدة عوامل مؤثرة؛ منها: بعدما توقّف استخدام الأنهار والبحيرات لهذا الغرض تخصصت إحدى الحجرات أو القاعات للتعميد بحسب شكلها المألوف أي الشكل المستطيل في البيوت والمساكن العادية. وهذا ما تشهد به أقدم كنيسة تطورت عن البيت العادي واشتهرت في العالم بإسم المنطقة التي وُجدت فيها: "ديورا يوربوس Dura Europos على نهر الفرات وترجع إلى عام ٢٣٠م. استقلال الكنيسة عن البيت جعلها تخرج حاملة الأوضاع المألوفة في البيت العادي. فالكنيسة أساساً هي "بيت الله"، لذلك حملت سمات "البازيليكا"(٨) حتى تتسع قاعاتها لإقامة الإفخارستيا. فاستمرت المعمودية تحتلّ حجرة جانبية مستطيلة أو مربعة.

والعامل الثاني المؤثّر، أن التطور الذي حدث في مبنى المعمودية يشبه ما حدث في الحمامات العامة التي أضيف إليها حوض مياه باردة frigidarium رباعي الشكل وأحياناً في حنية حائطية apse. فوجود حوض مياه في وسط قاعة التعميد أو في طرفها هو نفس ما اكتشف في ديورا يوربوس.

والعامل الثالث أن المعمودية في العهد الجديد تحتسب موتاً وقيامة. فالرب يسوع اعتبر صليبه معمودية: «لي صبغة أصطبغها وكيف أنحصر حتى تكمل» (لو١٢: ٥٠)، وأيضاً ق. بولس: «فدفِنّا معه بالمعمودية للموت» (رو٦:٤)، «مدفونين معه في المعمودية» (كو٢:١٢). فحجرة المعمودية اعتُبرت مدفناً. وحيث أن الكثير من المدافن والأضرحة التذكارية في الوثنية كانت ذات قباب رباعية، ولها ممشى مسقوف ambulatory بينما طقس المعمودية لا يستلزم هذا، لذلك انتقل هذا الشكل بعناصره إلى مباني المعمودية باعتبارها موتاً وقيامة مع المسيح.

(ب) وإجابة التساؤل الثاني عن استمرار مبنى المعمودية الرباعي في مناطق معينة، بخلاف ما حدث في إيطاليا والبلاد الخاضعة لتأثيرها، راجع إلى أن المدفن الرباعي هو النمط السائد في شمال إفريقيا ومصر وفلسطين وسوريا حتى بلاد اليونان وجزرها. فالضريح الوثني مكعب الشكل، تغطيه

(٨) كلمة معربة عن اليونانية تعني: مبنى أو بيت ملكي.

قبة نصف دائرية تعكس انطباعاً بالقبة السمائية. وهذه تطورت في المباني الدينية إلى البلدكان ciborium. عند المسيحيين لم يكن سقف المبنى ذا غرض نفعي فقط، بل يحمل مغزى باطني يتطلبه اهتمامهم بالمضمون الإيديولوجي الفكري. لذلك شاع بينهم استعمال القبة سواء كغطاء خارجي للمبنى، أو داخلي أي البلدكان التي هي قبة محمولة على عدة أعمدة. بهذا نجح مبنى المعمودية في توجيه الاهتمام إلى أن المعمودية هي موت وقيامة ثانية مع المسيح، تصيِّر المعمَّد مواطناً في ملكوت السموات. فتخطيط المبنى وتنفيذه يستهدف تعميق إدراك معنى الموت والقيامة في ممارسة طقس المعمودية.

هذه الاعتبارات توجه الأنظار إلى الرد على **التساؤل الثالث الخاص باستخدام نماذج أخرى غير المربع في إيطاليا وما حولها.** ففي إيطاليا كان التطور من المربع إلى الدائرة والمثمَّن وإضافة الممشى المسقوف الذي كان شائعاً في الأضرحة التذكارية. ففي كاتدرائية جاميلا في نوميديا بشمال أفريقيا، وكانت متأثِّرة بالترتيبات الآتية إليها من إيطاليا، لدينا مبنى للمعمودية دائري الشكل له ممشى مسقوف ambulatory قائم على أعمدة (شكل ٦).



(شكل ٦) معمودية كاتدرائية جاميلا في نوميديا بشمال أفريقيا

وهنا لا بد لنا من الرجوع إلى العلاقة الوطيدة بين المُنشأ ومضمونه. فالمثمَّن لا يزال يحمل سمات الدائرة، خاصة لو جاء في الاعتبار عدم دقَّة التعبيرات

الهندسية لدي قدماء المؤمنين. فالقديس غريغوريوس النيسي، مثلاً، يصف الشكل المثمَّن أنه دائرة ذات ثمانية أركان[٩]. والمثمَّن هو استمرار لمبنى الضريح الدائري؛ وفي نفس الوقت يوحي للمعمَّد بالمدلول الرمزي المرتبط بالأعداد Numerology. فقد جاء في رسالة برنابا: "نحن بمسرة نحتفل باليوم **الثامن** الذي فيه قام المسيح من الأموات وصار ظاهراً للجميع ثم صعد إلى السموات[١٠]. ونفس المعنى جاء عند ق. أمبروسيوس: "بقيامة المسيح قدَّس اليوم **الثامن** وبدأ اعتباره اليوم الأول" [١١]. يسوع قام في اليوم **الثامن** الذي صار اليوم الأول في الأسبوع الجديد. فالمبنى المثمَّن الأضلاع يضيف كثيراً من التأكيد واليقين لدي المعمَّد لقيامته مع المسيح بمعموديته؛ إنه فجر الجيل الآتي.

وإذا انتقلنا إلى النموذج السداسي الأضلاع لمبنى المعمودية، نجده رمزاً لليوم السادس في الأسبوع، يوم الجمعة الذي صُلب فيه المسيح ودُفن في القبر. وهذا إشارة إلى الزمن الحاضر الذي فيه أتعابنا ومشقّات الحياة تهدف إلى إماتة جسد الخطية. إنه زمن الصليب كقول ق. أغسطينوس[١٢].

ويدخل في هذا المجال أيضاً وجود بعض المعموديات متصلة بمذابح مقامة على رفات شهداء. هذا يشرح التوازي الإيديولوجي الكنسي بين معمودية الماء للموعوظين ومعمودية الدم للشهداء. فيقول ترتليان: "لدينا معمودية ثانية هي التي بالدم. هاتان المعموديتان للرب قد نبعتا من الجنب المطعون[١٣]، حتى يتيسر للذين يؤمنون بدمه أن يغتسلوا بالماء، والذين يغتسلون بالماء (في المعمودية) أن يشربوا دمه أيضاً. أما معمودية الدم فهي لمن لم ينل معمودية الماء"[١٤]. فوجود معمودية متصلة بهيكل مدفون تحت مذبحه رفات شهيد يؤكد العلاقة بين هاتين المعموديتين. وهذه النوعية من مباني المعموديات شاعت في العصر الذي أعقب قرون الاستشهاد لكي تعطي للمعمَّد انطباعاً أنه شريك ثمار موت المسيح الشهيد الأمثل.

ثانياً – جرن المعمودية:

أقدم معمودية معروفة جاءتنا من ديورا يوربوس، البيت الذي تحول إلى كنيسة في القرن الثالث. فعلى يمين المدخل حجرة مستطيلة فيها وعاء ضخم على الأرضية مستطيل الشكل أبعاده:

(9) *Opera VIII 2, Epistulae.*

(١٠) فصل ١٥:٨.

(11) *Enar. in Ps. XLVII.*

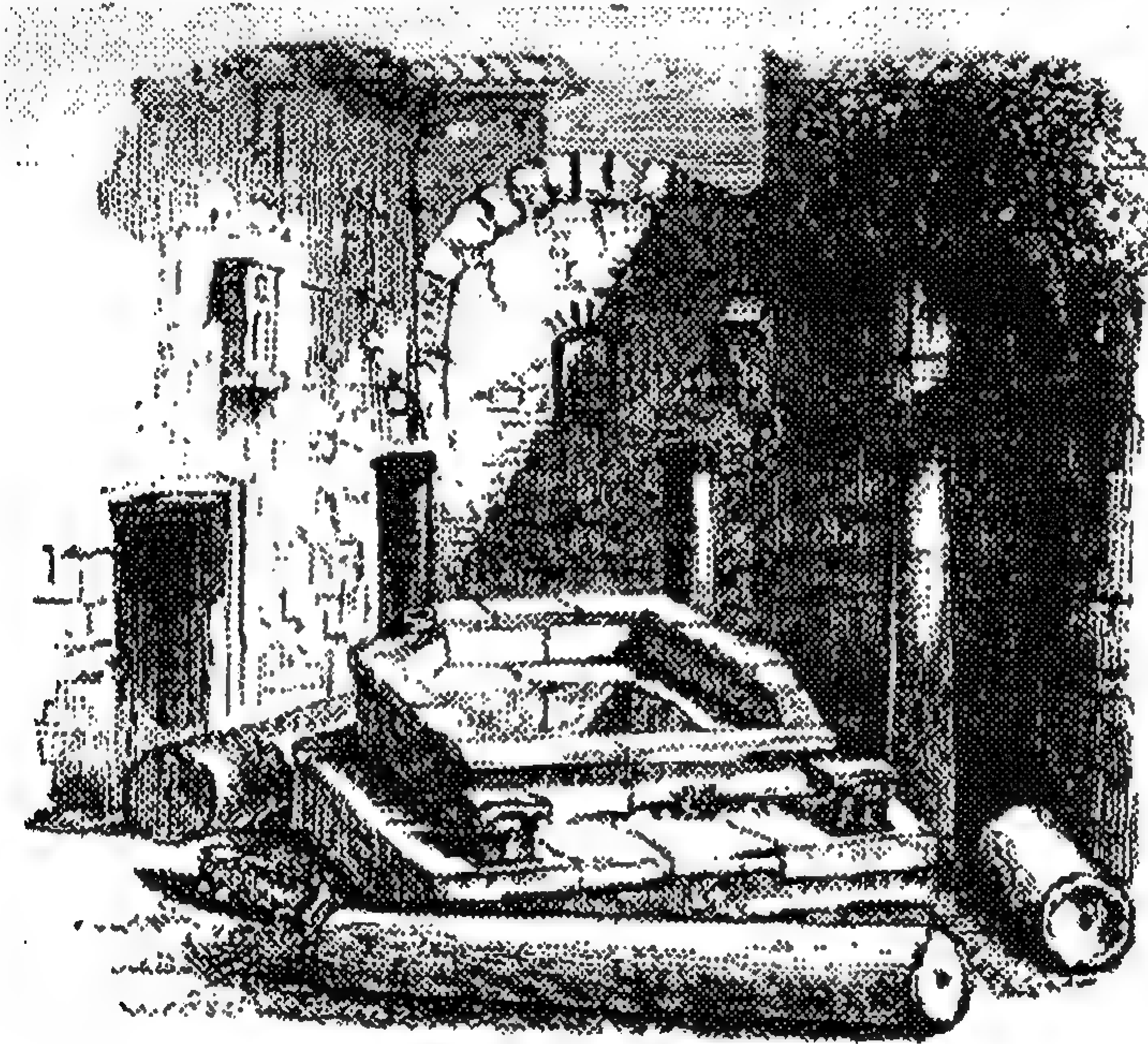
(12) *De Civ. Dei XIV, 24.*

(١٣) الذي «... خرج منه دم وماء» (يو١٩:٣٤).

(14) Tertull. *De Bapt. 16* & Cyprian, *De orat. dom., 24.*

١,٦×٠,٩٥×٠,٦٥م، يعلوه بلدكـان. وتُزيِّن الحجرة رسومات حائطيـة تتعلّـق بسـرِّ المعموديـة. وحيث أنها دَفْنٌ مع المسيح لذلك صار الجرن بشبه المدفن، وعلى وجه التحديد علـى شـكل تـابوت sarcophagos.

هـذا المضمـون الإيديولوجـي يشـرح بدايـة اسـتخدام النمـط المسـتطيل للجـرن في شمـال إفريقيـا وأورشليم. أما في إيطاليا فكان الشكل السائد هو السداسي أو الثماني. فقد اكتشـف جرن قديـم في مدينـة أكويليـا Aquileia سداسـي الأضـلاع (شـكل ٦)، لـه مـن الخـارج درجـة واحـدة ودروة منخفضة، ثم درجتين من الداخل وشرقية صغيرة apse أمام الضلع الشرقي. والدخول إليـه بواسـطة ممر مقبي يتصل بثلاث حجرات للموعوظين لاستماع شرح قانون الإيمان وتسليمه لهـم. وربمـا كـان يُلحق به دور علوي للموعوظات.

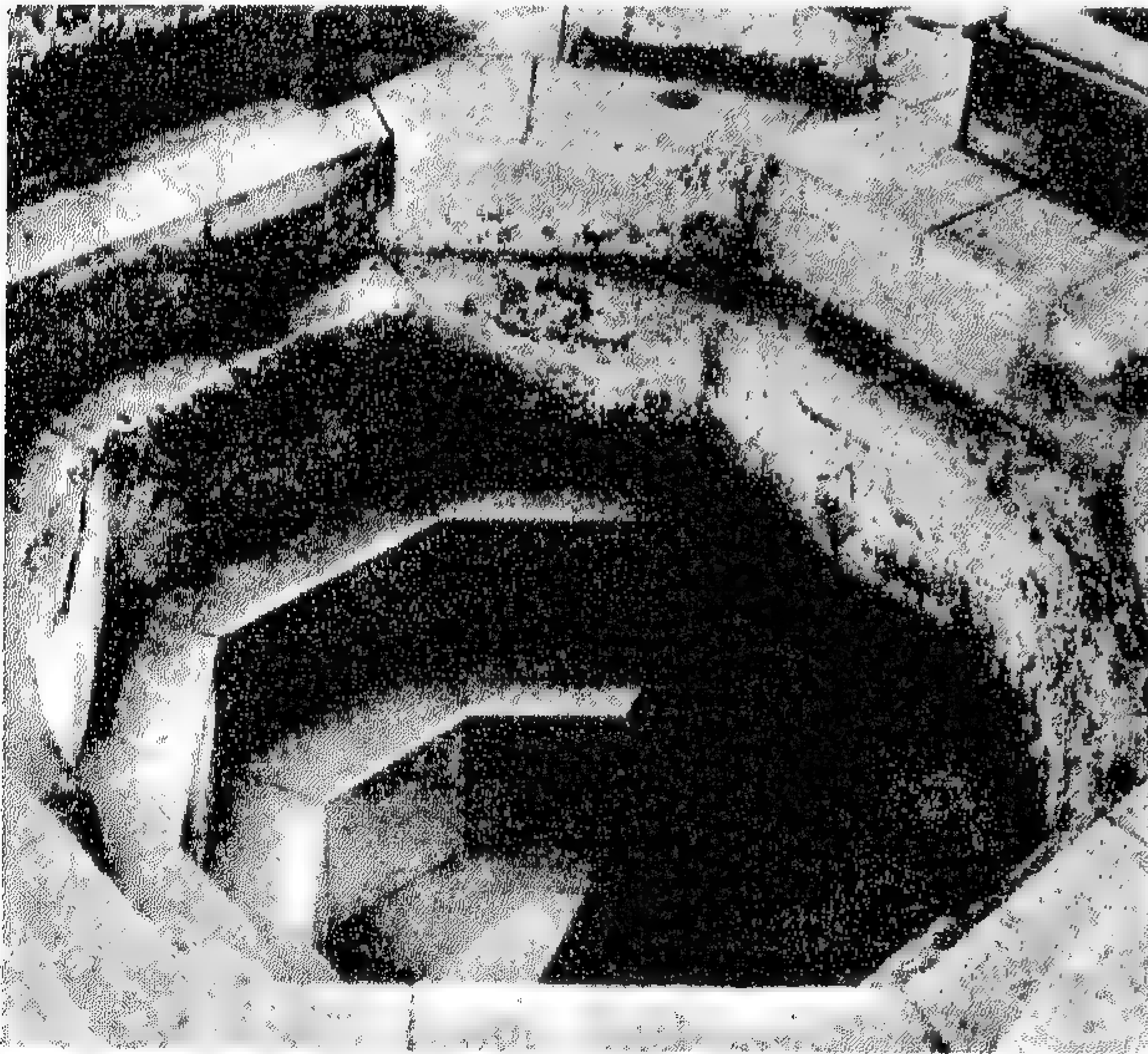


(شكل ٧) المعمودية الأثرية في أكويليا

وهنا نعود مرة أخرى إلى المدلول الرمزي للأعداد Numerology. فـالجرن السداسي يشـير إلى موت المسيح في اليـوم السـادس، ووجـوده داخـل مبنـى مثمَّـن الشـكل يرمـز للقيامـة: «فدفِنّـا معـه بالمعمودية للموت (في اليوم السادس) حتـى كمـا أُقيـم المسـيح مـن الأمـوات بمجـد الآب (في اليـوم

الثامن) هكذا نسلك نحن أيضاً في جدة الحياة» (رو٦:٤). فعند دخول الموعوظ إلى المبنى الثماني الأضلاع يتقوّى رجاؤه بالقيامة، وفي نزوله إلى الجرن السداسي يعلم أنه يموت مع المسيح، وخروجه مرة أخرى إلى القاعة المثمَّنة يدرك أن عليه السلوك في الحياة الجديدة من الآن فصاعداً، كما يقول ق. نرسيس: "في ماء المعمودية، الكاهن يدفن الإنسان العتيق، ثم يقوم إنساناً جديداً بقوة الحياة المذخرة في كلمات خادم السرّ"[١٥]، وهو نفس التعبير الذي قاله ق. أمبروسيوس.

لدينا أيضاً عدة أمثلة من جرن المعمودية الدائري. هذا النمط يشير إلى مفهوم جديد قائم على آية ق. يوحنا الإنجيلي: «إن كان أحد لا يولد من فوق . . .لا يولد من الماء والروح لا يقدر ان يدخل ملكوت الله» (يو٣:٣-٥). فالآباء يعتبرون جرن المعمودية أحشاء الكنيسة الوالدة؛ لذلك يحقّ للقديس أغسطينوس أن يقول: "وجدنا لنا والِدَيْن آخرَيْن، الله كأب والكنيسة كأم. ومنهما نولد ثانية للحياة الأبدية"[١٦]، والقديس مار أفرآم يعلن: "أيها الرَّحِم الذي يلد بدون شهوة أبناءً لملكوت الله"[١٧]. فالجرن الدائري ينقل للمعمَّد عقيدة الولادة الجديدة بالمعمودية التي تؤهِّلنا لنكون أهل بيت الله نخاطبه هكذا: "أبانا ...".

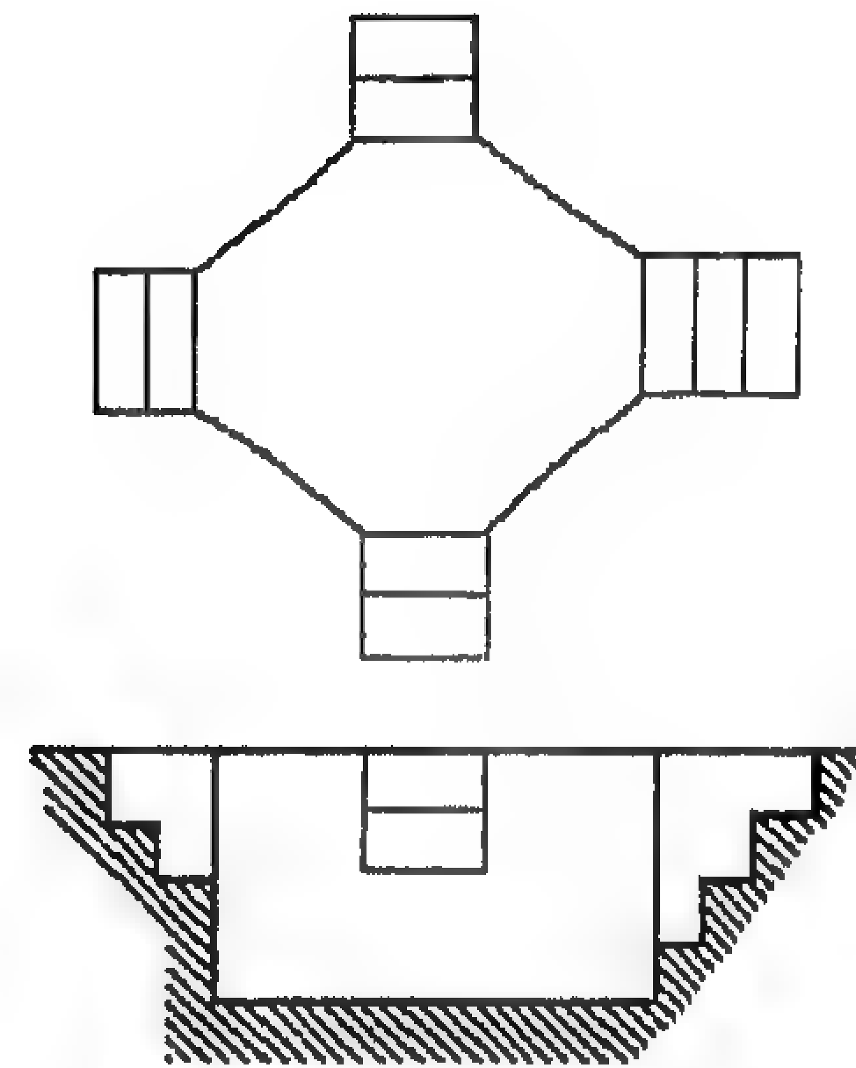


(شكل ٨) معمودية كنيسة بواتييه بفرنسا

من الأنماط الشائعة أيضاً لجرن المعمودية أن تكون أحياناً مثمَّنة مثل كنيسة بواتييه Poitier في فرنسا داخل حجرة مربَّعة (شكل ٨)، أو بشكل صليب ذي أربعة أجنحة متساوية cruciform، وفي مدينة قفط بصعيد مصر[١٨] معمودية بهذا المثال (شكل ٩)؛ أو على شكل زهرة رباعية الأوراق

(15) *The Liturgical Homilies of Narsei.*
(16) *Serm. 36.*
(17) *Hymn. de virg. 7:7.*
(18) Coptic Encyclopedia; *Baptistery*

quatre-foil (شكل ١٠). وهو بذلك يحمل مضمون الموت أكثر من أي نموذج آخر. فالمعمودية ـ كقول ذهبيّ الفم ـ هي "... صليب؛ ماذا كان الصليب والدفن بالنسبة للمسيح، هكذا المعمودية بالنسبة لنا"(١٩)؛ وبالمثل أيضاً ق. أمبروسيوس: "حينما تغطس في الجرن فأنت بشبه الموت والدفن إذ تقبل سرّ الصليب" (٢٠).



(شكل ٩) معمودية على هيئة الصليب cruciform بإحدى كنائس قفط بصعيد مصر



(شكل ١٠) معمودية رباعية quatrefoil يظهر فيها اثنان من خُدّام السر يعمّدان رجلاً بالغاً وطفلاً. (من إحدى مخطوطات مكتبة الفاتيكان).

وأحياناً تمتزج هذه النماذج مع بعضها؛ فوُجدت أجران من الداخل على شكل صليب ومن الخارج ثمانية الشكل كما في بيت لحم، أو من الداخل على شكل صليب ومن الخارج دائرية.

بقي ترتيب آخر في بعض النماذج يستحق التمعُّن من جهة الممارسة الطقسية؛ وهي درجات السلم الكائنة في بعض الأجران، مثلما هو ظاهر في معمودية كنيسة تمجاد في شمال أفريقيا (شكل ١١)؛ حيث أن ضيق درجات مثل هذا السلّم لا يسمح بالانتفاع العملي بها. ولكن الهدف من وجودها هو "تأكيد معنى النزول" الذي يرمز إلى التغطيس ثلاث مرات، كقول ق. كيرلس الأورشليمي: "أنتم تنزلون ثلاث مرات في الماء ثم تصعدون ثانية. هذا إشارة خفية إلى الدفن ثلاثة أيام مع المسيح

(19) *In Epist. ad Rom. 10, 4* .
(20) *Sacramen. 2:7, 23.*

الذي أمضى في بطن الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليالي"(٢١).



(شكل ١١) معمودية كنيسة تمجاد في شمال أفريقيا

والبراهين الأثرية التي تقدمها نماذج الجرن تساعدنا في الوصول إلى الممارسة العملية لهذا السرّ. فيمكن إجراء هذا الطقس بأحد الأساليب التالية:

١ – التغطيس الكامل.

٢ – الغمر، أي تغطيس الرأس في الماء بينما الشخص فيه أو خارجه.

٣ – سكب الماء على الرأس.

٤ – رش الماء باليد على رأس المعمَّد

ومع أن الجدال بين المتخصصين في الليتورجيا والطقس لم ينته إلى نتيجة حاسمة، إلا أن علم الآثار يقدم بعض النتائج الختامية في هذا الشأن. فلم يوجد حتى الآن أي جرن للتعميد في كل بلاد اليونان تسمح مقاساته بالتغطيس التام للموعوظ إلا في مثالين فقط بين أكثر من عشرة أمثلة. أما في سوريا وفلسطين ومصر فالموجود منها يتراوح عمقه من ٠,٤٠م إلى ١,٥٠م. وحتى إن كان العمق كبيراً،

(21) *Catech. Mystag. II, 4.*

إلا أن اتساعه لا يسمح بالتغطيس الكامل للموعوظ تحت مياهه.

بناء على ذلك يمكن القول أن أسلوب التعميد كان يختلف من مكان لآخر؛ ولكن من المتيقّن أن الموعوظ كان يقف في الجرن إلى ركبتيه، ويحني رأسه لتُغمَر تحت مياهه إن كان اتساعه يسمح بذلك، أو يسكب خادم السرّ ماءً على رأسه؛ وهذا ما نستلهمه من قول ق. يوحنا ذهبيّ الفم: "حينما نغمر رؤوسنا في الماء يكون هذا بمثابة تغطية الرأس بالتراب في القبر . . . وحينما نرفعها منه فهذا يعني الميلاد الجديد"(٢٢). فالتعميد بالتغطيس الكامل لم يكن شائعاً بالدرجة التي كان يمكن تصوُّرها من قبل. كما أن استعمال الغمر أو الرش يعطينا مفتاحاً لفهم بعض تفاصيل مبنى المعمودية الذي أقامه قسطنطين الكبير في قصر اللاتيران بالفاتيكان حالياً (شكل ١). فرغم أن الجرن متسع بدرجة تسمح بالتغطيس الكامل، إلا أن وجود تمثال الحَمَل الذهبي الذي من فمه يخرج سلسبيل ماء يجعلنا نعتقد أن خادم السِّر كان يحمل في يده وعاء يملأه من الماء المنحدر من الحَمَل ليسكبه على رأس المعمَّد.

بهذا نستنتج أن العادة الجارية كانت الوقوف في الجرن وتغطيس الرأس فقط تحت مياهه أو سكب الماء على الرأس. وهذا لاينفي العلاقة بين الدفن والمعمودية. فما زالت العادة بين أقباط مصر أن يحمل الكاهن في يده حفنة تراب يرشها على جسد المتوفي، علامة على موته، قائلاً: أنت تراب وإلى التراب تعود.

ثالثاً – القاعات أو الحجرات ذات الاتصال بالمعمودية:

يسهم علم الآثار في إمدادنا بمفهومات عن ممارسة ومغزى الدخول إلى المسيحية ابتداء من القرن الثالث. ومع أن الطقس كان أكثر تعقيداً رغم الاختلافات الطفيفة من مكان لآخر، إلا أنها تشترك جميعاً في إعداد الموعوظين بواسطة ممارسات محددة مثل: تسليم قانون الإيمان وشرحه، تكرار عمليات التعزيم exorcism، خلع الملابس، ثم المعمودية والدهن بالزيت المقدس. ويلي ذلك ارتداء الثوب الأبيض والانتظام في موكب حافل حاملين الشموع المضاءة من مبنى المعمودية حتى الكنيسة للتناول من الإفخارستيا مع سائر المؤمنين المجتمعين في الكنيسة المحلية.

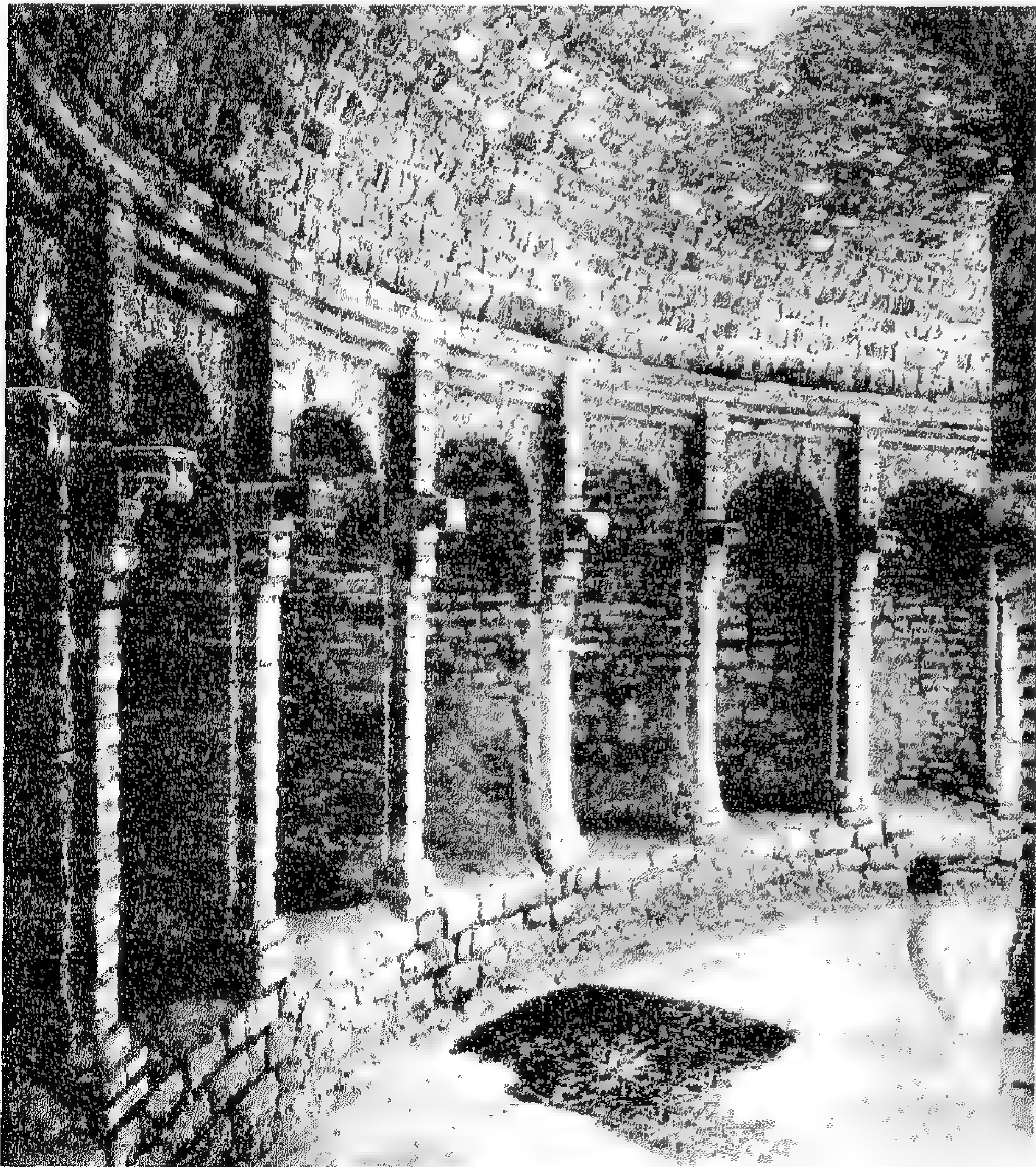
وبسبب حرية المسيحيين في تنظيم العبادة، تيسَّر إعداد مجموعة من القاعات والحجرات تخدم كل عنصر من عناصر هذا السرّ؛ ولا يحدُّهم في هذه الحرية سوى نقص المواد أو التمويل اللازم. وهذا وحده يشرح وجود مباني للتعميد لا تحوي سوى حجرة واحدة بينما مباني أخرى فيها العديد من

(22) *Rom. VI 3-5, Jn. 25:2.*

الملحقات لتفي بالعناصر المختلفة لممارسة المعمودية. وبصفة عامة، كانت تخصص إحداها للموعوظين يستمعون لشرح قانون الإيمان وترديده، وما تستلزمه الحياة الجديدة من سلوك فردي وعائلي واجتماعي يتواءم مع الإنجيل. وقاعة ثانية للتعميد ولإجراء المسحة المقدسة في عصر لم تكن فيه قد استقلت باسم سرِّ التثبيت. فإن وُجد أي تجويف في حائط القاعة فهذا يعني أنه موضع كرسي الأسقف الذي يمارس دهن المسحة. كما أنه يؤكد أن هذا الإجراء كان ختام طقس المعمودية. وأحياناً كان مطلوباً من الموعوظ التوجُّه إلى قاعة الأسقف ليُجري عليه آخر طقوس التعزيم قبل نزوله إلى جرن المعمودية.

والانتقال بين هذه القاعات كان من خلال فتحات في الحوائط أو عن طريق ممرَّات مسقوفة. وبعد الانتهاء من هذه الطقوس يخرج المعمَّد الجديد لابساً ثياباً بيضاء وحاملاً شمعة مضاءة في موكب متَّجهاً إلى الكنيسة خلال ممر مسقوف.

وملاحظة أخيرة؛ أن الكثير من مباني المعموديات كان بالقرب منها حمامات. ففي (شكل ١٢) تظهر حجرات الاستحمام كجزء متصل بمكان التعميد في الكنيسة الأثرية في جاميلا بشمال أفريقا. هذا يعني أن الموعوظ كان عليه الاستحمام قبل الدخول إلى مبنى المعمودية، فكان يُهيَّأُ له مكان لائق للاستحمام تحصيناً له ضد الأعمال الشائنة



(شكل ١٢) حجرات الاستحمام المتصلة بالمعمودية في كنيسة جاميلا

التي كانت في الحمامات العامة.

وبعدما اتضحت أهمية الدور المنوط بالأسقف، كانت مباني المعمودية تقام في المدن الرئيسية التي يتوفر فيها الكرسي الأسقفي. لكن بعدما سُمح في بلاد الشرق للكهنة أن يمارسوا مهام الأسقف في التعميد في الأماكن البعيدة، انتشرت المعموديات في القرى والكور النائية. أما في الغرب حيث لم يفوَّض للكهنة ممارسة هذا السر، بقيت المعموديات في المدن الأسقفية.

رابعاً – الزخرفة والتزيين:

لم تكن أبداً مباني المعموديات عبارة عن حوائط بسيطة مجردة، بل كان هناك اهتمام بليغ بتزيينها وزخرفتها بالفرسكات والموزاييك. وحين يتمعَّن القارئ في الأشكال (١و٣و٨و١١) يحس بجمال التزيين للمعموديات واحتفاظها برونقها أكثر من ستة عشر قرناً من الزمان. وكما حملت نماذجها مضموناً إيديولوجياً هكذا بالمثل كان تزيينها مملوءاً بالمعاني الرمزية. فكانت هناك موضوعات زخرفية نمطية متكررة على مدى العصور المختلفة والأماكن المتباعدة. ففي البيت الذي تحول إلى كنيسة في ديورا يوربوس عام ٢٣٠م على نهر الفرات ومبنى المعمودية في نابولي بإيطاليا (حوالي ٤٠٠م) خمسة مشاهد مشتركة: السماء المرصَّعة بالنجوم، الراعي الصالح، النسوة عند القبر، يسوع ماشياً على الماء، ثم السامرية عند بئر سوخار. واختيار هذه المشاهد يعود إلى التوازي الفكري بين المدافن والمعموديات؛ فالموت والقيامة ـ كمفهوم للخلاص ـ هو العامل المشترك. هذا العامل المشترك بين موت الجسد ودفنه في القبر وموت الإنسان العتيق ودفنه في المعمودية، يشرح علّة اختيار موضوعات محددة من معجزات السيد المسيح، سواء في السراديب catacumbs أو التوابيت sarcophagos مع مباني المعموديات. فالمعجزة هي برهان القوة الإلهية، وتمثيلها مصوَّرة على الفرسكات يعتبر التجاءً وتوسلاً لله أن يُظهر نفس القوة الآن؛ سواء في القيامة من الأموات للمدفونين في الأضرحة والمدافن، أو في قيامة المعمَّد الجديد بعد معموديته. فالموعوظ، قبيل نزوله إلى المعمودية، يتأمل مشهد المسيح ماشياً على الماء أو جالساً على بئر سوخار يحادث السامرية عن ماء الحياة، فيخفق قلبه بالصلاة والتوسّل لله أن يكرر في شخصه نفس القدرة الإعجازية. وحينما يرى النسوة واقفات عند القبر الفارغ لأن يسوع قد قام، يزداد يقيناً بقيامته مع المسيح بالمعمودية. وهكذا تكون الزخارف مصدراً ثميناً لمعنى الدخول إلى المسيحية بواسطة المعمودية وتشرح المنهج الفكري الذي تشير إليه نصوص العهد الجديد وشروحات آباء الكنيسة.

وبالمثل أيضاً؛ تمثل القبة المرصَّعة بالنجوم السماء لدى المؤمنين. فشاع استعمالها في المدافن

المسيحية وفي المعموديات كما هو ظاهر في كنيسة/بيت ديورا يوربس.وهذا يعني أن الذين يثبتون على إيمانهم حتى النهاية لا بد أن يدخلوا البيت السمائي. ومشهد الراعي الصالح كان ديكوراً شائعاً في المدافن والمعموديات، لأن الراعي يضع نفسه عن الخراف (يو ١٠:١١) أي يفدي الإنسان من الخطية والهلاك. فيصير هذا التصوير جواباً فعلياً على سقوط آدم وحواء، وهو الرسم المقابل في كنيسة/بيت ديورا يوربوس. ثم يتطرق المعنى إلى ما جاء في (مز ٢٣:١-٢) «الرب راعي فلا يعوزني شيء، في مراع خضر يربضني إلى مياه الراحة يوردني». والخراف تختص بالراعي، أي أن الراعي يمتلكها، لذلك كانت تُختم بعلامة مميزة لاتُمحى. فالذي نال ختم المعمودية σφραγίς قد صار مِلكاً للمسيح، كما يقول ثيئودورس المصِّيصي: "بهذا الختم σφραγίς صرنا محسوبين خراف المسيح ... فعند شراء أية غنمة، تُختم بختم حتى يُعرف صاحبها ومالكها".

في الحقيقة، منذ عصر مبكر جداً كانت المعمودية تُمثّل رمزياً بما جاء في مر ١:١٧ «فأجعلكما تصيران صيادي الناس»، وأيضاً المثل الذي قاله السيد المسيح عن ملكوت السموات وإنه يشبه شبكة مطروحة فاصطادت سمكاً جيداً ورديئاً. ويصوِّر ترتليان هذا المعنى رمزياً: "نحن الأسماك الصغيرة كمثال الـ ἰχθύς الذي لنا. نولد في الماء، وطالما نحن فيه نبقى في أمان" (de Bapt. c1). ونفس التمثيل الرمزي جاء عند ق. إيلاري (In Matheum) إذ يقول إن ما جاء في (مت ٩:١٩) هو المهمة التي سيقوم بها الرسل باجتذاب الناس إلى نور المساكن السمائية كمثل الأسماك من البحر.

هذا التشبيه ورد كثيراً في السراديب الرومانية وفي أنحاء متفرقة في فرنسا. ففي أوتون Autun يظهر كسمكتين متقاربتين ومرتبطتين بخيط يخرج من فم الأولى إلى رأس الثانية. وعلى ما يبدو، هو تطوير مسيحي لرمز وثني كان شائعاً في بلاد الغال حيث يظهر إله الفصاحة وكأن رباطاً ذهبياً يخرج من فمه ليدخل أذن المتكلم الفصيح، وكأنه يمليه ما ينبغي أن ينطق به. هكذا في المسيحية، فالمتكلم الذي لم يسبقه آخر، وهو الرب يسوع، تمثله السمكة- الإختيس ἰχθύς - يجتذب بسلطان كلمته نسل السمكة السمائية. هذا التمثيل الرمزي يبدو واضحاً في أبواب كاتدرائية أوتون Autun ومخطوطة الكتاب المقدس من القرن الحادي عشر في مكتبة كنيسة Clermont Ferrand، وعلى تاج عمود مبنى المعمودية في كنيسة ق. جرمانوس القريبة من باريس (شكل ١٣)، والتي يظهر فيها تطوير مسيحي لنحت السمكة، إذ أن جسمها العلوي بشكل إنسان بينما السفلي سمكة حقيقية، ويدها ممسكة بسمكة أخرى صاعدة من مياه المعمودية. وهذه الكنيسة معتبرة أنها أقدم كنائس باريس. وحينما أعيد بناؤها في القرن الحادي عشر نقلت إليها أعمدة وتيجان الكنيسة

الأولى ولا زالت قائمة حتى الآن. وهذا يؤكد شيوع هذا التمثيل الرمزي في بلاد الغال في القرن السابع إن لم يكن قبل ذلك.

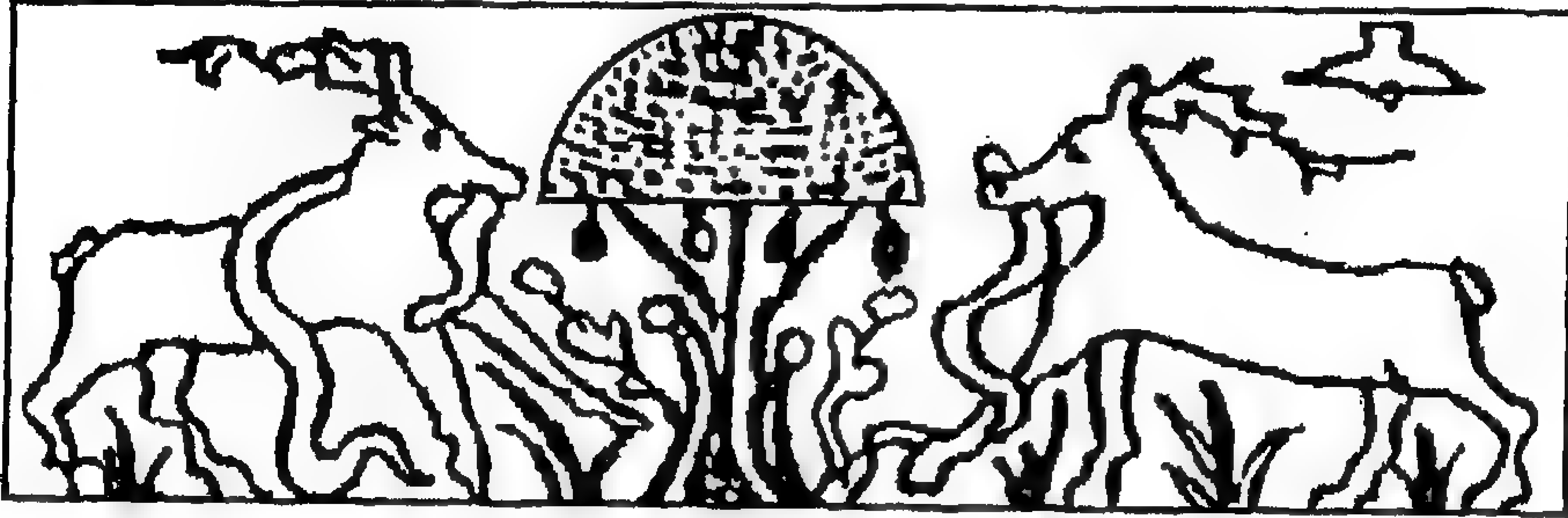


(شكل ١٣) تاج عمود مبنى المعمودية في كنيسة ق. جرمانوس بباريس

ربما كان أكثر الزخارف شيوعاً هو "الإيَّل"؛ فقد وُجدت فرسكاته في فرنسا وإيطاليا وشمال إفريقيا، وتماثيله واضحة في مبنى المعمودية في اللاتيران بروما. وتبنّي هذا الديكور راجع إلى التفسير المعاصر لـ (مز٤٢: ١) «كما يشتاق الإيل إلى جداول المياه هكذا تشتاق نفسي إليك يا الله». وشرح ق. أغسطينوس واضح في هذا المجال: لا ينبغي أن يُساء فهم اشتياق الموعوظين إلى نعمة المعمودية المقدسة حيث يُرتَّل هذا المزمور في هذه المناسبة: "هم يشتاقون إلى ينبوع مغفرة الخطايا كاشتياق الإيل إلى جداول المياه . . . ليس هذا فقط، فالإيَّل عدو الأفعى، وحينما يصارعها ويأتي عليها فإنه يلتهب عطشاً فيعدو عدواً ليروي ظمأه. والأفعي هي الشرور والآثام والخطايا أعداء حياتنا. فعليك أن تأتي عليها جميعاً فحينئذ تلتهب عطشاً إلى ينبوع الحق . . . قم أسرع إلى ينبوع المياه الذي أعده الله لإنعاشك وإروائك عند وصولك إليه لاهثاً، كالإيَّل المُسرِع في عَدْوِه بعد انتصاره على عدُوِّه"(٢٣). فالأفعى عند إحساسها باقتراب الإيَّل تختبئ في شقوق الصخر. والإيَّل يحاول من جهته

(٢٣) كتاب: "حياة الصلاة الأرثوذكسية" للمؤلِّف، الطبعة السابعة صفحة ١٠٤.

إخراجها من مخبأها بأن يغمرها من فمه بالماء أو ببعض السوائل من بطنه. ومتى سحقها يكون عطشه قد بلغ حد الالتهاب فيسرع إلى جداول المياه يروي فيها عطشه.



(شكل ١٤) أرضية إحدى مباني المعموديات تصوِّر المعركة بين الإيَّل والأفعي

والشكل (١٤) يشرح هذه المعركة؛ كل إيَّل منهما يصارع أفعي ممسكاً بها محاولاً سحقها تحت حافره. فالموعوظ ليس مطلوباً منه الخلاص فقط، بل مصارعة قوات الشر وسحقها. فالتوازي هنا رائع بين تماثيل الإيَّل المنسكب من أفواهها المياه في معمودية اللاتيران، وبين جحد الموعوظ للشيطان وكل أعماله وغواياته. كما يظهر في الصورة أيضاً الحمامة، رمز حلول الروح القدس في المسحة المقدسة، ثم شجرة حاملة الثمار إشارة إلى الإفخارستيا التي سيشترك فيها المعمَّد عقب خروجه متوجهاً إلى الكنيسة. وهكذا انجمع في رسم واحد كل ممارسات طقس المعمودية.

كذلك، من الزخارف التي كانت تزين حوائط المعموديات: الطاووس الذي يرمز للخلود وللقيامة والحياة الأبدية، الفُلْك الذي يمثل الكنيسة كوسيلة النجاة والخلاص، داود وانتصاره على جليات الجبار.

وبإيجاز، يمكن القول إن المنهج الزخرفي في المعموديات يقدم لنا:

١ - أهم مواسم التعميد كانت عشية عيد القيامة وأحد العنصرة. فبعد القراءات التي يُسمح للموعوظين بحضورها، يتوجهون إلى المعمودية مرتِّلين مزمور ٤٢.

٢ - جحد الشيطان ومسحة الإكسورسزم بيد الأسقف أو من يفوضه لإجرائها.

٣ - زخرفة المبنى بصورة تعميد السيد المسيح نراه واقفاً في الأردن والماء إلى ركبتيه، وق. يوحنا المعمدان يضع يده على رأسه. وهذا يعكس الترتيب المعاصر في القرون المسيحية الأولى.

٤ - عودة المعمَّدين الجدد مرة أخرى إلى الكنيسة للتناول من الإفخارستيا كان يصاحبه ترتيل

مزمور ٢٣، وعبارة: «مسحتَ بالدهن رأسي» تشير للمسحة المقدسة، والثانية: «ترتّب قدامي مائدة» توحي بمائدة الإفخارستيا. وينتهي الاحتفال بكأس اللبن والعسل، كما في طقس الإسكندرية وروما وشمال إفريقيا، ويعنى الدخول إلى أرض الميعاد[٢٤].

وهكذا رأينا كيف أن كمَّ المعلومات الأثرية قد أثرى معرفتنا بأهمية المدخل إلى المسيحية عن طريق المعمودية. فالتشكيل المعماري مع شكل الجرن وعناصر التزيين والزخرفة تشرح بمجتمعة إخلاص الكنيسة لتعاليم العهد الجديد الذي يتمحور حول موت المؤمنين وقيامتهم مع المسيح. جرن المعمودية يعيننا على فهم الأسلوب العملي للسرّ، والحجرات الملحقة مع قربها من هيكل الكنيسة تؤكد أن غاية المعمودية هي الشركة بالرب والاتحاد به في الإفخارستيا. وعظمة وغنى التنظيم الإنشائي لمباني المعمودية في العصور المسيحية الأولى يعلو فوق كل جدال، ولكنه لم يكن مقصوداً لذاته بل هو انعكاس لتقييم الكنيسة لهذا السر.

وفي ختام هذا البحث يمكن القول بنوع من الجسارة إنه أمكن للحجارة أن تنطق بعظمة هذا السرّ.



(٢٤) تث ١١:٩.

يُطلب من

دار مجلة مرقس

القاهرة: ٥٠ " أ " شارع شبرا ــ تليفون رقم ٥٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ١٣ شارع الشهداء بالمنشية تليفون رقم ٤٨٤٠١١٠

وجميع المكتبات المسيحية